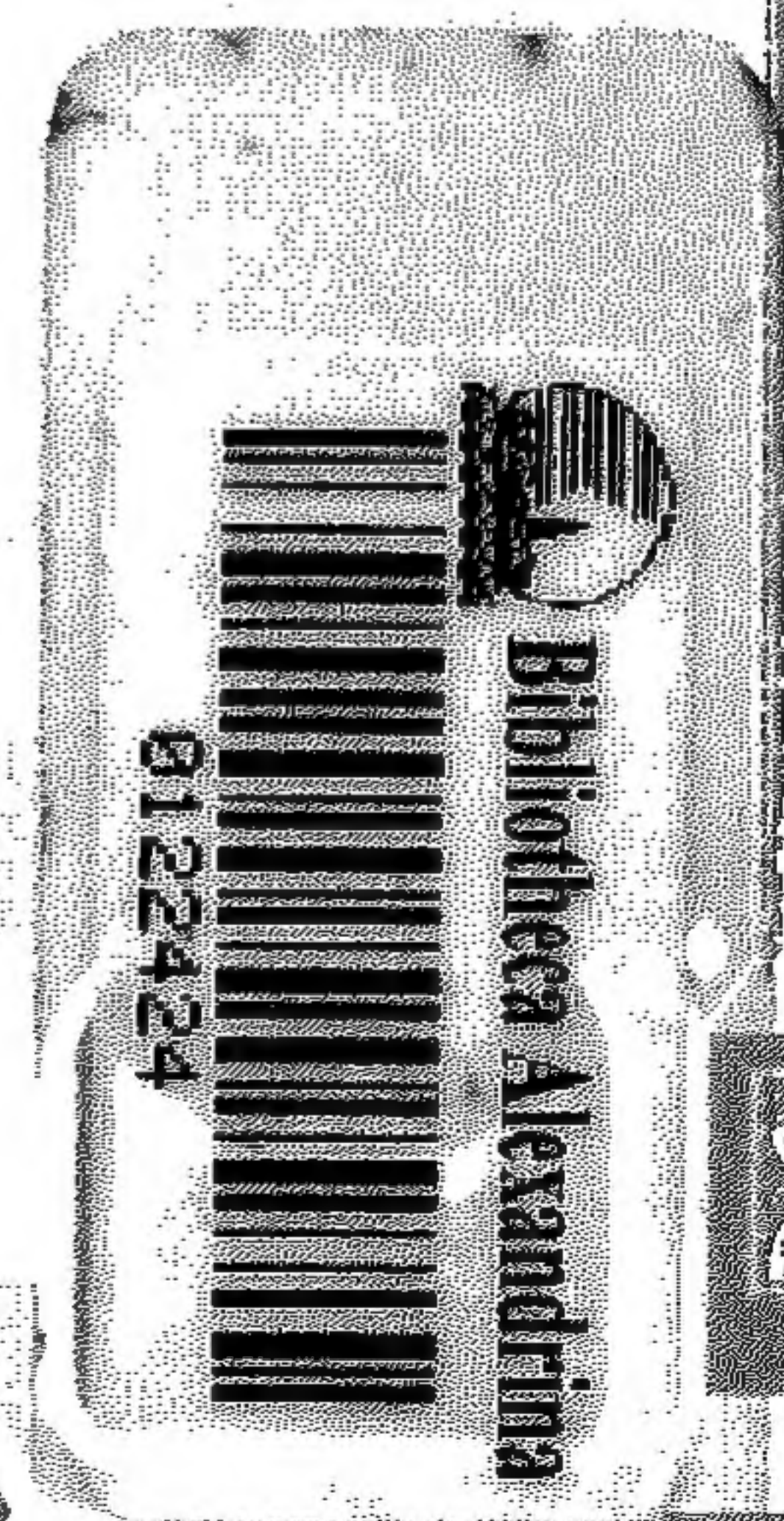


محمود سبلي

حياة البراءة

دار الجيد
بيروت - لبنان



محمود سبلي

حياة ابراهيم

دار الجيد
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الاهتداء

الاسم منك واليك

محمد شلبي

بين يدي هذه الطبعة

ليت الناس.. جميعاً.. يقرءون «حياة ابراهيم»..
ليتهم يفعلون.. اذن لاستطاعوا أن يدركوا عن أعظم شخصية في البشر ما لم يكونوا يدركون..
ولقد كنت أظن، كما يظنون... ان ابراهيم شيئاً يسيراً..
فما أن خطوت إلى ساحته حتى انكشف العطاء أمامي كثيراً...
فأدركت.. يا ذن الله.. ما لم أك أدرك من الرجل..
أدركت أنه إمام الناس جميعاً الى يوم القيامة
وأدركت أنه قدوة الأنبياء والمرسلين..
وأدركت أنه أفضل الأنبياء جميعاً باستثناء.. محمد ﷺ..
وأدركت أنه الذي اثنى عليه ربه في خمسة وثلاثين موضعاً في كتابه الكريم..
وأدركت أنه الذي ابتلى بما لم يبتلي به أحد من العالمين..
حين أمر بدبح وحيد، فذهب... وذبح... لولا أن ناداه رب العالمين...
وأدركت أنه الشخصية التي تدرجت في الوصول الى ربه... في مدارج الوصول كلها... من العقل... الى الكشف... الى البلاغ.. الى الهجرة... الى تأسيس الدعوة..
ثم الى امامة الناس جميعاً..
وأدركت لماذا جعل الله البيت الذي رفع قواعده ابراهيم بمكة أفضل بيت لله في أرضه الى يوم الدين..
وأدركت لماذا جعل الله المواضع التي اختبر الله ابراهيم فيها، مناسك، وفرائض على الناس إلى يوم القيامة؟
وأدركت أن ابراهيم كان أمة... كما وصفه ربه..
وأدركت لماذا اتخذه الله خليلاً؟
وأدركت لماذا جعل الله في ذريته النبوة والحكم والكتاب؟
وأدركت لماذا قال فيه ربه «إذ جاء ربه بقلب سليم»؟
وأدركت كيف كان حين أوثقوه، وألقوه في النار وحيداً؟
وأدركت لماذا رفض ابراهيم العون من جبريل حين عرض له وهو يلقي إلى الجحيم.
وأدركت لماذا أمر الله تعالى محمداً ﷺ، وهو امام الخلق اجمعين، باتباع ملة ابراهيم؟
وأدركت ما هي ملة ابراهيم هذه التي أمرنا جميعاً باتباعها؟
وأدركت لماذا سمى الله دين ابراهيم أحسن الأديان، وسمى ملته أحسن الملل؟
وأدركت لماذا ارتفع ابراهيم الى ذلك المقام الذي رفعه الله اليه؟
وأدركت شيئاً عن ذلك المقام «إذ قال له ربه. أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين»..
وأدركت لماذا سماه محمد ﷺ حير البرية؟
وأدركت... وأدركت... وأدركت..
وما أدركت.. حتى الآن.. شيئاً عن ابراهيم!!
وانما استطعت بعد ذلك كله أن أقف على مكان عال، أستطيع منه أن أبصر ابراهيم وهو يتشرق على العالم... ويلقي أضواءه العظيمة في الآفاق...
أما حقيقة ذلك النور... فذلك شيء لا يستطيع الوصول اليه...
بأن ابراهيم اتخذه الله خليلاً..
فمن ذا الذي يستطيع ان يرتفع اليه؟!
وأشهد... انني بإدانة النظر الي ابراهيم... وأنا أكتب ذلك الكتاب...
قد ازددت هدى... وازددت علماً.. وازددت نوراً..
وأشهد... أنني... خلال سبحي مع ابراهيم...
قد علمت السبيل الى التوحيد الصحيح.. الذي لا عوج فيه.
وأشهد... بعد ذلك كله... أن لا إله الا الله..
وأقول... بعد ذلك كله... اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.. كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم... وبارك على محمد وعلى آل محمد.. كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم...
وأقول... في نهاية ذلك كله...
سلام على ابراهيم... سلام على ابراهيم... سلام على ابراهيم..

ذاك ابراهيم ؟

[قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خَيْرَ البرية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاك إبراهيم »] .

[أخرجه أبو داود]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

شخصية عجيبة ... ذلك الذى نقرأ عنه فى هذا الكتاب .
إنه إبراهيم؟!
أبو الأنبياء ، و خليل الله ، والذى أمرنا جميعاً باتباع ملته !!!
يتنازعه العالم كله ...
كل يريد أن يزعمه لنفسه خاصة دون سواه ...
اليهود يريدونه لأنفسهم ، حتى إنهم ليسمون أبناءهم باسمه كبيراً!
والمسيحيون يحبونه حباً شديداً ، فهو جد المسيح ...
والمسلمون أشد الناس حباً لإبراهيم ، فهو جد نبيهم كذلك ... وهم مأمورون جميعاً
باتباع ملته !!
وقد لا تجد رسولا يجمع عليه أهل الأديان السماوية ... مثل إبراهيم !
إنهم يختلفون فى محمد صلى الله عليه وسلم ... وفى موسى صلى الله عليه وسلم ... وفى
عيسى صلى الله عليه وسلم ...
إلا إبراهيم ... صلى الله عليه وسلم ... فهم عليه مجمعون !!
بأنه أصل الشجرة الطيبة ... شجرة النبوة ...
إليه ينتهى نسب الانبياء جميعاً من بعده ...
وبأنه إمام الناس جميعاً ... ما من نبي جاء من بعده إلا دعا إلى مثل ما دعا إبراهيم إليه ...
ألم يقل الله تعالى له : « إني جاعلك للناس إماما » ؟!
وبأنه صاحب الأسلوب الصحيح المؤدى إلى الله مباشرة ...
أسلوب التوجه المباشر إلى الله ... دون وساطة ... أو كهوتية ... أو شفاعة ...
أو التواضع ...

« ونادينه أن : يا إبراهيمُ قد صدقتَ الرؤيا ... »
وأعفاه الله من ذبح ابنه ... بعد ما تبين صدقه !!!
ولو لم يكن في حياة إبراهيم إلا هذه الواقعة ، لكانت حسيبه أن تسجل له أعظم
البطولات البشرية على الإطلاق !!!
فكيف وهو صاحب الأحداث الكبار طيلة حياته الكريمة المباركة ؟!
سوف تقرأ في هذا الكتاب جديداً عن ذلك النبي الكريم ...
سوف تُعرض عليك حياته عرضاً جميلاً يأخذ بالقلوب ...
فلا أكاذيب ولا تهاويل ... ولكن الصدق من أمره ، كما نزل به كتاب الله
الكريم ، وجاءت به أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ...
ها الأَصْلان العظيمان ، اللذان نرجع إليهما في أمر إبراهيم كله ...
وحياة الأنبياء ليست ملكاً للناس ، يطلقون فيها خيالاتهم وأهواءهم ...
وإنما هم ملك لله أولاً وآخراً ... هو أعلم بهم ... وهو أرسلهم ... وهو تحدث عنهم .
فهو وحده صاحب الحق الأول في الحديث عنهم ...
ورسوله صلى الله عليه وسلم ... هو صاحب الحق الأول في تفسير ما ورد عن أنبياء الله
في كتاب الله ...
ومن هنا ... كان لازماً ... وحتماً ... أن نرجع إلى كتاب الله في أمر إبراهيم ...
وإلى صحاح أحاديث رسول الله ... في بيان ذلك الأمر ...
ولا نلتفت بعد ذلك إلى تلك الأقاصيص ... التي ملأت التاريخ عن إبراهيم ...
ما لم يكن لها أصل في كتاب الله ، أو حديث رسوله ...
نريد بذلك أن يكون ذلك الكتاب من « حياة إبراهيم » صدقاً وحقاً ...
نرجو بذلك أن يكون عند الله مرضياً ...
وعند رسوله مرضياً ...
وعند إبراهيم كذلك مرضياً ...

ويومُ شرق حقيقة إبراهيم على الناس ، كما خلقها الله ، وأنزلها في كتابه ...
يومئذ يجد الناس جميعاً فيه الشخصية التي تهديهم إلى ربهم ، وتخرجهم من الظلمات
إلى النور ...

ولست أريد بالكتابة عن إبراهيم ذلك المنهج التافه ، الذي يسلكه كثير من الناس
حين يكتبون عن الأنبياء ...

ويسوقون حياتهم على أنها مجرد حوادث مرصوفة ، مرتبة ترتيباً تاريخياً !!
كلا ... فذلك أطفه ما في حياة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
إنما الرسل حقائق عليا ... نزلت في الناس تهديهم سواء السبيل ...
وهذا هو الجانب الذي يجب أن يحل للناس ...
يجب أن يغوص العلماء إلى ما يستطيعون من أعماق شخصيات الأنبياء ...
ويرفعوا مفاهيم الناس إلى تلك الحقائق ... لتستثير بها بصائرهم ... ويستبينوا سبل
الرشاد .

أما أن نقول للناس : في يوم كذا ولد النبي الفلاني ، وفي يوم كذا بعث ، وفي يوم
كذا هاجر ... وكان من شأنه حوادث كذا وكذا ...
فذلك شيء قد يصلح للأطفال ، ولكنه دون ما ينبغي أن يقدم للذين يريدون
الاسترشاد بالرسل والأنبياء ...

ولقد أخذت نفسي في هذا الكتاب ، أن أقدم فيه « حياة إبراهيم » من جانبيها ...
جانب الحوادث والتاريخ ثم اركز تركيزاً هائلاً على إشعاعات النور ، التي تتلألأ من حقيقة
شخصيته الكبرى ...

لعل بذلك أكون قد أتيت بجديد ... يفيد ... ولا يعيد ..
ولعل الذين يقرءون ذلك الكتاب عن « إبراهيم » يشعرون أنهم أفادوا عنه شيئاً
جديداً ...

ومن هنا أمر سيد الرسل باتباع أسلوبه ، فقال الله تعالى له : « فاتبع ملة إبراهيم حنيفا » ... أى اسلك مسلكه ، وانهج نهجه ... وصر على أسلوبه !!!
لماذا ؟ ...

لأن هذا الأسلوب ، هو أعلى أساليب التوجه إلى الله ...
وكل أسلوب سواه ... لا يؤدي إلى الله ...
ومن هنا صعد إبراهيم عليه السلام ... إلى مقام إمامة الناس جميعاً ... إلى ربهم !
ولقد ابتلاه ربه بأعجب ما ابتلى به نبي ...
فأتم إبراهيم ما ابتلى به ، وأداها على أكمل وجه ...
فكان حقيقة أن يرتفع إلى مقام « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » !!
ونجح إبراهيم ... فى كل تجربة دخلها فى سبيل الله ...
وسجل الله تبارك وتعالى له ذلك فقال : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن »
قال : إني جاعلك للناس إماماً » ...

استحق الإمامة بنجاحه فى التجارب التى مر عليها ...
لقد دفع الثمن من صميم كيانه ، وأعماق فؤاده ...
هددوه بالإحراق ... فما ترحزح !
وألقوه فيها ... فما هابها !!
ودخلها ... واستسلم ...
فتدخل الله تبارك وتعالى فى المعركة ... وصدر أمره : يا نار كونى برداً وسلاماً على
إبراهيم !!!

وجاءه الأمر من الله : اذبح ابنك ...
فما تردد ... وما تأخر وأخذه وتله للجهنم ... وأخذ يمر بالسكين على عنقه ليذبحه !!!
فمن الناس يطيق ذلك ؟ !!
لا أحد ... إنه إبراهيم وحده ضاحب ذلك المقام !!

لماذا البراءة؟

مصيبة هذا الإنسان . . . أنه يعيش في مرحلة الحجاب . . .
فهو أعمى لا يتصر ما وراء الحواس ...
أصم لا يسمع ما وراء الماديات . . .
بينما هناك من الحقائق الثابتة وراء هذه المادة ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،
ولا خطر على قلب بشر . . .
ويندفع الإنسان في هذه الحياة ، كما يندفع الأعمى إلى الهاوية ، وهو لا يحس أنه -
يوشك أن يهوى إليها !!
إلا أن الله تعالى الذي خلقه ، ويعلم كيف خلقه ، اقتضت رحمته أن ينقذه من تلك
الهاوية ...
فاختار لذلك أفراداً ، من جنس الإنسان ، ورباهم على عينه ، وأهلهم ليكونوا
رسلاً بينه وبين الناس . . .
يلفغهم ما يريد الله تعالى لهم من الخير والنجاة . . .
فالرسول بذلك رجل يعيش مع الناس في عالم الحجاب ...
إلا أنه يعيش بقلبه في عالم الحقيقة . . .
« قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إليّ »
فهو في الناس بشر ، يباشر مثلهم تجربة الحياة . . .
إلا أنه يوحى إليه . . . يكشف له من عالم الحقائق ما لا يكشف لهم . . .
فهو رحمة لهم . . . يعثها الله إليهم ليصح فكركم عن الحياة . . .
فمن الناس من يستفيد من تلك الرحمة ، ويدخل إليها مستبشراً . . .
ومنهم من يصر على أن يعيش أعمى وأن يتردى في الهاوية !!

من أجل ذلك كان الرسل . .
 ومن أجل ذلك كان إبراهيم . .
 ومن هنا كانت تلك العجائب من إبراهيم . .
 يدعوه إلى الله . . : لأنه يراه . .
 وهم يتكبرون أن يكون هناك إله . . لأنهم عى لا يرونه !!
 ويدعوه إلى التوجه إلى الله مباشرة . . لأنه يرى أن ذلك هو الأسلوب الحق . .
 وهم يرون أن يتوجهوا أولاً إلى أصنامهم ، لتصلهم بالله بعد ذلك !!
 ويدعو أباه إلى الله ، وإلى نبذ هذه الأصنام التى يصنعها ويحترفها . .
 وأبوه يصد ، ويغضب ، لأنه أعمى !!
 إلى آخر . . تلك المتناقضات التى كانت بين الرجل ، وبين قومه !!
 هو رجل كشف الله له الحق . . وهم قوم عى لا يبصرون . .
 فاستحال اللقاء بينهما !!
 وتلك مصيبة هذا الإنسان دائماً . .
 وسوف تظل مصيبته هذه قائمة إلى يوم القيامة . .
 أعداد من البشر هائلة تعيش محجوبة عن الحق . .
 يدعوها أنبياء الله إلى التصديق بذلك الحق الذى هو وراء هذه المادة . .
 إلا أنهم جميعاً لا يصدقون . .
 جميعاً يكفرون . . إلا الذين آمنوا بالغيب . . وقليل ما هم !!
 فان قيل : لماذا إبراهيم ؟
 قلنا : ليكون للناس اماماً . . يرشدهم ، ويهديهم باذن ربهم الى صراط مستقيم !

حياة ابراهيم ؟

ولد في العاصفة !؟

في العراق . . في أرض بابل . . في عهد ملك طاغية . . اسمه النمرود . .
في قوم انتشرت فيهم عبادة الأصنام
في زمان . . يرجع الى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد . . أي منذ نحو أربعة آلاف سنة .
في قوم كان المنجمون أو أصحاب النجوم . . أو علماء الفلك ، الذين يستدلون على
الحوادث بالنظر في النجوم . . .
كانوا أولى سطوة وقربى من الملك ، وأصحاب السلطان . . .
كيف لا . . . وهم أعرف الناس بأحوال الآلهة . . . بأحوال النجوم . . . وأعلمهم
بما تنوى تلك الآلهة أن تحدث في العالمين ! ! ؟
وجاء أصحاب النجوم الى الملك . . الى نمرود . . ينبثوته بأمر عجيب ! !
قالوا : انا نجد غلاما يولد في قريتك هذه يقال له ابراهيم ، يفارق دينكم ، ويكسر
أصنامكم ، في شهر كذا ، من سنة كذا . .
ورعب الملك . . . وقرر قرارا خطيرا . . .
فلما دخلت السنة التي ذكروا ، حبس « نمرود » الحبالى عنده . . .
الا أم ابراهيم ، فانه لم يعلم بحملها ، لأنه لم يظهر عليها أثره !
فدبح كل غلام ولد في ذلك الوقت ! ! !
فلما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة ، كانت قرية منها
فولدت ابراهيم ! !
وأصلحت من شأنه ، ما يصنع بالمولود ، ثم . . . عليه المغارة ! !

ثم سعت الى بيتها راجعة . . .
 ثم كانت تطالعه ، لتتظر ما فعل ، وكانت تجده حيا ، يمس ابهامه !!
 كان ذلك بعلم أبيه . . . الا أنه هو الآخر كتم ذلك الأمر ، . حتى نسي الملك
 الطاغية ذكر ذلك . . .

وهكذا ولد ابراهيم . . . في العاصفة . . .
 ان المواليد الذكور جميعا يذبحون بمجرد ولادتهم . . .
 بينما هو وحده ينجو من ذلك الذبح . . .

آزر

كان عمر « آزر » خمسا وسبعين سنة حين ولد له ابراهيم . . .
 وان لآزر هذا المواقف سوف نشهدها مع ابنه ابراهيم . . .
 ولقد مات آزر - والد ابراهيم - من بعد وله مائتان وخمسون سنة !
 ولقد كان آزر سيد قبيلة أور في بلاد بابل . . . يرجعون اليه في شئون دنياهم . . .
 كما كان يتزعمهم في شئون دينهم ، ويقودهم في عبادة أصنامهم . . .
 ولقد جعلته تلك الظروف منتحيا للآلهة ، يبيعها لقبيلته ، ولغيرهم ، ويربح من ورائها
 مبالغ طائلة !!

كان آزر بجارا ، ينحت الأصنام ، وينتجها ، ويبيعها للناس !!!

أب يصنع الآلهة

وابن يسخر من الآلهة !؟

ولا شك أن صناعة كهذه ، في قوم انتشر فيهم عبادة الأصنام ، تكون صناعة رائجة
 قدر أرباحا وافرة . . . خاصة اذا كان بائعها زعيما في قبيلته . . . يهابه الجميع !!
 ولقد كان ظن آزر حين رزق بولد سماه ابراهيم ، بأن يعينه ذلك الولد على صناعته
 ويرث عنه تلك الصناعة ،

وأن يكون من بعده زعيما . . . اقومه في دنياهم ، ودينهم . . . كما كان أبوه !!
ولكن الذى حدث هو العكس . . .

كان آزر يصنع تلك الأصنام ، ويعطيها ابراهيم ليبيعها . .
فكان ابراهيم يقول : من يشتري مالا يضره ولا ينفعه ؟!
فلا يشتريها منه أحد !!
بل أبعد من ذلك . . .

كان ابراهيم بدلا من أن يذهب بها الى السوق ، يروج لبيعها . . .
ينطلق بها الى نهر فيصوب رؤوسها فيه ويقول : اشربى !
استهزاء بقومه . . . حتى فشا ذلك عنه في قومه . . . غير أنه لم يبلغ خبره نمرود .
ان ابراهيم يواجه وهو في طفولته هذه المتناقضات . . .
ان عقلة الممتاز لا يقبل أن يكون لهذه الأصنام شأن في الحوادث يذكر . . .
بينما أبوه آزر يتزعم قومه على أساس من تلك العقيدة ويحترف لذلك صناعة تلك الأصنام .
ومن هنا تفتح لنا أبواب شخصية ابراهيم . . .
الباب الأول . . . أنه ولد في فترة عصيبة . . .
المواليد المذكور جميعا يذبحون . . . وهو وحده الذى يفلت بأعجوبة من هذا الذبح . . .
ولا شك أن أمه حدثته عن ظروف ولادته ، وكيف أنها خبأتها في تلك المغارة ،
حتى لا يذبح كالذين ذبحوا . . .

والباب الثانى . . . هذا التناقض في حياته العائلية . . .

فهو طفل برىء ، على القطرة السليمة ، يدرك بحاسته الطاهرة أن هذه الأصنام التى
يصنعها أبوه هى مجرد قطع من حجارة أو خشب . . . وأنها لا تستحق أن تعبد ، أو أن
ترجى ، أو أن توسط بين الناس وبين آلهتهم . . .
في نفس الوقت نجد أياه « آزر » ليس فقط يعبد هذه الأصنام كسائر الناس . . . بل
هو يصنعها ويتعيش منها ، ويتزعم قومه في عبادتها وأداء طقوسها !!

هناك اذاً تناقض بين باطن إبراهيم ، المستقيم ، الكريم .. الطيب وبين الواقع
الذي يعيش فيه ...

فهو في أسرة وثنية ... الأب يعبد الأصنام ... ويصنع الأصنام ... ويتزعم عبادة
الأصنام ...

فهو أب على الغاية من الجهالة والضلالة ... ولو كان يعقل لأدرك أن هذه الأصنام
لا ينبغي أن تعبد ، بدليل أنه هو يصنعها ، وينحتها بيده !!
وطفل يحس في أعماقه أن هذا كله باطل ...

وأن هناك شيئاً وراء ذلك كله ... شيئاً يجب أن يبحث عنه ... وأن يتعرف إليه ...

البحث في المكوت ؟

وسوف نرى أن طفولة إبراهيم كانت ناضجة نضجاً مبكراً ...

وأنه كان شديد البغض لاتجاه أبيه آزر ، ولصناعته ، ولعقيدته ...

وأن هذا البغض كان من أكبر الأسباب التي دفعته إلى البحث عن الحقيقة ...

قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟ ! إني أراك

وقومك في ضلال مبين » . [الأنعام ٧٤]

واضح جداً في ذلك السؤال مدني ما يشعر به الفتى من مرارة سلوك أبيه ...

أبتخذ أصناماً آلهة !!

كيف تتخذ هذه الأصنام ، ثم كيف تنحتها بيدك ، ثم كيف يصل عقلك أن تعبد

شيئاً أنت تنحته بيدك ؟ !

ثم يلقيها في وجه أبيه صريحة : إني أراك وقومك في ضلال مبين .

أي انحراف ظاهر لا اشتباه فيه ...

فإن من يعبد حجارة منحوتة أو خشباً مصنوعاً ، ضال واضح الضلال ...

وهكذا فاجأ أباه برأيه فيه بصراحة ، وفاجأه برأيه في المجتمع كله بصراحة ...

أراك وقومك ... أنت والمجتمع كله ... منحرفون ... انحرافاً واضحاً !!!

وإلى هنا كانت غربة إبراهيم قد تمت ...
لقد انزل عن أبيه ... وانزل عن مجتمعه كله ...
إنهم جميعاً في جانب ... وهو وحده في جانب آخر ...
ومتى ؟

وهو في طفولته !!!

يتلى بهذه الغربة !!!

طفل ... يبحث عن ربه ؟

ثم يقول الله تعالى مباشرة بعد تلك الآية : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت
السموات والأرض وليكون من الموقنين » . [الأنعام ٧٥]

« وكذلك نرى إبراهيم » أى ذلك التبصير البديع نبصره .
« ملكوت السموات والأرض » أى ربوبيته تعالى ومالكيته لهما ، لا تبصير آخر
أوفى منه .

فالملكوت مصدر كالرغبت والرغبت ، ولهذا فسر بالملك العظيم ، والسلطان القاهر .
وقيل : المراد بالملكوت الآيات .

وقيل : العجائب التى فى السموات والأرض ، فانه عليه السلام ، فرجت له السموات
فنظر الى ما فيهن ، حتى انتهى بصره الى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع فنظر الى
ما فيهن .

وقيل : ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم .
وملكوت الأرض الجبال والأشجار والبحار .

قالوا : وهذه الأقوال لا تقتضى أن تكون الإراءة بصرية ، إذ ليس المراد براءة
ما ذكر من الامور الحسية ، مجرد تمكنه من ابصارها ومشاهدتها فى أنفسها ، بل اطلاعه
على حقائقها ، وتعريفها ، من حيث دلالتها على شؤونه عز وجل ، ولا ريب فى أن ذلك
ليس مما يدرك حساً ، كما بنىء عنه التشبيه السابق .

« وليكون من الموقنين » أى من زمرة الراسخين فى الإيقان ، البالغين درجة عين اليقين ، من معرفة الله تعالى ،

أى وليكون كذلك فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور .

والحصر باعتبار أن هذا الكون هو المقصود .

أى ليستدل ، وليكون من الموقنين .

ان ابراهيم قد دخل مرحلة جديدة ... هى مرحلة الكشف الغام للملكوت ...

ان الله تعالى كشف له الغطاء ... فرأى ملكوت السماوات والأرض ، على حقيقتها

نما فيها ، ومن فيها ، وكيفية ما يجرى فيها !!!

ولكن متى تم له ذلك ؟

ومتى تفضل الله تعالى عليه بذلك المقام ؟

بعد أن اجتاز مرحلة التجارب ... مرحلة البحث بعقله عن الحقيقة ...

هذا ربي ١٢

ثم يقول سبحانه وتعالى بعد تلك الآية مباشرة ... ليبين لنا كيف تدرج ابراهيم فى معرفة الله ... وكيف اجتاز مرحلة البحث العقلى ... حتى انتهى الى مرحلة الكشف القلبي ... : « فلما جنَّ عليه الليلُ ، رأى كوكبًا ، قال : هذا ربِّي ؟ فلما أَفَلَ ، قال : لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » .

[الأنعام ٧٦]

« فلما جن عليه الليل » فلما ستره الليل بظلامه .

« رأى كوكبًا » قيل أنه المشتري ، وقيل أنه الزهرة .

المهم أنه كوكب ما ... من تلك الكواكب التى تملأ السماء ...

« قال هذا ربي » كان ذلك من ابراهيم قبل البلوغ ...

انها مرحلة طفولة ... تبحث عن الحقيقة ...

انه ظن أن هذا الكوكب المنير هو ربه ...

« فلما أفل » أى غرب .
 « قال لا أحب الآفلين » لا أحب عبادة الآفلين ، أى الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان ، المتغيرين من حال إلى حال .
 ونقى المحبة اشارة الى نقي اعتقاد الربوبية ...
 هذه مرحلة ... مر عليها الطفل إبراهيم ...
 انه كان يعتزل أباه ، ويعتزل مجتمعه ...
 ويخرج وحيداً ... فى هدوء الليل ، وسكونه ...
 يتفكر فى ملكوت السموات والأرض ...
 ولاحظ فى نظره الى السماء ، أن هناك كوكباً أكثر اضاءة من غيره ... فاقترص أن يكون هذا هو ربه ...
 الا أنه لاحظ فى تلك الليالى التى كان يخرج فيها للتفكر أن هذا الكوكب يغرب ويختفى من الأفق ...
 فلما لاحظ أنه يأفل قال : لا أحب الآفلين .
 لا يمكن أن يكون هذا الكوكب رباً ، لأنه يغرب ، ويختفى ، والرب يجب ألا يغرب وألا يختفى .

فلما رأى القمر ؟

وكانت المرحلة الثانية ... أن تحول الغلام إبراهيم الى القمر ...
 وفى ليلة من الليالى التى يخرج فيها إبراهيم للتفكر فى ملكوت السموات والارض .. حدث ما قصه الله تعالى ...
 « فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : انى لم يهتدنى ربى لا كونى من القويم الضالين » .
 [الأنعام ٧٧]
 « فلما رأى القمر بازغاً » أى مبتدأ فى الطلوع ، منتشر الضوء ،

مأخوذ من البرغ ، وهو الشق ، كأنه بنوره ، يشق الظلمة شقا .
 « قال : هذا ربي » هذا القمر ربي .
 « فلما أفل » فلما غرب كما غرب الكوكب .
 « قال : لئن لم يهدي ربي » لئن لم يتفضل عليّ ربي بالهدى ، لئن لم يستنقذني ربي
 من هذبة الحيرة ..
 « لأكونن من القوم الضالين » فان شيئا منها لا يصلح للربوبية .
 إن الطفل إبراهيم حائر ...
 إنه يريد أن يعرف : أين الله ؟ !
 إن هذا القمر لا يصلح أن يكون ربا ... إنه يغرب ، ويختفي كما يختفي الكوكب ..
 إنه حائر ... شديد الحيرة ... وتلمس حيرته تلك في قوله : « لئن لم يهدي ربي ،
 لأكونن من القوم الضالين » ..
 تعبير ... يتحدث به نفسه ... إلا أنه يكشف عن مدى حيرته ... ومدى التجائه
 إلى الله ... رغم أنه لم يصل إليه بعد ... إلا أنه يشعر في باطنه أنه لابد هناك من رب !!
 ولكن من هو ، وكيف هو ؟ ...
 فذلك ، لم يصل إليه بعد ...
 إنه مازال يبحث ...

هذا ربي ؟ ... هذا أكبر ؟

ثم يقص علينا تبارك وتعالى المرحلة الثالثة فيقول : « فلما رأى الشمس بازغة
 قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون »

[الانعام ٧٨]

« فلما رأى الشمس بازغة » أي مبتدأة في الطلوع ، أي تشرق ...

« قال » على المنوال السابق .

« هذا ربي » إشارة إلى الجرم المشاهد ... إلى الشمس ...

« هذا أكبر » بيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر
« فلما أفلت » غربت كما غرب من قبلها .
« قال » لقومه ، صادحا بالحق بين ظهرائهم .
« يا قوم انى برىء مما تشركون » أى من اشراككم .
أى من الذى تشركونه من الاجرام المحدثه المتغيرة ، من حال الى أخرى ،
المسخرة لمحدثها .

هذه هى المراحل التجريبية التى مر عليها ابراهيم فى طفولته ...
الكوكب ... ثم القمر ... ثم الشمس ...
ثم تبين له أنها كلها لا تصلح أن تكون آلهة .. لأنها تغرب .. تبدو أخيانا ..
وتختفى أخرى ..

والالوهية تستلزم أن تكون ثابتة ..
وكان يخرج .. للبحث عن ربه .. ليالى طويلة .. وأياما ..
فلما استنفد طاقاته كلها ... وعجزت وسائله العقلية المحدودة عن الوصول الى الحقيقة ..
ولما أعلن عجزه ... واتجه الى الله بقلبه ، سائلا إياه أن يهديه الى الحق بقوله : لئن
لم يهدنى ربى لا كونن من القوم الضالين ...
ولما أعلن كفره بكل شيء سوى الله ...
وتبرأ من كل شيء الا من الله بقوله : يا قوم انى برىء مما تشركون ...
هنالك .. تفضل الله تعالى عليه بتحقيق قوله تعالى : « وكذلك نرى ابراهيم
ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين » ...
هنالك كشف الله تعالى له الغطاء ...

وأراه تعالى ما هو أكبر من الكوكب ، وأكبر من القمر ، وأكبر من الشمس .
أراه الملكوت كله ... السماوات والارض بما فيها من عجائب وعرائب وأسرار ...
هنالك بدأت نبوة ابراهيم — عليه السلام —

لقد كشف الله تعالى له عن ملكوت السموات والارض ...
وأراه عجائبها ، وأسرارها ، وأجرامها ... وكل ما فيها ...
لقد بدأت النبوة ...
هنالك لم يعد ابراهيم في حاجة الى تلك الوسائل العقلية القاصرة ...
لم يعد في حاجة الى العقل ، ولا الى المنطق ، ولا الى الإستدلال ...
انه الآن يشهد
يشهد ملكوت السموات والارض شهودا ما بعده من شهود ...
فلا شيء فيها يغيب عنه ...
انه في مرحلة عين اليقين
انه يشهد أن هذه السموات والأرض ، وما فيها من عجائب ... إنما يديرها شيء
آخر ... أكبر وأعظم منها ... شيء فوق العزّل ... وفوق السموات ، والأرض ...
ومن فيهن ...
لقد آتاه الله رشده ...
وكان الفتى أهلا لذلك ...

وكنّا به عالمين ١٤

قال تعالى : « ولقد آتينا ابراهيم دُشْدَهُ من قَبْلُ وَكُنَّا به عَالِمِينَ » .

[الأنبياء ٥١]

« ولقد آتينا ابراهيم رشده » أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو
الرشد الكامل .

أعني الإهتداء الى وجوه الصلاح في الدين والدنيا ، والإرشاد بالنواميس الإلهية

« من قَبْلُ » من قَبْلُ لبلاغ .

أو من قَبْلُ محمد صلى الله عليه وسلم .

« وكنا به عالمين » أى بأحواله ، وما فيه من الكمالات .

أَوْ بَأَنَّهُ أَهْلُ الْمَقَامِ الَّذِي رَفَعْنَاهُ إِلَيْهِ ...

الفتى... إبراهيم... يبدأ المعركة؟

وعلى الفور ... ما إن هداه الله تعالى إليه ...

ما ان عرف الحقيقة...

ما ان أيقن أن هذه الاصنام باطلة وأن عبادة هذه النجوم وهذه الكواكب باطلة ...

وإن الله وحده هو الحق ... وهو الذي ينبغي أن يتوجه الإنسان إليه ...

ما إن وضحت تلك المعالم في نفسه ... وأراه الله تعالى دليلها اليقيني ، حين أراه

ملکوت السموات والأرض...

ما ان قامت تلك المعانى بقلبه ... حتى بدأ المعركة ...

وحدہ... ضد الناس جميعا...

فیالہ من مقام !!!

وأعلنها إبراهيم : يا قوم ، انى بوى ، مما تشركون .

أنا بريء من كل شيء سوى الله...

هذه الأشياء التي تشركون مع الله أنا بريء منها ...

انی وجہت وجہی ۱۴

ثم يقول تبارك وتعالى ... مينا لنا ماذا قال القتي ابراهيم لقومه ، ولايه ،

والناس جميعا...

« أَنَّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ »

[الانعام ٧٩]

المشركين»

« انى وجهت وجهى » المراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة .

وقيل : المراد وجهت عبادتى ومطاعتى .

« للذى فطر » أوجد وأنشأ .

« السماوات » التى هذه الاجرام من كواكب ونجوم من أجزائها .

« والأرض » التى تلك الأصنام من أجزائها .

« حنيفا » مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها .

« وما أنا من المشركين » أصلا فى شيء من الأقوال والأفعال .

وأعلن الطفل ابراهيم براءته من عبادة الكواكب والنجوم ...

فانه قد حاول أن يتخذ منها ربا فلم تصلح ...

فلا الكواكب ، ولا القمر ، ولا الشمس بمستطاعة أن تكون له ربا ... لأنها كلها

تغيب ... والرب لا يغيب ...

كما أعلن براءته من عبادة الأصنام ... لأنها جمادات حقيرة ... ينحتها الناس

بأيديهم ...

واتجه الى ما وراء ذلك كله ... الى ما وراء الكون ... ما وراء الطبيعة ... الى الذى

أوجد وأنشأ كل هذا ...

انى وجهت وجهى ...

لمن ؟ ...

للذى فطر ... أئى للذى أوجد هذا كله ...

السماوات والأرض ... أوجد كل ما فى هذه السماوات وما فى هذه الأرض ...

حنيفا ... مائلا عن عبادة أى شيء من هذه الماديات ...

انى سأنتجه الى الله مباشرة ... سوف لا ألتفت الى ما سواه ... وسوف لا أشرك فى

عبادته شيئا من هذه الأشياء ...

وما أنا من المشركين !!

الفتى إبراهيم ... يبدأ بأبيه؟

وبدأت المعركة ...

بين القديم والحديث ...

بين الباطل والحق ...

بين الشباب الثائر على أباطيل قومه ، وبين قوم جدوا على عقائد متحفنة ...

بين إبراهيم ... وبين أبيه وقومه أجمعين ...

ودخل الفتى إبراهيم ... المعركة بكل قواه ... وبكل ما فى الشباب من اندفاع وما فى

الحق من ثورة ...

وبدأ الفتى بأبيه ...

ولتسمع الى الله تعالى يقص علينا ما كان بينهما ، من تحاور ...

قال عز من قائل : « واذكُرْ فى الكتابِ إبراهيمَ انه كانَ صديقًا نبيًّا »

[مزم ٤١]

« واذكُرْ فى الكتابِ » فى القرآن

« إبراهيم » أتلى على الناس قصته .

« انه كان صديقًا » ملازم الصدق ، لم يكذب قط .

« نبيًّا » استنبأه الله تعالى

أو كان نبيا فى الصدق ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق .

تلك إحدى صفاته — عليه السلام — العليا صفة الصديقية ...

كان لا يكذب ، ولا يحب الكذب ...

ومن هنا كان كرمه الشديد لما عليه أبوه وقومه من أكاذيب ... وعقائد ملفقة باطلة ...

ثم كانت الصفة العظمى لهذا كله ... صفة النبوة ...

أن الله تعالى اختاره سفيراً بينه وبين الناس ...

وكشف له ما شاء من الغيوب وأطلع على ما شاء من العلوم ، وكلفه ما شاء أن يبلغه للناس .

يا أبت ١٩

ثم قال سبحانه: « اذ قال لأبيه: يا أبت، لم تعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغنى عنك شيئاً. » ١٩ [زم ٤٢]

« اذ قال لأبيه » بدأ بأبيه باعتباره أقرب الناس إليه ...
وباعتباره زعيم قبيلته الديني الذي يتقدمهم في عبادة الأصنام ...
وباعتباره الرجل الذي كان يحب إبراهيم أن يكون هو الذي يرشده الى الحق قبل غيره ...

« يا أبت » أى يا أبى ... فإن التاء عوض عن ياء الأضافة ...

رفيه من الإستعطاف مافيه ...

كما يقول الابن لأبيه فى هذا الزمان « يا بابا »

فيتفتح قلب الوالد لولده سريعاً ...

والتفت آزر ... يسمع ماذا يريد منه إبراهيم ...

فكان الذي يريده إبراهيم مفاجأة للرجل لم يكن يتوقعها ...

كان سؤالاً عجيباً من الفتى ...

« لم تعبد ما لا يسمع » ثناءك عليه عند عبادتك له ، وجؤارك له ١٩ !

« ولا يبصر » خضوعك وخشوعك بين يديه .

أو لا يسمع ، ويبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات .

« ولا يغنى » أى لا يقدر على أن يغنى .

« عنك شيئاً » من الأشياء ، أو شيئاً من الأغنام ١٩ !

لقد كان سؤالاً عجيباً من الابن ...

وكانت صدمة عنيفة أصابت الأب ...

وخيبة أمل كبيرة نزلت به فيما كان يؤمله فى ابنه ...

لقد كان آخر ما يفكر فيه آزر أن يسأله ابنه هذا السؤال الغريب ...

ولكن الفتى قد تحرك ... وفاجأ أباه بسؤاله !!

ولم يقيم وزناً لمقام أبيه ... ولا لزعامته ... ولا لتبته ... ولا لبعيدته ...
وها هو يأتي أباه من صميم كيانه ...
ويهرزه هزاً عنيفاً من أعماقه ...

لماذا يا أبت تعبد ما لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا يفنى عنك شيئاً ؟
لقد خلخل إبراهيم كيان أبيه كله ...
وماذا بقي للرجل بعد ذلك ؟ ...

إن آلهته لا تسمع ولا تبصر ولا تستطيع شيئاً ... فما قيمتها بعد ذلك إذا ؟

إبراهيم يعلن نبوته الى أبيه ؟

ثم يقول تعالى : « يا أبتِ انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك . فاتبعنى ، أهدك
صراطاً سوياً . »
[مريم ٣]

وكانت هذه الصدمة الكبرى لآبيه ...

إن الفتى لم يقف عندما ذهب إليه من سب الآلهة ، ووصفها بالصمم والعمى والعجز
المطلق ...

بل هاهو يزعم زعماً غريزياً ...

انه يزعم أنه نبي ... وأن الله قد أعطاه علماً ليس عند أبيه ! ..

أيعقل هذا ؟

أيعقل أن يكون قتي صغير ، لا خبرة له بالحياة ، ولا خبرة له بشأن من شئونها ،
عنده من العلم ما ليس عند أبيه . ؟

صدمة ... جديدة ... تصيب آزر في ابنه ...

« يا أبت » يا أبى ...

« انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك » دعاة الى أن يتبعه ليهديه الى الحق المبين ...

ولم يسم أباه بالجهل المفترط ... وإن كان في أقصاه ، ولا نفسه بالعلم للفائق وإن كان كذلك .

بل أبرز نفسه في صورة زفيق له يكون أعرف بأحوال الناس كما هو من الطريق ،
فاستماله برفق حيث قال ...

« فاتبعني أهدك ضراطا سنويا » أي مستقيا ، موصلا الى أسنى المطالبات منيها عن
الضلال ، المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب .

وقوله « جاءني » ظاهر في أن المحاورة كانت بعد أن نبي عليه السلام...
والذي جاءه قيل : العلم بما يجب لله تعالى ، وما يتمتع في حقه ، وما يجوز على أم
وجهه وأكله .

فهل قبلت نفس آزر ما يدعو اليه ابنه ؟

كلا ... ان هنا حجباً كثيفة تحول بينه وبين الاستجابة للحق ...

الحجاب الاول : الزعامة ... انه سيد قبيلته ... وكفره بالاصنام سوف يسقط
تلك الزعامة !

الحجاب الثاني : أنه والد لذلك الداعية ... والوضع الطبيعي أن يتبع الابن والده ،
لا أن يتبع الوالد ابنه ... فكيف يتبع آزر هذا الغلام ؟ !

الحجاب الثالث : المنافع التي تعود على الرجل من تلك الزعامة ... والتي سوف
تزول كلها باتباعه لدعوة ابنه ...

الحجاب الرابع : ان الرجل يحترف صناعة الاصنام ... فلا يعقل أن يعمل على
بوار صناعته ...

الحجاب الخامس : الظلام الذي يعيش فيه المجتمع كله ... ولا يعقل أن يخرج
الإنسان عن عادات الناس جميعا ولو كانت باطلة !

الحجاب السادس : التاموس التقليدي الذي يكون دائما بين كل جديد وكل قديم ..
لا هذا يسلّم لذاك ، ولا ذاك يستسلم لهذا ... وإنما صراع شديد بين الاثنين ... حتى يمحو
أحدهما الآخر ...

وحجب أخرى كثيرة ... كانت تحول بين آزر وبين اتباع ابنه ...

ويهدو أن أشق ما أصاب آزر في كبريائه هو قول ابنه ابراهيم له : « فاتبعني » ...
 لقد كان المظنون أن يقولها آزر لإبراهيم باعتباره والد يدعو ولده ويصيره بمسالك الحياة ...
 أما أن يقولها الابن الصغير ، للوالد ، الكبير الخبير ... ، فذلك مالا يقبله منطق ،
 ولا يسلم به انسان !

اسها صواعق ، تنزل متتابعة على آزر ... وصواعق يصوبها اليه أقرب الناس اليه ...
 ابيه ابراهيم ...

يا أبت .. لا تعبد الشيطان ؟

ثم يقول تعالى : « يا أبت ، لا تعبد الشيطان ، انَّ الشيطانَ كانَ للرحمنِ عُصِيًّا »

[مريم ٤٤]

« لا تعبد الشيطان » فان عبادتك الأصنام عبادة له ، اذ هو الذي يسولها لك ،
 ويغري بك عليها .

« ان الشيطان كان للرحمن عصيا » انه مستعصى على من شملتك رحمته ، وعمتك نعمته .
 ولا ريب في أنَّ المطيع للعاصي عاص ، وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم
 وينتقم منه .

وهكذا دخل ابراهيم بأبيه ... في تفاصيل الدعوة ...

ونين له القصة من أولها الى آخرها ...

وأن هناك شيطانا عصى الله تعالى حين أمره بالسجود لآدم ...

وأن هذا الشيطان يعمل ذائبا على اضلال بني آدم ...

وأنه لا ينبغي للإنسان أن يعبد ذلك الشيطان ...

وانما محب عليه أن يعبد الله تعالى ...

فالآية تشير الى أن ابراهيم قد بين لأبيه شيئا من تفاصيل القصة الخالدة ... قصة
 الإنسان والشيطان منذ الأزل ...

اذ لا يعقل أن ينهائهم عن عبادة الشيطان ، دون أن يبين له ماهو هذا الشيطان ، وما هي قصته ...

ولكن الوضع الطبيعي أن يشرح له القصة ...
ثم بعد ذلك يطلب إليه أن يتجنب عبادة ذلك العدو الذي بين له قصته ...
ويشير الى ذلك قوله تعالى « ان الشيطان كان للرحمن عصيا » ... أى أنه كان
وما زال ملعونا عاصيا لله ... للأسباب التي بينتها لك ...

أخاف أن يمسك عذاب ؟

ثم لجأ ابراهيم الى ترهيب أبيه بعد أن رغبه في الهدى ، لعلم الخوف يدفعه الى الله ،
بعد أن فشل الترغيب في دفعه اليه ...

قال تعالى : « يا أبتِ ، ائني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ، فتكون
للسيطان وليا . [مريم : ٤٠]

تحذير من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام ، والخوف توقع المكروه .
وتنوين (عذاب) يحتمل التعظيم والتقليل .
أى أخاف أن يمسك عذاب هائل .
أو أخاف أن يمسك ولو أدنى شيء منه .

« فتكون للشیطان وليا » أى قرينا ، تليه ويليك في العذاب في جهنم .
والولى من الموالاة ، وهى المتابعة والمصادقة .

ان ابراهيم يبين لأبيه أن الأمر جد وليس بالهزل ...
وأنه ان لم يتبع الهدى فان العذاب واقع به لا محالة ...
وهكذا ... فصلت الدعوة بين الابن وأبيه ...
وفرضت على ابراهيم أن يتقف ذلك الموقف من أبيه !!

لأرجنك ١٩

قال تعالى : « أرغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لأن لم تنته لأرجنك ،
واهجرنى ملياً » . [مريم ٤٦]

« قال » أبو إبراهيم مصرا على عناده .
« أرغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم » أرغب أنت عنها ، لا طالب لها ، راغب
فيها . منبها له على الخطأ فى صدوفه .
« لأن لم تنته لأرجنك » والله لأن لم تنته عما أنت عليه ، من النهى عن عبادتها ،
والدعوة إلى مادتوتى إليه ، لأرجنك بالحجارة
وقيل : باللسان ، والمراد لأشتمنك .
« واهجرنى » فاحترنى واتركنى « ملياً » أى دهرًا طويلًا .

وقيل : أبدا .

وقيل : طويلا .

يا للموقف !!!

ان ابراهيم - عليه السلام - تضطره الدعوة أن يقف من أبيه ذلك الموقف الشاق ...
ان أباه ينذره الإنذار الأخير ...
أرغب أنت عن آلهتى !

أنت أيها الصغير ... الذى لاشأن لك يذكر ...
أنت من دون هؤلاء جميعا الذين يعبدونها . ويقدمونها ...
أنت وحدك ... رغم قهارة شأنك ... وحداثة سنك ... أنت ترغب عن آلهتى !
ليتك كنت زعيما ... أو كبيرا ... حين زعمت ذلك الزعم ... إذا لقلت : رجل
له رأى ...

ولكن وجه العجب أنك أنت الفتى الذى لا عقل له ثم تكون أنت ... الذى يخرج
علينا بتلك المقالات الشنيعة ، وذلك القول الفارغ ...

إن كلمة « أنت » تحمل في طياتها كثيرا مما يغلى في أعماق آزر، نحو ابنه إبراهيم ...
يا إبراهيم ؟ ! ... لم يقل له يا بني ، أو يا ولدي ...
وانما ناداه باسمه مجردا ... تقيلا لشأنه ، وتصغيرا لوضعه ؟ !
ثم نادى الأب ثورته الكبرى على ابنه ... ليضع حدا لتلك المهزلة التي يياشرها إبراهيم ...
فقال له في غضب ليس بعده غضب : لئن لم تنته لأرجنك ...
إني أنذرك أيها الابن المارق ، المارق لدين آباءه وأجداده ... لئن لم تكف عن
هذا الهراء الذي تدعو إليه لأقبلنك رجما بالحجارة ، إنتصارا لآلهتنا التي زيفتها ،
وسببها ، وشتمتها ...
ولأجعلنك مثالا يروى أمام الناس ، ولأشتمنك شتما أليما ...

طرد إبراهيم ؟

ثم كان أشد تهديدات آزر لابنه حين قال له : (واهجرني مليا) ...
أغرب عن وجهي أيها الولد العاق الشقي ، الطريد ، الشريد ...
لأريد أن أرى وجهك الغبي ، ولا أن أسمع كلامك الشقي !
ابتعد عني إلى الأبد ... لست ابني ، ولست أعرفك ...
أخرج من بيتي ...
وأخرج من مدينتي ...
وأخرج من هذه الأرض التي تضمننا ...
ابتعد عني إلى آخر الدهر ... لأنك خارج ، مارق ، مفارق لدين آباءك ...
وهكذا ... دخل إبراهيم أقصى أزمة نفسية ...
إن أباه يطرده ...
لماذا ؟ ...

من أجل أنه دعاه إلى الله !!!
إنها الغربة المقروضة على إبراهيم ... وعلى الرسل أجمعين ...

وعلى دعاة الحق في العالمين ...
دائماً وأبداً تفرض عليهم الدعوة أن يغتربوا ...
سلام عليك يا إبراهيم ...
يوم طردك أبوك ويوم قطع صلته بك إلى الأبد ويوم عانيت كل هذا في
سبيل الله ...

ولا يعلم مقدار الألم الذي كان بقلب إبراهيم في تلك اللحظات إلا الله !!
هو وحده الذي يعلم ما كان يعاني ، وما كان يلاقى ... (وكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) .

إبراهيم يفارق أباه ١٤

قال تعالى : (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ، بِاسْتَغْفِرُكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ،
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَأَدْعُو رَبِّي ، عَسَى أَنْ أَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)
[مريم ٤٧-٤٨]

• قال : سلام عليك ، توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة .
• أى لا أصيبك بمكروه بعد ، ولا أشافيك بما يؤذيك .
• سأستغفر لك ربى ، أى استدعيه سبحانه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك
إلى الإيمان .

وكان ذلك منه عليه السلام قبل أن يتبين له بالوحي أنه لا يؤمن ...
فلما تبين له تركه أشد الترك .

• إنه كان بى حفياً ، بليغاً فى البر والإكرام . يقال حفى به إذا اعتنى باكرامه .
• وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، المراد ابتعاد عنك وعن قرمك وعن
معتقداتهم .

• وأدعوربى ، أى اعبده سبحانه وحده ، كما يفهم من اجتناب غيره تعالى من
المعبودات .

« عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا » خائبا ضائع السعي .
وفي تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع ، ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الإثابة والأجابة بطريق التفضل منه عز وجل ، لا بطريق الوجوب .
وأن العبرة بالخاتمة ، وذلك من الغيوب المختصة بالعلم الخبير .
وهكذا ... في الوقت الذي يقذف آزر ابنه بتلك القذائف ...
إذا إبراهيم يرد على أبيه أجمل رد وأحسنه ...
سلام عليك ... سأستغفر لك ربي ..
لا تغضب يا أبتى ... سوف لا أفاتحك في هذا الأمر مرة أخرى ...
سوف أستغفر لك ربي ... لعله يوفقك مستقبلا إلى إدراك الحق ، وإلى اتباعه ...
إلا أن إبراهيم ... حتى في هذا الموقف المتأزم ... حرص على أن يبين لأبيه أنه سوف يعتزلهم ، ويعتزل عقائدهم اعتزالا تاما ...
واعتزلكم وما تدعون من دون الله ... وأدعو ربي ...
سأ كفر بالهتكم ... وأعبد ربي وحده ...

فلما اعتزلهم ... وهبنا له ... ؟

ثم يقول تعالى « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلاً جعلنا نبيا ، وهبنا لهم من رحمتنا وجعلناهم لسان صدق عليا » .

[مريم ٤٩ و ٥٠]

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله » بالمهاجرة من بلادهم إلى بلاد الشام ...
« وهبنا له إسحاق ويعقوب » بدل من فارقهم من أبيه وقومه الكفرة ...
ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا إيذان كمال عظم النعم التي أعطى الله تعالى إياه تقابله من اعتزلهم من الأهل والأقرباء .

فاهما شجرتا الأنبياء ، ولهما أولاد وأحفاد أو لو شأن خلائر ، وذوو عدد كبير .
مع أنه سبحانه أراد أن يذكر إسماعيل عليه السلام بفضله على أفراد ،

روى أنه عليه السلام لما قصد الشام ، أتى أولا حران ، وتزوج سارة ، وولدت له
إسحاق .

وولد لإسحاق يعقوب .

« وكلا » أى وكل واحد من إسحاق ، ويعقوب ، أو منهما ومن إبراهيم عليه السلام .
« جعلنا نبيا » أى كل واحد منهم جعلنا نبيا « ووهبنا لهم من رحمتنا » النبوة .
وقيل : المال والولد .

وقيل : هو الكتاب .

والأظهر أنها أمة لكل خير دينى أو دنيوى ، أوتوه مما لم يؤت أحد من العالمين .
« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » يفتخر بهم الناس ، ويشنون عليهم ، استجابة لدعوته
عليه السلام بقوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) وزيادة على ذلك .

والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام .

ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يشنون عليهم .

وإن محمدهم لا تخفى ، كأنها نار على علم ، على تباعد الأعصار ، وتبدل الدول ،
وتغير الملل والنحل .

وخص بعضهم لسان الصدق بما فى التشهد (كصليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) .
والعموم أولى ...

إن الله تعالى قد كافأ إبراهيم أحسن المكافأة ...

فلما اعتزلهم ... وهبنا له ...

فلما اغترب إبراهيم من أجلنا عن أبيه ، وأمه ، وأقاربه ، وأسرته ، وقبيلته ،
وقومه ، ووطنه ...

فلما اغترب عن الناس جميعا ... من أجلى ... ومن أجل رسالتى ...

فلما اكتملت غربته من أجلنا ... وهبنا له ...

أبدلناه بدلا من أهله الكافرين ... أبناء مؤمنين ...

بل أنبياء ... في القمة من الإيمان ... « وكلا جعلنا نبيا » ...
وأبدلناه ... بدلا من الوحشة التي يعيش فيها ، أنسابنا ... « ووهبنا لهم من رحمتنا » ...
رحمة واسعة جداً ... عظيمة جداً ... بدلا من غربته عن أهله وقرابته ووطنه ...
وبدلا من قول أبيه لأرجنك ... بدلا من الشتم والإيذاء له ...
« وجعلنا لهم لسان صدق علياً » ... جعل الله الناس في كل الأزمان يشنون عليهم
ويعتدحونهم !!

فلما اعتزلهم ... وهبنا له ؟ ! ماذا وهب له ؟
لا تستطيع حصر ذلك ... فان الله إذا وهب ... أعطى ما فوق التصور ... فكيف
إذا كان الموهوب إبراهيم ؟ !

ما هذه التماثيل ؟

ونقل الفتى إبراهيم المعركة الى الشعب كله ... ووقف يتحدى المجتمع بمستوياته كلها .
وقف يتحدى الملك الطاغية ، ويتحدى رجال الدين والكهنوت ، ويتحدى الجماهير
في عقائدها ومقدساتها .
ولنسمع الآن الى الله جل ثناؤه يقص علينا أخبار تلك المعركة المقدسة .. المعركة ،
التي قامت بين فرد واحد من جانب ، وكل الناس من جانب آخر !!
بين قتي أعزل من الحول والطول .. وبين ملك جبار بطاقاته وجنوده ، وشعب كبير
بمقدساته وعقائده !!

قال تعالى : « واتخذ آتينا إبراهيم رُشدَهُ من قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ
لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ .
قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا : أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
الطَّاغُوتِ . قَالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ، وَأَنَا عَلَى
ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . » [الأنبياء ٥١ - ٥٦]

« واتخذ آتينا إبراهيم رشده » الرشداً اللائقي به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشداً

السكامل ، أغنى الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلهية.

وقيل : التوفيق للخير صغيرا

واختار بعضهم التعميم .

« من قبل » من قبل البلوغ .

« وكنا به عالمين » أى بأحواله وما فيه من الكمالات .

« إذ قال لأبيه وقومه » بدأ بذكر الأب لأنه كان الأهم عنده في النصيحة ، والالتقاد

من الضلال .

والظاهر أنه قال له وقومه مجتمعين ...

« ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟! » أراد ما هذه الأصنام إلا أنه عبر عنها

بالتماثيل تحقيراً لشأنها ؛ فإن التمثال الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى

من مثلت الشيء إذا شبهته به .

وكانت على ما قيل على صور الرجال يعتقدون فيهم ، وقد انقضىوا .

أى ما هذه التماثيل التى أنتم لها ملازمون ؟ !

« قالوا ؛ وجدنا آباءنا لها عابدين » وأبطل ذلك على طريقة التوكيد القسمى حيث ...

« قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم » الذين وجدتموهم كذلك .

« فى ضلال » عجيب لا يقادر قدره .

« مبين » ظاهر . بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه ضلالا ، لاستنادكم وإياهم

إلى غير دليل ، بل إلى هوى متبع ، وشيطان مطاع

وفى اختيار « فى ضلال » على ضالين ، مالا يخفى من المبالغة فى ضلالهم ،

وفى الآية دليل أن على الباطل لا يصير حقا بكثرة المتمسكين به .

« قالوا » لما سمعوا بمقاتلته استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا ، وتعجبا من تضليله وإياهم

على أنهم وجه .

« أجبثنا بالحق » أى بالجد .

« أم أنت من اللاعبين » أى الهازلين .

أى هذا الذى جئنا به ، أهو جد وحق أم لعب وهزل ؟!

« قل » إبراهيم : ليس الأمر كذلك ...

« بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن » أى أنشأهن ، بما فيهن من المخلوقات ، التى من جملتها أنتم وآباؤكم ، وما تعبدون من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه .

وهذا انتقال عن تضليلهم فى عبادة الأصنام ، ونفى عدم استحقاقهم لذلك إلى بيان الحق ، وتعيين المستحق للعبادة .

« وأنا على ذلكم من الشاهدين » تذييل متضمن لرد نسبتهم إياه إلى اللعب والهزل .
والمعنى : وأنا على ذلكم الذى ذكرته من العالمين به ، على سبيل الحقيقة ، المبرهنين عليه ، ولست من اللاعبين .

وهذا الجواب وارد على الأسلوب الحكيم .

وكان من الظاهر أن يجيبهم بقوله : بل أنا من المحقين ولست من اللاعبين ، فجاء بقوله (بل ربكم) الآية لينبه به على أن ابطالى لما أنتم عاكفون عليه وتضللى إياكم بما لا حاجة فيه لوضوحه إلى الدليل .

ولكن انظروا إلى هذه العظيمة ، وهى أنكم تتركون عبادة خالقكم ، ومالك أمركم ، ورازقكم ، ومالك العالمين ، والذى فطر ما أنتم لها عاكفون ، وتشتغلون بعبادتها دونه ، فأى باطل أظهر من ذلك ، وأى ضلال أبين منه ؟!

كأنه قال : لست من اللاعبين فى الدعاوى ، بل من العالمين فيها ، بالبراهين القاطعة ، والحجج الساطعة ، كالشاهد الذى تقطع به الدعاوى .

إن هذه الآيات تسجل زاوية من ذلك الحوار الخالد الذى قام بين الفتى وبين أبيه وقومه ...

زاوية أخطر مافيهما أن إبراهيم قد أشاع في الدولة التي يعيش فيها جوا من السخرية بالآلهة ...

جوا يصوره قوله : ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ !
فبعد أن كانت آلهة مقدسة ، يسجدون لها ، ويخضعون لسلطانها ، ولا يجرءون على ذكرها إلا بكل تقديس وتعظيم ... حولها إبراهيم إلى شيء يسخر منه ، ويضحك منه ...
واتخذها مادة للسخرية ...

وحقها ... وهبط بها إلى أنها مجرد تماثيل تافهة ، ليست آلهة ، ولا معبودة !!
ثم زاد السخرية مرارة فقال لهم : التي أنتم لها عاكفون ؟ !
أي أنكم قوم مغفلون ...

ولو لم تكونوا مغفلين ، مالا زمتوها كأنكم بهائم تلازم حظائرها !!
إنها سخرية لاذعة ...

وما هي بسخرية ... فإن الرسل أعلى وأكرم من أن يسخروا ...
فإنهم لا ينطقون إلا حقا ...

واكن الأمر أن إبراهيم ينطق بالحق ... فهو حين يقول : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، إنما يراها فعلا تماثيل ليس إلا ...
وهي كذلك في حقيقة أمرها ...

فلم يزد إبراهيم على أن عبر عن حقيقتها ...
إلا أن الحقيقة التي أعلنها إبراهيم تبدو سخرية لاذعة في تصورهم ... لأنهم يعتقدون أنها آلهة وليست مجرد تماثيل !!

ولذلك قالوا له : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ !
إنهم يظنون أن إبراهيم مجرد شاب حديث السن ، يدفعه طيش الشباب إلى ذلك النوع من اللعب والعبث !!!

ولو لم يكن عابثا ، لاعبا ، ماسي الآلهة تماثيل !!

ولذلك أعرض إبراهيم اعراضاً تاماً عن إقامة الدليل على أنه ليس بعابت ولا هازل .
إلى إعلان الحق الذى يدعوهم إليه : بل ربكم رب السماوات والأرض ، الذى فطرهن .
ليست هذه الأصنام أرباباً كما تظنون .. وإنما ربكم الذى أوجد السماوات والأرض .
ثم يؤكد لهم ما هو فوق إمكانيات أفهامهم بقوله : وأنا على ذلكم من الشاهدين .
أى إننى أشهد تلك الحقيقة شهوداً يقينياً .

أشهد ملكوت السماوات والأرض ... وأشهد أن هناك رباً لها ولمن فيها ...
« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض .. »
وهكذا هز إبراهيم كيان الدولة كلها ... سخر من آلهتها ... وسخر من عقائدها .
كما هز كيان أبيه من قبل !!!

فإنهم عدو لى ؟

ثم يقص الله تعالى علينا ذلك الحوار الرائع بين إبراهيم والمجتمع كله ... ويكشف لنا
زوايا أخرى من الموضوع ، فيقول عز من قائل :
« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناماً ففضل
لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل
وجدنا آبائنا كذلك يفعلون . قال : أفأنتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون .
فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو بطعننى ويسقين .
وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يمتننى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم
الدين . رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى
من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تحزننى يوم يعثنون . يوم
لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم . [الشعراء ٦٩ — ٨٩]

« واتل عليهم » اذكر ذلك لقومك ، وللناس جميعاً .
« نبأ إبراهيم » أى خبره العظيم الشأن ، حسباً أوحى إليك .

« إذ قال » أى نبأه وقت .

« لأبيه وقومه » وقت قوله لهم ..

« ما تعبدون ؟ » وسألهم عما يعبدون إيبى على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزل عن استحقات العبادة بالكلية .

« قالوا : نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين » أظنبوا فى الجواب للاتباع والافتخار .

أى نظّل لأجلها مقبلين على عبادتها ، أو مستديرين حولها . . .

« قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ ! » هل يسمعون دعاءكم ؟

وقيل : السماع هنا بمعنى الاجابة ، أى : هل يجيبونكم ؟ !

« أو ينفعونكم » بسبب عبادتكم لهم ؟

« أو يضرّون » أى يضرّونكم بترككم لعبادتهم .

إذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو

دفع ضرر ؟

« قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » لا يسمعون ، ولا ينفعوننا ، ولا يضرّون

إنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ، ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقترنا بهم !

« قال : أفرايتم ما كنتم تعبدون » أى أنظرتم فأبصرتم ، أو تأملتم فعلمتم أى شىء

استبدتكم على عبادته ، أى أى شىء تعبدونه ؟

« أنتم وآباؤكم الأقدمون » انكار توبيخ يتضمن بطلان آلهتهم ، وعبادتها ، وأن

عبادتها ضلال قديم ، لا فائدة فى قدمه . إلا ظهور بطلانه ، كما يؤذن بهذا وصف آباؤهم

بـ « الأقدمين » .

« فإنهم عدو لى » . تعليل لما يفهم من ذلك من أنى لا أعبدكم ، أو لا تصح عبادتكم .

وقيل : خبر لما كنتم . إذ المعنى : أفأخبركم وأعلمكم بمضمون هذا ؟

أو : فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم ، الذين يحبونهم كحب الله تعالى .

« إلا رب العالمين » أى هو وحده الذى أحبه ، وأخصه بالحب .

لئى لىكن رب العالمين ، ليس كذلك ، فإنه جل وعلا ولى من عبده فى الدنيا ، والآخرة ، لا يزال يتفضل عليه بالمنافع .

«الذى خلقنى» تصرّحاً بالنعم الخاصة به وتفصيلاً لها .
وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ، ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى .

«فهو يهدين» فهو يهدينى جل شأنه إلى كل ما يهمنى ، ويصلحنى ، من أمور المعاش والمعاد ، هداية متصلة بحين الخلق ، ونفخ الروح ، متجددة على الاستمرار ، مما ينبى عنه البقاء وصيغة المضارع .
«والذى هو يطعمنى ويسقنى» الظاهر أن المراد إطعام الطعام المعروف ، وسقى الشراب المعهود .

وقيل : المعنى يطعمنى بلا طعام ، ويسقنى بلا شراب ، كما جاء :
(إنى أيت يطعمنى ربى ويسقنى) وهو مشرب صوفى

« وإذا مرضت فهو يشفين » ونسبة المرض الذى هو نعمة إلى نفسه ، والشفاء الذى هو نعمة إلى الله عز وجل شأنه ، مراعاة حسن الأدب ، كما قال الخضر (فأردت أن أعيها) وقال : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) .

« والذى يميئتى ثم يمينى حتما ، ثم يمينى حتما »
وقيل : وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفينى بالتوبة .
وهو من باب الإشارة لا العبارة .

وتم فى قوله (ثم يمينى) للتراخى الزمانى . لأن المراد بالاحياء الأحياء للبعث ، وهو متراخ عن الإمامة فى الزمان فى نفس الأمر .

« والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » استعظم ما عسى يندر منه من فعل خلاف الأولى حتى سماه خطيئة .

وهذا يدل على شدة سمو نفسه ، فهو يتصور ان له خطايا ، وهذا ناشئ من إدراكه أنه لم يقيم بحق الله تعالى عليه !

« رب هب لي حكماً » الحكمة التي هي كمال القوة العملية ، بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به ..

وقيل : الأول أن يفسر بكمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شئونه عز وجل وأحكامه التي يتعبد بها .

« وألحقني بالصالحين » طلب كمال القوة العملية بأن يكون موقفاً لأعمال ترشده للانتظام في زمرة السالكين الراسخين في الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرهما . وقدم الدعاء الأول على الثاني لأن القوة العملية مقدمة على القوة العملية ، لأنه يمكن أن يعلم الحق وإن لم يعمل به وعكسه غير ممكن .

ولأن العلم صفة الروح ، والعمل صفة البدن ؛ فكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أشرف من العمل .

وقيل : المراد بالحكم الحكمة التي هي السكال في العلم والعمل .

والمراد بطلب ذلك أن يكون علمه وعمله مقبولين ، إذ ما لم يقبل لا يلحق صاحبها بالصالحين ولا تجعل منزلته كمنزلتهم .

« واجعل لي لسان صدق في الآخرين » أي اجعل لتفني ذكرأ صادقاً في جميع الأمم إلى يوم القيامة .

وحاصله : خلد صيتي ، وذكرى الجليل في الدنيا .

وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة ، والسنن المرضية لديه تعالى المستحسنة ، التي يقتدى بها الآخرون ، ويذكرونه بسببها بالخير ، وهم صادقون .

فاللسان مجاز عن الذكر .

ولا بأس بأن يريد تخليد ذكره بالجميل ، ومدحه بما كان عليه في زمانه ، لسكوت الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى ورضاه .

ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة، يبعث فيها نبي، وأنه طلب الصيت الحسن،
والذكر الجميل فيهم، يبعث نبي فيهم يحدد أصل دينه، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم
إليه من التوحيد، معلما لهم أن ذلك ملة إبراهيم عليه السلام.
فكانه طلب بعثة نبي كذلك في آخر الزمان، لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة.
وليس ذلك إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، وقد طلب بعثته عليهما الصلاة والسلام بما
هو أصرح مما ذكر، أغنى بقوله (وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) إلخ.
ولهذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا دعوة إبراهيم عليه السلام».
«واجعلني» في الآخرة.
«من ورثة جنة النعيم» واستدل بدعائه بهذا بعد ما تقدم من الأدعية، على أن العمل
الصالح لا يوجب دخول الجنة، وكذا كون العبد ذا منزلة عند الله عز وجل.
«وأغفر لأبي» أي امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك.
وحاصله وفقه للإيمان.
«إنه كان من الضالين» وهذا ظاهر إذا كان هذا الدعاء قبل موته.
وإن كان بعد الموت فالدعاء بالمغفرة على ظاهره، وجاز الدعاء بها لمشارك.
«ولا تخزني» بتعذيب أبي، أو يبعثه في عداد الضالين.
أو بمعاتبتي على ما فرطت، أو بنقص رتبتي عن بعض الوراث، أو بتعذبي وهو من
الحزبي بمعنى الهوان.
«يوم يبعثون» أي الناس كافة.
«يوم لا ينفع مال ولا بنون» من كلام إبراهيم عليه السلام.
وقيل: من كلام الله تعالى.
يوم لا ينفع شيء من محاسن الدنيا وزينتها.
واقصر على ذكر المال والبنين، لأنها معظم المحاسن والزينة.
والحق أنهما كل الحياة، لأن الحياة إما مال وإما ناس.

«إلا من أتى الله بقلب سليم» يوم لا ينفع مال وإن كان مصروفا في الدنيا ، إلى وجوه
البر والخيرات ، ولا بنون وإن كانوا صلحاء أحدا .

إلا من أتى الله بقلب سليم ، عن مرض الكفر ، والنفاق .

ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان .

أى لا نفع معاظما لأحد إلا بحقيقة قلبه .

القلب السليم : الخالى عن مرض الكفر والنفاق

وقيل : الخالى عن العقائد الفاسدة ، والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها ، ويتبع ذلك

الأعمال الصالحات ، إذ من علامة سلامة القلب تأثيرها في الجوارح .

وقيل : هو الذى ليس فيه غير الله عز وجل .

وقيل : هو اللديع من خشية الله تعالى ، المنزعج من مخافة القطيعة .

وقيل : هو الذى سلم من الشرك والمعاصي ، وسلم نفسه لحكم الله تعالى ، وسلم

أولياءه ، وحارب أعداءه ، واسلم حيث نظر فيه ، واستسلم ، وإيقاد الله تعالى ؛ وأذعن

لعبادته سبحانه .

إلا رب العالمين ١٤

إن أقوى ما فى ذلك العرض هو قول إبراهيم « فإنهم عدولى ، إلا رب العالمين »

ففيها ترجمة كاملة لشخصية إبراهيم ...

إنه يتكلم عن نفسه ...

ويعلن إلى الناس كافة : أفرأيت ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ ...

فإنهم عدولى ...

كل هذه الأصنام ، وهذه النجوم ، وهذه النكواكب ...

بل كل شئ يعبد من دون الله ... هو عدو لعباده ...

فهو ناموس خالد يعلنه إبراهيم ..

وإن من شيء يعبد الإنسان إلا وهو عدو للإنسان !

لماذا ؟ ...

لأنه سيتهرب منه يوم القيامة ، ولأنه سيكون سبباً في دخوله النار ، وبعبء أشد العذاب !
إلا شيئاً واحداً ... شيئاً إذا عبده الإنسان ، لا يكون عدواً له ... بل يحبه ، وينصره ،
وينفقه ، ويؤاليه ، ويكرمه ...

إلا رب العالمين ...

هذا هو الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يحبه الإنسان بكل ما يملك من مشاعر الحب .
هذا هو الناموس الذي أعلنه إبراهيم على قومه .. على الناس جميعاً ...
كل ما سوى الله ... عدو لإبراهيم ...

إلا رب العالمين ... فإنه وحده الذي يحبه إبراهيم ...

ما معنى هذا ؟ ...

معناه أن إبراهيم قد ارتفع إلى مقام عظيم جداً ...

مقام التجرد من السوى ...

والإتجاه لله وحده ..

مقام كراهية كل شيء

واختصاص الله بالحب وحده ...

مقام الميل عن كل شيء ... والانطلاق في خط مستقيم إلى الله وحده ...

مقام تخصيص قلبه لله وحده ... وتحريم الركون إلى ما سواه ...

ثم ماذا ؟ ...

الذي خلقني ؟

ثم ينطلق إبراهيم ... يعلن إلى قومه ... إلى الناس جميعاً ..

لماذا لم يحب إلا الله ؟

لماذا لم يعبد إلا الله ؟
لمبماذا هو يكره أن يتجه إلى أى شىء سوى الله ؟
وبغوص إبراهيم ... إلى أعماقها ... ثم يخرج وفي يمينه إشعاع باهر يكاد سنا بركه
يخطف الأبصار ..
إشعاع لا يستطيعه إلا نبي ... كشف الله له الحقيقة ... وأذن له أن يتحدث
باسمها .

فما ذا قال إبراهيم ؟ ...
الذى خلقتني ؟ ...
لم أك شيئاً .. فجعلني شيئاً ..
لم أك موجوداً فأوجدني .
لا أستطيع أن أحب ، أو أعبد ، إلا ذلك الذى أوجدني في هذه الحياة ...
ولا أستطيع أن أتصور أن يتجه قلبي إلا لمن أوجده ...
وإبراهيم هنا يغرف من ينابيع الحقيقة ... ويلقى إلى الناس ...
خذوا ... خذوا ... إني أعبدته لأنه خلقتني ...
إن وجودي نفسه صادر عنه ... مجرد هبة منه ...
هو الذى وهبني كينونتي ... هو الذى أنشأ وجودي ...
فكيف أعبد غيره ... أو كيف أتجه إلى ما سواه ؟!
وإبراهيم في هذا يعتبر إماماً للناس كافة .
يرشدكم إلى السبيل الذى من أجله لا يجوز عبادة غير الله ...
ثم ماذا ؟ ...
هل انتهت مهمة الله عند مرحلة الخلق ... هل أوجد إبراهيم ... ثم أهمله ... ولم
يلتفت إليه ؟ ...

فهو يهدين ؟

هل إبراهيم كان بدعاً في هذا ... أم أنه ناموس عام يسرى في إبراهيم كما يسرى في الخلائق أجمعين ؟!

الواقع ... أنه ناموس إلهي ، ينتظم كل شيء ...
ولتسمع إلى رسول هكريم آخر ، يسجل نفس ما سجله إبراهيم ... ويعلن نفس
الناموس الذي أعلنه ...

ولتسمع إلى موسى يعلنها إلى فرعون ، كما وقف إبراهيم يعلنها إلى قومه ... لتدرك
أن رسل الله تعالى ينهلون من ينبوع واحد ... ويذيعون أسراراً وأنواراً واحدة ...
قال تعالى : « قال : فن ربكُمَا ياموسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه
ثم هدى » . [طه ٤٩ و ٥٠]

فرعون يسأل : فن ربكُمَا ياموسى ؟
وموسى يجيب على مشهد من الجميع : ربنا الذى أعطى كل شيء ... خلقه ثم هدى !!
أرأيت ؟ ...

نفس منطق إبراهيم !!!
إبراهيم يقول ... إلا رب العالمين ... الذى خلقنى ، فهو يهدين ...
وموسى يقول : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى !!!
تطابق ... ليس عن صدفة ... ولا عن مجرد ردود وفصاحة ...
ولكنه تطابق الحق الواحد ... يتحدث عنه رجال علمهم الله تعالى كيف يتحدثون
عن الحق ، وكيف يعلنون ؟
« إلا رب العالمين » ... تقرر أن الله تعالى رب كل شيء ... أى الذى يربى كل شيء
ويبلغ به المقادير المقررة له ...
و... « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه » تقرر أن الله تعالى هو الذى منح كل شيء
وجوده الذى هو عليه ...

ثم ماذا؟ ...

ثم هذا يقول «فهو يهدين» ... أى يهدينى إلى كل ما يهمنى ، ويصلحنى ، من أمور المعاش ، والمعاد ، هداية متصلة ، بحسن الخلق ، ونفخ الروح ، متجددة على الإستمرار ، مما ينهى عنه الفناء وصيغة المضارع ...

ثم ذاك يقول : «ثم هدى» ...

أى يستمر سبحانه وتعالى فى هداية كل شىء إلى ما يصلحه هداية مستمرة متجددة ...
أرأيت ؟ ...

إنها النبوة تتكلم ...

وأعلنها إبراهيم ... فأذاع على العالمين ناموساً من نواميس الوجود ...
أن رب العالمين ... هو وحده الذى يهديه إلى ما فيه صلاحه ، وبلوغ ما قدر له ...
وهو وحده الذى يهدى ، وسوف يهذى ، ولا شىء غيره يهذى ... كل شىء ، إلى ما فيه صلاحه وقيامه ...

وبذلك استحق الله وحده أن يكون معبود إبراهيم ...

إنه هو الذى خلقه ... أوجده وأنشأه ...

وهو الذى يتولاه بهدايته المستمرة إلى ما يحفظ عليه وجوده ...
فلا مدخل لغير الله فى وجوده ، ولا مدخل لغيره فى حفظه وتوجيهه ...
فكيف يتصور أن يتجه إلى شىء سواه ؟

والذى هو يطعمنى ١٢

ثم وقف إبراهيم على الملأ ... يلقي . بقطع النور . تباعاً ... فقال : والذى هو يطعمنى ويسقين !!

هذا الطعام ... وهذا الشراب ... الذى هو عماد هذه الحياة ... هو الذى يدبره فضلاً منه ونعمة ...

لأصنامكم ... ولا نجومكم ... ولا كواكبكم ... ولا أسبابكم ... ولا مجهودكم ...
ولا تنظيماكم ... بمستطاعة كلها مجتمعة أن تطعمني أو تسقينى ...
ولإنما هو ... وحده الذى يطعمنى ويسقينى ...

هو الذى ركبنى هذا التركيب البشرى ، وجعلنى صالحا لأن آكل وأشرب ، وألقى
فى بدنى ما ينفعنى ، ثم أقذف خارجا ما يفضل عن غذائى أو يضرنى ...
هو الذى ركب هذا التركيب ... لا أنتم ... ولا آلهتكم ...
وهو الذى خلق الأطعمة التى أطعم ... والأشربة التى أشرب ...
قال تعالى : « أفرايتم ما ترحثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه
حطاما فظلمتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرايتم الماء الذى تشربون .
أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ؟ » .
[الواقعة ٦٣ - ٧٠]

كأنى بآبراهيم ... كان يشير إلى مثل هذا ...
انه نفس الينبوع ... يغترفون منه أجمعين !!!

أو كأنه يشير إلى هذا ... « قتل الإنسان ما أكفره ! . من أى شئ خلقه ؟ من
نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض
ما أمره . فلينظر الإنسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا .
فأنبثنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم
ولأنعامكم » .
[عبس ١٧ - ٣٢]

ان الحقيقة واحدة دائما ...

ان إبراهيم يسقط الحجب كلها ... ويسقط الأسباب كلها ... ويسقط كل
ماسوى الله ...
ثم يتجه مباشرة الى الذى أوجد الحجب ... وأوجد الأسباب ... وأوجد ماسواه ...

يتجه إليه مباشرة... تحقيقاً لأسلوبه العام... للحنيفية... التي هي مقامه... وهي
دعوته العامة...

صحيح أن طعامه وشرابه... قد يكون هناك من الأسباب ما يدخل في أعدادها
وترتيبها حتى يكون الطعام طعاماً والشراب شراباً... ولكن من الذي خلق هذه
الأسباب، ومن الذي خلق هؤلاء الأشخاص الذين اشتركوا في أعداد هذا الطعام وهذا
الشراب؟

انه الله... اذا فلتسقط الأسباب... وليسقط الأشخاص... وليتجه إليه وحده...
لأنه مصدر كل هذا وموجد من عدم...

وهذه هي الحنيفية... أو هذا هو مقام إبراهيم... أو هذه هي ملة إبراهيم...
التي اعتبر الله تعالى كل من يتحول عنها ناقص العقل سفيها...
قال تعالى: «ومن يَرْغَبْ عن ملة إبراهيم إلا من سفِهَ نفسه»؟!
فإبراهيم حين يقول «والذي هو يطعمني ويسقيني»... لا يغفل عن وجود أسباب
وأشخاص في طعامه وشرابه...

ولكنه يسقط وجودهم لأنهم موجودون بإيجاد الله لهم...
فالوجود الحق لله... أما ماسواه فشيء عارض، خلقه الله... وجعله نواميس ماضية
بأذنه...

وحين يطلقها إبراهيم في علو وخلود «والذي هو»... إنما يريد أن يؤكد أنه «هو»
لأشياء غيره «الذي» يطعمه ويسقيه...
ولكن هل يقف طعام إبراهيم وشرابه عند حد تلك الأطلعة والأشربة، المادية التي
يطعمها كل حيوان؟

كلا... إن إبراهيم يطعمه الله تعالى ويسقيه... بما يناسب مقامه عنده سبحانه...
إن له طعاماً وشراباً خاصاً بروحه... كما أبدنه طعامه وشرابه...
وسبحان من يعطي كل إنسان ما يناسبه...

وتلك مضافات لا يدركها إلا أربابها !
ومستويات لا يصل إليها إلا أهل العلم بالله ...

فهو يشفين ١٢

ثم يسترسل إبراهيم مبينا لقومه أن الأمراض بتقدير الله العزيز الحكيم ..
وأن الشفاء منها لا يكون إلا منه وحده ...
وأن الأسباب والأطباء والعلاج ... وما الى ذلك ...
لا ينبغي أن تحجبنا عن الحقيقة.. وهي أن الشفاء لا يكون إلا من الله ، ولا يتم إلا بإذنه ...
وإذا لم يأذن به لن يكون أبدا ...
وإذا مرضت فهو يشفين ...
هو وحده الذى يشفينى من هذه الامراض ... ليست هذه الأصنام ولا هذه النجوم
ولا هذه الكواكب ...
وهكذا استأصل إبراهيم تلك العقدة التى استحكت فى البشر ...
حين يتوهمون أن شيئا يشفى سوى الله ...
ورد كل شيء إليه سبحانه ... حتى فى تلك الحالة ، حالة المرض ، التى يضعف فيها
المريض ، ويصبح مستعدا لقبول أى اتجاه ينجيه مما هو فيه ...

والذى يميتنى ١٣

ثم يعلن إبراهيم مبدأ أخطر وأخطر ...
والذى يميتنى ثم يحيين ...
حتما يميتنى ... ناموس عام لا فكاك منه ...
وحتما سوف يحيينى ... ناموس عام لا انفكاك منه كذلك ...
وصادم إبراهيم بذلك عقائد قومه جميعا ...
حين أعلن اليهم أن الموت يأذن الله وحده ، لا يملكه صنم ولا كوكب ...

وأن الحياة بعد الموت أمر واقع حتما ، لا يفر منه انسان ...
انها مبادئ جديدة يعلنها ابراهيم ...

والذى أطمع أن يغفر لى ؟!

ثم يتواضع لله تعالى ... ويصغر فى جنبه سبحانه فيقول : « والذى أطمع أن يغفر لى
خطيئتي يوم الدين » ...

وابراهيم فى ذلك يبدو رسولا حقا وصدقا ... فهو لا خطأ له ولا خطيئة ... وانما
احساسه انه مهما كان منه فهو دون حق الله عليه ...
هو الذى جعله يستصغر أعماله فى جنب الله ...
وكما ازداد الإنسان قربا من الله كلما ازداد احساسه بالتقصير فى حق الله ...
فكيف يا ابراهيم ؟

أو كيف باقرب الناس الى ربه فى زمانه ؟
انظر الى تعبيره « أطمع » انه يطمع ، لا يؤكّد ، ولا يقطع ... وانما فقط يطمع ،
يأمل ، ويرجو ..

أن يغفر لى خطيئتي ... أن يتجاوز لى عن ذنبي العظيم ...
ان ابراهيم يعلم من الله ما لا نعلم ...
انه يعلم أن الناموس المقرر فى الناس جميعا انهم خطاءون ...
ومن هنا يجب أن يطالب كل انسان من الله أن يغفر له ما كان منه من أخطاء ...
ان ابراهيم يشرح للناس ... انه يقف منهم موقف القدوة أو الأسوة ، ليقتدوا به
فيما يقول ، وفيما يفعل ...

انه يحقق قول الله : « انى جاعلك للناس اماما » ...
وقوله : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه ... »
وقوله : « ان ابراهيم كان أمة ... » أي اماما ...

فمثل هذا الدعاء يصدر عن إبراهيم له ظاهر وباطن ...
أما ظاهره ... فتشريع للناس أن يقولوا مثل قوله ...
وأما باطنه ... فهو تأوذه وعبودية وخشوع واعتراف بفضل الله عليه ... الذى عصيه
عن الخطأ ... واعفاه من الخطيئة ...

وأما قوله « يوم الدين » فهو شيء جديد على قومه ...
انه يقرر أن هناك يوما يحاسب فيه كل انسان ...
حتى الرسل والأنبياء .. يحاسبون ... هل بلغوا رسالات ربهم !!
وهذا شيء جديد على قومه ، وعلى الناس ... !!

هـ ب لى حكما ١٢

توجه ... كريم ... جميل ... يسيل جمالا ، ومعرفة بالله ... على أكمل ما تكون
المعرفة ...

« رب » ... اقصى غايات التذلل بين يدي الله ... رب ؟ ... يا من ربيتني
وتعهدتني ...

« هـ ب » ... هذا اللفظ يدل على أن إبراهيم فى الذروة من معرفة ربه ...

انه يعلم أن ما بالناس من نعمة فمن الله ...

وأن النعم كلها مجرد « هبة » يهبها الله لمن يشاء من عباده ...

لا استحقاق لهم أصلا فى شيء منها ...

وإنما الوهاب يهب لمن يشاء ، ما شاء ... مطلق الكرم ... ومطلق الهبة ...

هـ ب لى حكما ؟ هـ ب لى حكمة ... علمنى من لدنك علما أدرك به حقائق الأمور ...

وأدرك به أين الخير فأتبعه ... وأين الشر فأجتنبه ...

لأنه يطلب الكمال فى العلم ...

ويطلب الكمال فى العمل ...

إنه يطلب قمة الحكمة ... قمة العلم ...
 وكلما ارتفع مقامه في العلم ، كلما كان عمله أصوب ...
 إنه يطلب أعلى ما يطلبه إنسان من ربه ...
 إنه إبراهيم ؟ !

والحقني بالصالحين ؟ !

ثم يتواضع ... ويتواضع لربه ... ويرجو أن يلحقه بالصالحين من عباده !!!
 إن إبراهيم يعلم علم اليقين أنه في النروة من المباد الصالحين ...
 ولكنه يخاطب رب العالمين ...
 والمقام مقام عبودية ... وتذلل بين يديه ... فخرجت من فمه وكلها تذلل ورجاء !!
 الحقني ؟ ... تفضل ... وتكرم ... واسمح لي أن الحق بالصالحين !!!
 إنه يعرف الله معرفة يدرك منها أن الله تعالى فوق ما يتصور الخلق جمالا وجلالا ...
 ويدرك منها أنه مهما كان هو من المقام والرسالة ، لا يعدو أن يكون عبدا من عباد الله ،
 يفعل به بما يشاء .
 ومن هنا ... ومما لا نستطيع أن نصل إلى علمه ... كان سؤاله كله خوف وكله رجاء ،
 وكله عبودية !!

واجعل لي لسان صدق ؟ !

هذا المطلب من مطالب إبراهيم التي توجه بها إلى الله ... يبدو عجيبا ... ويدفع إلى
 الرؤوس سؤالا ...
 كيف يطلب إبراهيم تخليد ذكره في الدنيا ؟ .
 والجواب ... إن إبراهيم يدعو ربه أن يخلد دعوته ، لا أن يخلد شخصه ...
 فكأنه يطلب خلود دعوته ... خلود فكرته ... خلود الحنيفية التي جاء بها ...
 وهذا شيء طبيعي في كل نفس كريمة ...

« واجعل لى لسان صدق » ذكر ا صادقاً ... خلد صيتى ...
« فى الآخرين » فى سائر الأمم الى يوم القيامة ...
ان ابراهيم يطلب خلود الدعوة ...
يطلب خلود المبدأ ... خلود الفكرة ... التى هى أغلى فكرة شهدتها الأرض ...
أو يمكن أن تشهدها ...
الفكرة التى جعلت ابراهيم اماما للناس ...
والتى أمر الله الناس جميعا باتباعها « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من
سفه نفسه » ...
والتى أمر قة البشرية كلها ... محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعها « فاتبع ملة
ابراهيم حنيفاً » ...
والتى أمر بها الأنبياء جميعا « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » ...
هذه الفكرة التى جاء بها ابراهيم ... هى الفكرة التى يطلب خلودها ، وخلود
ذكرها ، وخلود صيتها ، وثناء الناس دائماً عليها ...
فهو حين يقول « واجعل لى لسان صدق » انما يطلب أن يجعل الله له فى كل زمان
من يثنى على ملته ، على أسلوبه ، ويدعو اليها ...
ولقد استجاب الله تعالى لمطلبه ... وخلد فكرته الى يوم القيامة ...
وبعث الرسل جميعا من بعده ينادون بها
وجعل المؤمنين من شتى الملل السماوية ، يثنون على دعوة ابراهيم ، وملة ابراهيم .
ويمتدحون من أجل ذلك ابراهيم نفسه ، وما كان منه من فعال حميدة ،
وخصال جميلة ...
انه طلب خلود الدعوة ... فخلد هو لأنه داعية تلك الدعوة ...
وطلب خلود صيت الدعوة ... فخلد صيته هو ... حيث لا انفصام بين الدعوة
والداعية ...

ان ابراهيم لا يدعو مخلود شخصه ... وانما يدعو مخلود المبادئ التي يمثلها شخصه ...
وحيث أنه لا انفكاك للمبادئ عن الداعي اليها ... كان دعاؤه طلبا لمخلود مبادئه ...
انه يعلم أن الله جعله اماما للناس جميعا ...

وان الله اختار ملته أو أسلوبه أسلوبا للناس جميعا ...

وارتضى دينه ديناً للناس جميعا « ورضيت لكم الإسلام ديناً » ...

وان الله جعله التطبيق الصحيح لذلك الدين وتلك الملة ...

وأنه قد أدى كل ذلك أحسن الأداء ...

فهو حين يطلب مخلود ذكره الحسن ، انما يطلب مخلود شخصية الداعية ، لا شخصية
ابراهيم المنفصل عن الدعوة ...

وهذا هو المدخل الى ذلك الأمر العظيم ...

والنور الذي يبدد الظلمات التي يلقبها الشيطان في صدور الذين يظنون الظنون ...

واجملنى من ورثة جنة النعيم ١٢

ثم يطلب ابراهيم تمام النعمة ... فيسأل ربه أن يجعله من ورثة الجنة التي يتحقق فيها
النعيم المقيم ...

تلك الجنة التي يشهدها ابراهيم وهو في دنياه شهودا حقيقيا ...

فهو يتحدث عن شيء يراه رأى العين ...

ولا يتحدث عن غيب مظنون ...

وانما هو عالم مشهود عنده ...

ولا شك أن فكرة ابراهيم عن الجنة وهو يشهدها ويعاينها في الدنيا ، فكرة

كاملة متكاملة ...

مما يجعله يلح الحاحا شديداً أن يكون من ورثتها ...

واغفر لآبى ١٤

ثم يطلب من الله أن يغفر لأبيه آزر ... وهو حنان طيبى ... غريزى ... من كل
ابن نحو أبيه ...

ولكن هل استجاب الله لدعائه فى أبيه ؟
كلا ... بل رفض رفضا تاما .
وان لذلك لقصة سوف تأتى فيما بعد ...

ولا تخزنى ؟

تواضع جديد ... فى جنب الله ... لا تخزنى بتعذيب أبى ... أو بمعاتبتي على ما فرطت
فى جنبك ...

« يوم يبعثون » يوم تبعث الناس جميعا ...
وهذا شىء جديد يعلنه ابراهيم إلى قومه ... وإلى الناس جميعا ...

يوم لا ينفع مال ولا بنون ١٥

هذا هو أخطر ناموس يعلنه ابراهيم إلى الناس جميعا ...
لا ينفع مال ... ولا ينفع أحد أحدا ...
أى لاشيء من هذه الدنيا ينفعك لأن المال تعبى عن الثروات عموما منها تنوعت ...
والبنين تعبى عن الأولاد جميعا منها تنوعت ... وكل مولود ولد ... فهو تعبى عن
الناس جميعا ...

أى لا ينفع شىء من هذه الدنيا وزينتها وفتنها ...

الا من أتى الله ... بقلب سليم ١٦

وهذه هى دعوة ابراهيم ... أو فكرة ابراهيم ... أو خلاصة رسالته ...
القلب السليم ... هو وحده الذى ينفع الإنسان يوم القيامة ...
ثم انظر إلى تعبيره ... إلا من أتى الله ...

إلا من جاء ربه ... وذلك يكون في الدنيا ، وفي الآخرة ...
أى إلا من عاش في الدنيا سليم القلب ...
وإلا من مات ولقى الله وهو سليم القلب .
وإلا من بعث يوم القيامة وهو سليم القلب ...
فما هو القلب السليم ؟
أوما هو أنموذج القلب السليم الذى ينبغى على كل إنسان إلى يوم القيامة أن يحتذيه ؟
هو قلب إبراهيم !!
ما دليل ذلك ؟
دليله قول الله تعالى : وإن من شيعته لإبراهيمَ اذ جاء ربه بقلب سليم ...
إن الله يعلن أن إبراهيم قد جاءه بقلب سليم ...
ويعان فى موضع آخر أنه لا ينفع يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم ...
فماذا نفهم من هذا ؟
نفهم شيئا عجيبا جديدا ...
أن قاب إبراهيم الأنموذج الذى يرتضيه الله تعالى للناس جميعا ...
وأن قلب إبراهيم هو القلب الذى يحبه الله تعالى ...
وأن قلب إبراهيم هو القلب الذى ينجو صاحبه يوم القيامة ...
ولقد قالوا فى القلب السليم أقوالا ...
وعددوا فى تعريفه تعديدا ...
ولكن أقوالهم كلها تبقى ناقصة ... تشير إلى الحقيقة ... ولا يحددها ...
وإنما القول الفصل ... والقول الحق ... فى القلب السليم ... أن نقول :
القلب السليم قلب إبراهيم ...
إذا قلنا ذلك فقد أصبنا الحقيقة كاملة ...
لأن الله تعالى نص على ذلك : اذ جاء ربه بقلب سليم ...

ولا قطع وراء ذلك ... ولا تجديد بعد ذلك ...
ان الله نفسه يعلن بنفسه أن ابراهيم جاءه بقلب سليم ...
ومن أعلم بقلوب الناس من الله ؟
وحين نقول أن القلب السليم هو قلب ابراهيم : انما تقدم للناس نموذجاً عملياً
للقلب السليم ...
فلا تركهم يتيهون في متاهات التعاريف وانما نرشدكم مباشرة الى شخصية ذات
قلب سليم ...
فاذا قالوا بعد ذلك : فما هو القلب السليم ...
قلنا لهم : هو ابراهيم ... تابعوه ... وادرسوه ... وافهموه ... وادركوه ؟ ...
تدركوا بعد ذلك ما هو القلب السليم ؟
ان ابراهيم هو ذروة القلب السليم ...
هو قمة القلب السليم ...
وان حياته كلها ... ظاهرها وباطنها ...
هي هذا القلب السليم ...
فان سألتني بعد ذلك : ما هو القلب السليم ؟
قلت لك : اعرف ابراهيم وتابع خطاه ... وحاول أن تستنير بنوره ... تدرك ما هو
القلب السليم !!!

ولا أخاف ما تشركون به ١٤

واشتعلت المعركة بين ابراهيم وبين قومه ...
وانطلق يشرح فكرته للناس ... وينشر دعوته ... ويبسطها في المجتمع ...
فأثارت جدلاً عنيفاً جداً ...
هزت المجتمع كله من أساسه .

ولم يعد للناس من حديث الا هذه الفكرة الجديدة التي ابتدعها ابراهيم !
قال تعالى : « وحاجه قومه : قال : أتُحاجوني في الله وقد هدان ؟ ! ، ولا أخافُ
ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئاً ، وسيع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ؟ .
وكيف أخافُ ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ !
فأى الفريقين أحقُّ بالأمن ، ان كنتم تعلمون ؟ . الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم
بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا ابراهيمَ على قومه ،
نرفع درجاتٍ من نشاء ، ان ربك حكيمٌ عليمٌ . » [الأنعام ٨٠ - ٨٣]

« وحاجه قومه » أى خاصموه .

أوشرعوا في مغالبته في أمر التوحيد تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة في حضيض التقليد .
وأخرى بالتخويف والتهديد .

« قال » منكرًا عليهم محاجتهم له ، مع قصورهم عن تلك المرتبة ، وعزة المطلب ،
وقوة الخصم ، ووضوح الحق .

« أتُحاجونى فى الله » أى فى شأنه تعالى ووجدانيته سبحانه .

انه يستبعد أن يحاجوه فى أمر فرغ منه ، وشاهده فى عين اليقين .

« وقد هدان » فان كونه مهدياً من جهة الله تعالى ، ومؤيداً من عنده سبحانه .

فما يوجب الكف عن محاجته ، وعدم المبالاة بها ، والالتفات إليها اذا وقعت .

وقيل : هدان الى الحق بعد ما سلكت طريققتكم بالقرض والتقدير ، وتبين بطلانها
تبيناً تاماً كما شاهدتموه .

وعلى القولين ، لا يقتضى سبق ضلال له وجهل بمعرفة ربه جل وعلا .

« ولا أخاف ما تشركون به » جواب عما خوفوه — عليه السلام — من إصابة

مكروه من جهة معبودهم الباطل .

وهذا التخويف قيل : كان على ترك عبادة ما يعبدونه .

وقيل : بل على الاستخفاف به واحتقاره بنحو الكسر والتقصيص .

قيل : واعلم ذلك حين فعل بآلهم ما فعل مما قص الله تعالى علينا .
 والباء سببية : أى الذى تشركون بسببه .
 « الا أن يشاء ربى شيئا » أى لا أخاف ما تشركون به فى وقت من الأوقات الا فى وقت مشيئته تعالى اصابة مكروه لى من جهتها .
 وذلك انما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فى ايجاده واحداثه .
 أو : ولكن أخاف أن يشاء ربى خوفا مما اشركتم به .
 وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة الى ضميره — عليه السلام — اشارة الى أن مشيئته تلك ان وقعت غير خالية عن مصلحة تعود عليه بالثبوت .
 أو اظهر منه — عليه الصلاة والسلام — لانتقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لامره ، واعتراف بكونه تحت ملكونه وربوبيته تعالى .
 « وسع ربى كل شيء علما » أى أحاط بكل شيء علما .
 فلا يبعد أن يكون فى علمه سبحانه انزال المكروه بى من جهتها بسبب من الاسباب .
 « أفلا تتذكرون » أى أتعرضون بعد ما أوضحت لكم عن التأمل فى أن آلهتكم بمعزل عن القدرة على شيء ما من النفع أو الضرر . فلا تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى .
 « وكيف أخاف ما أشركتم ولا يتخافون أنكم أشركتم بالله » حيث لم يخافوا فى محل الخوف فلأن لا يخاف — عليه السلام — فى محل الأمن أولى وأحرى .
 أى كيف أخاف أنا ما ليس فى حيز الخوف أصلا ، وأنهم لا يخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات وأهولها وهو اشراككم بالله تعالى الذى فطر السماوات والأرض ما هو من جملة مخلوقاته الذى فطر .

وعبر عنه بقوله سبحانه : « ما لم ينزل به عليكم سلطانا » أى حجة على طريق التهكم .

« فأى الفريقين أحق بالآمن » المراد بالفريقين ، الفريق الآمن فى محل الأمن ، والآمن فى محل الخوف .

فأينا أحق بالآمن ؟ أنا أم أنتم ؟
« إن كنتم تعلمون » أى من هو أحق بذلك ، أو أى شىء من الأشياء ، أو ان كنتم من أولى العلم فأخبروني بذلك .

أولئك لهم الآمن ؟

« الذين آمنوا » استئناف يحتمل أن يكون من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذى لا محيد عنه .

ويحتمل أن يكون من جهة ابراهيم - عليه السلام - أى الفريق الذين آمنوا بما يجب الإيمان به .

« ولم يلبسوا » أى يخلطوا .

« إيمانهم » ذلك

« بظلم » أى شرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله تعالى وان عبادتهم لغيره سبحانه معه من ثبات إيمانهم ، وأحكامه ، لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما ينبىء عنه قولهم : (ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى)

والى تفسير الظلم بالشرك هنا ذهب أكثر المفسرين .

ويدل عليه ما أخرجه الشيخان أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة رضى الله تعالى عنهم وقالوا : أينالم يظلم نفسه ؟

« فقال صلى الله عليه وسلم : ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان عليه السلام لابنه (يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) .

وقيل : المراد به المعصية .

واستدلوا بالآية على أن صاحب الكبيرة لا آمن له ولا نجاة من العذاب ، حيث دلت
بتقديم لهم الآتي على اختصاص الأمن بمن لم يخلط إيمانه بظلم أى بفسق .
الخلاصة أن الأمن فى الدنيا والآخرة يتحقق لمن لم يشرك بالله أصلا . ولم يظلم ولم
يعص فرعا .

« أولئك لهم الأمن » وقيل: المراد من الأمن الأمن من خلود العذاب . لا الأمن
من العذاب مطلقا .

« وهم مهتدون » الى الحق ومن عداهم فى ضلال مبين .

نرفع درجات من نشاء ؟ !

« وتلك حجتنا » اشارة الى ما احتج به ابراهيم — عليه السلام — وفى اضافته الى
نون العظمة من التفخيم ما لا يخفى .

« آتيناه ابراهيم » أى أرشدناه اليها أو علمناه اياها .

« على قومه » أى آتيناه ابراهيم حجة على قومه .

« نرفع درجات » أى رتبنا عظمة عالية من العلم والحكمة .

« من نشاء » من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة ؛

وايثار صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة فيما بين المصطفين الأخيار ،

غير مختصة بابراهيم — عليه السلام —

« ان ربك حكيم » أى فى كل ما يفعل من رفع وخفض .

« عليم » أى بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة .

وفى قوله تعالى « درجات » اشاره الى علو الدرجات التى رفع الله تعالى اليها

ابراهيم ...

درجات !! ؟

عالية جدا ... رفيعة جدا ...

استمرار على الدعوة؛

ويقول تعالى : « وإبراهيمَ إذ قالَ لقومه : اعبدوا اللهَ ، واتقوه ، ذلكم خيرٌ لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دونِ اللهِ أوثاناً ، وتخلقون أفسكاً ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزقَ ، واعبدوه ، واشكروا له ، اليه ترجعون . وان تكذبوا فقد كذب أئمة من قبلكم ، وما على الرسول الا البلاغُ المبين . » [العنكبوت ١٦ - ١٨]

« وإبراهيمَ إذ قالَ لقومه » وما ينبغي ذكره إبراهيم ، إذ قال لقومه ... أرسلناه حين تكامل عقله ، وقدر على النظر والإستدلال ، وترقى من رتبة السكال الى درجة التكامل ، حيث تصدى لإرشاد الخلق الى طريق الحق .

وقيل : قبل البعثة .

« اعبدوا الله » وحده .

« واتقوه » أن تشركوا به سبحانه شيئاً .

« ذاكم » أى ما ذكر من العبادة والتقوى .

« خير لكم » من كل شيء فيه خيرية ، أو مما أنتم عليه ...

« ان كنتم تعلمون » أى الخير والشر ، وتميزون أحدهما عن الآخر ...

« انما تعبدون من دون الله أوثاناً » أى ما تعبدون من دونه تعالى الا أوثاناً ، هى فى

نفسها تماثيل مصنوعة لكم ، ليس فيها وصف غير ذلك ...

« وتخلقون أفسكاً » أى وتكذبون كذباً ، حيث يسمونها آلهة ، وتدعون أنها

شفعاء عند الله سبحانه .

أو تعلمونها وتنحتونها للأفك والكذب .

« ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً » لا يستطيعون أن يرزقوكم

شيئاً من الرزق .

« فابتغوا عند الله الرزق » أى كله .

« واعبدوه » عز وجل وحده .

« واشكروا له » على نعمائه .

« إليه ترجعون » استعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر ، فإنه إليه ترجعون .

« وإن تكذبوا » فإن تصدقوني فقد فزتم يسعادة الدارين ، وأن تكذبوا أى تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه تعالى ترجعون بالبعث ...

« فقد كذب أمم من قبلكم » فلا تضروني بتكذيبكم ، فإنه قد كذب أمم قبلكم ورسلكم ، فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً ، وإنما ضروا أنفسهم ، حيث تسبب لما حل بهم من العذاب ، فكذا تكذيبكم إياي .

« وما على الرسول إلا البلاغ المبين » أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك ، وما عليه أن يصدق قومه البتة ، وقد خرجت من عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه ، فلا يضرني تكذيبكم بعد ذلك أضلا .

فساقها لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتنفيس عنه بأن أباه خليل الرحمن كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك القوم ، وتكذيبهم ...
إن إبراهيم يدعو قومه بشتى الوسائل ...

إنه هنا يبين لهم أنهم ما يعبدون فى الحقيقة الا أوثانا حقيرة لا وزن لها ... مجرد تماثيل لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئاً ...

وانهم بذلك يخلقون افكا ... أى يخترعون كذبا عظيما ... لا أصل له من الحقيقة ...
ثم يمضى بهم الى أمعائهم ... الى قمة العيش التى تتعب الإنسان دائماً ...
فيقول : ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ...
أى أن الأرزاق ليست ملكا لهؤلاء ، ولا هم يستطيعون ...
إذا من يملك الرزق ؟

فابتغوا عند الله الرزق ... اطلبوا الرزق من الله ... لأنه هو الرزاق ...

واعبدوه ... اتجهوا الى الله مباشرة بدون هذه الأصنام ... وبدون هذه
الوساطات ...

اتجهوا اليه هو وحده ...

واشكروا له ... وليكن شكركم له وحده ... فهو المنعم ... وهو صاحب النعم كلها...
ثم يخوفهم بعد أن رغبتهم ... وحذرهم بقوله : اليه ترجعون ... رغم أنوفكم
عائدون اليه ، وهو محاسبكم عما قدمتم ... فأين تذهبون ؟
ثم يعلن إبراهيم ناموسا خالدا من نوااميس البشر ... فيقول : وان تكذبوا فقد
كذب أمم من قبلكم ...

ليس بمستغرب ما تفعلون ... ان تكذبيكم شيء طبيعي ... ليس مفاجأة لي ... انه
ناموس طبيعي ... فما من رسول الا وكذبه قومه ... وما أنا الا رسول ... شأنى شأن
غيرى من الرسل ... ويسرى على وعليكم ما سرى عليهم ...

ثم يعلن ناموسا آخر .. وما على الرسول الا البلاغ المبين ... ما أوجب الله على أى رسول
الا أن يبلغ رسالته الى الناس بلاغا واضحا ، بحيث تنقطع المعاذير ... ولا يكون لأحد على
الله حجة بعد الرسل ... أما أن يستجيب الناس أولا يستجيبون لرسالته ، فهذا ليس من
شأنه ، وما لم يكلفه به الله ...

لماذا ؟ ...

لأن دعوة الناس الى الله تقوم على حرية الفكر ، لا على الاكراه ، والقهر ...
فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ...

نفس الناموس ١٤

قال تعالى : « وان يكذبوك فَقَدْ كَذَّبْتَ قُلُوبَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، وَعَادٌ ، وَثَمُودٌ .
وقومُ إِبْرَاهِيمَ ، وقومُ لوطٍ . وأصحابُ مَدْيَنَ ، وكَذَّبَ مُوسَى ، فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ،
ثم أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ » [الحج ٤٢ - ٤٤]

« فأملت للكافرين » أمهاتهم حتى انصرفت حبال آجالهم .
« ثم أخذتهم » ثم أهلكتهم ..
« فكيف كان نكير » انكارى عليهم بتغيير ما هم عليه من الحياة ، والنعمة ، وعمارة
البلاد وتبديله لضده ؟

إنه نفس الناموس الذى أعلنه إبراهيم إلى قومه ...
كل هؤلاء كذبوا رسلهم ...
ولوجئت كل يوم البشرية برسول ، اكذبت كل يوم ذلك الرسول ...
إنه ناموس عام ... لا يتخلف ... ليس فقط هؤلاء هم المكذبون ... وإنما كل أمة
كانت أو تكون ، سوف يكون موقفها من رسولها هو التكذيب ...
فهل كان ذلك التكذيب ذا أثر على رسالات الرسل ؟ ...
أو هل استطاع التكذيب أن يوقف كلمة الحق ؟
كلا ... سوف تظهر كلمة الحق ، وسوف تنتصر ، وسوف يذهب هؤلاء المكذبون
إلى الجحيم ... كما يذهب الغشاء ، وأعواد الحطب إلى الحريق ...

وجعلها كلمة باقية ؛

قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه ، وقومه : إني براء مما تعبدون . إلا الذى
فطرني ، فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه ، لعلمهم يرجعون » .
[الزخرف ٢٦ - ٢٨]

« وإذ قال إبراهيم » واذكر لهم وقت قوله ...
« لأبيه » آزر .

« وقومه » المكين على التقليد ، وكيف تبرأ مما هم فيه بقوله ...
« إني براء مما تعبدون » وتمسك بالبرهان .
وهو نعى على أهل مكة أن يقلدوا تقليداً أعمى .

وكان الأولى لهم أن يقلدوا إبراهيم ، وينظروا نظر المتفكر .
 « إلا الذى فطرنى » إننى براء من آلهة تعبدونها ، غير الذى فطرنى ...
 « فإنه سيهدين » يثبتنى على الهداية أو سيهدين إلى وراء ماهدانى إليه .
 « وجعلها » الضمير لإبراهيم أو الله ، والضمير المنصوب لكلمة لا إله إلا الله .
 « كلمة باقية فى عقبه » فى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ، ويدعو إلى
 توحيده عز وجل .

« اعلمهم يرجعون » جعلها باقية فى عقبه ، كي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد .
 أو لسبب بقائها فيهم ...
 والآن ... ماهى هذه الكلمة الباقية ؟
 وما معنى الباقية ؟

أما الكلمة الباقية ؟ فهى لا إله إلا الله ... وأما بقاؤها فهو بمعنى خلودها ...
 أى جعلها الله تعالى كلمة خالدة فى نسل إبراهيم ... اعلمهم يرجعون ... أى لعل الناس
 جميعا يرجعون عن الشرك والكفر ...
 إن الله تعالى قد ضمن خلود فكرة التوحيد فى نسل إبراهيم ...
 راحة بالبشرية كلها ... أن تضل وتهوى ...

لا كيدن أصنامكم ١٩

قال تعالى : « وتالله لا كيدن أصنامكم بعد أن ثولوا مذبرين . فجعلهم جذاً
 إلا كبيراً لهم اعلمهم إليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بالهتنا ١٩ إنه لمن الظالمين .
 قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » . [الأنبياء ٥٧ - ٦٠]

« وتالله لا كيدن أصنامكم » أى لا جتهدن فى كسرها ...
 وأصل الكيد الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، وهو يستلزم الإجتهد .
 وفيه إبدان بصعوبة الإنهاز ، وتوقفه على استعمال الحيل المحتاطوا فى الحفظ فيكون

الظفر بالطلوب أم في التبكيت .

وكانت الأصنام على ما قيل اثنين وسبعين

« بعد أن ثولوا مدبرين » من عبادتها إلى عيدكم .

« فجعلهم » أى فولوا ، فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم ...

« جذاذا » أى قطعاً ، من الجذ الذى هو القطع ، فهو كالحطام من الحطم الذى .

هو الكسر .

روى : أن آزر تخرج به فى عيد لهم فبدؤا بيت الأصنام فدخلوه ، فسجدوا لها ،

ووضعوا بينها طعاماً ، خرجوا به معهم ...

وقالوا : إلى أن يرجع ، باركت الآلهة طعامنا ... فذهبوا ...

فلما كان إبراهيم فى الطريق ، ثنى عزمه عن السير معهم ...

فقعد ... وقال : انى سقيم .

فدخل على الأصنام وهى مصطفة ، وثم ضم عظيم ، مستقبل الباب ، كان من ذهب ،

وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ...

فكسر الكل بفأس كان فى يده ، ولم يبق الا الكبير ...

وعلق الفأس فى عنقه ...

وقيل : فى يده ...

« الاكبيراً لهم » أى الأصنام ، كما هو الظاهر ...

والكبر اما فى المنزلة أو فى الجثة .

« لعلمهم اليه يرجعون » ، استئناف لبيان وجه الكسر ، واستبقاء الكبير ... »

وضمير إليه — عند الجمهور — عائد إلى إبراهيم ...

أى لعلمهم يرجعون إلى إبراهيم ، لا إلى غيره ...

فيحاجهم ، ويبيكتهم ، بما سيأتى من الجواب ...

إن إبراهيم يريد أن يدخل مع قومه معركة عملية ...

وقيل : الضمير لله تعالى ...

أى لعلهم يرجعون إلى الله تعالى ، وتوحيده ، حين يسألونه عليه السلام ، فيجيئهم ،
ويظهر عجز آلهتهم ...

وقيل : الضمير للكبير ...

أى لعلهم يرجعون إلى الكبير ...

كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات ...

فيقولون له : ما هؤلاء ، مكسورة ، وما لك صحيحاً ، والفأس في عنقك أو في يدك ؟!
وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، ويظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم .
ويحتمل أنه عليه السلام يعلم أنهم لا يرجعون إليه ، لكن ذلك من باب الاستهزاء
والاستعجال .

واعتبار حال الكبير عندهم ...

فإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه في حل المشكل ...

ولعل هذا الوجه أسرع الأوجه تبادراً ...

لكن جمهور المفسرين على الأول ...

« قالوا » أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا .

« من فعل هذا » الأمر العظيم .

« بآهتنا » قالوه على طريقة الإنكار والثوبيخ والتشنيع ...

والتعير هنا بالآلهة ، دون الأصنام أو هؤلاء المبالغة في التشنيع ...

« إنه لمن الظالمين » نأى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآهتنا ، إنه معدود من جملة

الظلمة ...

إما لجراته على إهانتها ، وهى الحفية بالأعظام .

أو لتعريض نفسه للهلكة ...

أو لإفراطه في الكسر والحطم ...

والظلم على الأوجه الثلاثة بمعنى وضع الشيء في غير موضعه .،
« قالوا » أى بعض منهم ، وهم الذين سمعوا قوله — عليه السلام — (وتالله لأكيدن
أصنامكم) .،

« سمعنا فتى يذكرهم » يعيهم ، فلعله الذى فعل ذلك بهم ..
« يقال له إبراهيم » يطلق عليه إبراهيم ، أو يسمى إبراهيم ...

ألا تأكلون ؟

قال تعالى : « وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه
وقومه ماذا تعبدون ؟! . أفكأ آلهة دون الله تريدون ؟! . فما ظنكم برب العالمين ؟
فنظر نظرة في النجوم . فقال : إني سقيم . فتوكلوا عنه مُدبرين . فراغ إلى آلهتهم
فقال : ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون ؟! . فراغ عليهم ضرباً باليمين . »

[الصفات ٨٣ — ٩٣]

« وإن من شيعته » أى ممن شايع نوحا ، وتابعه فى أصول دينه .

أى وإن من طبقته ، ودرجته ...

« لإبراهيم » وإن اختلفت فروع شريعتيهما .

أو ممن شايعه فى التصلب فى دين الله تعالى ومصايرة المكذبين .

« إذ جاء ربه » ... متى شايعه ؟ . شايعه إذ جاء ربه ...

« بقلب سليم » أى سالم من جميع الآفات . كفساد العقائد ، والنيات السيئة ، والصفات

القبیحة ، كالحسد والغل ، وغير ذلك ...

وقيل : تخصيص السلامة بالسلامة من الشرك ...

أو : سالم من العلائق الدنيوية بمعنى أنه ليس فيه شيء من محبتها والركون إليها وإلى

أهلها ...

والمراد بمجيئه ربه بقلبه إخلاصه قلبه له تعالى ...

أى إذ أخلص عليه السلام لله تعالى قلبه السليم من الآفات ...

أو المبتقطع عن العلائق ...

أو الحزين المنكسر ...

وقيل : معنى مجيئه ربه بقلبه أنه أخلص قلبه لله تعالى ، وعلم سبحانه ذلك منه كما يعلم الغائب وأحواله بمجيئه وحضوره .

وعندى أن المعنى : أنه فتح له حين جاء بقلب سليم ...

ولذلك لم يقل : إذ جاء ربه سليم القلب ...

« إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ ! »

أى : أى شيء تعبدون ؟ !

« أفكآ آلهة دون الله تزيدون ؟ ! » أتريدون آلهة دون الله تعالى أفكآ ؟ أى

لأفك ... بأنهم على أفك وباطل في شركهم ...

« فما ظنكم برب العالمين » أى : أى شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه

ربا للعالمين ؟ !

أشككم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية ؟ !

أو : أعلمتم أى شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى ؟ !

أو : أى شيء ظنكم بعقابه عز وجل حتى اجتراءتم على الأفك عليه تعالى ولم تخافوا ؟ !

وكان قومه يعظمون الكواكب المعروفة ، ويعتقدون السعود والنحوس ، والخير

والشر في العالم منها ، ويتخذون لكل كوكب منها هيكلا ، ويجعلون فيها أصناما تناسب

ذلك الكواكب بزعمهم ، ويجعلون عبادتها وتعظيمها ذريعة الى عبادة تلك الكواكب ،

واستنزال روحانياتها ...

وكانوا يستدلون بأوضاعها على الحوادث الكونية عامة أو خاصة ...

فاتفق ان دنا لهم يوم عيد لهم يخرجون فيه ...

فأرسل ملكهم إلى إبراهيم ، ان غدا عيدنا ، فاحضر معنا ، فاستشعر حصول الفرصة

لحصول ما عسى أن يكون سببا لتوحيدهم ...

فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لا ينكرونه عليه ...
« فنظر نظرة في النجوم » أى فتأمل نوعاً من التأمل فى أحوالها ...
وهو فى نفس الأمر على طراز تأمل الكاملين فى خلق السموات والأرض ، وتفكرهم
فى ذلك ، إذ هو اللائق به عليه السلام ...
واسكنه أوههم أنه يفكر فى أحوالها من الإتصال والتقابل ونحوها من الأوضاع
التي تدل بزعمهم على الحوادث ...
أيرتب عليها ما يتوصل به على غرضه الذى يكون وسيلة إلى انقاذهم بهم فيه ...
« فقال » أى لهم .
« إني سقيم » أراد أنه سيسقم ، ولقد صدق — عليه السلام — ، فان كل إنسان
لا بد أن يسقم ، أى يمرض .
وقيل : أراد مستعد للسقم الآن .
أو : سقيم القلب لكفرهم . والقوم توهبوا أنه أراد قرب اتصافه بسقم لا يستطيع معه
الخروج معهم إلى معبدهم .
« فتولوا عنه مدبرين » أى أعرضوا وتركوا قربه ...
والمراد أنهم ذهبوا إلى معبدهم وتركوه ...
أو : فأعرضوا عنه هارين مخافة العبدوى ، على اعتبارانه مريض بالطاعون .
« فراغ إلى آلهتهم » فذهب بخفية إلى أصنامهم التي يعبدون .
« فقال » للأصنام استهزاء .
« ألا تأكلون » من الطعام الذى عندكم ؟ !
وكان المشركون يضعون فى أيام أعيادهم طعاماً لدى الأصنام لتبرك عليه .
« ما لكم لا تنطقون ؟ ! » بجوابى .
« فراغ عليهم » قال مستعلياً عليهم .
« ضرباً » أى يضربهم ضرباً .

« باليمين » أى باليد اليمنى .
روى أنه كان يجمع يديه فى الآلة التى يضربها بها ، وهى الفأس ، فيضربها
بكمال قوته ...
إن إبراهيم قد صب كل غيظه على هذه الأصنام ، فهشمها تهشياً !!

القبض على إبراهيم ؟

وتحركت أجهزة الدولة كلها ...
وغضب الملك غضباً شديداً ...
وغضبت الدولة ... وغضب الشعب كله ...
إن الآلهة كلها قد حطمت ... إن أصابع الاتهام كلها تشير إلى هذا الفتى ...
هذا الشاب المسمى إبراهيم ...
هذا الذى ملأ المجتمع كله سخرية من الآلهة ... ومن عباديها ...
حتى بلغت به الجرأة يوماً أن يهدد تهديداً علنياً ويقول : قائله لا كيدن أصنامكم !!
إذا لابد من القبض عليه ... ولا بد من عقابه عقاباً أليماً !!
وحين تجمع الدولة ، حكومة ، وشعباً ، على الخرافات ... يصبح الأمر مضحكاً
غاية الضحك ...

قال تعالى : « قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون » .

[الأنبياء ٦١]

« قالوا » أولئك القائلون .
« فأتوا به » أى احضروه .
« على أعين الناس » مشاهداً معايناً لهم على أتم وجه ...
« لعلمهم يشهدون » أى يحضرون عقوبتنا له ...
وقيل : يشهدون بفعله .

أو : بقوله ذلك .

كأنه قيل : فإذا فعلوا به بعده ذلك ، هل أتوا به أولا ؟ ! .

فأتوا به ! ؟ ...

اقبضوا على المجرم .. اقبضوا على هذا الذى حطم آلهتنا ...

وأودع إبراهيم السجن ...

ومكث به حتى أعدوا للمحاكمة ، وأذاعوا على الشعب أنه تم القبض على المجرم

الآثيم ، الذى حطم الآلهة ، اللعين ...

وسوف يحاكم يوم كذا ، الساعة كذا ...

وسيرأس حلالة الملك المحاكمة بنفسه ... والدعوة عامة للشعب كله ...

محاكمة علنية ؟ !

وقبض على إبراهيم ... قبضت عليه الدولة الغاضبة ...

واشترك فى القبض عليه الشعب الثائر ...

لقد كان كل انسان فى الشعب يريد أن يبطش بإبراهيم ..

وكان كل إنسان يريد أن يظفر بشرف الأفراد بقتل هذا الذى سولت له نفسه أن

يحطم الآلهة ...

ويتحدى عقائد الشعب كلها !!

وجيء بإبراهيم مكبلا ...

وانعقدت المحاكمة الكبرى ...

وتدقق الناس جميعا يشهدون ...

لم يتخلف عن حضور تلك المحاكمة أحد ...

كل الناس ... كل الرجال ... كل النساء ...

كل الشيوخ ... كل الأطفال ...

كل الرسميين ... كل الشعب ...

الجميع قد اجتمعوا في ذلك اليوم الرهيب ... ليشهدوا محاكمة عدو الآلهة ...
عدو الشعب !!!

وفي المعبد الأكبر ... حيث هشم إبراهيم الآلهة وجعلها حطاما ...
دأت أعجب محاكمة في التاريخ !!

قال تعالى : (قالوا : أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟! قال : بل فعله كبيرهم
هذا ، فسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا : انكم أنتم الظالمون .
ثم نكسوا على رؤوسهم : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال : أفتعبدون من دون
الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ، ولما تعبدون من دون الله ، أفلا
تعقلون ؟! » [الأنبياء ٦٢ - ٦٧]

وقف ابراهيم ...

وحده ؟!!!!

وهنا العظمة من الرجل ...

وحده ؟!!!!

لادولة تسنده بجيوشها ...

ولا والد يؤيده بقوة وعصيته ...

ولا أتباع يشورون من أجله ، ويدافعون عنه ...

ولا أصحاب ينصرونه ، ومحاربون من حاربه ...

ولاحق مجرد آحاد في الشعب يعطفون عليه مجرد عطف ...

وحده ؟!!!!

وحدك يا ابراهيم ...

وقفت هذا الموقف ...

رأس الدولة ... نمرود ... الجبار الطاغية ... ضدك ...
والدولة بسلطاتها وجبروتها ... ضدك ...
ورجال الدين بكنهوتهم ... ومكرهم ... ضدك ...
والشعب كله ... ضدك ...
وواجهت الموقف ... وحدك !!!
يا بى أنت وأمى ... يا خليل الله ... حين وقفت ... وحدك ...
كل الناس ساخطون عليك ...
كل الطاقات موجهة إليك ... تريد أن تنتقم منك ...
أى أعصاب ... كانت أعصابك ؟
وأى عزم كان عزمك ؟
وأى قوة كانت تسندك ؟
لا يدرك ... يا إبراهيم ... ذلك المقام منك ... الا من اتخذك خليلا ...
وأعلن بدء المحاكمة ...
ودخل إبراهيم مقبوضا عليه ... يصب الناس عليه سخطهم ولعناتهم !!!

الطاغية ... يدعى الألوهية ؟

ودخل صاحب الجلالة المقدسة ، الملك النمرود ... فى أبيته وسلطانه ...
ورأس جلسة المحاكمة بنفسه ...
وجىء إبراهيم ، وقد قيدوه بالسلاسل ، واحاطوه بالحراسة ...
وانتفش الملك كالتاووس ، واراد أن يعلن أمام الشعب عظمته ، ويؤكد ألوهيته ...
للجماهير المغفلة ، التى يستعبدوها كالبهائم ...
فقال فى استعلاء الجبابة ، واستعظام الاكسرة ، موجه الكلام الى إبراهيم : أرايت
الهك الذى تعبد ، وتدعو الى عبادته ماهو ؟

فقال ابراهيم في ثبات النبوة ويقين الرسل : ربى الذى يحى ويميت .
فقهقه النمرود ... وازداد اختيالا وعجبا ... ثم قال : أبا أحيى وأميت ...
وقالها المذكور فى وقاحة وتعاضم ... واستمع اليها الشعب المنفل فى اعجاب
وتصديق !!!

فقال ابراهيم : كيف ذلك ؟
قال الملك : آخذ رجلين ، قد استوجبا القتل ، فأقتل أحدهما ، فأكون قد أمتته ، وأعفو
عن الآخر ، فأكون قد أحييته

منطق عجيب ... ولكنه منطق جبار عنيد ...
واستمع الشعب كله ... وكاد يصدق ما يزعم الملك ...
وللكلام اذا صدر عن أولى السلطان والجبروت أثر فى نفوس المستضعفين !!
وهنا تلاأت النبوة فى أعماق ابراهيم ...
وألقى بها قوية ، لا تقاوم ...
فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ...
ونزلت على الملك كما ينزل الندى الصاعق على المصعوق ...
وانتظر الشعب أن يسمع اجابة الملك ... ولكنهم لم يسمعوا جوابا ...
لقد انهار الجبار ... وانهدم من اعماقه ...

ماذا يقول لابراهيم ؟
أيزعم له أنه يستطيع أن يأتى بالشمس من المغرب ، كما زعم له أنه يحى ويميت ؟
ماذا يفعل وابراهيم يطالبه أن يغير مشرق الشمس ويجعلها تشرق من الغرب بدلا من
الشرق ؟

إنه يطالبه بشيء محسوس ... يراه المجتمعون جميعاً ...
لقد هوى التحدى على رأسه فأسكتته ...
وظهر النمرود لأول مرة أمام شعبه ذليلاً ... لا يستطيع شيئا !!!

ولننظر الآن ماذا قال الله تعالى في تلك المحاوراة الخالدة التي كانت بين الملك إبراهيم .
قال تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ، أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ، إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُنْحِي وَيُمِيتُ ، قَالَ : أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ » . [البقرة ٢٥٨]

« أَلَمْ تَرَ » ألم تنظر ، ألم ينته علمك إلى قصة هذا الكافر الذي بسب له قولي له كيف
تصدي الحاجة من تكفلت بنصرته . وأخبرت بأني ولي له ، ولمن كان من شيعته ؟
أى قد تحققت رؤية هذه القصة العجيبة .

وتقررت بناء على أن الأمر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحدهم ممن له حظ من
الخطاب .

فلتكن في الغاية القصوى من تحقق ما ذكرته لك من ولايتي للمؤمنين . وعدمها
للكافرين .

ولتطب نفساً أيها الحبيب ، وأبشر بالنصر ، فقد نصرت الخليل ، وأين مقام الخليل
من الحبيب ؟ ! .

والمراد بالموصول نمرود بن كنعان بن سنجاريب .

وهو أول من تجبر وادعى الألوهية .

واختلف في وقتها والراجح أنها عند كسر الأصنام ، وقبل إلقائه في النار .

« في ربه » الإضافة إلى ضميره — عليه السلام — تشریف له وإيذان من أول

الأمر بتأييد وليه له في الحاجة ، فإن التربية نوع من الولاية . حاج : جادل .

« أن آتاه الله الملك » أى لأن آتاه الله تعالى ذلك .

والتعليل فيه على وجبين ، إما أن ابتاء الملك حمله على ذلك ، لأنه أورثه الكبر

والبطر ، فنشأت الحاجة عنهما .

ولما أنه من باب العكس في الكلام ، بمعنى انه وضع الحاجة موضع الشكر إذ كان من حقه أن يشكر على ذلك .

فعلى الاول العلة حقيقية . وعلى الثانى تهكمية .

« إذ قال ابراهيم : ربى الذى يحبى ويميت » ..

روى أنه قال بعد أن سجن لكسره الاصنام ، وإثر قول نمرود له ، وقد كان أوتى قبله الملك : من ربك الذى تدعوا إليه ؟

« قال : أنا أحبى وأميت » أراد — عليه السلام — يحيى ويميت ، يخلق الحياة والموت فى الاجساد .

وأراد اللعين غير ذلك .

فقد روى عنه أنه أتى برجلين ، فقتل أحدهما وترك الآخر ، وقال ما قال !

ولما كان هذا بمنزل عن المقصود ، وكان بطلانه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد ، والتعرض لإبطال مثل ذلك من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل ، أعرض الخليل — عليه السلام — عن إبطاله وأتى بدليل آخر أظهر من الشمس . . .

« قال ابراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » ..

روى أنه لم ينتقل إلى الحجة الأخرى حتى قال له : أحى من قتلته إن كنت صادقاً .

لكن لم يقص الله تعالى ذلك الإلزام علينا فى الكتاب اكتفاء بظهور الفساد جداً .

« فبهت الذى كفر » أى غلب وصار مبهوراً ، منقطعاً عن الكلام ، متحيراً لاستيلاء

الحجة عليه

أو : فغلب ابراهيم الكافر وأسكته « والله لا يهدى القوم الظالمين » إلى مناهج الحق

كما هدى أوليائه ،

أأنت فعلت هذا ؟

وفي المعبد ... حيث وقعت الجريمة .
وكانت المحاكمة ... انتفض الملك الطاغية ... الذي يرأس المحاكمة وسأله : أنت
فعلت هذا ؟ !

وفي التعبير منهي التحقير لإبراهيم ...
أأنت ؟ !!
أأنت أيها ... أيها الفتي التافه الذي لا وزن له ... جرؤت على هذا الأمر العظيم ؟ !
فعلت هذا ؟ ! ...

أأنت الذي حطم هذه الآلهة ؟ !
يشيرون إلى حطام الآلهة المتناثرة من حولهم ...
« بآلهتنا » التي نعبدها ونقدسها ونعظمها !!!
يا إبراهيم « أيها المسمى بإبراهيم ؟ وساد صمت عميق ... رهيب ... بعد أن ألقى الملك
هذا السؤال على المتهم !!

وتطلع الشعب كله ... وفيهم آزر ... ذلك الأب الغاشم ...
تطلعوا جميعا ... ماذا يقول إبراهيم ؟
أيعترف بجريمته ... وهو يعلم أن اعترافه معناه الموت المحقق ؟
أم ماذا يكون موقفه ؟ !

بل فعله كبيرهم هذا ؟ !

وفي ذلك الصمت الرهيب ...
تكلم إبراهيم ... ووقفت الدنيا كلها تسمع ...
ووقفت السماء تنصت ...
« قال : بل فعله كبيرهم هذا » !
وأشار إبراهيم إلى الصنم الأكبـر الذي علق الفأس في عنقه ...

استهزاء بهم... وتبيننا لهم أن هذا الكبير هو الفاعل ، ليعلموا أنه لا ينفع ولا يضر...
إن إبراهيم لا يعنى بذلك إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الابلغ ، متضمنا فيه
الاستهزاء والتضليل .

إن إبراهيم يعترف ...
ثم واصل إبراهيم استهزائه بهيئة الحكمة فقال : « فسألوه إن كانوا ينطقون » ...
أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا ...

ثورة فى الشعب ؟ !

« فرجعوا إلى أنفسهم » فتفكروا ، وتدبروا ، وتذكروا أن مالا يقدر على دفع
المضرة عن نفسه ، ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه ، يستحيل أن يقدر
على دفع مضرة عن غيره ، أو جلب منفعة له ، فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟ !

« فقالوا » أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم ...
« إنكم أنتم الظالمون » أى بعبادة مالا ينطق
أو بسؤالكم إبراهيم ، وعدولكم عن سؤالها وهى آلهتكم
أو بغفلتكم عن آلهتكم ، وعدم حفظكم إياها .
بأن اتهمتم إبراهيم والفأس فى عنق الكبير .
ما هذا ؟ ...

لقد أحدث كلام إبراهيم دويا فى المجتمعين ...
إن الحاضرين جميعا بدءوا ينشقون على أنفسهم ...
لقد أصاب كلام إبراهيم من كثير منهم مقتلا ...
لماذا تمأ كمن إبراهيم ؟
لماذا تسألوه وآلة الجريمة معلقة فى عنق الصم الأكبر ؟
ما شأن إبراهيم وهذه الجريمة ؟
سألوا الآلهة ... فان لم تنطق فانها ليست بآلهة ...

هناك تفاعلات ... هناك دوامات بدأت تتلاطم في رؤوس الناس ...
« ثم نكسوا على رؤسهم » أصل النكس قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله .
أى أطرقوا رؤسهم خجلا وحيرة .
إن هيئة المحكمة كلها في حيرة ، في خجل ...
ماذا تقول لإبراهيم ؟
ان إبراهيم قد ألقمها حجرا ...
ولكن هل يتقهقرون أمامه ... أمام الشعب النائر ... الذى يريد الإنتقام لآلهته
مهما كان الثمن ؟!
واستجمعوا شجاعتهم ، وقالوا : « لقد علمت ماهؤلاء ينطقون » لا يخفى علينا
وعليك أيها المبكت بأنها لا تنطق أنها كذلك ، وإنا إنما اتخذناها آلهة مع العلم بالوصف .
وانبعث إبراهيم يجلجل بكلمة الحق أمام الشعب كله ...
« قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ !
أتعلمون ذلك فتعبدون أصناما لا تنفعكم شيئا من النفع ولا تضركم شيئا من الضر ؟ !
« أف لكم ولما تعبدون من دون » تضجر منه - عليه السلام - من إصرارهم على
الباطل بعد انقطاع العذر ووضوح الحق وهو اسم فعل بمعنى تضجر .
« أفلا تعقلون » ألا تفكرون فلا تعقلون قبح صنعكم ؟ !
ودوى بها إبراهيم ... فدوت في قلوب الناس جميعا ...
وزلزلتهم جميعا ... فانشقوا فرقا ... فريق يكاد يقتنع بكلام إبراهيم ...
وآخرون أعماهم الضلال ... فلا يرون إلا إبادة إبراهيم !!
وتحقق لإبراهيم ما يريد ...
تحقق له أن يجتمع الشعب كله ... ليحاكمه ...
فتكون فرصة يعلن إليهم الحقيقة ... ويثبت فيهم كلمة الحق ..
وقد وقع له ما يريد ...

أتعبدون ما تنحتون ؟!

ويسجل الله تعالى تلك المحاكمة الرهيبة ... وذلك الحوار الخالد في موضع آخر فيقول : « فأقبلوا إليه يزفون » . قال : أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون ؟! » . [الصافات ٩٤ - ٩٦]

« فأقبلوا إليه » أى إلى إبراهيم بعد رجوعهم . من عيدهم . وسؤالهم عن الكاسر وقولهم : فأتوا به على أعين الناس ...

« يزفون » أى يسرعون من زف النعام ، أسرع خلطة الطيران بالمشى ...

أى أنهم انطلقوا يبحثون عنه ...

ليقبضوا عليه ... فأقبلوا إليه يزفون ... أى يسرعون للقبض عليه حتى لا يفلتهم ..

أو أقبل الشعب كله مسرعا لحضور المحاكمة ، ومشاهدتها ... لحرصهم جميعا عليها ..

« قال » بعد أن أتوا به ، وجرى ماجرى من المحاوره ...

« أتعبدون ما تنحتون » الذى تنحتونه من الأصنام !!

وتوبيخهم على عبادة النحت مع أنهم يعبدون الأصنام ، وهى ليست نفس النحت

للاشارة إلى أنهم فى الحقيقة إنما عبدوا النحت .

لأن الأصنام قبله حجارة ، ولم يكونوا يعبدونها ، وإنما عبدوها بعد أن نحتوها .

ففى الحقيقة ما عبدوا إلا نحتهم .

« والله خلقكم وما تعملون » أى خلقكم وخلق الذى تعملونه .

أى من الأصنام ...

الحكم .. بالاعدام حرقا ؟!

وتطلع الجميع ... ماذا يكون الحكم على إبراهيم ...

وساد صمت رهيب ... وتداول المحكمون ... ثم صدر حكمهم على إبراهيم ؟!

وكان حكما فيه كل مافي صدورهم من الغيظ ... والغضب عليه ...

وهاهو الحكم

« يعدم إبراهيم بن آزر حرقاً ... ويبني له بنيان عظيم ... وتشعل فيه نيران عظيمة ... ،
يشارك في إيقادها الشعب كله ... ثم يلقى إلى الجحيم ، أمام الناس أجمعين ... »
هذا هو الحكم الذى صدر على إبراهيم ... استنبطناه من آيات القرآن الكريم ، التى
زلت من رب العالمين ...

فمن أين لنا منطوق هذا الحكم ؟

قال تعالى : « قَالُوا : حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » .
[الأنبياء ٦٨]

« قالوا » أى قال بعضهم لبعض ، لما عجزوا عن الحاجة ، وضاعت بهم الحيل .
والقائل هنا هم هيئة الحاكمة ... لأنهم هم الذين ييدم القضية ، ومن حقهم التداول ،
والتشاور فيها ...

« حرقوه » فإن النار أشد العقوبات ولذا جاء لا يعذب بالنار إلا خالقها .

« وانصروا آلهتكم » بالإنتقام لها .

« إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » إِنْ كُنْتُمْ ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً ، فاختاروا له ذلك ،
وإلا فرطم فى نصرتها وكأنكم لم تفعلوا شيئاً مافيهما .

وأشار بذلك — على المشهور — الملك عمروذ ...

ومعنى ذلك أن الملك بنفسه كان يرأس الحاكمة ...

وهذا يعطينا فكره عن مدى أهمية تلك الحاكمة ...

التي رأسها الملك بنفسه ، واجتمع لها الشعب بأكمله ...

وهذا دليل من أدلة الحكم بالإعدام حرقاً ...

نأخذه من قوله تعالى (حرقوه) ...

أى اعدموه حرقاً ...

ولو وجدوا في رؤسهم وسيلة لتعذيبه أكبر من الإحراق لحكموا بها ...
ولكنهم لم يجدوا !!! •

ثم ماذا ؟ ...

ثم اليك قوله تعالى « قالوا : أبناؤنا له بنيانا ، فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيدا ... »
[الصفات ٩٧ - ٩٨]

« قالوا » أى قال أعضاء المحكمة .

« أبناؤنا له » اصدروا أسرا أن يبنى له ... له خصيصا ... من أجل تنفيذ احراقه ...

« بنيانا » عظيما ... هائلة ... يتسع لأكبر قدر يتصور من النيران ...

اشعلوا له جحما ... نارا هائلة ... لم يسمع بهوها ولا شدتها ، ولا طول مدة اشتعالها

أحد في الدنيا ...

ويشير إلى ذلك قولهم : « فألقوه في الجحيم » فألقوه قذفا في هذه النار المشتعلة

الهائلة ...

إن التعبير بالجحيم ... يدل على مدى النيران التي أشعلوها لاحراقه !!!

لقد وضعوا أحقادهم كلها ، وغلهم كله في مكبرهم هذا ...

« فأرادوا به كيدا » سوءا ، باحتيال ، فإنه لما قهرهم بالحجة ، قصدوا تعذيبه بذلك

لئلا يظهر للعامة عجزهم !!

وهذا هو الدليل الثانى الذى استنبطنا منه منطوق الحكم على إبراهيم ...

قوله : « حرقوه » ... أخذنا منه « يعدم إبراهيم حرقا »

وقوله : « أبناؤنا له بنيانا ، فألقوه في الجحيم » ... أخذنا منه « ويبنى له بنيان

عظيم ... وتشعل فيه نيران عظيمة ... يشرك في إيقادها الشعب كله ... ثم يلقى إلى

الجحيم أمام الناس أجمعين » ...

إن الآيات تكاد تنطق بتلك التفاصيل ...

إن من الطبيعي أن يسوق الملك الجبار : وحكومته التي تأتمر بأمره ، الشعب كله
سوق البهائم إلى ما يريد ...
ولا شيء يشقى صدورهم من هذا القتي الذي قهرهم بمنطقه البسيط أمام الشعب كله ...
إلا أن يشترك الشعب كله في احراق إبراهيم ...
حيث يثار الملك لنفسه ، وتثار الدولة لكرامتها ...
ثم يتوزع دم إبراهيم على الجميع ... فلا يكون التروذ مسئولا عنه وحده ...
وكل هذا تجده مستكنا في قوله تعالى « فأرادوا به كيدا ... » أرادوا أن يطمسوه ...
حتى لا يطمس عليهم باظهار بطلان ما هم عليه للشعب ...
ويشير إلى ذلك قولهم (إن كنتم فاعلين) ... أى أن كنتم حما يريدون أن تنكلوا
به نكالا عظيما فافعلوا هذا ، ولا تأخذكم به رافة ...
ثم قولهم « انصروا آلهتكم » ... أى أن هذا وحده هو الذى فيه نصر الآلهة ، وإعادة
المهابة إليها كما كانت وفيه إعادة الإحترام إلى عقائدكم ومقدساتكم ... التي حطمها
إبراهيم ... فأهانكم إهانة ما بعدها من إهانة !!!

تنفيذ الحكم ١٢

ونطق الملك بنفسه بالحكم ... واستمع إليه الشعب كله ...
وإبراهيم يقف صامتا ، يشهد التجربة التي خاضها تصل إلى ذروتها ... وتحقق
أهدافها كاملة ...
فها هو الملك وحكومته قد اجتمعوا ... وها هو الشعب بمستوياته كلها قد شهد ...
وها هي الفرص التي كان يريدونها وقد تحققت ... وتم له ما يريد ... بلغهم رسالة ربه ... وبين
لهم بطلان آلهتهم التي يعبدون ... بين لهم أن الله ولا يعدوا أن يكون عبدا لا يقدر على
شيء مما يزعجه لنفسه ... لقد أكمل إبراهيم ابلاغ الرسالة ... وعلى مشهد من الشعب كله ...
وعلى مشهد من الدولة كلها ...

وهاهو يبلغ مقام الشهادة في سبيل الله ...

أبل قمة الشهادة ...

أبل ذروة قمة الشهادة ...

إنه سوف يحرق حرقا ... إن الشعب كله سوف يشترك في اغداد النيران التي
سيحرق بها ...

إن الشعب كله سوف يشهد إحراقه ...

إنه واحد ... يقف وحده ... ضد الناس جميعا ...

فأى شهيد كان إبراهيم !!؟

وصدرت الأوامر من الملك الطاغية: أن ينواله بنيانا ليس كمثله بنيان ...

وشيدت الدولة بطاقتها الفنية والقهروتية ذلك البنيان ...

وكان بنيانا هائلا ... ذا حوائط سمينة متينة ...

غاليا جداً ... عميقاً جداً ... واسعا جداً ... متينا جداً ...

ومادا تظن بينيان وضعت فيه الدولة والشعب غيظها وكيدها !!؟

ثم أمر نمرود بجمع الأحطاب ، من أصناف الخشب ...

وتسابق الناس جميعا باحضار تلك الأحطاب ...

يتقربون بها إلى الآلهة التي أهانها إبراهيم !!!

حتى إن كانت المرأة لتندبر بأن بلغت ما تطلب أن تحتطب لنار إبراهيم !!

إن الشعب كله يشترك في إعدام عدو الشعب ... عدو الآلهة !!!

فألقوه في الجحيم !!؟

وأشعلوا النار ...

حتى إن كانت الطير لتجربها فتحترق من شدتها وحرها !!

فما ظنك بنيران جمعوا لها كل ما يتصور من وسائل الإشعال !!؟

وأجتمع الناس جميعا ... كما اجتمعوا يوم المحاكمة ...
اجتمعوا ليشهدوا القاء إبراهيم إلى النار ...
وكثيرا ما تجمع الشعوب على الباطل ، وكثيرا ما تتلذذ برؤية العذاب ...
إنه مشهد رائع ... لا بد لكل إنسان أن يحرص على حضوره ...
وحضر الملك « النمرود » ... وحضرت هيئة المحكمة ... وحضر رجال الدولة ؛
وحضر الشعب كله ...

وجيء بإبراهيم ... يسوقه جند أشداء ...
وهو يمشى بينهم أعلى من السماء !!!
أى إبراهيم ... كيف كنت فى تلك اللحظة ؟
وكيف كان شعورك ؟ !
ثم أخذوا يقيّدونه ، ويكتفونه ...
والأعين كلها تتطلع إلى ذلك الفتى الرائع ... إلى تلك القوة الخارقة التى تتمثل فى
ذلك الشاب ...

إن كل ما يجرى عليه ، ومن أجله ، وحوله ...
كأنه يجرى على غيره ، ويعد لإنسان آخر ...
إن عليه سكينه عجبية ...
إنه ليس بخائف ... ولا بمنقبض ... ولا يبدو عليه أى مظهر من مظاهر الخوف
أو الحزن أو الرهبة ...

هاهى النيران تشتعل أمام عينيه تنتظر إحراقه ...
وهاهى الدولة بجبروتها تريد أن تدمره تدميرا ...
وهاهو الشعب كله يصب عليه سخطه ...
ومع هذا كله ... وقف هادئا ... مسرورا ... كأنما هو يساق إلى حفلة تكريم !!
ما هذا ؟ ... أبشر هذا ؟ ! نعم ... واسمه إبراهيم !!!

وهاهم أولاء يقيدونه ، ويكتفونه وهو يقول :
لا إله إلا أنت ، سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك !!!

أما إليك ... فلا ؟!

وعرض له جبريل ، وهو يوثق ، فقال : ألك حاجة يا إبراهيم ؟
قال : أما إليك ، فلا .
ورفض إبراهيم أن يقدم له جبريل أى عون ...
رفض لأنه يعمل لله لا لجبريل ، ويتامل مع الله مباشرة لا مع الوسائط ...
ولأنه لمقام إبراهيم !!!
أما إليك ... فلا ؟!

كلمة ... ولكنها بحار من نور ... لا يدركها إلا إبراهيم !!!
فإنها مقامه ... وياله من مقام !!

إبراهيم ... إبراهيم ؟!

وجاءت اللحظة الرهيبة ...
وسيق إبراهيم مقيدا بالأغلال والسلاسل ...
كأنما هو قد ارتكب كبرى الكبر !!
وتطلع الناس جميعا يشهدون ...
إن الحراس يصعدون بإبراهيم على السلم المؤدى إلى أعلا البناء ...
وهو يمشى معهم ... عليه السكينة ... والصفاء ... والجمال ... والجلال ...
فلما أجمعوا لقفزه فيها ، صاحت السماء والأرض ، وما فيها ، إلا الثقلين إلى الله
صيحة واحدة :

أى ربنا ، إبراهيم ، ايس فى أرضك من يعبدك غيره ، يحرق بالنار فيك ، فأذن لنا فى نصره .

قال الله تعالى : إن استغاث بشيء منكم فلينصره ، وإن لم يدع غيره فأنا له .

آخر لحظة ؟ !

فلما رفعوه على رأس البنيان ، رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم أنت الواحد فى السماء ، وأنت الواحد فى الأرض ، حسبي الله ، ونعم الوكيل .

ثم وضعوا إبراهيم فى كفة منجنيق ...

لماذا ؟ ...

ليلقوه فى وسط الجحيم ...

وهذا يدل على أن البناء كان واسعا ... وأن لهيبه كان شديدا جدا ...

فلما وضع فى كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ...

تطلعت الأعين كلها ... وساد الناس صمت عميق جدا ...

ثم صدرت الأوامر ...

فألقوه منه إلى النار ...

وهوى إبراهيم إلى النار ... وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ! !

روى البخارى عن ابن عباس ، أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين

ألقى فى النار ... »

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما ألقى إبراهيم فى النار

قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

وانصرفت جموع الشعب ... وعلى رأسها الملك ، ورجال الدولة ... وهم على يقين أن

تلك النار ستحول إبراهيم إلى رماد بعد لحظات ...

وأن الآلهة سوف ترضى عنهم كل الرضى ...

وانطلقوا ... وهم يتحدثون ... ويضحكون ... ويمرحون ...

يانار ... كوني ١٤

وصدر الأمر الإلهي إلى النار ...

قال تعالى : « قلنا : يانارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً ،
فجعلناهم الأخسرين » . [الأنبياء ٦٩ — ٧٠]

« قلنا : يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم » أي كوني ذات برد وسلام ،
أي ابردى برداً غير ضار .

قيل : لولم يقل سبحانه « وسلاما » لقتله بردها .
أي : وسلمنا سلاما عليه .

وكان إبراهيم — عليه السلام — إذ ذاك ابن ستة عشر سنة .
أي صارت النار العظيمة كذلك مع بقائها على هيئتها .
وهي خارقة كبرى من خوارق الله .

« وأرادوا به كيداً » مكرا عظيما في الأضرار به . .
« فجعلناهم الأخسرين » أخسر من كل خاسر .

حيث عاد سعيهم في اطفاء نور الحق قولا وفعلا ، برهانا قاطعا على أنه — عليه
السلام — على الحق ، وهم على الباطل ، وموجبا لارتفاع درجته — عليه السلام —
واستحقاقهم لأشد العذاب .

كما قال تعالى : « فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » .

[الصفات ٩٨]

« فجعلناهم الأسفلين » الأذلين بابطال كيدهم ، وجعله برهانا ظاهرا ظهور نار
القرى ، بحيث جعل سبحانه النار عليه بردا وسلاما .
وقيل : أي الهالكين .

أو : المعذبين في الدرك الأسفل من النار .

ونقف هنا طويلا ... ونأمل قوله تعالى وهو ينادي النار « يانار » ...

فتشعر أن الله تعالى يخاطب ما شاء من خلقه كيف شاء ...
وأن مخلوقاته تسمع لقوله وتطيع ... ولا تستطيع أن تتخلف عما يريدته تعالى منها ...
ثم انظر إلى النداء « يا نار ، كوني » أمرك أن تكوني فورا ...
بردا ؟ ... لا حرارة فيك .
وسلاما ؟ ... ولا ضرر منك .
على إبراهيم ؟ ... على إبراهيم وحده ... هو خاصة ... لا لأحد سواه ...
وهنا المعجزة ...
إن النار تشتعل اشتعالا عظيما ... لا تخمد ... ولا تنطفئ ... بينما إبراهيم وحده يعطل
له الناموس العام ... فلا حرارة في النار بالنسبة لشخصه ، ولا ضرر فيها بالنسبة له وحده !!!
إن الذي وضع الناموس ... هو الذي يملك أن يوقفه ، أو يغيره ، أو يحوله ...
ولقد صدر الأمر منه ،،، كوني بردا وسلاما ،،، فكانت بردا وسلاما !!!
أى تكريم ، وأى نصر ، وأى معجزة ؟!!
لقد هوى إبراهيم إلى النار ... مستسلما لله ...
لا يعلم إلا أن النار سوف تقضى عليه لقوره ...
ولم يكن إبراهيم يعلم أن الله سيفعل هذا ...
ولكنها كانت مفاجأة له ... فاجأه الله تعالى بها ... ليعلم أن الله معه ... وأنه
ناصره على عدوه ...
فانظر ماذا كان شعور إبراهيم حين وجد نفسه وهو في النار ، في جنة ناعمة ، ونسيم
عليل ، وظل ظليل ؟

أطيب أيامه ١٢

ومكثت النار مشتعلة على إبراهيم خمسين يوما ...
وإبراهيم يعيش فيها حياة طيبة سعيدة ...
وكان إبراهيم فيما بعد يتحدث أنها كانت أطيب أيام حياته !!!

نمرود يشهد المعجزة بنفسه ؟

فكث نمرود أياما لا يشك أن النار قد أكلت إبراهيم .
فرأى في المنام كأنه نظرفيها وهي يحرق بعضها بعضا ، وإبراهيم جالس جنبه رجل مثله
فقال لقومه : لقد رأيت كأن إبراهيم حي ولقد شبه علي ، ابنوا لي صرحا يشرف بي
على النار ، فبنوا له .
وأشرف منه ، فرأى إبراهيم جالسا ، وإلى جانبه رجل في صورته .
فناداه نمرود : يا إبراهيم ، إن الهك كبير ، الذي بلغت قدرته وعزته أن حال بينك
وبين ما أرى ، هل تستطيع أن تخرج منها ؟
قال : نعم .

قال : أتخشى أن أقت فيها ؟
قال : لا .

فقام إبراهيم فخرج منها .
فلما خرج قال له : يا إبراهيم ، أين الرجل الذي رأيت معك مثل صورتك ؟
قال : ذلك ملك الظل أرسله إلي ربي لمؤانسيتي .

شهرة ؟

قال نمرود : إني مقرب إلى الهك قربانا ، لما رأيت من قدرته ، وعزته ، وما صنع بك
حين أبيت إلا عبادته .

فقال إبراهيم : إذا لا يقبل الله منك ، ما كنت على شيء من دينك .

فقال : يا إبراهيم ، لا أستطيع ترك ملكي

وقرب أربعة آلاف بقرة

وكف عن إبراهيم ...

ومنعه الله منه ...

إيمان ؟

وآمن مع ابراهيم شباب من قومه ، حين رأوا ما صنع الله به ، على خوف من
نمروذ وملثهم .

وآمن له لوط بن هاران ، وهو ابن أخى ابراهيم .
وآمنت به سارة ، وهى ابنة عمه ...
وهى سارة ابنة هاران الأكبر ، عم ابراهيم ..

هل حققت المعجزة الكبرى هدفها ؟

لقد وقعت تلك المعجزة الكبرى لأبراهيم ... فكانت عجبا للناس جميعا ...
ولقد ذهب الملك بنفسه وشهدها ... وكلم ابراهيم .. وقع بينهما حوار ..
وذهب الناس جميعا يشهدون ...
ورأوا بأعينهم كيف يحيا ابراهيم سعيدا فى نار مشتعلة تكفى لتأكل آلافا مثل ابراهيم
فى لحظة !

واستيقنوا جميعا أن هذا أمر خارق ...
وأن أحدا لا يستطيع أن يصنع هذا ..
فهل تحولوا عن عبادة أصنامهم إلى عبادة إله إبراهيم الذى صنع به ذلك الصنيع ؟
كلا ... إن الناس هم الناس ...
لم يتحولوا ... ولم ينتفعوا .. واكتفوا بأن هزوا رؤوسهم إعجابا أو استغرابا ..
ثم انصرفوا !!!

وهذا الملك الطاغية .. هل تحول عن طغيانه ، أو اهتدى ؟ !
كلا .. لم ينتفع بشيء من هذا كله ، إلا أن اهتدى إلى إله إبراهيم شيئا من الذبائح !!
ولا شيء وراء هذا !!!
إن الغباء العام حين يسيطر على الناس لا ينفع معه نصيح ناصح ، ولا معجزة رسول .

وها هم أولاء جميعاً يشهدون المعجزة باغيهم .
ويشهدون تلك النيران التي اشتركوا جميعاً في إشعالها ..
لا تفعل شيئاً في إبراهيم .. وهو يتحرك فيها مسروراً .. لا يريد أن يخرج منها ..
لما يشعر من سعادة !!
ولكن كل هذا ذهب مع الريح .
إنه الغباء العام .

الذين معه ١٩

إلا أن صيحة إبراهيم أصابت عدداً قليلاً من قومه ..
أصابت نفراً من الشباب في صميم قلوبهم
فتفتحت للحق ، ، وآمنت أن لا إله إلا الله
وأن هذه الأصنام باطلة
وأن هذا الملك طاغية عنيد ... لا قيمة له ... ولا تأثير في أحوال العباد ...
وأن تلك الكواكب والنجوم مسخرة بأمر الله ، ليس لها من الأمر شيء ١٩
وأن دعوة إبراهيم التي يدعو إليها حق ...
وأنها تحمل في ذاتها كلمة الحق ...
وأن ما حدث لإبراهيم .. من تحويل النار إلى جنة .. إنما كان بأمر الله تعالى وقدرته
أصابت الدعوة نفراً قليلاً .. ومست شغاف قلوبهم ...
فتفتحت تلك القلوب على نداء الفطرة ، نداء التوحيد ...
وتجمعت تلك القلوب القليلة حول قائد الدعوة ... حول إبراهيم ...
وجعل إبراهيم يعلمهم ... وهم يتعلمون على يديه ...
إلا أن اتجاههم هذا كان غريباً على قومهم ...
كلفهم غالباً ... وأصبحوا غرباء في قومهم ...

كما كان إبراهيم من قبل غريبا ...

وتسجل الله تعالى ذلك في قوله سبحانه : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير » . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ، والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا نبرأ منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أم لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا . وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا . إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » .

[المتحنة ٣ - ٦]

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم » . لن تنفعكم قراباتكم أو أقاربكم ، ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم ، وتقتربون إليهم بحاماة عليهم . « يوم القيامة » بدفع ضرر أو جلب نفع .

« يفصل بينكم » استئناف إيمان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ .
أى يفرق الله بينكم ، بما يكون من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى . (يوم يفر المرء من أخيه) الآية ...
وعندى أن الأمر أقرب من ذلك كله ... فإنه بمجرد الموت يفصل بين الجميع ، ويتحول كل إلى مقامه الذى يناسبه .

« والله بما تعملون بصير » فيجازيكم به .
« قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » الأسوة بضم أو بكسر معنى الاتساء والإقتداء .

وتطلق على الخصلة التى من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها ...
وعلى نفس الشخص المؤتسى به .

والمراد بالذين معه — عليه السلام — أتباعه المؤمنون .
وقيل : لم يكن معه وقت مكافئته قومه وبراءته منهم أتباع- مؤمنون كالخوهم معه
وتبرءوا منهم .

وأنت تعلم أنه لا يلزم وجود الأتباع المؤمنين في أول المكافئة ، بل اللازم وجودهم
ولو بعد ، ولا شك في أنهم وجدوا بعد ، فليحمل من معه عليهم .
« إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » برآء جمع برىء كظريف وظرفاء .
يحسب المشركون أنفسهم على شيء وكأنهم استشعروا ذلك منهم فقالوا لهم :
« إنا برآء منكم » .

« وما تعبدون من دون الله » من الأصنام ، والكواكب ، وغيرها ...
وهذا يؤكد اسقاط الوسائط والشفاعات ...

« كفرنا بكم » كفرنا بكم ، وبما تعبدون من دون الله ...
كأنه قيل . إنا لا نعبد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم ، وما أنتم عندنا على شيء .
وقيل : كفرنا بما تعبدون ، ثم كفرنا بكم وبما تعبدون ، لأن من كفر بما أتى به
الشخص فقد كفر به ، ثم اكتفى — بكفرنا بكم — لتضمنه الكفر بجميع ما أتوا به ،
وما تلبسوا به .

« وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً » أى هذا دأبنا معكم لا نتركه .
« حتى تؤمنوا بالله وحده » وتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فتنقلب العداوة
ولاية ، والبغضاء محبة .

وقوله — وحده — هو السر ... أى لا بد من الإيمان بالله مجردا من كل
وسائط وشفاعات .

وحده ؟ !!!

هى سر الأمر كله ...

قيل : العداوة ضد الصداقة ،

والبغضاء . شدة البغض .

وقيل : البغض نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه ، وهو ضد الحب .
« إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » استثناء من قوله تعالى : « أسوة حسنة »
أي أن إبراهيم أسوة ، إلا في استغفاره لأبيه ، فإنه لا ينبغي الاقتداء به .
قيل ، إن إبراهيم - عليه السلام - لما أجاب قول أبيه : « لا رجلك واهجرني
مليا » بقوله : « سأستغفر لك ربى » رحمة ورأفة به ، ولم يكن عارفا باصراره على الكفر ،
وفى بوعدده ...

وقال : (واغفر لأبى) .

فلما تبين اصراره ترك الدعاء وتبرأ منه .
فظهر ان استغفاره لم يكن منكرا .

وهو في حياته بخلاف مانحن فيه ، فإنه فصل عداوتهم وحرصهم على قطع أرحامهم
بقوله تعالى (لن تنفعكم) الخ ، وسلام عن القطيعة بقصة إبراهيم - عليه السلام -
ثم استثنى منها ما ذكر .
كأنه قيل : لا تجاملوهم ، ولا تبدوا لهم الرأفة كما فعل إبراهيم ، لأنه لم يتبين له ،
كما تبين لكم .

وقيل : عدم كون استغفاره - عليه السلام - لأن الكافر ، مما لا ينبغي أن يؤتى
به ، بأنه كان قبل النهي ، أو لموعدة وعدها إياه .

وقيل : لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره ، إلا في استغفاره لأبيه المشرك .
والمعنى : إن لكم الاقتداء بإبراهيم - عليه السلام - والذين معه في البراءة من
الكفرة ، لكن استغفاره للكافر ليس لكم الاقتداء به فيه وما قاله يجب عليكم البراءة ،
ويحرم عليكم الاستغفار ، وابداء الرأفة .

« وما أملك لك من الله من شيء » لأستغفرن لك وما في طاقتي إلا هذا .

وفيه أنه لو لك أكثر من ذلك لفعل .

وعلى هذا فهو حقيق بالإستثناء .

« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

إما من قول إبراهيم والذين معه .

وإما أنه أمر لنا لندعو بها .

ربنا عليك توكلنا ، لا على غيرك .

وإليك أنبنا ، لا إلى غيرك .

وإليك المصير ، لا إلى غيرك .

بيان لحالهم في المجاهدة لأعداء الله عز وجل ، ثم اللجأ إلى الله تعالى في كفاية شرهم ،
وأن تلك منهم له عز وجل لا لحظ نفس .

وجوز أن يكون المعنى : قولوا ربنا أمرا منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه ، وتعلما
عنه عز وجل لهم ، وتنميا لما وصاهم سبحانه به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار ، والائتساء
بإبراهيم — عليه السلام — وقومه في البراءة منهم .

وتنبيهها على الإنابة إلى الله تعالى ، والاستعاذة من فتنة أهل الكفر ، والإستغفار
مما فرط منهم .

« ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » أى لا تسلطهم علينا ، فيسيبونا ويعذبونا .

ربنا لا تجعلنا معذبين للذين كفروا .

وقيل : لا تعذبنا بأيديهم .

والرجاء يحتمل الأمل والخوف .

وقيل : تكرير لما تقدم من المبالغة في الحث على الائتساء بإبراهيم — عليه السلام —

ومن معه .

وقيل : إشارة إلى أن من كان يرجو الله تعالى واليوم الآخر ، لا يترك الاقتداء بهم ،

وان تركه من مخايل عدم رجاء الله سبحانه واليوم الآخر ، الذي هو من شأن الكفرة ،

بل مما يؤذن بالكفر كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى : « ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » فانه مما يوعد بامثاله الكفرة .

ويؤخذ من تكرار قوله تعالى : « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة » أن إبراهيم دعوة عالمية لكل الناس ، وكل الأديان وأنه هو القدوة التي ينبغي أن يصبح أهل الأديان جميعا عقائدهم عليها .

وأنه بذلك يمكن أن يدعى العالم كله إلى إبراهيم ...
إلى الاقتداء بإبراهيم ...

وهذا يتطابق مع قوله تعالى : « إني جاعلك للناس إماما » ...
وهذا هو سر التأكيد والتكرير .

« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة » ...
« واغفر لنا » ما فرط منا .

« ربنا إنك أنت العزيز » الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء من توكل عليه .

« الحكيم » الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة .
« لقد كان لكم فيهم » في إبراهيم ومن معه .
وهو قسم للتأكيد .

لماذا يؤكد ويقسم ؟

لضرورة اتباع إبراهيم ... في التجرد ... والكفر بما عليه المشركون ...
« أسوة حسنة » قدوة حسنة ...

« لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » أى ثوابه تعالى أو لقاءه سبحانه ونعيم الآخرة .
أو : أيام الله تعالى واليوم الآخر خصوصا . ثم يقول تعالى مينا لماذا ينههم عن موالاة الكفار والمشركين : « يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .
[الممتحنة ١٣]

« لاتتولوا قوما » هم عامة الكفار .

« قد يئسوا من الآخرة » يأسهم من الآخرة لكفرهم بها .

« كما يئس الكفار من أصحاب القبور » أى أن يأس هؤلاء من الآخرة كيأس

الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور وتبينوا حرمانهم من نعيمها المقيم .

وقيل : المعنى أن هؤلاء القوم المغضوب عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئسوا من موتاهم

أن يبعثوا ويلقوهم فى دار الدنيا .

وبقليل من التأمل فى تلك الآيات ندرك أن إبراهيم كان معه نفر قليل آمنوا به ...

وأن هؤلاء كانوا من القلة بحيث لا يستطيعون دفع ضرر عنه ، ولا مجابهة مجتمعهم

بالتقوة ...

وأن أقصى ما استطاعوا ، أن يوجهوه إلى قومهم هو قولهم « إنا براء منكم ،

وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى

تؤمنوا بالله وحده » .

إنهم اعلنوا إلى قومهم براءتهم منهم ، ومن آلهتهم ، ومن معتقداتهم ، وأنهم أعداء

لهم يبغضونهم ويبغضون ما هم عليه إلى الأبد ...

إلا أن يؤمنوا بالله ... وحده ... إيماننا مجردا من اتخاذ الوسائط ، والأصنام ...

فحينئذ فقط ... يمكن أن تقوم صداقة بينهم وبين مجتمعهم ...

وندرك كذلك أن الله أبى أن يقتدى بإبراهيم فى استغفاره لأبيه الكافر ... واعتبر

ذلك شيئا لا ينبغى متابعة إبراهيم فيه ...

وأن الله يريد للفريقين أن يتميزا ... إما أن يكون الإنسان مؤمنا وإما كافرا ...

أما هذا التميع بين الفريقين ... فهذا شيء لا يحبه الله ...

وأن هؤلاء الذين كانوا مع إبراهيم ، كانوا يتحشون أن يعذبهم الذين كفروا كما عذبوا

إبراهيم بالقائه فى النار .

وهذا واضح من دعائهم: «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا» ... أى لا تعذبنا بأيديهم...
وبدل على تسلط الباطل واستعلائه واستحكامه ...

لماذا .. مرتين ؟

الملاحظ أن الله قال : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ، والذين معه إذ قالوا لقومهم » ...

ثم قال مرة أخرى : « لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة » ..

فلماذا هذا الإصرار ... وهذا التكرار ؟

ولماذا يقسم الله مرتين أن قد كانت لنا فىهم أسوة حسنة ...

لماذا يؤكد للناس كافة أسوة حسنة ، أى قدوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ؟

الأمر عميق جدا ... وواضح جدا ...

إن إبراهيم كان يدعو إلى الحنيفية ... إلى الاتجاه المباشر إلى الله ...

إلى إسقاط كل واسطة فى الطريق بين الإنسان وبين ربه ...

فلا كواكب ولا نجوم ولا أصنام ولا ملوك ولا رجال دين ولا أولياء ولا شفعاء

أيا ما كانوا ... بين الإنسان وربّه ...

وإنما ... وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض ...

حنيفا ... مائلا عن كل هذا ... متجها إليه مباشرة ...

وهذه الملة ... أو هذا الأسلوب ... هو الذى يرتضيه الله للناس جميعا ...

ثم إن إبراهيم قام يدعو العالم كله إلى ذلك ... وحده ... ولم يبال ما يصيبه فى

سبيل ذلك ...

وهذه البطولة وهذه الثورة فى الحق ، والثبات على الحق ، ولو خالف كل ما عليه

الناس ... هو أقصى غايات البطولة ... وهو قمة ما يرتضيه الله من الإنسان ...

ثم إعلانه هو وأتباعه بعد ذلك إلى قومهم أنهم برآء منهم ومما يعبدون ...

هذا الوضوح في الدعوة ... وهذا التميز ... بين المؤمنين والكافرين ... هذا هو الأسلوب الذي يحبه الله من عباده المؤمنين ...

من أجل ذلك كررها مرتين « لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » « لقد كانت لكم فيهم أسوة حسنة »

كأنه يريد أن يقول للمؤمنين في كل زمان ومكان ، وللناس دائما أبدا ...

هذه هي القدوة التي أحب أن تقتدوا جميعا بها ...

هذا هو الأسلوب الذي أحب أن تكونوا عليه ... الحنيفية .. الاتجاه المباشر إلى ...

هذه هي البطولة التي أحب أن تكونوا عليها ... معرفة الحق والجهار به والدعوة إليه ... ولو كان ذلك مخافا لما عليه الناس جميعا ...

هذا هو التميز الذي أحب أن تميزوا به عن الناس جميعا ...

أنتم في ناحية ... والكفار في ناحية لا التقاء بينكم حتى يؤمنوا بالله وحده ...

حينئذ فقط أحل لكم أن تتوادوا وتتصادقوا ... وتكون بينكم علاقات وعواطف ...

من أجل ذلك ... ومن أجل ما لا نستطيع الفوص إلى أعماقه ... أقسم تعالى مرتين وأكده مرتين ... ودعا مرتين إلى اتباعهم فيما هم عليه ...

تكذيب عام ؟

وفشلت دعوة إبراهيم تماما أن تثمر شيئا في هؤلاء المسكابين ...

إلا أن إبراهيم استمر يدعوهم إلى ربهم ، فلم يزدادوا إلا انكارا ...

قال تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط » .

[الحج ٤٢]

إن قوم إبراهيم اذا قد كذبوا ... هم جميعا كانوا من المكذبين ...

إلا عددا قليلا نجدا ... آمنوا بإبراهيم على خوف من التروذ وملئه ، أن يفتنوه ،

ويعذبوهم ...

قال تعالى : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه ، أو حرقوه ، فأجابه الله من النار ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال : إنما اتخذتم من دون الله بؤساً ، مودةً بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط ، وقال : إني مهاجر إلى ربي ، انه هو العزيز الحكيم » .

[العنكبوت ٢٤ - ٢٦]

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه » ... والآءون بذلك هم هيئة المحاكمة التي انعقدت برياسة الملك التروذ لحاكمته ...

انهم يتشاورن فيه ... ماذليصنعون ؟ فمن قائل : اقتلوه ... ومن قائل : حرقوه ... أى اعدموه ... اما قتلا ... واما حرقا ...

« فأجابه الله من النار » فألقوه في النار ، فأجابه الله تعالى منها ، بأن جعلها سبحانه عليه بردا وسلاما حسبما بين في مواضع آخر .

« ان في ذلك » أى في انجائه منها .

« لآيات » بيينة عجيبة وهى حفظه تعالى اياه من حرها ، وانشاء روضة في مكانها .

قبل : لم يحترق بالنار الا الحبل الذى أوثقوه به — عليه السلام — .

« لقوم يؤمنون » خصهم بالذكر لانهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها .

« وقال » ابراهيم — عليه السلام — مخاطبا لهم بعد أن أُنجاه الله تعالى من النار .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن ابراهيم بعد معجزة نجائه من النار ...

خرج منها يدعو الى الله تعالى ... وأنه لم يسكت عن دعوتهم ...

وانما واصل الدعوة أكثر من ذى قبل ... واتخذ من المعجزة برهانا على صدقه ...

وأن الناس أصبحوا أكثر استعدادا للاستماع اليه بعد وقوع المعجزة ...

لأن الخارقة كانت مثار دهشة الجميع ...

ومثار الجدل بين الناس ...

فما رفع ذكره ... وانتشر بسببه اسمه ...
وأصبح حديث الناس كافة ...
وهذا الجو مهياً لكل التهيئة لمعاودة الدعوة والبيان ...
وهذه الفترة هي التي استجاب له فيها ذلك النفر القليل جدا من الشباب من قومه ...
« انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا » أى لتتوادوا
بينكم ، وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها ، واتفاقكم عليها ، وائتلافكم .
كما يتفق الناس على مذهب ليكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم .
أو المعنى : ان مودة بعضكم بعضا هي التي دعتمكم الى اتخاذها ، بأن رأيتم بعض
من تودونه اتخاذها فاتخذتموها موافقة له لمودتكم اياه .
وهذا كما يرى الانسان من يوده يفعل شيئا فيفعله مودة له .
ان ابراهيم - عليه السلام - هنا يكشف تلك العقدة التي تدفع الناس الى الباطل
وهم لا يشعرون ... حتى يخيل اليهم في النهاية أنهم على حق ... من طول ما ألفوا باطلهم ،
وطول ما يصنعون ...
انما اتخذتم ... أوثانا !!! ...
الواقع انكم اتخذتم شيئا حقيرا ... تافها ... لا يستحق أن يعبد ... ومع ذلك
عبدتموه ... لماذا ؟
مودة بينكم في الحياة الدنيا .. إنها نظرية الحياء الاجتماعى ... أو الرياء الاجتماعى ...
هذا يفعل كذا ، فلا يفعل أنا كذا ...
هؤلاء يعبدون أصناما ... فلا يعبد أنا أصناما مثلهم ...
اذ لا يعقل أن يكون هؤلاء جميعا على باطل وأنا وحدى على حق !!
وهكذا ... تقليد أعمى ... وبدون تفكير ... مجرد مجازاة للمجتمع !!!
وهذا هو المرض الأعظم الذى يضل المجتمعات كلها ... دائما أبدا ...
يخرج الناس الى الحياة فيجدوا آباءهم يفعلون أشياء ...

وباللاوعي ... ولجورد التقليد ... يفعلون كما رأوا آباءهم يفعلون !!!
فان جودلوا فيما يصنعون ، قالوا : وجدنا آباءنا عليها عاكفين !!
مصيبة ... أو مرض اجتماعي ... خطير جدا ...

ولكنه الإنسان ... هو هو ... في غبائه وكبريائه !!!

وهذا ماواجه ابراهيم في مجتمعه ...

مجتمع مغفل ... ينحت أحجارا بيده ... ثم يتخذها آلهة ...
لماذا ؟ ... قلد الأبناء فعل الآباء ...

فلما انبعث ابراهيم يبين لهم خطأ ما يصنعون ثاروا وغضبوا وكانت حجبتهم المضحكة
وجدنا آباءنا عليها عاكفين !!

شيء مضحك جدا جدا جدا ...

والذي يدفع للضحك أكثر فأكثر ... أن يجمع المجتمع كله على ذلك ...

وأعجب من ذلك وأعجب أن هذا المرض مازال ، وسوف يظل مرضا مزمننا ملازما

للبشرية أينما كانت !!!

فلو أنك جئت اليوم ... وفي عصر الصواريخ وسفن الفضاء ... إلى الشيوعيين

وقلت لهم : ماهذه الطبيعة التي أتم بها مؤمنون ...

لثاروا ... وهاجوا ... وماجوا ... وكانت حجبتهم : هكذا وجدنا آباءنا يفعلون ...

ولرفعوا عقائدهم : إن الله خرافة ... إن الذين يعتقدون بوجود إله قوم رجعيون !!

أرأيت ؟ نفس المرض ... يلازم البشرية !!

ولو أنك جئت اليوم ... وفي عصر التليفزيون والذرة ... إلى المسيحيين وقلت لهم :

ماهذا الإفك الذي تقولون ، حين تزعمون أن المسيح ابن الله ؟

لهاجوا جميعا في وجهك : هكذا وجدنا آباءنا يعتقدون !!

نفس المرض ... ونفس الداء !!!

إن إبراهيم يكشف للبشرية كلها مرضها ... الذى يدفعها إلى الانحراف عن الحق ...
واعتقاد الباطل ...

إنه التقليد ... إنه الحياء الاجتماعى ... إن الناس يتدافعون الى اعتقاد الباطل ،
حرصا على بقاء الحب بينهم فى الدنيا ...

انهم يرضون بعضهم البعض على حساب الحق ...
ولكن ماذا يحدث بعد ذلك ...

ماذا يحدث حين تزول هذه الدنيا ، ونذهب هذه العواطف الكاذبة ؟
« ثم يوم القيامة » يتبدل الحال حيث .
« يكفر بعضكم » وأهم العابدون .
« بيعض » وهم الأوثان ...

« ويلعن بعضكم بعضا » أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان — حيث ينطقها
الله تعالى — الفريق الآخر .
أى يتناكرون يوم القيامة .

« ومأواكم النار » هى منزلكم الذى تأوون اليه جميعا ...
« ومالككم من ناضرين » يخلصونكم منها ، كما خلصنى ربى من النار التى
ألقيتمونى فيها .

إن إبراهيم يبين لهم فى قوة واستعلاء بالله ...
إنكم الآن تتوحدون وتتخذون هذه الأصنام من باب العاطفة المشتركة بينكم ...
أما يوم القيامة ... ونحين تعانون العذاب ...
فإن هذه المودة ستتحول إلى تباغض وتناكر ...
يبلغ من شدتها أنكم سوف يلعن بعضكم بعضا ...
إن إبراهيم هنا يبدو قويا غاية القوة ...

يتحدى قومه ... ويتحدى ... ويسفه ما هم عليه ... ويبين لهم أن مصيرهم أسود ...
مصيرهم نار موقدة يلقون فيها أشد الإهانة وأشد العذاب ...
واستمر إبراهيم في دعوته ...
واستمر قومه في إعراضهم .
إلا قليلا من الشباب الذين لم تخيم عليهم بعد ظلمات التقليد ...

فآمن له لوط ؟

« فآمن له لوط » أى صدقه — عليه السلام — فى جميع مقالاته ! أو بنبوته
حين ادعاها .

ولوط ابن أخيه هازان .
« وقال » إبراهيم عليه السلام .
وقيل : الضير للوط — عليه السلام — .
« إني مهاجر » أى من قومي .
« إني ربي » أى إلى الجهة التى أمرنى ربي بالهجرة إليها .
إلى حيث لأسمع عبادة ربي .
وقيل : المعنى مهاجر من خالفنى من قومي متقرب إلى ربي .
« إنه » عز وجل .
« هو العزيز » الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى .
« الحكيم » الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ، ومصلحة .
فلأأمرنى إلا بما فيه صلاحى .
روى أنه — عليه السلام — هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط وسارة
ابنة عمه إلى حرا ، ثم منها إلى الشام ،
إن لوطا ... شاب قد استهوته دعوة عمه إبراهيم ...

إنه يرى فيها أضواء الحق تتلألأ ... ويحس في أعماقه أنها تتجاوب مع فطرته ...
إنه يرى فيها رفعا لحسة الإنسان ، وعلوا بمنزلته ...
إنه يجد فيها كل ما يطمع إليه الشباب من بطولة ، وحق ، وجمال ، وحرية ،
ومساواة ...

إذا كان الشباب تستهويه البطولة الخارقة ...
فإن إبراهيم قد ارتفع إلى ذروة البطولة بموقفه الخالد حين حطم الآلهة كلها ، حين
ألقوه إلى النار وهو لا ينزحزح عن الحق أبدا !!
ومثل هذه البطولة العليا حين تقع تلتقط من المجتمع قلوب الشباب الثائر على عفونات
قومه ... وتجذبها إليها جذبا ...
وهاهو البطل ... هاهو إبراهيم ... بطولة فوق التصور ... فكيف لا ينجذب لوط
الشاب إليه ؟

وإذا كان كل جديد يستهوى الشباب ... فإن إبراهيم قد جاء بذروة التجديد
في المجتمع ...
انه يدعو إلى نبذ كل قديم ... نبذ الأصنام والكواكب ...
والإتجاه إلى ... إلى الله ... إنه يدعو إلى عبادة جديدة تماما ... لم يعهدها قومه
من قبل ...

فكيف لا ينجذب لوط ... الشاب إلى تلك الدعوة ؟
وإذا كان الإنسان بطبيعته يميل إلى اتخاذ القدوة التي يقلدها ويتبعها ...
يميل إلى اتخاذ الشخصية ... أو الزعيم ... الذي يتبعه ...
فها هو إبراهيم أعظم شخصية يمكن أن يتصورها إنسان في عصره ...
فكيف لا ينجذب لوط ... الشاب ... المتفتح ... إلى تلك الشخصية ؟
كانت هذه العوامل كلها ... دوافع حركت الفتى ... لوط إلى الإيمان بإبراهيم ...
يضاف إلى ذلك معدن لوط ... معدنه الطاهر ... الطيب ... الذي أهله للنبوة فيما بعد ...
فأمن له !

آمن لوط بشخصية ابراهيم ...
وآمن بدعوة ابراهيم ...
وآمن بتجديد ابراهيم ...

سارة ١٤

كان لوط هو الشاب الذى آمن بابراهيم من أسرة ابراهيم ...
وكانت هناك فتاة ... جميلة جدا ... من أسرة ابراهيم كذلك ... ترقب ما يفعل
ابراهيم ... وتسمع قصته من أولها الى آخرها ...
كانت تلك الفتاة الرائعة الجمال هى سارة ابنة عمه ...
وكانت تحبه حبا شديدا ...
ومالها لا تحب الفتى ابراهيم وقد اكتمل فيه أقصى ما تعلمح اليه فتاة فى الوجود ؟
فهو ابن عمها ... وصاحب الحق فيها قبل غيره من الشباب ... حسنا تمليه تقايد
القبائل الراسخة ...
وهو ... الفتى ... القوى ... المهيب ... الذى يتفجر قوة واندفاعا ...
وهو البطل ... بل سيد الأبطال ...
انه وقف موقفا لا تستطيعه أمة باكملها مجتمعة ؟
وقف يحطم الآلهة ! ويتحدى الملك الجبار ، والشعب كله ... حتى ألقوه فى النار !
وهو العقل الممتاز ... وأى امتياز للعقول يصل الى ما وصل اليه عقل ابراهيم ؟
وهو الجديد والتجديد فى أبهى اندفاعاتها ...
وهو الكريم ... وهو العظيم ... وهو الحليم ...
من هنا أحبته سارة حين ...
حب لقلبها ... وهو ما يقع لكل فتاة فى سنها ...
وحب لربها ... حين عرفها ابراهيم ربها ، وأرشدتها الى خالقها ...
وبذلك استمكن حب ابراهيم من قلب سارة ...

وهي تحبه على أنه فتاها الأوحـد ...
وهي تحبه على أنه رسول الله الذي دعاها إليه ...
وهي تحبه على أنه بطلها وفارسها وقـدوتها ...
وهي تحبه على أنه أنموذج الشاب العظيم صاحب البطولات الخارقة ...
وبالجملة ... كل أسباب الحب العميق ... قد اجتمعت في قلب سارة نحو فتاها
ابراهيم ...

وأى فتاة تستطيع أن تدافع حب ابراهيم ...
أما ابراهيم ... الفتى الأسطوري .
أما ابراهيم الإنسان ...
أما ابراهيم البشر ...
فإنه كذلك أحب تلك الفتاة لنفس الأسباب ...
انه يراها أجمل فتاة ... وقد كانت كذلك فعلا ...
ويراها تلك الفتاة المؤمنة بربها المؤمنة به ، المؤمنة برسـالته ...
ويراها ابنة عمه التي جمعت بين طيب العدن ، وطيب الصفات ...
فأحبها لذلك كله ...
ونزوجها ...
فكانت منه ... كما كانت خديجة من محمد صلى الله عليه وسلم ...
ولقد ظل ابراهيم طول حياته يحمل لسارة أجمل العواطف ، ويكن لها أخلص المشاعر ،
كما ظل محمد صلى الله عليه وسلم يحمل لخديجة حبة وميتة أجمل العواطف وأحنـاها !

إني مهاجر الى ربي !

قال تعالى : ونَجِّينَاهُ ، ولوطاً ، إلى الأرض التي بارَكنا فيها للعالمين ، [الأنبياء : ٧١]
« ونَجِّينَاهُ ولوطاً » وهو علي ما تقدم ابن أخيه ،

وقد ضمن (نجيناها) معنى أخرجه .
 « إلى الأرض التي ناكنا فيها للعالمين » أى منهيًا إلى الأرض .
 المراد بهذه الأرض أرض الشام .
 ووصفها بعموم البركة ، لأن أكثر الأنبياء — عليه السلام — نشأوا فيها .
 وانتشرت في العالم شرائعهم ، التي هي مبادئ الحكايات ، والخيرات الدينية ،
 والدينية ، من الخصب وغيره .
 والأول أظهر . وأنسب ، بحال الأنبياء — عليهم السلام — .
 روى أنه — عليه السلام — خرج من العراق ، ومعه لوط ، وسارة بنت عمه هاران
 الأكردي . وقد كانا مؤمنين به عليه السلام ، يلتمس الفرار بدينه ...
 فنزل « حاران » فنكت بها ماشاء الله تعالى ثم قدم مصر .
 ثم خرج منها إلى الشام ، فنزل « السبع » من أرض فلسطين .
 ونزل لوط بالمؤتفكة ، على مسيرة يوم وليلة من « السبع » أو أقرب .
 وقال تعالى : « فآمن له لوط » ، وقال : « إني مهاجر إلى ربي » ، انه هو العزيز الحكيم .
 [العنكبوت ٢٦]

« وقال » إبراهيم — عليه السلام —
 وقيل : الضمير للوط — عليه السلام .
 « إني مهاجر » أى من قومي .
 « إلى ربي » إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها .
 روى أنه — عليه السلام — هاجر من كوثي من سواد الكوفة مع لوط ، وسارة
 ابنة عمه إلى حاران .
 ثم منها إلى الشام ...
 فنزل قرية من أرض فلسطين ، ونزل لوط سدوم وهي المؤتفكة ، على مسيرة يوم
 وليلة من قرية إبراهيم — عليه السلام —

وكان عمره اذ ذاك خمسا وسبعين سنة .

وهو أول من هاجر في الله تعالى .

أى أنه منذ كان ابن ١٦ سنة — وقت القائه في النار — الى أن كان ابن خمس وسبعين سنة أى نحو من خمسين عاما ، كان يدعو قومه الى الله ، فلم يستجب له من أحد ، غير نفر قليل ، وغير لوط ابن أخيه ، وسارة ابنة عمه !!

* * *

قال تعالى : « فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين . وقال : انى ذاهب الى ربى سيهدين .

[الصافات ٩٨ — ٩٩]

« وقال : انى ذاهب الى ربى » الى حيث أمرنى ، أو حيث أتجرد فيه لعبادته عز وجل .

والمراد بذلك المسكان الشام .

كان المراد اظهار اليأس من ايمانهم ، وكرهية البقاء معهم ...

أى انى مفارقكم ، ومهاجر منكم ، الى ربى .

« سيهدين » الى ما فيه صلاح دينى ، أو الى مقصدى .

والسيد لتأكيد وقوع ذلك في المستقبل أى حتما سيهدين .

وهذا يدل على عظيم توكله — عليه السلام —

* * *

هذه هى النصوص التى تشير وتسجل هجرة ابراهيم ...

ان الهجرة شىء لازم لابراهيم ... كرسول ... وصاحب دعوة ...

ان ابراهيم ينادى فى قومه منذ كان فتى حتى أوفى على الخامسة والسبعين ...

ويقى لهم الدلائل اثر الدليل على وحدانية الله ، وبطلان ما هم عليه ...

ولكن هيهات هيهات ... أن يستجيبوا له ...

ان الأصنام أحب اليهم مما يدعوهم اليه ...

وليس من شك أن قومه قد آذوه والذين معه ...
وأن هذا الايذاء قد اشتد إلى درجة أصبحت تستوجب التجول عن تلك البلاد
العقيمة ...

لتجد دعوة التوحيد أرضاً جديدة ... تنبت فيها ، وتزدهر ...
تماماً ... كما مكث محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر سنة يدعو قومه ، فلم يزد هم دعاؤه
إلا اصراراً على أصنامهم ، وإلا إيذاء له ولأتباعه ...
إن إبراهيم قد مر بنفس المرحلة ... والتاريخ يعيد نفسه ... ولن تجد لسنة الله
تبديلاً ...

ولما تبين لإبراهيم أن الدعوة أصبحت عقيمة في تلك البلاد ...
وأنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ... « قال : إني ذاهب إلى ربي سيهدين » ...
وقال لوط كذلك : « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » ...
وخرج إبراهيم من بلاد آبائه ، كما خرج اسمعيل من مكة مسقط رأسه ...
خرج إبراهيم ومعه زوجته المؤمنة به ، التي تحبه حباً شديداً ...
وخرج معها لوط . ذلك الشاب الذي آمن به من قبل . والذي أصبح الآن رجلاً ..
وخرج معهم أولئك نفر القليل ممن آمن بإبراهيم ...
رحلوا جميعاً إلى « أور » الكلدانيين ، وهي مدينة كانت فيما مضى بالقرب من
الشاطئ الغربي لنهر الفرات .

وارتحل منها إلى « حاران » بلدة من بلاد كنعان (فلسطين) .
وكانت أرض فلسطين حينذاك بعضها تحت حكم الكنعانيين ولذلك سميت « كنعان »
فأقام إبراهيم في بلدة تدعى شكين ... (نابلس الآن) .
ولم يطل به المقام في نابلس ، بل كان ينتقل منها إلى الجنوب ليدعو إلى دين الله
الحنيف ، ويتم رسالته في أوسع نطاق ...

أما ابن أخيه لوط فقد رحل إلى مواقع يقال لها ساهوم وعامورة في شرق الأردن
مكان البحر الميت المعروف. يبحر لوط الآن .
وإنفرد بالرسالة يدعو القوم فيها إلى عبادة الواحد القهار ...
وهكذا ... اغترب إبراهيم عن وطنه في سبيل الله ...
بعد أن اغترب عن قومه من قبل في سبيل الله ...
وكل ذلك شيء طبيعي ، ومفروض على أهل المبادئ ... فكيف يرسل الله ...
الذين يبلغون رسالاته ؟

إنها ضريبة حتمية على كل صاحب دعوة جديدة !!

أرني كيف تحيي الموتى ؟

قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم : « رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم
تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير ، فصرهن
إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله
عزیز حكيم . » [البقرة ٢٦٠]

« رب » كلمة استعطاف ، شرع ذكرها قبل الدعاء مبالغة في استعداد الإجابة .

« أرني » من الرؤية البصرية .

« كيف تحيي الموتى » أي بصرى كيفية إحيائك الموتى .

وإنما سأله — عليه السلام — لينتقل من مرتبه اليقين إلى عين اليقين .

وروى أن الملك بشره عليه السلام بأن الله تعالى قد اتخذ خليلا ، وأنه يجيب دعوته ،
ويحيي الموتى بدعائه ، فسأل لذلك .

وروى : أن سبب السؤال منازعة النمرود إياه في الإحياء ، حيث رد عليه لما زعم
أن العفو إحياء ، وتوعده بالقتل إن لم يحيي الله تعالى الميت بحيث يشاهده فدعا حينئذ ...
وهذا يشير إلى أن هذا السؤال له علاقة بالتحاور الذي كان بين النمرود وإبراهيم .

وأن العملية كانت معجزة أخرى ، وقعت أمام المروذ والشعب ...
 « قال : أولم تؤمن » أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الأخياء كيف أشاء حتى
 تسألنى عنه ؟

أوبأنى قد اتخذتك خليلا .
 أو بأن الجبار لا يقتلك .
 « قال : بلى » قال إبراهيم : آمنت بذلك .
 « ولكن » سألت .
 « ليطمئن » أى يسكن .
 قلبى بمضامة الأعيان إلى الإيمان ، والايقان بأنك قادر على ذلك .
 أو : ليطمئن قلبى بالخلقة .
 أو : بأن الجبار لا يقتلنى .

ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر ، فينسب إلى إبراهيم - وحاشاه - شكاً لما
 ورد فى هذه الآية ، قطع النبى صلى الله عليه وسلم دابر هذا الوهم بقوله على سبيل التواضع :
 « نحن أحق بالشك من إبراهيم » أى ونحن لم نشك ، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى .
 وقيل : ان الكلام مع افعل جاء هنا لنفى المعنى عن الحبيب والخليل - عليهما
 الصلاة والسلام -

« فخذ » أى ان اردت ذلك فخذ .
 أربعة من الطير « جمع طائر .
 قيل : أنها الغراب . والطاووس ، والديك ، والحمامة .
 « فصرهن » فقطعهن

أى اجمعهن ، وضمهن اليك لتأملها ، وتعرف شأنها مفصلة . حتى تعلم بعد الإحياء
 أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلاً .
 « ثم اجعل » أى ألق . أو صير . بعد ذبحهن ، وخلط لحومهن ، وريشهن ، ودمائهن

« على كل جبل » يمكنك الوضع عليه ، ولم يعين له ذلك .
روى أن الجبال كانت أربعة .

وقيل : سبعة .

وقيل : عشرة .

وعندى أن قوله « على كل جبل » إشارة إلى أن الله اعطى ابراهيم حزية توزيعها
كيف شاء على ما شاء من الجبال ...

أى وزعها كيف شئت على شتى الجبال من حولك ...

« منهن » أى من تلك الطير .

« جزءا » أى قطعه ، وبعضا ربعا ، أو سبعا ، أو عشرا .

« ثم ادعهن » أى نادهن .

قيل : إنه — عليه الصلاة والسلام — نادى : أيتها العظام المتمزقة ، واللحوم المتفرقة ،
والعروق المتقطعة ، اجتمعى يرد الله تعالى فيكن أرواحكم . فوثب العظم إلى العظم ،
وطارت الريشة إلى الريشة ، وجرى الدم إلى الدم ، حتى رجع إلى كل طائر دمه . ولجه وريشه

« يأتينك سعيا » فالدعاء إنما وقع بعد الإحياء .

أى ساعيات سرعات .

وفيه دلائل على أن البنية ليست شرطا فى الحياة لأنه تعالى جعل كل واحد من تلك
الأجزاء والابحاض حيا قادرا على السعى والعدو !!

« واعلم أن الله عزيز » غالب على أمره .

« حكيم » ذو حكمة بالغة فى أفعاله ، فليس بناء أفعاله على الأسباب العاذية لعجز عن

خرق العادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح .

حكى أن الله سبحانه لما وفى لابراهيم — عليه الصلاة والسلام — بما سأل ، قال له :
يا ابراهيم ، نحن أريناك كيف تحي الموتى ، فأرنا كيف تميت الأحياء مشيرا إلى ما سيأمره

به من ذبح ولده — عليه الصلاة والسلام — ..

وهو من باب الانبساط مع الخليل ، ودائرة الخلة واسعة واسعة !!
ورأى ابراهيم عجائب ربه ...
رأى أجزاء الطيور التي قطعها وخلطها بيده ووزعها على جبال متعددة ... رآها
تتجمع إلى بعضها البعض ... وتتركب ... وتعود طيوراً كما كانت !؟
إنه كان يعلم أن الله على كل شيء قدير، ولكنه يريد أن يرى بعينه تلك التجربة ...
وسمع له الله أن يرى ... فازداد يقيناً على يقينه ...
واطمأن قلبه بما رأى !!

ابراهيم ... في مصر ١؟

ومكث ابراهيم ماشاء الله ببلاد الشام ... ثم حدث جوع وقحط شديد ...
فرحل وزوجه سارة ... ومعهما لوط ... إلى مصر ...
تلك البلاد الجميلة التي يأوي إليها دائماً وأبداً كل من أتعبته الحياة ...
ويبدو أن لوطاً افرق عنهما بعد وصولهما إلى البلاد المصرية ...
فذهب هو إلى مكان منها ...
وذهب ابراهيم وزوجه سارة إلى مكان آخر من البلاد المصرية ...

بلاء .. الجمال ١؟

وفي مصر ... وقع لابراهيم ذلك الحادث المؤسف ...
« عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام -
إلا ثلاث كذباتٍ ، ثنتينٍ منهنَّ في ذاتِ الله عز وجل ، قوله (إني سقيم) وقوله
(بل فعله كبيرٌهم هذا) . »

« وقال : بينا هو ذاتَ يومٍ وسارةُ ، إذ أتى على جبارٍ من الجبابرةِ
« فقيل له : إن هاهنا رجلاً معه امرأةٌ من أحسنِ الناسِ
« فأرسل إليه »

« فسأله عنها

« فقال : من هذه ؟

« قال : أختي

« فأتى سارة

« قال : ياسارة ، ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيبيٌ وغيرك ، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي ، فلا تُسكذي بي .

« فأرسل إليها

« فلما دخلت عليه ، ذهبَ يتناولها بيده

« فأخذَ

« فقال : ادعي الله لي ، ولا أضرك

« فدعت الله فأطلقَ

« ثم تناولاها الثانية

« فأخذَ مثلها ، أو أشدَّ

« فقال : ادعي الله لي ، ولا أضرك

« فدعت ، فأطلقَ

« فدعا بعضَ حبيبته

« فقال : إنكم لم تأتونني بإنسان ، إنما أتيتوني بشيطان .

« فأتشه ، وهو قائمٌ يصلي ، فأومأَ بيده : مهيا ؟

« قالت : ردَّ اللهُ كَيْدَ الكافرِ - أو الفاجر - في نحرِهِ ، وأُخذَ هاجِرًا .

« قال أبو هريرة : فتلك أممكم يا بني ماء السماء . [البخاري]

« إلا ثلاث كذبات » ... أما الكذب فيا طريقه البلاغ عن الله عز وجل فالأنبياء

عليهم الصلاة والسلام معصومون عنه .

وأما في غيره فالصحيح امتناعه .

فيؤل ذلك بأنه كذب بالنسبة إلى فهم السامعين .

أما في نفس الأمر فلا .

إذ معنى سقيم إني سأسقم لأن الإنسان عرضة للاستقام .

وأما (فعله كبيرهم) فيؤل بأنه أسند إليه لأنه هو السبب لذلك وهو مشروط بقوله (ان كانوا ينطقون) .

وأما سارة فهي أخته بالاسلام .

« ثنتين منهن » أى كذبتين من هذه الكذبات الثلاث كانتا في ذات الله تعالى أى لأجله .

وانما خص هاتين الثنتين لأنهما في ذات الله ...

لأن قصة سارة وان كانت أيضا في ذات الله لأنها سبب لدفع كافر ظالم عن مواجهة فاحشة عظيمة ، لكنها تضمنت حظا لنفسه ونفعا له بخلاف الثنتين المذكورتين لأنهما كانتا في ذات الله محضا .

« على جبار » يعنى مر على جبار من الجبابرة ... واسم هذا الجبار عمرو بن امرئ القيس بن سبا ، وكان على مصر ...

قال علماء السير : أقام ابراهيم بالشام مدة فقحط الشام فسار الى مصر ومعه سارة ، وكان بها فرعون ، وهو أول الفراعنة ، عاش دهرا طويلا ، فأتى اليه رجل وقال : أنه قدم رجل ومعه امرأة من أحسن الناس وجرى له معه ما ذكره في الحديث .

« فأرسل اليه » أى أرسل هذا الجبار الى ابراهيم .

« فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤ من غيرى وغيرك » قيل يشكل عليه كون لوط معه .

وأجاب بعضهم : بأن مراده بالأرض الأرض التى وقع له بها ما وقع ، ولم يكن لوط معه اذ ذاك .

فان : قلت : ذكر أهل السير ان ابراهيم سار الى مصر ومعه سارة ولوط ، قلت : يمكن أنه سار معه الى مصر ولم يدخلها معه .

« فأخبرته أنك أختي فلا تكديني » وكانت عادة هذا الجبار أن لا يتعرض إلا إلى ذوات الأزواج فلذلك قال لها : اني أخبرته أنك أختي .
وقيل : لو قال أنها امرأتى لألزمه بالطلاق .
قلت : أو قتله ، أو اغتصبها منه !

« فلما دخلت عليه » فلما دخلت سارة على الجبار .
« فأخذ » أي اختنق حتى ركض برجله كأنه مصروع .
وفي رواية مسلم « فأرسل إليها ، فأتى بها ، قام إبراهيم يصلي ، فلما دخلت عليه لم يمالك أن بسط يديه إليها فقبضت يده قبضة شديدة » .
وعند أهل السير « فلما دخلت عليه ورآها أهوى إليها ، فتناولها بيده ، فبيست إلى صدره » .

« فدعت » وكان دعاؤها « اللهم ان كنت تعلم اني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى الا على زوجى فلا تسلط على الكافر » .
« فدعا بعض حجبته » جمع حاجب ...
وفي رواية مسلم « ودعا الذى جاء بها » ...
« انكم لم تأتونى بإنسان انما أتيتمونى بشيطان » .
وفي رواية الاعرابي « ما أرسلتم الى الا شيطانا ارجعوها الى إبراهيم » .
وفي رواية مسلم « فقال : انما جئتني بشيطان ولم تأتني بإنسان ، فاخرجها من أرضي ، واعطها هاجر » .

« فاخدمها هاجر » أي وهب لها خادما اسمها هاجر .
ويقال : آجر .

وهي أم اسماعيل — عليه الصلاة والسلام — .
ويقال ان أباه كان من ملوك القبط .

« فاتته » أي فأت هاجر إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — والحال أنه يصلي .

« فأوماً بيده » أى أشار بيده .

« مهيا » معناها ماحالك وما شأنك ؟

« فتلک أمکم یابنی ماء السماء » أراد بهم العرب لأنهم يعيشون على المطر ،

هذا ... الفرعون ١٢

تلک هی الأقصوصة التي جرت لبراهيم وامتنحن فيها امتحانا شديدا ...

وخلاصتها أنه نزل الى مصر ومعه أجمل امرأة ... معه سارة ...

وكان على ممر ملك مستهتر ولا يعنينا هنا اسمه بالذات ، وإنما يعنينا أنه جبار من

الجبابرة ... وانه مستهتر عابث ... دنىء ...

وابتلى ابراهيم في صميم كيانہ ١٣

ابتلى في زوجه ... في امرأته التي كانت أجمل نساء زمانها ...

وكانت جريمته أن امرأته أجمل امرأة !!!

وكان لهذا الجبار قوادون يتصيدون له النساء ، ويأتونه بأخبارهن ...

وجاءوا إليه يهرعون : إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس !!!

وبعث الملك من يحضر ابراهيم إليه فأحضروه ...

واضطر ابراهيم اضطرارا أن يكذب ويقول : أختي ...

وظن ابراهيم أنه بذلك ينجو بامرأته من هذا العابت الأثيم ... الذي كان مولعا

بالسلطو على الزوجات ...

ولكن المذكور بهره جمال سارة ونوى بها أمرا !!!

وأحضروها إليه بالقوة ...

فما كان ابراهيم ليسلم امرأته إلا مقهورا ...

وكان بلاء لبراهيم مبيئا !!!

هاهي امرأته في قصر الملك ... وهو لا يستطيع لها نفرا !!!

وأدخلوها إليه ...

كان الملك يزهو في زينة الملك ، وعظمة السلطة ، وكر الفرعونية ...
وهي امرأة مجردة من كل سبب ...

قهروا زوجها ، وأخذوها منه عنوة ، وأسلموها إلى هذا الوغد الأثيم !!!
وكانت أزمة عنيفة جدا ، مست شغاف فؤاد ابراهيم ...
سارة !!؟

أجل امرأة ... المؤمنة ... زوجته البارة الرحيمة ... الكاملة ... تؤخذ عنوة ...
وتسلم إلى فرعون !!؟

ماذا يفعل ابراهيم !!؟
ماذا يستطيع أن يقدم لها ضد هذا الطاغية وجنوده ؟
وأين ابراهيم ، الفرد الذي لاحول له ولا قوة ، من هذا الجبار في جنوده وجبروته ؟
ومن أعماقه ... أحس أن لا ملجأ من الله إلا إليه ...
وعلى الفور .. اتجه ابتليلى إلى خليله ...
اتجه إليه مباشرة ...

فما أخذوها منه ... حتى قام يصلى ... ويحار إليه أن يحفظ سارة !!!
وفي نفس الوقت ... ما ان أدخلت سارة على الملك ...
حتى قامت هي الأخرى تتوضأ وتصلى !!!
انظر ... هو ينادى ربه في أزمته ...

وهي تنادى ربها في أزمته ...
لأنهم لا ينتصرون إلا بالله ، ولا يعرفان إلا الله ، ولا يناديان إلا الله ...
فماذا حدث ؟

حدث العجب ... ما كان الله ليرد دعاء ابراهيم ، ولادعاء سارة ...
قام العجل المسمى فرعون يتناولها بيده ...

فببست يده على صدره ...
واختنق حتى الموت ...
وجعل يركض برجله ، كأنه حمار يموت ، أوجفة تتحرك !!!
إن الله تدخل في المعركة ...
إن الله يدافع عن الذين آمنوا ...
وكيف لا يدافع الله عن اثنين هما وجدتهما المؤمنين به في تلك الأرض ؟
ألم يقل لها ابراهيم : ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ؟!
وكرر العجل محاولته ثلاثا ... وهو يطمع كل مرة أن يظفر بها ...
ولكن الله نكل به نكالا شديدا ...
وصاح العتل : اتكم لم تأثوني يا ناسان ، انما أتيتموني بشيطان !!
ورعب زعبا شديدا ...
جعله يردّها الى ابراهيم مكرمة ... ومنعها جازية اسمها هاتجر !!
وجاءته ، وهو قائم يصلى ... أن ابراهيم مازال في نجواه مع خليله ...
والتقوا لقاء كلة لهقة وحب ...
وكان بينهما ما يكون بين الجنيب يعود الى حبيبه بعد أن فقد الأمل في عودته !!
واستبان لابراهيم كيف ابتلاه الله ... ثم نجاه ...
واستبان لسارة كيف ابتلاها الله ... ثم نجها ...
وما أشبه تلك الأقصوصة بأقصوصة يوسف — عليه السلام — حفيد سارة ...
وكان جماله سببا في بلائه ... وكان مصدر بلائه امرأة عزيز مصر ... زوجة جلالة
ملك مصر !!!
كما كان جمال سارة سببا في بلائها ... وكان مصدر بلائها عزيز مصر ... جلالة
ملك مصر !!!
وكما استعصم يوسف ... وبأي ... وعلا ...

استعصمت سارة... وأبت... ولجأت اليه سبحانه.. فعصمها.. وكبت الكافر...
وسبحان من يتلى من شاء، بما شاء، كيفما شاء!!

عودة ابراهيم الى فلسطين ١٤

ثم عاد ابراهيم . وزوجه سارة . إلى فلسطين ...

بطل ١٤

ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط . فأسروه . وأخذوا أمواله واستاقوا انعامه
فخرج ابراهيم . وبلغ تلك الأموال . وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا . وهزمهم .
وساق في آثارهم . حتى وصل إلى شرق دمشق . وعسكر بظاهرها عند برزة .
ثم رجع مؤيدا ، منصورا إلى بلاده .

وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له ، مكرمين ، خاضعين .
واستقر بفلسطين ...

ونقن مع هذا الموقف من ابراهيم ... فندرك أنه كان مقاتلا ممتازا ...
وهذا يكشف جانبا خطيرا من شخصية ابراهيم ...
وهو جانب القتال والشجاعة والإقدام على التضحية ...
وجانب الانتصار للظالم مهما كان الثمن ...

على الكبر ١٤

قال تعالى : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربِّي
لسميعُ الدعاء . » [ابراهيم ٣٩]

« الحمد لله الذي وهب لي على الكبر » أى مع كبر سنى ويأسى عن الولد .
والتعبد بذلك استعظاما للنعمة ! وإظهارا لشكرها .

« اسماعيل واسحاق » روى أنه وهب له اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة .

وهب له اسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة .

« إن ربى » ومالك امرى .

« لسميع الدعاء » أى لجيبه . فالسمع بمعنى القبول والاجابة مجاز . كما فى سميع الله لمن حمده .

يتوسل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى فى شأنه كأنه عليه السلام يقول : اللهم

استجب دعائى فى حق ذريتى فى هذا المقام . فانك لم تزل سميع الدعاء . وقد دعوتك على

الكبر أن تهب لى ولدا . فأجبت دعائى . وهبت لى اسماعيل واسحاق .

وهذا النص يؤكد أن ابراهيم ولد له بعد أن بلغ الكبر ...

وأن الله وهبه اسماعيل أولا ...

ثم اسحاق ثانيا ...

لأن ابراهيم صاحب التجربة يسجلها بنفسه ، ويحمد الله تعالى عليها بنفسه ...

ولأن الله هو الذى يقصها علينا فى كتابه ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ !

اسماعيل ؟ !

قال تعالى : « واذكُرْ فى الكتابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ، وَكَانَ

رَسُولًا نَبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا .

[مريم ٥٤ و ٥٥]

« واذكر فى الكتاب » فى القرآن .

« اسماعيل » ابن ابراهيم — عليهما السلام —

وفصل ذكره عن ذكر ابيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بامرءه بإيراده مستقلا .

« إنه كان صادق الوعد » وإيراده — عليه السلام — بهذا الوصف لكمال شهرته بذلك

وناهيك فى صدقه أنه وعد أباه الصبر على الذبح بقوله (ستجدنى ان شاء الله من

الصابرين) فوفى !!

قيل : لا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى هذا الوعد والصدق فيما من أعظم ما يتصور !!
 « وكان رسولا نبيا » فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة
 مستقلة ، فإن أولاد إبراهيم — عليهم السلام — كانوا على شريعته .
 وإسماعيل — عليه السلام — بعث إلى جرهم بشريعة أبيه .
 « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » اشتغالا بالأهم ، وهو أن يبدأ الرجل بعد تكميل
 نفسه بتكميل من هو أقرب الناس إليه .
 قال الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين — وأمر أهلك بالصلاة — قوا أنفسكم
 وأهليكم نارا » .

وقال الحسن : البراد بأهله أئمة ، لكون النبي بمنزلة الأب لأئمة .
 « وكان عند ربه مرضيا » لا يستقامة أقواله وأفعاله .
 ذلك هو إسماعيل ...

شخصية أبرز صفاتها ... صادق الوعد ... رسول ... نبي ... يأمر أهله بالصلاة ...
 والزكاة ... مرضى عند ربه ...
 وماذا من الكمال بعد هذا ؟ ..
 وإسماعيل هذا ... يكفيه — فوق هذه الصفات جميعا — أنه جد نبينا محمد صلى الله عليه
 وسلم ... والخلة التي تربط محمداً وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام .

غلام حلیم

قال تعالى : « ربِّ هب لي من الصالحين . فَبَسَّرْنَاهُ بَغُلَامٍ حَلِيمٍ » ..

[الصافات ١٠٠ - ١٠١]

« رب هب لي من الصالحين » بعض الصالحين ، يعني على الدعوة ، والطاعة ،
 ويؤنسني في القرية .

والتقدير : ولدا من الصالحين .

« فيشرناه بعلام حليم » ظاهر في أن ما بشر به عين ما استودبه...
ولقد جمع بهذا القول بشارات...
أنه ذكر لاختصاص العلام به...
وأنه يبلغ...
وأنه يكون حليما... وأى حلم مثل حلمه؟!
عرض عليه أبوه وهو مرهق الذبح فقال « ستجدني إن شاء الله من الصابرين »...
فما ظنك به بعد بلوغه؟!
وقيل : ما نعت الله تعالى نبيا بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم عليهما السلام .
وحالهما المذكورة فيما بعد تدل على ما ذكر فيها .
إن ابراهيم يدعو ربه... وكان ذلك بعد أن مضى عليه عشرون عاما في الشام...
بعد هجرته عن قومه...
يدعوه أن يهب له ولدا صالحا...
يرث هذه الدعوة... هذه الكلمة... ويتم إبلاغ هذه الرسالة...
وإن الله تعالى يبشره أنه استجاب لدعائه ، وأنه سيهبه غلاما... حليما... أخص
صفاته الحلم !!!

من الأخبار ١٢

قال تعالى : « واذكر إسماعيلَ واليسعَ ، وذا الكفلِ ، وكلُّ من الأخبارِ . هذا ذكر... »
[ص ٤٨ — ٤٩]
« واذكر إسماعيل » فصل ذكره عن ذكر أبيه ، وأخيه ، اعتناء بشأنه ، من حيث
لا يشرك العرب فيه غيرهم .
أو للأشعار بعراقته في الصبر ، الذي هو المقصود بالتكرار .
« وكل من الأخبار » أي وكلهم من المشهورين بالخيرية .

« هذا ذكر » أى شرف لهم ، وشاع الذكر بهذا المعنى ...
والمراد فى ذكر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شرف عظيم لهم ...
إن اسماعيل قمة فى الخير ... انه يقف فى ذروة الأخيار ...
إن الله يشهد له بذلك ... وكفى بالله شهيدا !

بداية النبوة والكتاب فى ذرية ابراهيم !؟

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا ، وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ... »
[الحديد ٢٦]

« وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتاب .
إن اسماعيل هو بداية النبوة والكتاب فى ذرية ابراهيم ...
إنه الإشعاع الأول فى تلك الذرية ...
إنه الولد البكر ... وانه أول من استنبيء من ذرية ابراهيم ...
وأول من كان رسولا نبيا منها ...

لماذا طلب ابراهيم الولد !؟

رجل يقف على قمة المائة من عمره ...
قضى حياته من صغره داعيا إلى الله بإذنه ...
وامراته إلى جواره ... تؤمن به ، وتهاجر معه أينما ذهب ...
وتلفت ابراهيم من جوله فوجد نفسه وحيدا ...
ونظر إلى هذه الدعوة التى يحملها ، فأحس بضرورة وجود من يتابع السير بها
من بعده ...

ونظر ... فأدرك أنه هو القلب السليم ، الذى اصطفاه رب العالمين ...
هنالك ... رغب أن يكون الذى يحمل هذه الرسالة من ذريته ...
وإكفى هناك النواميس العامة ... تمنع ذلك ...

إنه شيخ كبير يناهز المائة ... فكيف يطمع الآن فيما لم يتحقق له في شبابه !!
وهذه زوجة عجوز ، عقيم ... فكيف تطمع فيما لم يقع لها في شبابها ؟
هناك استحالة طبيعية ... هناك نوااميس تمنع ذلك ...
ولكن ابراهيم الذي يعلم من الله مالا يعلم ...
يعلم أن الذي خلق تلك النوااميس ، هو الذي يملك تغييرها وتحويلها ...
هنالك اتجه ابراهيم إليه ...
اتجه إليه مباشرة ...

اتجه إلى من بيده تغيير النوااميس وتبديلها ...
وناداه : « رب هب لي من الصالحين » ...
فإذا كان جواب ربه ؟

« فبشرناه بسلام حلیم » ...
إن ابراهيم اتجه إليه مباشرة ... فكان الله عند ظنه !!!
كيف كانت القصة ؟

« قال ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق ، من قبل أم إسماعيل
« اتخذت منطقاً ، اتعني أثرها على سارة
« ثم جاء بها إبراهيم ، بأينها إسماعيل وهي ترضعُهُ ، حتى وضعتهما عند البيت ،
عند دوحه ، فوق زمزم في أعلى المسجد
« وائس بمسكة يومئذ أحد وائس بها ماء
« فوضعهما ، هالكت .

« ووضع عندهما جراباً ، فيه تمر . وسقاء فيه ماء
« ثم قفى إبراهيم منطلقاً ... »

[البخارى]

هذه قطعة ... من ذلك الحديث ... الخالد ... الجامع ... الذى أورده البخارى في
تفسيره ... يتلأل كما يتلأل النور في آفاق الأبد ...

ولندخل قليلا ... قليلا ... إلى أنواره ...
« أول ما اتخذ النساء المنطق » ما يشد به الوسط ...
أى اتخذت أم إسماعيل منطقا ، وكان أول الاتخاذ من جهتها ...
ومعناه أنها تزيت بزى الخدم اشعارا بأنها خادمها . يعنى خادم سارة ، اقستميل
خاطرها ، وتجبر قلبها ...
وكان السبب فى ذلك ان سارة كانت وهبت هاجر لابراهيم ...
فحملت منه باسما عيل ...
فلما ولدته ، غارت منها ، فخلقت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء !
فاتخذت هاجر منطقا ، فشدت به وسطها ، وجرت ذيلها ، لتعفى أثرها على سارة .
وهو معنى قوله (لتعفى أثرها) أى لأن تعفى : يقال عفا على ما كان منه إذا أصلح
بعد الفساد ..
ويقال إن ابراهيم شفع فيها . وقال لساره : حلى يمينك بأن تثقى أذنيها ، وتخفضيها ..
فكانت أول من فعل ذلك .
« ثم جاء بها ابراهيم » قيل : كان تطوى له الأرض ...
وأنا أقول : لاداعى لتكلف هذا ... إنما جاء بها ابراهيم من الشام حيث كان
يقم ، إلى الموضع الذى به زمزم اليوم بالحجاز ... فى رحلة طبيعية ... قطع فيها أياما
وليالى ككل مسافر ...
« وهى ترضعه » أى هاجر ترضع إسماعيل ...
لقد كان إسماعيل رضيعا ... وكانت أمه هاجر ترضعه فى تلك الرحلة الطويلة ...
« عند البيت » عند موضع البيت ، لأنه لم يكن فى ذلك الوقت بيت ولا بناء .
« فوضعهما » عند البيت .
« عند دوحة » هى الشجرة العظيمة .
« فوق زمزم » أى فوق المكان الذى نعت فيه بعد ذلك زمزم لأنها لم تكن
موجودة يومها ...

« فى أعلى المسجد » أى فى أعلى مكان المسجد ، لأنه لم يكن حينئذ بنى المسجد ،
« جرابا » هو الذى يتخذ من الجلد يوضع فيه الزواد .
« وسقاء » هو قرية صغيرة .

وفى رواية (شنة) وهى القرية العتيقة اليابسة .
« ثم قنى » أى ولى ، يعنى ولى راجعا إلى الشام .
وفى رواية ابن اسحاق : فانصرف إبراهيم — عليه السلام — إلى أهله بالشام ،
وترك إسماعيل وأمه عند البيت .
« منطلقا » أى إلى الشام ...

لقد بدأت الأقصوصة ... إن إبراهيم دخل تجربة الزوجتين ... سارة هى الزوجة
الأولى ... الحرة ... الحسنة ... التى يحبها حبا شديدا ... والتى لازمتها طيلة حياته منذ
كان فتي بالعراق ... حتى شيخوخته وهو يناهز المائة فى الشام ...
وهاجر هى الزوجة الثانية ... ولكنها كانت جارية ... تملكها سارة منذ أهديت
لها فى مصر ... ولسنا ندرى أيتها كانت أجمل ؟

سارة ... التى قيل أنها كانت أجمل امرأة منذ حواء إلى زمانها ...
أم هاجر المصرية التى عاشت فى ظلال القصر الملكى بمصر ، وفى نعيم فرعون مصر ...
والتي اكتمل فيها مزايا الجمال المصرى الذى شرب من ماء النيل العظيم ؟
دخل إبراهيم تلك التجربة العنيفة ..

تجربة الضرائر ... التى زادها اشتعالا أن احداهن عقيم لا تلد ... بينما الأخرى
ولدت غلاما ، ذكرا ، جميلا ، رائعا ، فيه من صغره جمال النبوة وجلالها ...
وزاد اشتعالها كذلك أن هذه التى ولدت كانت تحت يد سيدتها ...
وأن تلك السيدة هى التى قدمتها لإبراهيم ليدخل بها ، لعله يرزق منها بولد ...
ان سارة حين اقترحت على إبراهيم أن يدخل بها ، وأذنت فى ذلك ، لم تكن
تتصور ما يحدث بعد ذلك على الطبيعة ...

فلما تحول الاقتراح إلى حقيقة ، ودخل ابراهيم بجاريتها ، وحملت تلك الجارية ، ثم وضعت ، وكان الموضوع غلاما ، فيه سر أبيه ، وامتيازه ، ونور نبوته ... اشتعل القلب منها غيرة ...

وزاد نيرانها أن ابراهيم شغف بذلك الغلام حبا ...
وماله لا يشغف به وهو نسخة حرفية منه روعة وحسنا ؟ !
فما وضع سارة مع ابراهيم بعد ذلك إذا ؟
واكن ابراهيم ... ذلك العظيم ... ليس كاولئك الذين ينسون الوفاء لعشيراتهم ...
فما كان منه إلا أن حل الموضوع ذلك الحل الطبيعي ...
أن يبعد بينهما ... بين سارة التي تشتعل غيرة ... وبين هاجر التي رزقه الله منها بذلك الغلام الحليم ...

ولكن أين يذهب ابراهيم بهاجر وولدها ...
ايضعهما في بيت قريب من بيت سارة ؟
كلا ... ان الأمر وراء ذلك الذي يشتعل بين زوجتيه ...
إن الله قد قدر قدرا ، سيقع حتما ...
وما ذلك كله الا الحرف الأول في القصة الخالدة ...
وأمر الله ابراهيم أن يسير بهاجر ورضيعها إلى جبال فاران ...
إلى جبال مكة ... حيث لا زرع ، ولا ماء ، ولا إنسان ...
ولا أثر لأي نوع من أنواع الحياة !!!
ما هذا ؟ !!

إنه الله ... يريد أمرا ...
إنه ابراهيم ... خليله ... ينفذ أمره !!!
إيه يا ابراهيم ؟ !

ما هذا المقام ؟ ... وما هذا الخلود ؟ ... وما هذا الشرف ؟ .. وما ذاك التكريم ؟ ..

عليك صلوات الله وسلامه يا خليل الرحمن ...
حين أوحى إليك ربك ... أن خذ هاجر ورضيعها ... واذهب بهما إلى تلك الجبال
البعيدة ... ودعهما هناك !!!
شيء فوق الطاقة ...
لا يستطيع بشر أن يحتمل هذا ...
رجل ... مسئول عن أسرة ... يأخذ تلك الأسرة باكملها ... ليتركها للموت المحم ...
في تلك الصحراء الحارقة ... ثم يمضي راجعا ؟!
ان هذا في منطق الناس جنون ...
ولكنه في منطق الأنبياء ... ودائرة الخليل ... أمر الهى واجب التنفيذ فوراً ...
ومن هنا ... ومن مثل ذلك ... رفع الله أولئك الأنبياء فوق عباده جميعا درجات ...
بانهم يحتملون ما لا يستطيع البشر جميعا احتماله ...
إبراهيم !!!
ماذا أقول !!!
إنك فوق القول ... وفوق إدراكنا ... الله وحده هو الذى يعلم من أنت ...
عليك صلوات الله وسلامه يا إبراهيم !!
وفي المسكان المحدد ...
في تلك الصحراء التى تؤكد الموت للمقيم فيها ...
وضع إبراهيم هاجر ... ووضع فلذة كبده ... هناك ...
وترك معهما شيئا لا يدفع عنهما الموت إلا لحظات !!
ترك جرابا صغيرا فيه قليل من التمر
وسقاء صغيرا فيه قليل من الماء ...
ثم قفى إبراهيم منطلقا !!
ثم ولى عائدا ...
وتركهما ...

أعماق التجربة ١٤

منظر تنفجر له العيون دمعاً وبُكيا؟!

أمرأة... ورضيعها...

وحدها...

في جبال وصحراء موحشة...

والرياح تدوى من حولها... بصوتها الرهيب...

لا ماء... لا زرع... لا انسان... لا طير... لا حيوان... لا شيء...

هذا هو المنظر...

وابراهيم، ذلك الشيخ المهيب... يرى كل ذلك...

ولكنه يولى عنهما عائدا...

ويتركهما!!؟

لماذا يفعل الله هذا؟!

لماذا يفرض الله على ابراهيم هذا البلاء؟

ولماذا يفرض على هاجران تشهد موت ابنها عطشا وجوعا معينها؟

ولماذا يفرض على ذلك الرضيع أن ينشأ وحيدا في تلك الصحراء؟

لأن الله يريد أن يخلصهم جميعا لنفسه... فهو يقطع الاسباب كلها ليلجئهم إليه...

إن قلب ابراهيم قد تعلق بالغلام... إذا فليباعد بين ابراهيم وبين ذلك الغلام!!!

إن الأب هو الذى يقوم بتربية ولده وكفالاته...

إذا فليقطع عن ذلك الغلام تلك الأسباب، وليترك وحيدا ليريه ربه ويكفله!!!

وإن تلك المرأة قد ظنت انها اصبحت ذات حظوة عند ابراهيم حين ولدت له

اسماعيل...

فيفرق بينهما... هي في الحجاز، وهو في الشام...

ليعلم كل منهما أن الله أولى بهما من أنفسهما !!!
بلايا في مظاهرها، مرايا في جواهرها ... تعكس رحمة الله المرادة بأهل البيت وبركاته
عليهم ...

وأعماق وراء ذلك ...

لا ندركها ... الله وحده يعلمها ...

الله ... الذى أمرك بهذا ؟

والآن ننتقل إلى قطعة أخرى من ذلك الحديث الخالد ...

« ... فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ »

فَقَالَتْ : يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ ! أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ ! . وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ
إِنْسٌ ، وَلَا شَيْءٌ ؟ !

« فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا »

« وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا »

« فَقَالَتْ لَهُ : أَللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ »

« قَالَ : نَعَمْ »

« قَالَتْ : إِذْنٌ لَا يُضِيعُنَا »

« ثُمَّ رَجَعَتْ »

« فَاَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ ... »

[البخارى]

« فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ » وفي رواية ابن اسحاق « فَاتَّبَعَتْهُ » .

وفي رواية ابن جريج « فَادْرَكَتْهُ بِكَذَا »

« إِذْنٌ لَا يُضِيعُنَا » وفي رواية عطاء « لَنْ يُضِيعُنَا »

وفي رواية ابن جريج « حَسْبِي » وفي رواية ابراهيم بن نافع عن كثير فقالت

« رَضِيتُ بِاللّهِ »

ذلك مشهد آخر من القصة الخالدة ... قصة بدء النبوة والكتاب في الأرض ...
هاهو ابراهيم يترك زوجته ووحيدته ... في تلك المجاهل ... ويولى راجعا ...
هكذا ... بلا مقدمات ... وبلا ترتيب ... وبلا اعداد ...
كأنه يقول لهم : موتوا هاهنا !!!
وهاهى أم اسماعيل تتبعه وتناديه في فزع : يا ابراهيم ... اين تذهب ؟ ... أين تذهب
وتركنا في هذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شئ !!
إن المرأة خائفة ... انه شئ طبيعي أن تكون خائفة ...
ان الليل سوف يزحف بظلامه عليهما بعد قليل ...
ولا أحد معهما ... حتى ابراهيم ... الرجل الوحيد الذى معهم يرخل عنهما ؟ !
انها لم تك تظن ان ابراهيم جاء بها إلى ذلك المكان ليتركها فيه تموت هي
ورضيعها ...
ولما كانت تظن انه سوف يقيم معهما فيه ، أو يدبر لهما وسائل الأمن والحياه !!
فماذا فعل ابراهيم ؟
وماذا أجابها ؟
لم يحبها بشئ ... وظل صامتا وواصل انطلاقه راجعا !!!
وهي تجرى من ورائه وتناديه : ابراهيم ... أين تذهب وتركنا بهذا الوادى الذى
ليس فيه إنس ولا شئ !!
وهو في صمته لا يتكلم ... وفي سغيه راجعا لا يتحول ...
كأن شيئا لم يحدث ... أو كأنها لا تستغيث به ولا تناديه في فزع ..
وكما رآته يبتعد عنها ... وعن المكان الذى فيه ولدها ...
كما ازدادت سعيا من ورائه ... وهي ترد تلك العبارات خائفة ...
فلما استيأست أن يرد عليها ... جاءته من حيث يستجيب : الله الذى أمرك بهذا ؟
هنالك انفتحت إليها ابراهيم وقال : نعم ؟

قالت : إذن لا يضيعنا !!
ثم رجعت ... فانطلق إبراهيم !!
نعم ؟ ! ... هذا هو كل ما عند إبراهيم . ايقوله لها ...
إن المسألة أمرٌ من الله ... لاسبيل الى التردد فيه ... ولا الى الحديث فيه ...
فلما سأله كان جوابه : نعم ...
وهنا تبدو هاجر عظيمة في ردها : إذن لا يضيعنا ...
انها على يقين أن الله سوف لا يضيعهما ، مادام هو الأمر بذلك !!
إيمان ... توكل ... تصديق ...
قل ماشئت ... فلن تدرك من اغوارها ... وانوارها ... الا سيرا ...
وما ظنك بامرأة عاشرت خليل الرحمن ...
أوما ظنك بامرأة زوجها نبي الله ، وابنها نبي الله ... كيف تكون ؟!
أوما ظنك بامرأة في آخر لسلمها محمد ... امام الأولين والآخرين ؟!
إذن لا يضيعنا ؟ !
كلمة عالية ... كبيرة ... نورها عظيم !!

انى أسكنت من ذرتى ؟!

« ... حتى اذا كان عند الثنية ، حيث لا يروته »
« استقبل بوجه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات »
« ورفع يديه فقال : »
« رب ، انى أسكنت من ذرتى بوادٍ غير ذى زرع ، عند بيتك المحرم . »
« حتى يبلغ يشكرون ... »
[البخارى]

ننحن الآن أمام بحر من النور الابراهيمي ... نرجو الله جل ثناؤه أن نستطيع السبح فيه ... بحوله وقوته ...

« عند الثنية » هو في الجبل كالعقبة .

وقيل : هو الطريق العالى فيه .

وقيل : أعلى المسيل في رأسه .

« رب » يعنى يارب . ويروى « ربى » .

وفي رواية « ربنا » كما في القرآن وهو قوله تعالى (ربنا إني أسكنت من ذريتي .

بواد غير ذى ذرع ، عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس ،

تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، اللهم يشكرون) .

قوله « بواد غير ذى ذرع » هو مكة .

قوله « المحرم » وصف البيت بالمحرم لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به .

قوله « ليقيموا الصلاة » عند بيتك المحرم يتعلق بقوله (أسكنت) أى ما أسكنتهم

بهذا الوادى الخلاء البلقع إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم .

قوله « فاجعل أفئدة من الناس » أى من أفئدة الناس ، وهى جمع فؤاد ، وهى

القلوب ، وقد يعبر عن القلب بالفؤاد .

وقيل : جمع وفود من الناس .

ولو قال : أفئدة للناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس .

قوله « تهوى إليهم » أى تقصدهم ، وتسكن إليهم .

قوله « وارزقهم من الثمرات » أى التى تكون في بلاد الريف ، حتى يحببهم الناس .

فقبل الله دعاءه ، وأنبأ لهم بالطائف سائر الأشجار لهم يشكرون النعمة .

ما هذا ؟!

هذا شيء خطير جدا ...

أن زاوية خطيرة من شخصية ابراهيم تتلأأ ... بنورها المبين ...

« حيث لا يرونه » ... من هنا ... يبدو ابراهيم عاليا جدا جدا ... انه لم يدع ربه

حيث يرونه ولكن حيث لا يرونه !!!

لم يدع ربه أمام هاجر وابنها ..
كلا ... وإنما حيث « لا يرونه » ...
لماذا ؟ ... لماذا يتخفى إبراهيم في الدعاء ؟
ليكون بينه وبين خليله ...
وحين يتناجى الخليل مع خليله ... تحلو الوحدة ... ويحلو الاختفاء عن أعين الناس .
حتى إذا كان عند الثانية ؟ !
حتى إذا ابتعد إبراهيم عن هاجر ورضيعها ... وبلغ ذلك المرتفع من الجبل ...
واطمأن إلى أنه أصبح وحده ...
حيث لا إنس ، لا شيء يراه ...
هنالك انفجر قلبه يهدر ... بينما عيناه تنفجر بالدموع ...
وكان مقاما عاليا ...
رجل ... وحده ... ترك وراءه زوجه ، ووحيدته ... للفناء ... حيث لا ماء ،
ولا غذاء ... لا شيء إلا الهواء !!!
ثم ماذا ؟ ...
ثم ما هو أروع ... وأحلى ... وأغلى ...
إبراهيم يستقبل البيت بوجهه ... إبراهيم يتجه إلى مكان البيت ... الذي يرمز إلى
وجوب الاتجاه إلى الله وحده ...
حيث ترك هناك زوجه ووحيدته ...
ان فيها من المعاني العميقة مالا يدركه إلا إبراهيم ... ومن اذن له الله أن يرقى إلى مقام
ادراك شيء عن إبراهيم ...
ورفع إبراهيم يديه ... ووجهه إلى البيت ... وفي استسلام تام لربه ... ومن قلب
تموج منه أمواج التسليم ، والحب ، الرضى ، والمعركة ، بالله ...
ومن عيون تتنايع منها الدموع ...

نادى إبراهيم ربه « رب » ...
ما أحلاها ... صادرة عن الخليل ... متجهة الى ربه !!!
انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع ! ؟ ...
عوالم من العلم فى هذه الجملة ...
انه يقرر أنه أسكن من ذريته ... لا كل ذريته .. أى أن هناك تضحية بهذا الغلام .
أين ؟ ... بواد غير ذى زرع !!
بمكان ايس فيه زرع ، ولا يحتمل أن يكون فيه زرع !!
إذا الهلاك متحقق لهؤلاء الذين تركهم هناك !!
عند بيتك المحرم ؟ ...
هل كان هناك بيت محرم وقتذاك ؟
كلا ... وإنما هى النبوة التى أعلمها الله أن سيكون هنا بيتا محرما لله ...
ثم ماذا ؟ ... ثم انظر الى أعماق الدعاء ... ان إبراهيم يشير الى أن اسماعيل سوف
تكون حقيقته ... أنه نبي ... أنه قلب لا يسكن الا عند الله ..
ثم ماذا ؟ ... ثم نأخذ خطوة الى الخلف ... مخافة أن نحترق !!!
ربنا ليقموا الصلاة !
أى أسكنت من ذريتي هنا ، ليكون منه أمة تقيم الصلاة ... أى أمة تعبدك وحدك ...
فاجعل أفئدة من الناس ... وهذا يشير الى عظيم معرفة إبراهيم بالنواميس الإلهية ...
انه يعلم أن نسبة من الناس سوف تؤمن ... وليس كل الناس ...
فكان دعاؤه دعاء العالم بالنواميس ... فطلب ما يطابق تلك النواميس ...
تهوى اليهم ؟ ... أى تتجه اليهم ، وتسكن اليهم ...
وارزقهم من الثمرات ... دعاء مطلق غير محدود ...
كأن إبراهيم يطلب الى ربه أن يكفل لهم والأمة التى تهوى اليهم رزقا واسعا ، فيه
من الثمرات التى تكفل الحياة وتضمنها ... لعلمهم يشكرون ؟ ...

وإني لأرجو يارب أن يكونوا لك شاكرين على تلك البعم...
لأن ابراهيم يعلم أن، منهم من سوف يكفر نعم الله عليه...
هناك إذاً هدف من العملية... إنها لم تكن مجرد حل لمشكلة الضرتين... سارة
وهاجر...

وإنما كانت تدبيراً إلهياً... ليتحقق بناء بيت الله المحرم... في ذلك المكان...
ويتحقق وجود نبوة اسماعيل...
ثم يتحقق وجود تلك الأمة العربية العظيمة من حوله...
ثم تتوج تلك السلسلة المباركة في نهاية أمرها... بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم...
ثم يكون من وراء ذلك تلك الأمة الحمديّة الرائعة... التي حملت لواء التوحيد بعد
خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم...
والتي ما زالت موجاتها تتباعد في آفاق الحياة البشرية كلها... إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها !!!
إن ابراهيم قد كشف الله تعالى له كل ذلك... وأكثر من ذلك... مما يعلمه الله
وحده... وابراهيم وحده...

وان ابراهيم وهو يرى القصة في ذلك المقام من أولها إلى آخرها...
كان يرى القدر المرسوم... والقضاء المحتوم...
فكان يدعو ربه بما يقرأ من قدره، وما يرى من قضائه...
فتطابق الدعاء والقدر... وتلك أعلى مراتب الدعاء...
فاستجيب لإبراهيم في كل شيء دعا ربه به... بلا استثناء...
قال ابراهيم: أسكنت من ذريتي... وكانت استجابتها أن ذرية اسماعيل ظلت
تنمو بمكة حتى صارت أمة عظيمة !
وقال: بواد غير ذي زرع... وكانت استجابتها أن ظلت مكة هكذا إلى يومنا
هذا... وادٍ غير ذي زرع !!

وقال : عند بيتك المحرم .. كانت استجابتها أن بنى البيت ... وحفظه الله الى الآن!
وقال : لقيموا الصلاة ... وقد كان من اسماعيل هذا أمة أقامت الصلاة ، قرونا
وقرونا ... وبكفى ان كان منه ذلك النبي العربي العظيم ... الذي صلى بأصحابه ... وشرع
لناس الصلاة ... وما زالوا يصلون بصلاته الى يومنا هذا !!

وقال : اجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ... وكانت استجابتها تلك الأمة التي
سكنت من حول البيت ... وتلك القلوب التي لا يحصيها إلا الله التي تهوى الى حج
بيت الله الحرام كل عام !!

وقال : وارزقهم من الثمرات .. وكانت استجابتها أن مكة يتوافر فيها أصناف الثمرات
الى يومنا هذا مما لا وجود له أصلا في أرضها ...
وهكذا ... ان الله استجاب لكلمات ابراهيم بتمامها !!!

عطشت ... وعطش ابنها ؟

« ... وَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ
« وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ
« حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشْتُ ، وَعَطِشَ ابْنُهَا
« وَجَعَلْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى
« أَوْ قَالَ : يَتَلَبَّطُ
« فَأَنَلَّقَتْ ، كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ
« فَوَجَدَتِ الصَّافَا ، أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا
« قَامَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي ، تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا ؟
« فَلَمْ تَرَ أَحَدًا
« فَهَيْطَلَتْ مِنَ الصَّافَا
« حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِي ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا

« ثُمَّ سَعَتْ سَعَى الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ

» حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي

» ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا ، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا ؟

» فَلَمْ تَرَ أَحَدًا

» فَقَعَمَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ

» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَذَلِكَ سَعَى النَّاسِ بَيْنَهُمَا ... »

[البخاري]

« حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السَّقَاءِ » أَيْ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ الْمَاءُ الَّذِي فِي السَّقَاءِ

« وَعَطَشَ ابْنُهَا » أَيْ إِسْمَاعِيلُ

قِيلَ : كَانَ عُمُرُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ سَنَتَيْنِ

وَقِيلَ : كَانَ ابْنُهَا اقْتَطَعَ

« يَتَلَوَّى » أَيْ يَتَمَرَّغُ ، وَيَتَقَلَّبُ ظَهْرًا بَطْنًا ، وَيَمِينًا وَشِمَالًا

« أَوْ يَتَلَبَّطُ » أَيْ يَتَمَرَّغُ وَيَضْرِبُ بِنَفْسِهِ الْأَرْضَ

وَقِيلَ : هُوَ أَنْ يَحْرُكَ لِسَانُهُ وَشَفْتَيْهِ . كَأَنَّهُ يَمُوتُ

وَقِيلَ : اللَّبَطُ بِالْيَدِ ، وَالْخَبَطُ بِالرَّجْلِ

وَفِي رِوَايَةٍ : فَلَمَّا ظَلَمَ إِسْمَاعِيلُ جَعَلَ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِعَقْبِيهِ

وَفِي رِوَايَةٍ : يَتَلَمَّظُ .

« ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي » وَفِي رِوَايَةٍ : وَالْوَادِي يَوْمَئِذٍ عَمِيقٌ

« ثُمَّ سَعَتْ سَعَى الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ » أَيْ أَصَابَهُ الْجُحْدُ ، وَهُوَ الْأَمْرُ الْمَشَقُّ

« سَبْعَ مَرَّاتٍ » وَفِي حَدِيثِ أَبِي جَهْمٍ : وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَنْ سَعَى بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ ...

مَا هَذَا ؟

هَذَا مَنْظَرٌ رَهيبٌ ...

إِنَّهُ لَوْحَةٌ فَنِيَّةٌ رَائِعَةٌ حَيَّةٌ ... متحركة ...

ذهب ابراهيم ... واختفى شبحة ...
وهاهى ام اسماعيل ، ورضيعها بين يديها يواجها المصير الرهيب ...
ودخل الليل بظلامه ...
وما أدراك ما الليل فى صحراء لا أحد فيها !!!
وأم اسماعيل وحدها
إلا هذا الرضيع ... الذى لا يملك من أمره شيئاً ... ولا يدرى شيئاً ... ولا يزيد لها الا
خوفا ورهقا ...
وضمته إلى صدرها فى حنان الأم التى تخشى على طفلها الهلاك ...
من يدرى ؟ ... ربما جاء وخش فى هذا الليل فافترس الطفل بين يديها ... وافترسها
هى الأخرى ...
أوربما فوجئت بشير يدهمها هى وابنها ، ولم يرع لهما حرمة ...
ومر الليل بسلام ...
وأشرقت الأرض بنور ربها ...
فألست المرأة الوحيدة بنور النهار ...
وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل ؟
وتشرب من ذلك الماء ؟
ثم واجهتها المشكلة الرهيبة ... لقد نفذ الماء الذى فى السقاء ... كما نفذ من قبل التمر
الذى كان فى الجراب ...
إلا أن المرأة لم تشعر بوطأة الجوع إلا حين نفذ الماء ...
إنه لم يعد أمامها إلا أن تموت !!
وقد يكون موتها سهلا على نفسها ... ولكن هذا الرضيع هل تتركه يموت أمامها ؟!
واهتزت هاجر من أعماقها ...
وفزع من أصولها ... إن رضيعها يموت أمام عينيها ... ولا تملك له شيئاً !!!

« حتى إذا نفذ ما في السماء ، عطشت ، وعطش أبها » ... ياللهول !! انتهى
الماء ... وأخذ جوفها يحترق عطشا كأنه الجحيم ...
وجعلت تعطى ثديها لابنها فلا يجد شيئا يمسه ...
تجربة رهيبة ... رهيبة جدا ...

وجعلت تنظر إليه يتلوى !!؟

إن الرضيع يتمرغ من العطش والجوع ... ويتقلب ظهرا لبطن ... ويمينا وشمالا ...
إنه يصرخ صراخا يقاوم فيه الفناء ...
فكان صرخته تنبع من فؤاد أم اسماعيل ... وينشق لها كيانه !!
أم ؟ ... تشهد موت رضيعها ... بسبب جفاف ثديها !!!
ماذا تفعل ؟

وجعل يتلبط ... يضرب بنفسه الأرض ...
وكما نظرت إليه ازدادت رعبا وفزعا وهلما ...
ثم ماذا ؟

ثم خفت صوت الرضيع ... وضعفت انفاسه ... وجعل يقترب من الموت ...
هنالك استبد الفرع بأمه ... ولم تستطع أن تنظر إليه يموت بين يديها ...
« فانطلقت » ... « كراهية » ... « أن تنظر إليه » ...
انطلقت كالجنونة أو أشد جنونا ...

ان أبها يعاني سكرات الموت ... ولا تستطيع أن تراه وهو يموت !!!
ثم ماذا ؟

وباللاوغي ... وفي حركة لا ارادية ... كانت قد ارتفعت على أعلى مكان وأقربه إليها ...
« فوجدت الصفا ، أقرب جبل في الأرض يليها » ...
إنها متلهفة ... إنها تريد أن تأتيه بما ينقذه من الموت فورا ...
« فقامت عليه » ... فوقفت على الصفا ...

« ثم استقبلت الوادى » ثم نظرت إلى الوادى العميق ...
« تنظر هل ترى أحدا ؟ » كيف كانت أم اسماعيل فى تلك اللحظة ؟
الله وحده ... هو الذى يعلم حقيقة احساسها ... وهى ترجو ان ترى أحدا يأتيها
ولو بقطرة ماء واحدة ...

« فلم تر أحدا » ... كان الوادى من جميع جهاته خاليا ...
وانطفأ الأمل الذى أشرق فى وجودها ...
« فهبطت من الصفا ... حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها » ... لماذا ؟ ...
مخافة ان يمنعها الملبس من سرعه الحركة ...
انها تريد أن تلغى الزمان والمكان ... لتنقذ طفلها من الموت !!
ثم ماذا ؟

ثم ... « ثم سعت سعى الإنسان المجهود » ... انها متعبة ... قد اعيها التعب ..
والجوع ... والخوف ... والفرع ... ان كيانها يوشك أن ينهد وينهار ...
ولكن شدة فزعها على طفلها هو الذى يحركها ويدفعها ...
وباللاوعى ... وبالإرادة ... وجدت نفسها ترتفع على المروة ... وتقوم عايتها ...
وتنظر هل ترى أحدا ؟ ...

فلم تر أحدا ؟ ...
يأس تأم من الخلق ... لا وجود لأحد من الإنس ... أوغير الإنس ...
لقد تقطعت الاسباب كلها ...
ثم ماذا ؟ ...

« ففعلت ذلك سبع مرات » ... تسعى إلى الصفا ... ثم ترتفع عليه ... ثم تنظر ...
ثم لا ترى أحدا ... ثم تهبط إلى الوادى وتسعى ... ثم ترتفع على المروة ... ثم تنظر ...
ثم لا ترى أحدا ...

لقد بلغ بها الاعياء اقصاه ...

وبلغ الفزع اقصاه ...

وكان الاعياء يشدها الى التوقف

بينما الفزع يرغمها على الحركة والبحث ...

فكانت تتحرك باللاوعى ... وتسعى بالارادة ...

خلود ما فعلته أم إسماعيل؟

وكانت تجربة ... عليا ... من تلك التجارب ... الرهيبة ... التي يختبر الله تبارك

وتعالى بها من اصطفى من عباده ...

تجربة عاشتها أم إسماعيل ... وانصهرت فيها ...

ورأت من اعماقها كيف تنقطع الاسباب كلها ... وكيف تُهَارِ القوى البشرية من

اساسها ... وكيف ترى الحياة نزول عن ابنها بعينها !! .

وتعظيماً لتلك التجربة ...

واجلالاً لها ...

وتخليداً لرموزها ...

وتكريماً لأم إسماعيل ... فرض الله تبارك وتعالى على الناس جميعاً أن يفعلوا مثل

ما فعلت أم إسماعيل ... فيسعوا مثل سعيها ...

فقال جل جلاله : « إِنَّ الصَّفاَ والمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ ، أَوْ اعْتَمَرَ ،

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » [البقرة ١٥٨]

« من شعائر الله » جمع شعيرة وهي العلامة .

والمراد بهما أعلام المتعبدات أو العبادات .

والمعنى . إن الطواف بين هذين الجبلين من علامات دين الله تعالى .

« فمن حج البيت أو اعتمر » الحج لغة القصد مطلقاً ، والعمرة الزيارة كان الزائر يعمر

المسكان بزيارته .

« فلاجتاح عليه أن يطوف بهما » أى لا إثم عليه فى أن يطوف بهما

وقيل : ان الطواف سنة .

وقيل : ركن

وسبب النزول : « أنه كان على الصفا صم على صورة رجل يقال له أساف .

وعلى المروة صم على صورة امرأة تدعى نائلة .

زعم أهل الكتاب أنهما زنيا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ، فوضعا على

الصفا والمروة ليعتبر بهما .

فلما طالت المدة عبدا من دون الله تعالى ، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما

مسحوا الوثنيين .

فلما جاء الاسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين ،

فأنزل الله تعالى هذه الآية «

« ومن تطوع خيرا » من فعل خيرا أى خير كان يثاب عليه .

« فإن الله شاكر » أى يجاز على الطاعة بالثواب ، وفى التعبير به مبالغة فى الإحسان

إلى العباد ...

« عليم » مبالغ فى العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من

أجورهم شيئا .

وهكذا ... جعل الله تعالى الصفا والمروة والسعى بينهما سبعا ... كما فعلت هاجر ...

من شعائر الله ...

من علامات دينه ...

وطلب من كل من حج البيت أو اعتمر أن يفعل مثل ما فعلت !!!

فأى خلود ، وأى تعظيم ... وأى اكبار اكبر من ذلك ؟

« قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فذلِكَ سَعَى النَّاسِ بَيْنَهُمَا . . . »

[البخارى]

إن الله يخلد فعلة أم إسماعيل ...
وإن رسوله يخلد فعلتها ...
وإن الناس جميعا مازالوا يخلدون تلك الفعلة ، كلما حجوا البيت أو اعتمرؤا !

كيف ظهر الماء ؟

« فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا »
« فَقَالَتْ : صَه »
« تُرِيدُ نَفْسَهَا »
« ثُمَّ تَسَمَعَتْ »
« فَسَمِعَتْ أَيْضًا »
« فَقَالَتْ : قَدْ أَتَمَمْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ »
« فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ ، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ »
« فَتَبَحْثَ بِعَقْبِهِ »
« أَوْ قَالَ : بِجَنَاحِهِ »
« حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ »
« فَجَعَلَتْ تَحَوِّضُهُ ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا »
« وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا »
« وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَعْرِفُ »
قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ
لَوْ تَرَكْتُ زَمْزَمَ
« أَوْ قَالَ : لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا ... »

[البخارى]

« فقالت : صه » والمعنى لما سمعت الصوت قالت لنفسها صه ، أى اسكتى .

- وفي رواية : فقالت : أغثنى ان كان عندك خير .
 « ثم سمعت » أي تكلفت في السماع واجتهدت فيه .
 « قد أسمعت » من الاسماع .
 « غواث » ان كان عندك غواث أغثنى .
 « فاذا هي بالملك » وفي رواية : فاذا جبريل .
 وفي حديث : فناداها جبريل ، فقال : من أنت ؟ قالت : أنا هاجر : أم ولد ابراهيم .
 قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله .
 قال : وكلكما إلى كاف .
 « فبحث بعقبه » البحث طلب الشيء في التراب ، وكأنه حفر بطرف رجله .
 « أو قال بجناحه » شك من الراوى ، ومعنى قال بجناحه أشار به .
 وفي رواية : فقال بعقبه هكذا ، وغمز عقبه على الأرض
 وفي رواية : فركض جبريل برجله
 وفي حديث على : ففحص الأرض باصبعه فنبعت رمزم .
 « حتى ظهر الماء » وفي رواية : ففاض الماء .
 وفي رواية : فانبثق أى تفجر
 « وجعلت تحوضه » أى تجعله كالخوض لئلا يذهب الماء
 وفي رواية : فدهشت أم اسماعيل ، فجعلت تحفر
 وفي رواية : تحفن
 وفي رواية : فجعلت تفحص الأرض بيدها
 « وتقول بيدها » هكذا ، هو حكاية فعلها ، وهذا من اطلاق القول على الفعل
 « عينا معينا » عينا جارية ، وهو الماء الذى يجرى على وجه الأرض .
 « وعن ابن عباس . — رضى الله عنهما — عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يرحمُ
 الله أمَّ إسماعيلَ ، لو لا أنها عَجِلَتْ ، لكانَ زمزمُ عَيْنًا مَعِينًا . » [البخارى]

« رحم الله أم إسماعيل » هي هاجر وقصتها ملخصة ...
« أن سارة زوج ابراهيم عليهما الصلاة والسلام حلفت أن لا تساكن هاجر »
« فحملها ابراهيم وإسماعيل معها إلى مكة ... »
« وموضع البيت يومئذ رهوة »
« فوضعهما موضع الحجر ، ثم انصرف »
« فاتبعته هاجر فقالت : إلى من تكلنا ؟ فالله أمرك بهذا ؟ »
« قال : نعم »
« فقالت : اذن لا يضيعنا »
« ثم انصرف راجعا إلى الشام »
« وكان مع هاجر شنة ماء ، وقد نفذ ، فعطشت وعطش الصبي »
« فقامت وصعدت الصفا فتسمعت هل تسمع صوتا ، أو ترى إنسانا ، فلم تسمع صوتا ولم تر أحدا . »
« ثم ذهبت إلى المروة ، فصعدت عليها ، وفعلت مثل ذلك فلم تزل تسمع بينهما حتى سمعت سبع مرات »
« وأصل السعى من هذا »
« ثم سمعت صوتا ، فجعلت تدعو : اسمع ايل ، يعنى اسمع يا الله ، قد هلك ، وهلك من معي »
« فإذا هي بجبريل — عليه السلام — فقال لها : من أنت ؟ »
« قالت : سرية ابراهيم ، تركنى وابنى ههنا »
« قال : إلى من وكلكما ؟ »
« قالت : إلى الله تعالى »
« قال : وكلكما إلى كاف »
« ثم جاء بهما إلى موضع ذبهنم ، ففُصِرَ بعقبه ، فقارت عينا

« فلذلك يقال لزمر ركضة جبريل — عليه السلام —
« فلما نبع الماء أخذت هاجر شفتها ، وجعلت تستقي فيها ، تدخره ، وهي تفر
« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم إسماعيل ، لولا أنها عجلت لسكانت
زمرم عينا معينا » أى سائلا جاريا على وجه الأرض .
تلك هى الأقصوصة الرائعة التى خلدها الله تبارك وتعالى ... وجعلها آية للعالمين ...
فلما بلغت هاجر آخر مدى من فقد الأمل ... فلما أشرفت على المروة ... وقد انتهت
من السعى سبعا ...

سمعت صوتا ؟ ... أى صوت هذا ؟ ... إنه صوت الملاك ...
فقلت لنفسها : اسكتى
ثم جعلت تتكاف السماع والإنصات فى لهفة ...
فسمعت أيضا ... أى سمعت نفس الصوت الذى سمعته أول مرة ...
فقلت : قد أسمعت ... إن كان عندك غوات أغثنى ...
إنها لا تريد من هذا الصوت إلا أن يغيثها ... ويغيث ابنها ...
ثم فوجئت بجبريل — عليه السلام — عند موضع زمزم ...
ثم كانت المفاجأة الكبرى أن جبريل مس الأرض بجناحه ... فتفجر الماء !!!
فدهشت أم إسماعيل ... حيث كان هذا آخر ماتفكر فيه ...
واندفعت نحو الماء المتفجر ... تضيع من حوله حوضا ... مخافة أن يذهب سدى
فى الرمال !!!

وجعلت تملأ سقاءها الصغير !!
وشربت أم إسماعيل ... وعادت إليها الحياة من جديد ...
وجرى اللبن فى ثديها ... وجعلت تلقيهما صغيرها ...
وهو يمصهما ... فرحا بعودة الحياة إلى شرايينه !!!
وكان أشد ما أثار عجبها أن الماء لم ينفد ...
وأن العين استمرت تعطى ماءها الحلو ... الجميل !!!

إن الله لا يضيع أهله؟

« ... قال ... فشربَتْ ، وأَرْضَعَتْ ولَدَهَا

» فقال لها المَلَكُ : لا تخافوا الضيعةَ

» فإنَّ هاهنا بيتَ اللهِ ، يَبْنِيهِ هذا الغلامُ

» وأبوهُ

» وإنَّ اللهَ لا يُضَيِّعُ أهْلَهُ

» وكانَ البيتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ ، كالرَّايَةِ ، تأتيه السيولُ ، فتأخُذُ عن يمينه .

[البخارى]

وشماله ... »

« لا تخافوا الضيعة » أى الهلاك ويروى : لا تخافى

وفى حديث أبى جهم ، فقالت : بشرك الله بخير

وفيه أن الملك يتكلم مع غير الأنبياء — عليهم السلام —

« يبنى هذا الغلام » وفى رواية : يبنيه

« كالراية » وهو المكان المرتفع

لقد كان منظرا عظيما ...

أن جلست أم اسماعيل وقد بلغ بها السرور أقصى غاياته ... بعد أن بلغ بها الحزن

أقصى غاياته ...

جلست هادئة ... بعد أن كانت فزعة مذعورة ... ترضع ولدها ...

وكان أجمل مافى هذا الموقف أن جبريل — عليه السلام — انطلق يطمئنها ...

ويحدثها ...

فقال : لا تخافوا الضيعة ... لا تخافوا الهلاك ...

ثم نبأها بما سيكون فقال : فإن هاهنا بيت الله ...

« يبنيه هذا الغلام » ... فكان ذلك لها عجبا !!

هذا الرضيع يبنى هاهنا بيتا لله ؟
 ولكن هاهو جبريل - عليه السلام - يؤكد ذلك ، ويشير إلى الرضيع !!!
 ثم حدد جبريل القضية ... حين قال ... « وأبوه » ...
 إن ابراهيم ، وإسماعيل ، سوف يبنيان بيتا لله !!!
 إذن هذا الرضيع سوف يكبر ، حتى يستطيع أن يبنى ذلك البيت مع أبيه !!!
 ثم أعلن إليها جبريل - عليه السلام - أجل بشرى يمكن أن تسمعا ... « وإن
 الله لا يضيع أهله » !!!
 ناموس الهى يذيعه جبريل ... إن الله لا يهلك أهله ... لا يضيع الذين يعملون له
 ومن أجله وحده ... كما حفظوه يحفظهم ... وكما صدقوه يصدقهم ...
 ونزلت كلمات جبريل عليه - عليه السلام - على فؤاد أم اسماعيل بردا وسلاما ...
 إن لها أن تطمئن ... إلى حياتها ، وحياة رضيعها ...
 وإن لها أن تأمل فى ذلك اليوم الذى سوف ترى فيه اسماعيل شابا يعين أباه على بناء
 البيت ...

وإن لها أن تدع شأنها كله لله يدبره ... ويحكمه كيف يشاء ...

أتأذنين لنا أن نترنل عندك ؟

« فكانت كذلك
 « حتى مرت بهم رُقَّةٌ من جُرْهُمَ
 « أو أهل بيت من جُرْهُمَ
 « مُقبلين من طريق كَدَّاهِ
 « فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً عاثاً
 « فقالوا : إنَّ هذا الطائرَ ليدورُ على ماء
 « آمهْدُنَا بهذا الوادى وما فيه ماء

« فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَيْنِ

» فإذا هم بالماء

» فرجعوا فأخبروهم بالماء

» فأقبلوا

» قال : وأمُّ إسماعيلَ عندَ الماءِ

» فقالوا : أتأذنينَ لنا أن ننزلَ عندَكَ ؟

» فقالت : نَعَمْ ، ولكن لا حَقَّ لَكُمْ في الماءِ

» قالوا : نَعَمْ

» قال ابن عباسٍ : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فألقى ذلكَ أم إسماعيلَ ، وهي

تحيبُ الإُنسَ

» فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم ، فنزلوا معهم

» حتى إذا كان بها أهلٌ أُنِيَتْ منهم

» وشبَّ الغُلامُ

» وتعلَّم العربية منهم

» وأنفَسَهُمْ وأعجَبَهُمْ ، حينَ شبَّ ... »

[البخاري]

« من جرهم » حى من اليمن . وهو ابن قحطان ، بن عابر ، بن شالخ ، بن ارفخشذ ،

بن سام ، بن نوح — عليه السلام —

وكانت جرهم يومئذ بواد قريب من مكة .

« أو أهل بيت من جرهم » شك من الراوى

« مقبلين » متوجهين

« من طريق كداء » محل في أعلى مكة أى داخلين من الجهة العليا

« عائفاً » هو الذي يتردد على الماء ، ويحوم حوله ، ولا يمضي عنه

« عهدنا » اللام للتأكيد
« فأرسلوا جريا » أى رسولا
« أوجريين » شك من الراوى ، هل أرسلوا واحدا أو اثنين ؟
« فإذا هم بالماء » كلمة إذا للمفاجأة
« فأقبلوا » أى جرهم ، اقبلوا إلى جهة الماء
« وام اسماعيل عند الماء » أى كائنة عند الماء مستقرة
« فقالت : نعم » أى قالت أم اسماعيل : نعم أذنت لكم بالنزول
« فالتى ذلك » أى وجد ذلك الجرهمى أم اسماعيل محبة للهؤانسة بالناس
وقال بعضهم : فأتى استئذان جرهم بالنزول أم اسماعيل والحال أنها تحب الانس ،
لأنها كانت وحدها ، واسماعيل صغير ، والوحشة متمكنة
وشب الغلام « اى اسماعيل — عليه الصلاة والسلام —
وفى حديث ابى جهم : ونشأ اسماعيل بين ولدانهم اى ولدان جرهم
« وتعلم العربية منهم » اى من جرهم
ومن حديث ابن عباس : « أول من نطق بالعربية اسماعيل » ...
أى أول من تكلم بالعربية من أولاد ابراهيم اسماعيل — عليهما السلام — لان ابراهيم
وأهله كلهم لم يكونوا يتكلمون بالعربية .
« وانفسهم » أى رغبتهم فيه وفى مصاهرته
واعجبهم « اى اعجبهم فى نفاسته ، وصار عندهم نفيسا .
وهكذا ... كانت تلك هى البداية ... بداية المجتمع حول زمزم ...
وبداية تلك الافئدة من الناس تهوى اليهم ...
لقد اجتذب الماء إليه أولئك الناس ...
ليكونوا لأم اسماعيل أنسا ولابها مجتمعا ينشأ فيه !!!

إني أرى أني أذبحك؟

وشب اسماعيل ... غلاما فيه كل مافي ابراهيم من امتياز ...

ومافي الصحراء من فتوة وصفاء ...

يشير إلى ذلك ماجاء في الحديث السابق « وشب الغلام ، وأنفسهم ، واتجبههم » ...

أي انه أثار اتجابههم ، ورغبوا في مصاهرته ... رغبة شديدة ؟

لماذا ؟ ...

لأن اسماعيل فيه سر أبيه ... سر ابراهيم ...

فيه الحقيقة الأبراهيمية تتلألاً ...

ثم هو رضيع تربي في الصحراء ...

ثم هو خلق ليكون نبيا رسولا ... فمن الحتم أن يكون ممتازا ...

غلام لا يراه أحد إلا أحبه كأنما كان فيه تحقيق قوله تعالى « وألقيت عليك محبة مني

واتصنع على عيني »

ثم هو وحيد أبيه ... ابراهيم ... من الله عليه به استجابة لدعائه « رب هب لي من

الصالحين » ...

ثم هو عند أبيه قرة عين له ...

ثم هو يحبه خبا شديدا ، لما يرى فيه من انوار النبوة ، وجمال الرسالة ...

فهو يراه تحقيقا لآماله ، يحمل صفاته ، ويحمل رسالته ...

وحين يرى الأب في ابنه تحقيق آمانيه يزداد له خبا ، ويزداد فيه رغبة ...

وترعرع الغلام ... حتى بلغ مبلغ السعي ...

وتتسمع الآن إلى الله تعالى يسجل الواقعة ...

قال تعالى : « فلما بلغ معه السعي قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك

فانظر ماذا ترى؟ قال : يا أبت افعل ماتؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين .

[الصافات ١٠٢]

« فلما بلغ معه السعي » أي فوهبناه له ، ونشأ ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحواله .

ويكون حاصل المعنى بلغ عند أبيه ، وفي صحبته ، متخلقا باخلاقه ، متطبعا بطباعه ، ويستدعي ذلك كمال محبة الأب أياه وفيه بيان استجابة دعائه

وكان للغلام يومئذ ثلاث عشرة سنة ...

والولد أحب ما يكون عند أبيه في سن يقدر فيه على اغاثة الأب ، وقضاء حاجه ، ولا يقدر فيه على العصيان

« قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك » ...

رأى ليلا ... كأن قائلا يقول : إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك ...

ولعل السر في كونه مناما لا يقظة أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والاخلاص .

وقيل : كان ذلك في المنام دون اليقظة ليدل على أن حالتى الأنبياء يقظة ومناما سواء في الصدق .

« فانظر ماذا ترى ؟ » من الرأي .

وإنما شاوره في ذلك وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل ...
فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه إن سلم ، وليوطن نفسه عليه ، فيهون عليه ،
ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى عند نزوله ، وليكون سنة في المشاورة ...

« قال : يا أبت افعل ماتؤمر » أي الذي تؤمر به ...

وإنما كان خطاب الأب (يا بني) على سبيل الترحم ...

قال هو (يا أبت) على سبيل التوقير والتعظيم ...

« ستجدني إن شاء الله من الصابرين » على قضاء الله تعالى ذبحا كان أو غيره .

وقيل : على الذبح

وقوله « من الصابرين » فيه من التواضع ما فيه .

وفيه أيضا إغراء لأبيه على الصبر ، لما يعلم من شفقتة عليه مع عظيم البلاء ، حيث أشار إلى أن الله تعالى عباده صابرين .

ما هذا ؟

لا يستطيع إلا الله ... أن يقدر إبراهيم في هذا المقام ...

ولا يستطيع إلا الله ... أن يقدر إسماعيل في هذا المقام ...

إنه شيء فوق طاقتنا جميعا ... مهما أوتينا من إيمان ... أو إدراك ... أو فهم ...

أو علم ... أو ارتفاع ... أو إلهام ...

لن نستطيع أن نصل إلى شيء من مقامهما ... وهما مختبران ...

أب ... كبير السن ... رزقه الله غلاما ... بعد يأس من النسل ...

ولم يرزقه غيره ... فهو كل أمله في حياته ...

ليس هذا وحده ...

بل جاء الغلام وفيه كل الصفات العليا الظاهرة ... والباطنة ... التي يمكن أن يرتفع

إليها إنسان ...

فهو عظيم في صورته ...

عظيم في صفاته ...

عظيم في حقيقته ...

وما ظنك بغلام فيه صفات خليل الرحمن ... إبراهيم ؟!

أو ما ظنك بغلام كان من إبراهيم ...

بعدما اعتزل كل شيء ... وآوى إلى الله ؟!

وإلى ذلك المعنى تشير الآيات « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إني أذبحك ... »

إني ذاهب إلى ربي ؟!

بعد أن ارتفع إبراهيم إلى أعلى مقام يمكن أن يرتفع إليه نبي إلى ربه ...

دعاه : هب لي من الصالحين ...

كان إبراهيم في قمة قربته من الله ...

دعاه ... وهو أقرب ما يكون منه تعالى ...

هب لي من الصالحين .

فبشرناه ؟! ... بغلام ... حليم ؟!

فآتاه غلاما ... فيه نفس الصفات التي كانت متقررّة في إبراهيم وقت دعائه لله !!!

هذا هو سر إسماعيل ...

لقد جاء يحمل الحقيقة الإبراهيمية في أعلى مقاماتها ... في أعلى قمم ذهابها إلى ربها ...

فكيف يكون هذا الغلام ؟!

ثم ماذا ؟

ثم يأتي البلاء !!!

فإذا حدث ؟!

يرى إبراهيم في منامه أن الله يأمره أن يذبح ابنه ...

ويفكر إبراهيم في الأمر ...

ثم يعود فيرى أن الله يأمره أن يذبح ابنه ...

ويفكر إبراهيم في الأمر ...

ثم يعود فيرى أن الله يأمره أن يذبح ابنه ...

اذن الأمر يراد به هذا الغلام الوحيد ...
هذا !! « اسماعيل » ...
ويتجه ابراهيم إلى حيث يقيم اسماعيل مع أمه ...
في وادي مكة ...
ثم يكون حوار ... بين أب وابن ...
لم ... وان . . تشهد البشرية ... مثله قط !!!

افعل ما تؤمر ؟!

لم يكن ذلك الحوار ... طويلا ... ولا كلاما كثيرا ...
كلا ... ولا يشهده أحد من الناس ...
ولما ... كانا وحدهما ... يعانيان تجربتهما ... وحدهما ...
وكما ارتفعا إلى مقامهما ... وحدهما وتركاه الناس بعيدا ...
فانهما بأشرا تجربتهما وحدهما ... وتركاه الناس بعيدا ...
وهاهو أقصر حوار ...
وأخطر حوار ...
في تاريخ البشر ...
ابراهيم - يا بني ... إني أرى في المنام ... أني أذبحك - فانظر ماذا ترى ؟
إسماعيل - يا أبت ... افعل ... ما تؤمر ... ستجدني ... ان شاء الله ...
من الصابرين .

هذا هو أقصر ، وأخطر ، وأكبر حوار في تاريخ الإنسان ...
إنه أقصر ... لأنه من جوامع الكلام التي لا يستطيعها الا الأنبياء .
وأخطر ... لأنه حقيقة ابراهيم ، خليل الرحمن ، تتحدث الى حقيقة اسماعيل ... التي
هي امتداد الحقيقة الأولى !!!

انه نور يتحدث الى نور !!!
وانه أكبر ... لأن فيه من كبريات المعاني ، وعظائم الأسرار مالا يعلمه الا
الله تعالى !!!

ثم ماذا ؟
ثم يكون ذلك الحوار ... في وحدة ... بعيدا عن أعين الناس جميعا ...
ليجتمع له شرف الاخلاص الظاهر ... كما تحقق فيه من قبل شرف الاخلاص
الباطن ...

قال الأب : يا بني ...
فنظر الغلام الى أبيه نظرة كلها حب ورحمة وتوقير ...
وانتظر ماذا يقول له أبوه ...
قال الأب : انى أرى فى المنام انى أذبحك !!!
شئ لا يتصوره العقل ... أب يقول لابنه انى أرى فى نومي أن أذبحك !!!
ولمن ؟ ... لابنه ...
وفى أى سن كان ذلك الابن ؟ ... فى الثالثة عشر ... سن الاشتغال بحب الدنيا
والرغبة فى الاستمتاع بها ...
فلو أن أبا ... أياما كان ذلك الأب ... قال ذلك لابنه ... تعال يا بني لأقتلك
ذبحا ... لرمى الابن أباه بالجنون ... أوسارع إلى أبيه إذا أصر على قتله ليقتله قبل أن
أن يمد إليه يده !!

ولقال الناس : دفاع عن النفس مشروع !!
ولكن إسماعيل ... الغلام الحليم ... كان له رد عظيم ...
يخالف كل ما يمكن أن يصدر عن غلام فى مثل ذلك الموقف الرهيب ...
قال — يا أبت ...

عظم أباه ... ووقره ... لم يرمه بجنون ، ولا خبال ... وإنما عظمه وأكبره !!!

افعل ما تؤمر !!

لا تترد يا أبتى ... نفذ ما أمرك الله ...

غلام ... صغير ... لم يكتمل عقله بعد ... يكون منه هذا الرد العجيب ...
وفيمن ؟ ... فى شىء من أخص خصائصه ...

فى شىء يتعلق بوجوده ...

انه يوافق على أن يذبح ... بل ويدفع أباه دفعا إلى التنفيذ ...

بل ويرتفع أكثر فأكثر ... فيقول : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ؟!!
هل هذا المنطق المحكم فى طاقة طفل ؟!

كلا ... ولكنها النبوة تتكلم ...

إنه يغلق كل مداخل التردد على أبيه ... ان كنت يا أبتى تأخذك الشفقة على ،
فسوف تجدنى عند الذبح من الصابرين عليه ...

إن شاء الله ؟ ... كلمة العارفين بالله ...

فكيف بالنبوة .. أعلى مقامات المعرفة بالله ؟!

وما كان بإبراهيم تردد ... وحاشاه ...

ولأنما يردد إسماعيل عليه ذلك التأكيد من نفسه ، عن نفسه ، ليدفعه دفعا إلى
تنفيذ أمر ربه !!!

ذلك هو الحوار القصير ، الخطير ، الكبير ...

الذى كان بين إبراهيم وإسماعيل ...

ولا أستطيع أن أقول فيه ... إلا أن أكرر مقالى ...

ذلك مقامهما وحدهما ... لا يستطيعه أحد سواهما ...

ولا يعلمه إلا الله الذى خلقهما وأرسلهما ...

ولا أقول فيه إلا أن أدعو البشر جميعا ... أولئك الذين غشاهم الظلام طويلا ...

ليتأملوا ... ويتفكروا ... ويتدبروا ... ثم يخروا سجدا ... وبكيا ... وهم يرددون ..
سلام على ابراهيم ... سلام على اسماعيل ...

فلما أسلما ١٤

ثم يقول تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا . وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . » [الصافات ١٠٣]

« فلما أسلما » أى فوضا إليه تعالى ، فى قضائه وقدره .

« وتله للجبين » صرعه على شقه ، فوق جبينه على الأرض

وقيل : المراد كبه على وجهه ، وكان ذلك بإشارة منه .

عن مجاهد : انه قال لأبيه : لاتذبني وأنت تنظر إلى وجهي عسى أن ترحمني ،
فلا تجهز على ، اربط يدي إلى رقبتي ، ثم ضع وجهي للأرض ، ففعل ، فكان ما كان .
وفى خبر للسدى ... انه قال لأبيه — عليهما السلام — ياأبت اشدد رباطي حتى
لا اضرب ، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء ، ففراهم أمي ،
فتحزن . وأسرع مر السكين على حلقى ، فيكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أمي ،
فاقرأ عليها السلام مني ، فأقبل عليه ابراهيم يقبله ، وكل منهما يبكي ...

وعن ابن عباس : انه قال لأبيه ، وكان عليه قميص ابيض : ياأبت ليس لى ثوب
تكفني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فكان ماقص الله عزوجل .
وكان ذلك عند الصخرة التى بمنى .

وقيل : فى المنحر الذى ينحر فيه اليوم .

ماهذا ؟!!

هذا شيء لا يستطيع انسان حين يفكر فيه أن يحبس عينيه عن البكاء ... طويلا ...
فلما اسلما ؟!!!

فلما اسلم ابراهيم لربه ... ولما اسلم اسماعيل لربه ...

الاثنان ... الأب ... والابن ... اسلما لربهما ...

استسلم ابراهيم لأمر ربه ... وايقن أن ذبح ابنه ... ووحده ... أمر حتمى ... لأبد
من تنفيذه ...

واستعد لتنفيذ ماأمر ...

فلما عرض ابراهيم الأمر على ابنه ... الذى هو موضوع التجربة : فانظر ماذا ترى ؟
كان استسلام الابن لأمر الله اعجب من استسلام الأب لأمره : افعل ما تؤمر ...
فلما أسلما ؟!

ألقيا بنفسيهما إلى الله ... يفعل بهما مايشاء ...

الأب هو الذابح ...

والابن هو المذبوح ...

وكلاهما استسلم لله !!!

لا تردد ، ولاخوف ، ولا ريبة ، ولا شك ...

وإنما استسلام مطلق ... لله ...

قال تعالى : « إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمتُ لربِّ العالمين » [البقر ١٣١]

وقال تعالى : « وإبراهيم الذى وفى » [النجم ٣٧]

وأى توفية اكبر من هذا ؟!

وأى اسلام اعظم من هذا ؟!

الله يقول : اذبح ابنك يا ابراهيم ...

وابراهيم يقول : نعم نعم ... اذبح ابنى !!!

لعل هذا من معنى قوله : أسلم ، قال أسلمت ...

اذبح ... قال : ذبحت !!!

وتله للجبين ؟!

نحن الآن فى اصدق عمل يمكن أن يقدمه انسان لربه ...

نحن الآن فى أشق تجربة مرت على انسان فى الوجود ...

نحن الآن أمام ابراهيم يخرج من وادى مكة ... حيث زمزم ... حيث يقيم اسماعيل
الغلام العظيم ... مع أمه ... هاجر ...
يخرج ابراهيم ... وفي صحبته ابنه اسماعيل ...
وتلك الأم الطيبة ... الطاهرة ... تنظر إلى زوجها وابنها في يده نظرة كلها انجاب
وحنان وأمل ...
ولا تظن الا أن ابراهيم قد خرج بابنه كما يخرج الآباء بابنائهم ... لقضاء شأن من
شئون الحياة ...
ثم لا يلبنا أن يعودا اليها لتقر بهما عينا ... ويملا حياتها بهجة وسرورا ...
خرج ابراهيم ... ومعه اسماعيل ...
وكلاهما يعلم لماذا خرج ؟
واسماعيل يعلم أنه خرج مع ابنه ليقوم ابوه بذبحه !!!
وهنا نردد قوله تعالى : فلما أسلما ...
نردها كثيرا ... لعلنا نرتفع إلى مستوى يسمح لنا أن ندرك شيئا عن التجربة ...
ومشى الأب ومعه الابن ...
ومازالا يمشيان ... حتى جاوزا مكة ... نزلا بمى ...
كيف كان شعور ابراهيم في تلك اللحظات الأخيرة التي يصطحب فيها ابنه ؟
وكيف كان شعور اسماعيل في تلك اللحظات الأخيرة التي يصطحب فيها أباه ؟!
الله وحده ... هو الذى يعلم ما كان فى قوادها ...
وهنا نردد قوله تعالى : « وكنابه عالين » ...
هو وحده الذى كان يعلم ما فى قلبه ، وما فى قلب اسماعيل !!!
ولو انفتح لنا ادنى اشعاع مما كان يتذبذب من قوادها ، ويتموج مرتفعا إلى ربهما ...
لا حترقت قلوبنا جميعا ... مما فيه من نور شديد ...
وفى منى ...

فى تلك الصحراء الخالية ... حيث لا انسان ... ولا ماء ... ولا شىء ... فى ذلك
المكان ... وقع قوله تعالى «وتلَّهُ للجبين» ؟!
أى صرع ابراهيم ابنه اسماعيل على شقه ، فوق جبينه على الأرض
أو كبه على وجهه ، وكان ذلك بأشارة من اسماعيل !!!
ان ابراهيم الآن يياشر التجربة ... انها لحظة التنفيذ ... ان الأب قد اضجع ابنه للذبح ...
اضجعه وجبينه للأرض ...
وأخرج ابراهيم السكين ، وهوى بها على عنق اسماعيل يذبحه ...!!!!!!!

وناديناہ... أن... يا ابراهيم؟!

قال تعالى : « ونَادَيْنَاهُ أَنْ يَا اِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقَتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ » .
[الصافات ١٠٤ - ١٠٦]

« وناديناہ أن يا ابراهيم » أن بمعنى أى .
وقرى : صَدَقَتْ

عن ابن عباس : لما أخذ الشفرة وأراد ان يذبحه . نودى من خلفه أن يا ابراهيم قد
صدقت الرؤيا .

وروى : فلما أدخل يده ليذبحه ، فلم يحمل المذبة حتى نودى ان يا ابراهيم ، قد صدقت
الرؤيا ، فأمسك يده .

وروى : فلما أدخل يده ليذبحه ، نودى أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، فأمسك يده ،
ورفع رأسه فرأى الكبش ينحط اليه ، حتى وقع عليه فذبحه .
وروى أنه أمر السكين فانقلبت .

« قد صدقت الرؤيا » وتصديقه الرؤيا توفيته حقها من العمل ، وبدن وسعه فى إيقاعها ،
وذلك بالعزم ، والاتيان بالمقدمات

وقيل : الاعتراف بوجوب العمل بها

وجواب « لما » محذوف مقدر ... أى كان ما كان ، مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به المقال من استبشارها ، وشكرها الله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله ، والتوفيق لما لم يوفق غيرها لمثله ، واطهار فضلهما ، مع احراز الثواب العظيم ، إلى غير ذلك .
« انا كذلك نجزي المحسنين » تعليل لافراج تلك الشدة ، المفهوم من الجواب المقدر « إن هذا هو البلاء المبين » أى الابتلاء والاختبار البين ، الذى يتميز فيه الخاص من غيره .
أو المحنة البينة ، وهى المحنة الظاهرة صعوبتها ، وما وقم لاشئ ، أصعب منه ، ولا تكاد تخفى صعوبته على أحد .

ولله عز وجل أن يبتلى من شاء بما شاء ، وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد .

وقد يناله ... بذبح عظيم ؟

قال تعالى : « وَقَدْ يَنَالُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ » .
« وقد يناله بذبح » بحيوان يذبح بدله .

« عظيم » أى عظيم الجثة ، سمين ، وهو كبش أبيض أقرن ، أعين
وقيل : وصف بالعظم لأنه متقبل يقينا

وقال الحسن : لأنه كان من عند الله عز وجل .

وقيل : لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين .

وقيل : لأنه جرت السنة به ، وصار ديناً باقياً آخر الدهر .

عن ابن عباس : أنه خرج عليه كبش من الجنة ، فإرسل إبراهيم عليه السلام ابنه ، واتبعه ، فرماه بسبع حصيات ، وأخرج به عند الجمرة الأولى ، فافلته ، ورماه بسبع حصيات ، وأخرج به عن الجمرة الوسطى ، فافلت ، ورماه بسبع حصيات ، وأخرج به عند الجمرة الكبرى ، فأتى به المنحر من منى فذبح .

وقيل هذا أصل سنية رمى الجمار

والمشهور أن أصل السنية رمى الشيطان هناك .

ففي خبر ، عن قتادة : أن الشيطان أراد أن يصيب حاجة من ابراهيم وابنه يوم أمر بذبحه ، فتمثل بصديق له ، فأراد أن يصده عن ذلك ، فلم يتمكن . فأتى الجمره فانتفخ حتى سد الوادى ، ومع ابراهيم ملك فقال له : ارم يا ابراهيم . فرى بسبع حصيات ، يكبر في أثر كل حصاة . فافرج له عن الطريق . ثم انطلق حتى أتى الجمره الثانية ، فسد الوادى أيضا ، فقال الملك : ارم يا ابراهيم ، فرمى كفاي الأولى . وهكذا في الثالثة .

وتركنا عليه في الآخرين ١٩

قال تعالى : « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » [الصافات ١٠٨]

تلك هي التجربة العظمى ...

ابراهيم يضجع ابنه ...

واسماعيل يستسلم ... ولا يقاوم ... وينتظر وقع السكين ... يحترق عنقه ...

ابراهيم يمد يده بالسكين ويهوى بها على عنقه ...

في تلك اللحظة الفاصلة ... التي تحقق فيها صدق ابراهيم ... وصدق اسماعيل ...

في تلك اللحظة الرهيبة ...

ناديناه ... ناداه الله بنفسه ...

يا ابراهيم ... يا ابراهيم ...

صوت الله ينادى ابراهيم ... فدوى في أعماقه ...

فالتفت ... فرفع يده عن ذبح الغلام ...

ودوى في أعماقه فأصغى إلى الصوت الذي لا يقاوم وهو يقول له : قد صدقت الرؤيا ...

قد ثبت الآن صدقك يا ابراهيم ...

ثم أصغى فسمع الصوت يقول : إنا كذلك نجزي المحسنين ...

ثم أصغى فسمع الصوت يقول : إن هذا هو البلاء المبين ...

ثم نظر فرأى المعجزة ... رأى كبشا عظيما ... قادما اليه ... من عند الله ...

فنهض الغلام لم يمسه سوء ...

وأخذوا إبراهيم الكبش العظيم ... وذبحوه فداء لإسماعيل ...
ونحر إبراهيم ذلك الكبش بيده في منى ...
فسكان أنفراجا للأزمة ... ودفعوا للبلاء ...
وتتابعت المكافآت الإلهية على إبراهيم ...
جزاء إحسانه ... أنا كذلك نجزي المحسنين ...
« وتركنا عليه في الآخرين » أى إبقينا ذكره الجليل بين الأمم ...
أى خلدنا فعلته خلودا عظيما . وجعلناه شرفا يتغنى به الاولون والآخرون .
وأى شرف أعظم مما حصل لإبراهيم وإسماعيل .

سلام على إبراهيم ١٩

مكافأة أخرى ...

[الصافات ١٠٩]

قال تعالى : « سلامٌ على إبراهيمَ »

أمان من الله لإبراهيم ...
في الدنيا والآخرة .

لماذا ؟ ... بما فعل ...

بما أحسن ... بما قدم ...

[الصافات ١١٠]

لذلك يقول بعدها مباشرة : « كذلك نجزي المحسنين »

جزاء إحسانه ... جزاء صدقه ... جزاء إخلاصه ..

جزاء إيمانه ... الذى بلغ فيه النروة ...

ولذلك يقول تعالى بعدها مباشرة .

[الصافات ١١١]

« إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ »

أى الكاملين فى الإيمان ... الذين بلغوا قمة الإيمان فى العالمين .

إنها مكافآت إلهية متتابعة ...

الأولى ... وتركنا عليه في الآخرين ...
 الخلود ... خلود الفعلة ... والذكر الجميل ... بين الناس أجمعين ...
 الثانية ... كذلك نجزي المحسنين ... حتمية مكافأة المحسن ... وأن إبراهيم قمة الاحسان
 في البشر ...
 الثالثة ... إنه من عبادنا المؤمنين ... اذعة الهبة ... على الناس كافة ... أن إبراهيم
 قمة الايمان في البشرية ...
 مكافآت ... عطايا ... قل ماشئت ... إنه الله تعالى يجزي ابراهيم ... أحسن
 الجزاء !!

لماذا كان هذا هو البلاء المبين ؟

قال تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْبَلَاءِ الْمُبِينُ » ... [الصافات ١٠٦]
 وذلك في شأن الأمر بذبح اسماعيل ...
 وقال تعالى « وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ ، يَذَّبَحُونَ
 أَبْنَاءَكَ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » [البقرة ٤٩]
 وذلك في شأن تذييح فرعون للابناء الذكور من بني اسرائيل ...
 وقال تعالى : « فَاَنْطَلَقَا ، حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً
 بِغَيْرِ نَفْسٍ ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا » [الكهف ٧٤]
 وذلك في شأن الغلام الذي قتله الخضر ذبيحا . حيث قيل أنه اقتلع رقبتة !!
 فماذا نستنبط من هذا ؟

في قصة اسماعيل أمر بالذبح ...
 ابتلاء لإبراهيم وإسماعيل في آن ...
 وفي قصة بني اسرائيل ، يُسلط فرعون ، فيذبح أبناءهم ...
 ابتلاء لبني اسرائيل في أبنائهم ...

وفي قصة غلام الخضر ... أمر إلى الخضر بذبح الغلام ... ابتلاء لأبويه « وما فعلته
عن أمرى »

فماذا في هذا ؟

فيه اشارات إلى أن الصديق في تنفيذ أوامر الله يؤدي إلى النجاة والفوز العظيم ...
فحين صدق إبراهيم الرؤيا ... وذبح ابنه ...
أعفاه الله تعالى من ذلك البلاء ... وكافأه في الدنيا والآخرة ...

وحين صبر بنو إسرائيل على ابتلائهم بيد فرعون ...
كانت المكافأة العظمى « وَزُيْدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ ،
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْحَذَرُونَ . » [القصص ٥ - ٦]

وحين ذبح الخضر الغلام ، وكان ذلك بلاء لأبويه المؤمنين ، أبدلهما ربهما خيرا منه
زكاة وأقرب رشدا ... « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ، فخشيْنَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا
طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا »

[الكهف ٨٠ - ٨١]

اشارات ... أسرار الهية ... في أفعاله .. وابتلائه لعباده ...
وكما أدى ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه ... إلى رفعة في الدنيا والآخرة ...
« وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... »
[البقرة ١٢٤]

وأى أمر ابتلى به إبراهيم فاته أكبر من أمره بذبح ابنه ؟!
فكان ذلك هو سبيله إلى امامة الناس جميعا ...
كذلك بنو إسرائيل ... ابتلوا بمن يذبح أبناءهم ... فكان ذلك سبيلهم إلى ميراث
مشارك الأرض ومغاريبها ...
فلما بدلوا ... ذلوا وهانوا وعوقبوا ...

وفي مقام ابراهيم ... أمر هو أن يباشر ذبح ابنه بنفسه ...
لأن ذلك شيء يناسب ابراهيم ...
أما في مقام بني إسرائيل ... فسلط عليهم من ذبح أبناءهم ... لأنهم لا يرقون إلى مقام
مباشرة الذبح بأنفسهم ...
كما أن أبوي الغلام في قصة الخضر ، سلط الخضر على الغلام فذبحه ، لأن أبويه
لا يستطيعان ذبح ابنهما بأيديهما ...

وهنا يرتفع ابراهيم فوق البشر جميعا ... مقاماً عليا ...
فلا نعلم أن أحداً في الناس ابتلاه الله بمثل ما ابتلى به ابراهيم ...
ولا نعلم أحداً أمر بذبح ابنه فامتثل وذبح غير ابراهيم ...
ومن هنا قال ابراهيم : انى جاعلك للناس إماما ...
ومن هنا نال ابراهيم : واتخذ الله ابراهيم خليلاً ...
ومن هنا نال ابراهيم : وابراهيم الذى وفى .
ومن هنا نال ابراهيم : وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن
ومن هنا نال ابراهيم : وتركنا عليه فى الآخرين .
ومن هنا نال ابراهيم : إنا كذلك المحسنين .
ومن هنا نال ابراهيم : إن هذا هو البلاء المبين
ومن هنا نال ابراهيم : كذلك نجزي المحسنين ...
تأكيد بعد تأكيد بأنه سيجزى جزاء المحسنين .
ومن هنا نال : سلام على ابراهيم .
ومن هنا نال ابراهيم : إنه من عبادنا المؤمنين .
ومن هنا نال ابراهيم : وكنا به عالمين .
ونال ... ونال ... ونال ... وكان مما كافأه الله به بعد أن استبان صدقه ... في
ذلك البلاء المبين ...

وبعد أن وضح صدقه في التضحية بابنه ... ووحيدة ... ليذبحه الله ...
 كافأه بـ غلام ثانٍ ... عظيم كعظمة الغلام الأول ...
 لحفظ له غلامه الأول ... اسماعيل ... الذييح ...
 ليكون لبيا ورسولا إلى أمته ...
 وليكون أصلا يتفرع منه في نهاية أمره ... ذلك الذي هو خير الأولين والآخرين ...
 ذلك الذي نسميه محمدا ... صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ...
 حفظ له بـ غلامه الأول اسماعيل ...
 وكافأه بـ غلام آخر ... اسمه ...

وبشرناه بإسحاق ١٤

ولننظر إلى تسلسل الآيات الكريمة كيف تمضي ترتب الأمر على الأمر ، والسبب على المسبب : « إن هذا كهو البلاء المبين . وفدّيناهُ بذبحٍ عظيمٍ . وترَكْنَا عليه في الآخرين . سلامٌ على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وبشرناهُ بإسحاقَ نبياً مِنَ الصّالحينَ ، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ، وَعَلَى إِسْحَاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ، وظالمٌ لنفسِهِ مُبِينٌ » .

[الصفات ١٠٦-١١٣]

« وبشرناه بإسحاق نبيا » أى مقضيا كونه نبيا ، مقضيا كونه من الصالحين .
 « من الصالحين » تعظيم شأن الصلاح ، وفي تأخيرهِ إيماء الى أنه الغاية لها ، لتضمنها معنى الكمال والتكميل .

« وباركنا عليه » أى على إبراهيم عليه السلام .
 « وعلى إسحاق » أى افضنا عليهما بركات الدين والدنيا بأن كثرنا نسلهما . وجعلنا
 منهم أنبياء ورسلا .

« ومن ذريتهما محسنٌ » فى عمله ، أو فى نفسه بالإيمان والطاعة ،

« وظالم لنفسه » بالسكفر والمعاصي ، ويدخل فيها ظلم الغير .

« مبين » ظاهر ظلمه

وفي ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال ، وأن الظلم في الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة وعيب .

وهكذا ... تنطق الآيات في اطرادها الحكم ... بأن اسحاق كان بشرى ... كان مكافأة ... لابراهيم على صدقه وإخلاصه في اسماعيل ...

ان ابراهيم دعا ربه « هب لي من الصالحين »

فبشرناه بسلام حلیم ...

فاعطاه اسماعيل ...

فلما اثبت ابراهيم أن اسماعيل لا يشغله عن ربه ، لا يشغله شاغل من ولد أو غيره ...

بشر بسلام عليم ... واعطاه اسحاق ... زيادة منه وفضلا ...

وجعل كلا منهما أصلا من أصول النبوة والكتاب في العالمين ...

اسماعيل أصل القرع الذي تنهى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ...

واسحاق أصل تلك السلسلة المباركة من أنبياء بني اسرائيل الذي تنهى إلى المسيح ...

صلى الله عليه وسلم ...

ووهبنا ... له ... ١٤

قال تعالى : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ... » [الأنعام ٨٤]

« ووهبنا له » أي لابراهيم — عليه السلام —

« إسحاق » وهو ولده من سارة ، عاش مائة وثمانين سنة .

« ويعقوب » وهو ابن اسحاق ، عاش مائة وسبعا وأربعين سنة .

« كلا » أي كل واحد منهما

« هدينا » لا أحدهما ، دون الآخر .

وقال تعالى : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ

أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ
وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ . [الأنبياء ٧٢ - ٧٣]

« وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » أى عطية .

وعطاء من نقله بمعنى أعطاه .

أو ولد ولد ، أو زيادة على ما سأل عليه السلام .

« وكلا » من المذكورين ، وهم إبراهيم ، ولوط ، وإسحاق ، ويعقوب ، عليهم السلام
لا بعضهم دون البعض .

« جعلنا صالحين » وفقناهم للصالح في الدين والدنيا ، فصاروا كاملين .

« وجعلناهم أئمة » يقتدى بهم في أمور الدين

« يهدون » الأمة إلى الحق

« بأمرنا » لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين

« وأوحينا إليهم فعل الخيرات » ليتم السكال بانضمام العمل إلى العلم .

أى شرعنا لهم ذلك

« وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » والآية ظاهرة في أنه كان في الأمم السالفة صلاة

وزكاة وهو مما تضافرت عليه النصوص إلا أنهما ليسا كالصلاة والزكاة المفروضتين على
هذه الأمة .

« وكانوا لنا » خاصة دون غيرنا

« عابدين » لا يخطر ببالهم غير عبادتنا كأنه تعالى أشار بذلك إلى أنهم وفوا بعهد

العبودية ، بعد أن أشار إلى أنه سبحانه وفي لهم بعهد الربوبية .

وقال تعالى « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ،

وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » . [العنكبوت ٢٧]

« وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » ولدا : ونافلة ، حين أيس من عبوز عاقر

« وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » في سلالة الأنبياء ، والكتب السماوية كلها ،

ومنها الأربعة

« وآتيناه أجره » على ما عمل لنا

« في الدنيا » المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته اليانا

ويبعد اعطاء الولد . والذرية الطيبة . واستمرار النبوة فيهم ، ونحو ذلك ، مما كان له عليه السلام ، بعد الهجرة من الأجر .

قال مجاهد : بأنجائه من النار ، والملك الجبار ، والثناء الحسن عليه ، بحيث يتولاه كل أمة .

وقيل : الولد الذي قرت به عينه ، وقد يضم إلى ذلك استمرار النبوة في ذريته .

وقيل : هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر .

« وإنه في الآخرة لمن الصالحين » أى لى عباد الكاملين فى الصلاح .

ماذا نلاحظ فى تلك النصوص جميعا ؟

نلاحظ أن الله تعالى يعبر بقوله « ووهبنا له إسحاق ... »

ذكره فى سورة الانعام ...

ثم ذكره تارة أخرى فى سورة الأنبياء ...

ثم ذكره مرة ثالثة فى سورة العنكبوت !! ...

لماذا ؟ ...

إشارة الى حقيقة كبرى ... أن اسحاق كان هبة من الوهاب سبحانه وتعالى ...

ما كان ابراهيم يرجو أن يتفضل الله تعالى عليه باسحاق ، بعد اسماعيل ...

وانما كان يظن أن اسماعيل هو آخر ما يعطيه الله تعالى .. وليس بعده شىء آخر ...

فلما نجح ابراهيم فى تجربة التضحية باسماعيل وذبحه لله ..

كافأه الله تعالى باسحاق ، ولذلك يقول « ووهبنا له إسحاق » ...

محض تفضل من الله ... محض هبة من الوهاب ...

وسوف نلمس دهشة ابراهيم حين بشر باسحاق ... واستغرابه وتعبيراته التى تدل

دلالة قاطعة على أن آخر ما كان يفكر فيه أن يرزقه الله غلاما آخر غير اسماعيل !!

ووهبنا ؟!!

وتفضل الله على ابراهيم ، فوهبه غلاما آخر ...
 ولعل قوله تعالى : « ووهبنا له اسحاق ، ويعقوب ، نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ... »
 لعل قوله تعالى : « نافلة » يشير إلى ذلك المعنى ...
 أى وهبناه اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ...
 وكانت هبتنا اسحاق نافلة ... أى زيادة من عندنا ...
 كما كانت هبتنا يعقوب نافلة ... أى زيادة من عندنا ...
 « وكلا جعلنا صالحين » وكلا من اسحاق ويعقوب جعلناه نبيا ...
 زيادة فضل من عندنا ... ما كان ابراهيم يرجو أن ينبأ اسحاق ، وأن ينبأ
 يعقوب من بعده ...

ولكنه فضل الله تعالى على ابراهيم ... وكان فضل الله تعالى عليه عظيما ...

كيف كانت المفاجأة ؟

قال تعالى : « وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا ، قَالَ :
 إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا : لَا تَوْجَلْ ، إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . قَالَ : أَبَشَّرْتُمُونِي
 عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ، فِيمَ يُبَشِّرُونِ ؟ قَالُوا : بُشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ . فَلَا تَكُنْ مِنَ
 الْقَانِطِينَ . قَالَ : وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ؟ . قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
 الْمُرْسَلُونَ ؟ . قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ ، إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ .
 إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايِرِينَ . » [الحجر ٥١ - ٦٠]

« وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ » والمراد بضيفه الملائكة - عليهم السلام - الذين
 بشروه بالولد ، وبهلاك قوم لوط - عليه السلام -

وسموا ضيفا لأنهم في صورة من كان ينزل به - عليه السلام - من الأضياف .
 وكان لا ينزل به أحد إلا أضافه .

« إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ » اذكر وقت دخولهم عليه .

« فقالوا » عند ذلك

« سلاما » أى سلمت سلاما من السلامة - أو سلمنا سلاما ، من التحية ،
« قال : إنا منكم وجلون » أى خائفون . فإن الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه ،
وقوله — عليه السلام — هذا كان بعد أن قرب اليهم العجل الحنيد ، فلم
يأكلوا منه .

وكان العادة أن الضيف إذا لم يأكل مما يقدم ظنوا أنه لم يحىء بخير .
« قالوا : لا توجل » لا تخف

« إنا نبشرك » فى معنى التعليل للنهى عن الوجل
فإن المبشر لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن .
كيف لا ، وهى بشارة ببقائه ، وبقاء أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا ؟
« بسلام » هو اسحاق — عليه السلام — والتنوين للتعظيم : أى بسلام عظيم القدر ،
« عليم » ذى علم كثير .

أريد بذلك الإشارة إلى أنه يكون نبيا .

« قال : أبشرونى » بذلك

« على أن مسنى الكبر » أى مع أن مسنى الكبر

قد تعجب — عليه السلام — من بشارتهم إياه مع هذه الحال المنافية لذلك ..
قلت : إنه عليه السلام لم يكن يخطر بباله هذا الأمر ...

أن يرزقه الله ولدا غير اسماعيل ... ومن ؟

من سارة ... العقيم ... العجوز !!

« فبم تبشرون » أى فبأى أنجوبة تبشرون ، أو بأى شئ تبشرون ؟!

« قالوا : بشرنالك بالحق » أى بالأمر المحقق ، لا محالة .

أو : باليقين الذى لا لبس فيه

أو : بطريقة هى حق .

وهو أمر من له الأمر ، القادر على خلق الولد من غير أبوين ، فكيف بإيجاده من شيخ وعجوز ؟

« فلا تكن من القانطين » أى الآيسين من خرق العادة لك
فإن ظهور الخوارق على يد الأنبياء — عليهم السلام — كثير ، حتى لا يعد بالنسبة
اليهم مخالفا للعادة .

« قال : ومن يقنط » أى لا يقنط
« من رحمة ربه إلا الضالون » أى الكفرة ، المخطئون طريق معرفة الله تعالى ،
فلا يعرفون سعة رحمته ، وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى
ومراد — عليه السلام — نفي القنوط عن نفسه بأبلغ وجه ، أى ليس بى قنوط من
رحمته تعالى ، وإنما الذى أقول لبيان منافاة حالى لتلك النعمة الجليلة على
وهو كما قيل : اليأس من الخير كفر .

قلت : هذا يؤكد ما ذهبت إليه من أن إبراهيم لم يكن يفكر ، ولا يرجو ، أن
يهبه الله ولدا بعد إسماعيل ... فكانت المفاجأة الكبرى له أن يبشره هؤلاء الملائكة
بغلام عليم ... غير إسماعيل !!

ومن هنا كان استغرابه عليه السلام
وانك لتلمح ذلك فى ثنايا رده على الملائكة : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » .
أنى لست من القانطين ، ولا من المستغربين أن يحدث هذا ، لانى أعرف أن الله
يفعل ما يشاء ...

وأنما وجه المفاجأة لى أننى لم أكن أطمع أن ارزق ولدا غير إسماعيل ... ولكن
الوهاب أراد أن يزيدنى فضلا على فضل !!

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن إبراهيم عليه السلام ، كان قانعا ، راضيا ، أن وهبه
الله إسماعيل ، استجابة لدعائه « هب لى من الصالحين » ... ولم يخطر بباله يوما أن يهب له
الله غلاما آخر ... دون أن يطلب ذلك من الله ... فكانت المفاجأة بالنسبة إليه ، أن
يأتى الملائكة يبشروه بغلام آخر ... لم يفكر فيه يوما !!

« قال فما خطبكم » أى أمرى ، وشأنكم الخطير ، الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ؟
« أيها المرسلون » لعله — عليه السلام — علم أن كمال المقصود ليس البشارة من
مقالة لهم فى أثناء المحاوراة مطوية هنا

وكانوا ذوى عدد ، والبشارة لا تحتاج إلى عدد .

إذا تحقق هذا فأخبرونى ما أمرى الذى جئتم له سوى البشرى ؟

« قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » هم قوم لوط — عليه السلام — ووصفوا

بالاجرام استهانة بهم ، وذمهم

« إلا آل لوط » لأنهم ليسوا مجرمين

« إنا بلنجوهم أجمعين » ...

« إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » أى الباقين فى عذاب الله تعالى

أو : الباقين مع الكفرة تهلك معهم وهو من كلام الله تعالى ...

لقد كانت مفاجأة أى مفاجأة لإبراهيم !

لقد دعا الله تعالى « هب لى من الصالحين » ...

فاستجاب له ، وبشره بغلام محليم ... فكان اسماعيل ...

ومضت سنون طويلة ... وترعرع الغلام ... وأمر بذبحه ... فذهب ليذبحه ... ثم

فداه الله بذبح عظيم ...

وعاد إبراهيم إلى فلسطين بعد تلك الحادثة الخطيرة ...

وعاش بها أياما ، يحمد الله أن نجا وحيدته ... واعفاه من الذبح ...

ولا يخطر بباله أن يرزق بعد هذا بسلا ...

وإنما حسبه اسماعيل ... فهو قرة عين له ... ولأمه ...

أما هذه الزوجة ... سارة ... فقد أشرفت على المائة ...

فهى عجوز ، قد بلغ بها السكبر عتيا ... فهى آخر امرأة تفكر أن تلد ...

وهناك استحالاة أخرى ... أنها عاشت عمرها كله عقيم ...

فلا هي أصلاً صالحة للنسل ، ولا سنّها سن التناسل ...
 وإبراهيم بعد هذا وذاك شيخ كبير ... جاوز المائة بعشر سنين ...
 فحسبه إذا أن يقنع بما أعطاه الله تعالى ...
 وحسب سارة أن تنعم برفقة زوجها خليل الرحمن ...
 حتى كانت المفاجأة ... فأخذت على إبراهيم تفكيره حتى قال : أبشرتموني على أن
 مسني الكبر فبم تبشرون ؟!
 وأخذت على سارة تفكيرها .. حتى قالت ...

ياويلتي ... أألد وأنا عجوز ؟!

قال تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا : سلاماً ، قال : سلامٌ ،
 فما لبث أن جاء بعجل حنيذٍ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكبرهم ، وأوجسَ
 منهم خيفةً ، قالوا : لا تخفْ ، إنا أُرسلنا إلى قومٍ لوطٍ ، وامرأته قائمةٌ ، فضحكتُ ،
 فبشرناها ، بإسحاقَ ، ومن وراء إسحاق يعقوبَ . قالت : يا ويلاتي أألدُ وأنا عجوزٌ ،
 وهذا بعلي شيخاً ، إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ ۝ قالوا : أتعجبين من أمرِ الله ؟ ۝ رحمتُ الله
 وبركاته عليكم ، أهلَ البيتِ ، إنه حميدٌ مجيدٌ . فلما ذهب عن إبراهيم الروعُ ،
 وجاءتهُ البشرى ، يُجادِلنا في قومٍ لوطٍ . إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يا إبراهيمُ
 أعرضْ عن هذا ، إنه قد جاء أمرُ ربِّكَ ، وإنهم آتيتهم عذابٌ غيرَ مردودٍ ۝ »

[هود ٦٩ — ٧٦]

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » أي بالولد ، وقيل : بأهلك قوم لوط
 وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا يخوف عليه ،
 « قالوا : سلاماً » دعوا له . والمعنى سلمت سلاماً .

« قال : سلامٌ » أي هو سلام ...

وقيل : بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى النجاة

« فما لبث أن جاء بعجل حنيد » فلا لبث حتى جاء بعجل مشوى . وقيل هو المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار .

« فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » أى أنكرهم ، حيث وجدهم على غير ماعهد .
« وأوجس منهم خيفة » حيث ظن أنهم يريدون به شراً . « وامراته قائمة » أى قائمة بحيث ترى الملائكة . « فضحكك » فحاضت ، وكانت آية ، تحقيقاً للبشارة .
وقيل : هو ضحك التعجب .

« فبشرناها بإسحاق » لما ولد لإبراهيم اسماعيل من هاجر ، تمت سارة أن يكون لها ابن ، وأيست لكبر سنّها ، فبشرت بولد يكون نبيا ، ويلدنيا فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

« ومن وراء إسحاق يعقوب » ويحدث لها من وراء إسحاق يعقوب .
« قالت : يا ويلتا » ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تمحف على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبهن منه ، وعجبت من ولادتها وكون بعلمها شيخاً لخروجه عن العادة .

وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر .

« أألد » استفهام معناه التعجب .

« وأنا عجوز » أى شيخخة .

قال محاهد : كانت بنت تسعين سنة .

« وهذا بعلى » أى زوجي .

« شيخا » كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

وسارة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران ... وهى بنت عم إبراهيم .

« إن هذا لشيء عجيب » أى الذى بشرتمونى به لشيء عجيب .

« قالوا : أتعجبين من أمر الله » أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله ، أى من

قضائه وقدره .

أى: لا عجب من أن يرزقكما الله الولد ، وهو إسحاق ،
« رحمة الله وبركاته عليكم » أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت .
والبركة النمو والزيادة ، ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد
إبراهيم وسارة .

« إنه حميد مجيد » أى محمود ماجد .

« فلما ذهب عن إبراهيم الروح » أى الخوف . « وجاءته البشرى » أى بإسحاق
ويعقوب . ولأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . « يجادلنا » أى يجادل
رسلنا « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » المنيب الراجع . يقال : أناب إذا رجع . وإبراهيم
صلى الله عليه وسلم كان راجعاً إلى الله تعالى في أمره كله . وقيل الأواه المتأوه أسفاً على ما قد
فأت قوم لوط من الإيمان : « يا إبراهيم أعرض عن هذا » أى دع عنك الجذال في قوم
لوط . « إنه قد جاء أمر ربك » أى عذابه لهم « ولأنهم آتاهم » أى نازل بهم . « عذاب
غير مردود » غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

هناك إذا ... مناظر سريعة ... متتابعة ... كلها تثير أعنف الانفعالات في نفس إبراهيم
وفي نفس زوجته سارة ... اللذين هما موضوع التجربة الجديدة ... وموضع تنفيذ المفاجأة
وقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ... مجموعة من الرجال نزلوا على إبراهيم ... قالوا سلاماً
أقرءوه السلام ... السلام عليكم يا إبراهيم ... قال سلام ... قال إبراهيم وعليكم السلام
إذا ليس هناك أدنى شك في كونهم ضيوف نزلوا على إبراهيم في أمان وسلام ... وليس
هناك أدنى شك في كونهم بشر رجال ... ولذلك كان التصرف الطبيعي من إبراهيم ، الذي
اشتهر بالكرم ... فما لبث أن جاء بعجل حنيد ... سارغ فذبح عجلاً بقراً سمينا ... وشواه
وقدمه إليهم ... ودعاهم إلى الطعام ... فكانت المفاجأة الأولى ... فلما رأى أيديهم
لا تصل إليه ... أن رأى أيديهم لا تمتد إلى طعامه ولا تقربه !! وكانت المفاجأة النفسية
الثانية ... نكروهم أنكر فعلهم ... وأوجس منهم خيفة ... واشتد خوفه منهم ... فبعد
أن كان يحس نحوهم بالسرور لمقدمهم أصبح ينكرهم ... وبعد أن كان يحس نحوهم بالسلام

والأمن أصبح يخافهم ويظن بهم ومنهم السوء!! مفاحات متلاحقة... وإبراهيم هو موصيها
ومجالها!! ثم طمأنوه... قالوا لا تخف إنما أرسلنا إلى قوم لوط... فعاد إلى همدوه...
وهذا انفعال جديد... أما امرأته... سارة... فكانت هي الأخرى موضع انفعالات
أشد وأعنف... دفعها أن تصك وجهها... وتصيح صياحا... وامرأته قائمة... واقفة
تسمع للملائكة وهم يبشرون إبراهيم بإسحاق... غلاما... عليا... من سارة... فإذا
كان منها... فضحكت... شيء مضحك حقا... امرأة في المائة تلد؟! وليتها كيانت
قبل ذلك تلد في شبابها... ولكنها أصلا كانت عقيما عاقرا؟! فما أن سمعت سارة ما يتحدث
به الملائكة إلى إبراهيم حتى اندفعت تضحك وتضحك!!! وما لها لا تضحك... والأمر
يثير الضحك حقا!!! وهي التي سوف تكون موضع التجربة العنيفة التي هزتها هزاً عنيفاً
انفعال شديد جداً وقع بنفسها دفعها إلى مواصلة الضحك!!!

ثم ماذا؟!...

ثم مفاجأة أخرى... فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب؟! ليس فقط
تلدن إسحاق، بل سيولد لإسحاق يعقوب... أي أنك ستلدن غلاماً يكون منه نسل
عظيم... مفاجأة مذهلة... امرأة عجوز خلقت عاقراً... لم تكن تطمع أن يكون لها نسل
تبشر في سن الاستحالة أنها ستلد، وأن غلامها سوف يولد له يعقوب!!! آمال عريضة
فتحت لها فجأة بعد أن كانت كل الاتجاهات في وجهها استحالات!!! مفاجآت سيق
إليها فجأة فأذهلتها حتى قالت... ياويلتي... أألد وأنا عجوز؟!...

وهذا بعلي شيخاً؟! ان هذا شيء عجيب!!؟

وأشارت إليه... إلى إبراهيم... وهي تردد... وهذا بعلي شيخاً... شيء جيب
حقاً... إن هناك دوامة عاتية من الانفعالات تتصارع في نفسها، وكانت المفاجأة الأخرى
لها أن الملائكة قالوا لها: أتعجبين من أمر الله؟! كيف تعجبين من هذا... وهو أمر
الله وهو عليه هين؟! هذا كلام صحيح... ولكن اللسان الذي هو موضع التجربة يشم

تغير هذا... انه يشعر بكل العجب، وكل الغرابة... أن تتحول امرأة عجوز الى امرأة شابة... وأن تتحول امرأة عاقر الى امرأة ولود... وأن يكون ذلك شيئاً يجرى فيها هي نفسها...

هناك معجزتان...

الأولى عودة الشباب الى سارة بكل ما يحمل الشباب من نصارة وجمال وتفتح وانطلاق... والمعجزة الثانية عودة الحمل الى سارة وما يصاحب ذلك من تغير في جهازها التناسلي كله... بعد ضمور وانغلاق!!! معجزتان... عجبتان... كلاهما أعجب من أختها ومع هذا يطالبها الملائكة أن لا تعجب من أمر الله؟! هذا فوق طاقتها!! انها بشر... تألم وتفرح وتنقل، ثم المفاجأة الأخرى أن قال لها الملائكة رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد... رحمة الله الواسعة تمسك أهل بيت إبراهيم... وبركاته... وخيراته... تنزل عليكم فلا تعجبى... فزادوها بذلك انفعالا الى انفعالاتها... وزادوها عجبا وسرورا... انفعالات عارمة... جارفة... قامت بنفس زوجها... وكان ذلك كله تمهيدا للتحويل العظيم الذى قدر الله أن يحدث فى ذلك البيت العظيم... بينت إبراهيم... كما تكون العواصف والاعاصير... تمهيدا لنزول رحمة الله... لنزول المطر العزيز... ولذلك يسجل الله تعالى تلك الانفعالات التى كانت بنفس إبراهيم وزوجه فيقول: «فلما ذهب عن إبراهيم الروع»... هناك اذا روع... هناك خوف كان بنفس إبراهيم... «وجاءته البشرى» ولم يذهب عنه ذلك الخوف الا بعد أن بشرته الملائكة بالسلام، واخبروه أنهم رسل ربهم... أمام هذا كله وأمام تلك الانفعالات... ترك إبراهيم احساسه الخاصة... وأخذ يجادل فى قوم لوط ويطلب لهم النجاة من العذاب! لماذا؟!... إن إبراهيم حلیم... شديد الحلم... لا يحب أن يعاجل أحدا بعقوبة... يا إبراهيم أعرض عن هذا... إنه قد جاء أمر ربك... وإنهم آتيهم عذاب غير مردود... ليس الأمر أمر غواطف يا إبراهيم... انه أمر احقاق الحق، وازهاق الباطل... وهذا شيء مقرر لا يرد...

فصكت وجهها ١٩

قال تعالى : « هل أتاك حديثٌ ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاماً ، قال : سلامٌ قومٌ منكرون . فراغ إلى أهله ، فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم ، قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة ، فصكت وجهها ، وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنزّلنا عليهم حجارةً من طين . مسومةً عند ربك . المسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين . وتركنا فيها آيةً للذين يخافون العذاب الأليم . » [الذاريات ٢٤ - ٣٧]

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم ؟ » تفخيم لشأن الحديث . كانوا اثني عشر ملكاً . وقيل : ثلاثة ، جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل . عليهم السلام وسموا ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف « المكرمين » أي عند الله عز وجل . « فقالوا سلاماً » أي تسلم عليك سلاماً « قال : سلاماً » أي عليكم سلام « قوم منكرون » هؤلاء قوم منكرون . قاله في نفسه ، أو لمن كان معه أو : يريد التعرف عليهم أي : أنتم لستم ممن أعرف ، فمن أنتم ؟ « فراغ إلى أهله » أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه أي ذهب إلى زوجته سارة ، بحيث لا يشعر به ضيوفه « فجاء بعجل » وهو ولد البقرة . « سمين » ممتلئ الجسد بالشحم واللحم . « فقربه إليهم » بأن وضعه لديهم « فقال : ألا تأكلون ؟ » عرض للأكل ، فإن في ذلك تأنيس للضيف « فأوجس منهم خيفة » أضمر في نفسه منهم خوفاً ، لاعراضهم عن الطعام ، وظن أن ذلك لشر يريدونه « قالوا : لا تخف . » إنا رسل الله تعالى « وبشروه » أي بواسطتهم « بغلام » عظيم الشأن ، هو إسحاق بن سارة « عليم » عند بلوغه واستوائه ووصفه بالعلم لأنها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل . « فأقبلت امرأته » سارة ، لما سمعت بشارتهم . وكانت في زاوية تنظر إليهم « في صرة » في صبيحة من الصبر . أي أقبلت وهي تصيح من دهول المفاجأة ! وقيل : قولها ياويلتي .

« فصكت وجهها » ضربت بيدها على جبهتها ، وقالت : يا ويلتاه . وقيل : انها وجدت حرارة الدم ، فاطممت وجهها من الحياء . وقيل : انها لطمته تعجبا وهو فعل النساء إذا تعجبين من شيء . « وقالت : عجوز » أى أنا عجوز « عقيم » عاقر ، فكيف ألد !! « قالوا : كذلك » أى مثل ذلك القول الكريم الذى أخبرنا به .

« قال ربك » وإنما نحن معبرون ، ننبهك به عنه عز وجل ، لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا . « إنه هو الحكيم العليم » . فيكون قوله عز وجل حقا ، وفعله سبحانه متقنا لا محالة . « قال » أى إبراهيم — عليه السلام — « فما خطبكم أيها المرسلون » أى شأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة ؟! « قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » يعنون قوم لوط — عليه السلام — « ليرسل عليهم » أى بعد قلب قراهم عاليها سافلها — حسبما فصل فى سائر السور الكريمة . — « حجارة من طين » أى طين متحجر ، وهو السجيل « مسومة » معلة ، أعلمت بانها حجارة من العذاب ، أى ليست من حجارة الدنيا . « عند ربك » فى محل ظهور قدرته سبحانه ، وعظمته والمراد أنها فى علم الله تعالى معدة . « للمسرفين » المجاوزين الحد فى الفجور ، أى لهؤلاء المسرفين . « فأخرجنا من كان فيها » أى فى قرى قوم لوط « من المؤمنين » ممن آمن بلوط — عليه السلام — « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » أى أهل بيت والمراد لوط وابنتاه !!!

وقيل : كانوا ثلاثة عشر « وتركنا فيها » أى فى القرى « آية » علامة دالة على ما أصابهم من العذاب « للذين يخافون العذاب الأليم » أى من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ، ورقة قلوبهم .

* * *

وهكذا ... أعاصير عاتية اجتاحت باطن سارة فقلبتة رأسا على عقب ... حتى أقبات فى صرة ... فى صياح وولولة ... وصكت وجهها ... وهى تردد : يا ويلتى ... عجوز ؟ عقيم ؟ ... أألد وأنا عجوز عقيم ؟! ... وهذا بعل شىخا ... إن هذا لشيء عجيب !!! ودائما وأبدا ... هي سنة الله التى لا تبدل لها ولا تغيير ... ما من شيء عظيم ... فيه رحمة

وفضل من الله ... إلا كانت مقدماته عاصفة ... حتى إذا ولد المولود في العاصفة ، كان صاحبه حزيباً عليه ... شاكراً لنعمة الله تعالى عليه ... أما هذه الأشياء التي تأتي إلى الناس سهلة ، فإنها تذهب عنهم سهلة ... لا يشعرون لها بقيمة ، ... ولا يحرصون عليها ... ومن هنا جاءت إبراهيم وسارة البشرى بإسحاق ... في عاصفة من الانفعالات والحوار ... ليكون ذلك تعظيماً لنعمة الله عليهما ... ودافعاً يدفعهما إلى تقدير النعمة حق قدرها ... ومن كإبراهيم شكراً؟ ومن كسارة في النساء شكراً؟!

ان فيها لوطاً ؟!

قال تعالى : «ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين . قال : إن فيها لوطاً ؟! قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله ، إلا امرأته كانت من الغابرين . » [العنكبوت ٣١ - ٣٢]

«ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » أى بالبشارة بالولد ، والنافلة «قالوا» أى لإبراهيم - عليه السلام - في تضاعيف الكلام «إنا مهلكوا أهل هذه القرية» أى قرية سدوم ، وهى أكبر قرى قوم لوط ، وفيها شأت الفاحشة . وفي الإشارة بهذه إشارة إلى أنها كانت قريبة من محل إبراهيم - عليه السلام - «إن أهلها كانوا ظالمين» تعليل للاهلاك باصرارهم على الفساد ، وأنواع المعاصى . «قال : إن فيها لوطاً» اعتراض على الرسل بأن في القرية من لم يظلم .

«قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله» تسليم لقوله في لوط مع ادعائه مزيد العلم به ، وأنهم ما كانوا غافلين عنه «إلا امرأته كانت من الغابرين» أى من الباقين في القرية وفسر الأهل هنا بأتباع لوط - عليه السلام - المؤمنين .

ماذا في سادوم ؟!

في الوقت الذي كان إبراهيم وزوجه يتلقى البشرى بسلام عليهما ... في الوقت الذي كان الزوجان الكريمان يستعدان لاستقبال رحمة الله وبركاته عليهما ... ليخرج منهما غلام ...

يكون بداية شجرة طيبة ... مباركة ... من الأنبياء والمرسلين ... تتسلسل حتى تنهى
بالمسيح - عليه السلام - ...

في نفس الوقت تلقى إبراهيم - عليه السلام - البشرى باهلاك قوم لوط ... إنا
مهلكو أهل هذه القرية ... إن أهلها كانوا ظالمين !!! البشرى الأولى ... تعلن أن قد
بدأ عهد من النور والعدل في الأرض ... سوف يولد اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ،
ومن وراء يعقوب أنبياء وأنبياء ... والبشرى الثانية ... تعلن أن قد حقت كلمة ربك على
اولئك الجرمين الذين جاوزوا كل حد في الفساد ... انهم آتيهم عذاب غير مردود ...
ولا يقل اهلاك الجرمين رحمة بالبشرية ، عن بعث النبيين ...

فإن الحق لا يفوم في الأرض إلا اذا زهق الباطل ... وإلى هذا يشير قوله تعالى : « ولما
جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين » .
بشرى بكيونة اسحاق ... يبعث النور . وبشرى بازهاق الباطل ... تدمير الجرمين ...
واعلاء الحق ... وتدمير الباطل ... هما جناحا العدل في الارض ... فما هي قصة هؤلاء
القوم الجرمين ؟

إنها قصة فاحشة ماسبقهم بها من أحد من العالمين ...
قال تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ ... أئنكم
لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب
قومه إلا أن قالوا : أخرجوا آل لوط من قربتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه
وأهله ، إلا امرأته ، قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر
المنذرين » .

[المل ٥٤ - ٥٨]

« أتأتون الفاحشة » أي الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواط « وأنتم تبصرون »
والحال انكم تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا إليها ؟! وتبصرون من بصر القلب . والله تعالى
انما خلق الانثى للذكر ، ولم يخلق الذكر للذكر ولا الانثى للانثى . وقيل : وأنتم تبصرون أي
تبصر بعضكم بعضا ... لأنهم كانوا في ناديهم يرتكبونها مجاهرين بها ، لا يستترون ،

عتوا منهم ، وتمردا ، وخلاعة ، ومجانة ! « أنكم لتأتون الرجال » الهمة فيه للاستفهام على سبيل الإنكار .

« شهوة » أى لاجل الشهوة « تجهلون » أى عاقبة العصيان ويوم الجزاء وقيل : تجهلون موضوع قضاء الشهوة « يتطهرون » من ادبار الرجال ، يقولونه استهزاء بهم وتهكما « فأنجيناه » أى أنجيناه لوطا من العذاب وأنجيناه أهله « الا امرأته قدرناها » أى جعلناها بتقديرنا وقضائنا عليها « من الغابرين » أى الباقين فى العذاب « وأمطرنا عليهم مطرا » أى الحجارة « فساء مطر المندرين » الذين أنذروا بالعذاب ...

قيل : اينما كان المطر فى كتاب الله فهو العقاب ! ألا سحقا لتلك المدينة المسماة « سادوم » كبرى مدن قوم لوط ... لقد بدأت تلك الفاحشة تظهر فيها ... ومنها انتقلت إلى غيرها من القرى كعامورة وغيرها مما حولها ... إنها جريمة الشذوذ الجنسى ... انتشرت فى تلك القرى ، حتى عمتها كلها ... وأصبحت فيهم شيئا مألوفا ... يجاهرون بها ... ولا يستحون من آتيانها فى النوادي ، والطرق ... ويوم تصاب الأمة فى أخلاقها ، فقد تودع منها ... وان كانت تلك الآفة التى انتشرت فى قوم لوط نثير العجب ... فان العجب منها أن نسمع عنها فى مجتمع كالمجتمع الانجليزى ... ذلك الذى يزعمون فى رقيه المزاعم ... حتى قرأنا أن مجلس العموم البريطانى يريد أن يعتبر الشذوذ الجنسى شيئا مشروعاً وليس بجريمة يعاقب عليها القانون !!!

انهم أناس يتطهرون ؟!

وقال تعالى : « ولوطا إذ قال لقويمه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟! . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قويمه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً ، فانظر كيف كان عاقبة الجرمين » .

[الأعراف ٨٠ - ٨٤]

ماذا كان جواب قوم لوط ؟

أخرجوهم من قريبتكم ... عليكم باخراج لوط هذا وابنتيه من سادوم ... لماذا ؟ إنهم أناس يتطهرون ؟ ! هذه هي الجريمة !!! أنهم يتطهرون ... يتزهون عن تلك الفعلة الشنيعة ... لا يقرونها ... ولا يفعلونها ... بل ويدعوننا الى الانتهاء عنها !! هكذا ؟ ... مجتمع اصبح يرى المنكر معروفا ... والمعروف منكراً !!

فالشذوذ الجنسى شىء طبيعى ... والذين يتزهون عنه ، ويدعونهم إلى الابتعاد عنه قوم يجب اخراجهم من المدينة !!

وحين تجمع الشعوب على باطل تكون مصيبة عامة تستوجب دمار تلك الشعوب !!
تماما كتلك الصيحات المنكرة التى نسمعها الآن من المجتمع الانجليزى باعتبار الشذوذ الجنسى أمراً طبيعياً لا يعاقب عليه القانون !!!

ولما جاءت رسلنا لوطاً ؟

«ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال : هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال : يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد ؟ . قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما تريد . قال : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ؟ . قالوا : يالوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك . فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مُصِيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك ، وماهى من الظالمين ببعيد .» [هود ٧٧ - ٨٣]

« ولما جاءت رسلنا لوطاً » لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم ، وكان بين ابراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط - وهما تستقيان - بالملائكة ورأتا هيئة حسنة ، فقالتا : ما شأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع كذا ، نريد هذه القرية .

قالتا : فإن أهلها أصحاب الفواحش ؛ فقالوا : أبها من يضيفنا ؟ قالتا : نعم ! هذا الشيخ ، وأشارتا إلى لوط ؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم . « سىء بهم » أى ساءه مجيئهم . « وضاق بهم ذرعا » أى ضاق صدره بمجيئهم وكرهه . وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جهالم وما يعلم من فسق قومه . « وقال : هذا يوم عصيب » أى شديد فى الشر . « وجاءه قومه يهرعون إليه » أى يسرعون ، وكان سبب إسرائعهم ما روى ان امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجهالم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فتية مارؤى مثلهم جمالا ، وكذا وكذا ، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . « ومن قبل » أى ومن قبل مجيئ الرسل « كانوا يعملون السيئات » أى كانت عاداتهم إتيان الرجال .

فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم مدافعا ، وقال : « هؤلاء بناتى » نذبهم فى هذه الحالة إلى الزواج . وقيل : لم يعرض عليهم بناته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا « هن أطهر لكم » أى أزوجكموهن ، فهو أطهر لكم مما تريدون ، أى أحل ، والتطهر التنزه « فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيئى » لانهينونى ولا تذلونى « أليس منكم رجل رشيد » يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أو : أليس منكم رجل ذو رشد ؟ أو : رجل مؤمن ؟ « قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق » أى ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هن قصدنا ولا لنا عادة بطلب ذلك « وإنك لتعلم ما نريد » إشارة إلى الأضياف . قال : « لو أن لى بكم قوة » لما رأى استمرارهم فى غيهم ، وضعف عنهم ، ولم يقدر على دفعهم تبنى لو وجد عوناً على ردهم فقال على جهة التفجع والاستكانة . « لو أن لى بكم قوة » أى أنصارا وأعوانا . « أو آوى إلى ركن شديد » أى ألباً وأنضوى ، ويروى أن لوطا — عليه السلام — لما غلبه قومه ، وهما بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنح عن الباب ، فتنحى ، وانفتح الباب ! فضربهم جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى تصبح ، فسترى ، يتوعدونه .

« قالوا : يا لوط إننا نرى لك ربك » لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعته عرفوه بأنفسهم . فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدخول : فأمر جبريل — عليه السلام — يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فحقت . « لن يصلوا إليك » أى بمكروه « فأسر بأهلك » أى سر بأهلك ليلا . « بقطع من الليل » بطائفة من الليل . ببقية من الليل . بعد هدوء من الليل .

وقيل : إنه نصف الليل ، مأخوذ من قطعه نصفين « ولا يلتفت منكم أحد » لا ينظر وراءه منكم أحد . أو : لا يتخلف منكم أحد « إلا امرأتك » أى فأمر بأهلك إلا امرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام . أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها ، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ، فانها لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . « إته مصيبتها » أى من العذاب « ما أصابهم إن موعدهم الصبح » لما قالت الملائكة : « إنا مهلكو أهل هذه القرية » قال لوط : الآن الآن استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ، فقالوا : « أليس الصبح بقريب » ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع .

روى : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرها ، عند طلوع الفجر . « فلما جاء أمرنا » أى عذابنا « جعلنا عاليها سافلها » وذلك أن جبريل — عليه السلام — أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم — وهى العاصمة — وعامورا ، ودادوما ، وضعوه رقتهم ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء نحيبهم صراخهم وصياح ديكهم ، لم تنكفى لهم جرة ، ولم ينكسر لهم اناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة . « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » السجيل الشديد الكثير . أى حجارة من طين شديد متحجر « منضود » متتابع . « مسومة » معلة . أى مخصصة « عند ربك » دليل على أنها ليست من حجارة الأرض .

« وما هى من الظالمين ببعيد » يعنى قوم لوط ، أى لم تكن تخطئهم .

وجاء أهل المدينة يستبشرون ؟

وقال تعالى : « قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ . قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، إلا آل لوط إنا لمنجؤهم أجمعين . إلا امرأته قدّرنا إنها من الغابرين . فلما جاء آل لوط المرسلون . قال : إنكم قوم منكرون . قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين . وجاء أهل المدينة يستبشرون . قال : إن هؤلاء ضيئي فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا : أنفك عن العالمين ؟ قال : هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون . فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين . »

[الحجر ٥٧ - ٧٧]

« فلما جاء آل لوط المرسلون » مطلق كينونتهم عند آل لوط . أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم — عليه السلام — وتوجهوا لتقاء سادوم ، ونزلوا أضيافا على آل لوط ، أى على أسرته ، على منزله ...

« قال : إنكم قوم منكرون » انكم قوم تنكركم نفسى ، وتفر منكم ، فأخاف أن تطرقونى بشر . انما قال — عليه السلام — حين ضاقت عليه الحيل ، وعيت به العلل ، ولم يشاهد من المرسلين عند مقاساة الشدائد ، ومعاناة المكائد من قومه ، الذين يريدون بهم ما يريدون ، ماهو المعهود من الاعانة والامداد ، وتركهم نصره فى مثل المضايقة المعترية له بسببهم ، حيث لم يكونوا — عليهم السلام — مباشرين معه لأسباب المدافعة والممانعة ، حتى أُلجأته إلى أن قال : « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . »

« قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون .

ويشكون ويكذبونك فيه « وأتيناك بالحق » بالأمر المحقق ، المتيقن ، الذى لا مجال للافتراء ، والشك فيه ، وهو عذابهم « وإنا لصادقون » تأكيد له أى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق ، أى المطابق للواقع ، وإنا لصادقون فى ذلك الخبر ، أوفى كل خبر ، فيكون كالدليل على صدقهم فيه « فأسر بأهلك » اذهب بهم فى الليل « بقطع من الليل » بطائفة منه ، أو من آخره .

أو : بعدما مضى منه شئ صالح . « راتب أدبارهم » وكن على أثرهم ، تذودهم ، وتسرع بهم ، وتطلع على أحوالهم « ولا يلتفت منكم » أى منك ومنهم « أحد » فى رأى ما وراءه من الهول ، ما لا يطيقه .

أو : فيصيبه العذاب . فالالتفات على ظاهره .

أو : لا ينصرف أحدكم ، ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما يصيب المجرمين . ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم فيرقوا لهم ، ويوطنوا نفوسهم على المهاجرة ، ويطيّبوها هن مساكنهم . ويمضوا قدما غير ملتفتين إلى ما وراءهم « وامضوا حيث تؤمرون » إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضى إليه وهو الشام . وقيل مصر . وقيل : الأردن « وقضينا » أوحينا « إليه ذلك الأمر » مقضيا مثبتا « أن دابر هؤلاء مقطوع » بأن دابر هؤلاء والدار الآخر ، وليس المراد قطع آخرهم ، بل استئصالهم حتى لا يبقى منهم أحد .

« مصبحين » أى داخلين فى الصباح « وجاء أهل المدينة » المراد بالمدينة سدوم ، وبأهلها أولئك القوم المجرمون . وأعمال التعبير عنهم بذلك للإشارة إلى كثرتهم ، مع ما فيه من الإشارة إلى مزيد فظاعة فعلهم . فإن اللائق بأهل المدينة أن يكرموا الغرباء ، الواردين على مدينتهم ، ويحسنوا المعاملة معهم ، فهم عدلوا عن هذا اللائق مع من حسبواهم غرباء واردين ، إلى قصد الفاحشة التى ما سبقهم بها أحد من العالمين ، وجاء وامنزل لوط — عليه السلام — .

« يستبشرون » مستبشرين مسرورين إذ قيل لهم : إن عنده — عليه السلام — ضيوفا

مردا فى غاية الحسن والجمال ، فطمعوا — قاتلهم الله تعالى — فيهم !!

« قال : إن هؤلاء ضيبي » أى أضيافى « فلا تفضحون » عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء ،

فيعلموا أنه ليس لى عندكم قدر ،

أو : لا تفضحوني بفضيحة ضيفي ، فإن من أسىء الى ضيفه فقد أسىء اليه يقال فضحته فضحا وفضيحة ، إذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار . « واتقوا الله » في مباشرتكم لما يسوءني . « ولا تخزون » أي لا تذلوني ، ولا تهينوني ، بالتعرض بالسوء لمن أجرتهم ، فهو من الخزي بمعنى الذل والهوان .

« قالوا : أولم نهك عن العالمين ؟ » أي عن اجارة أحد منهم ، وحيلولتك بيننا وبينه ؟
أو : عن ضيافة أحد منهم ؟ أي . ألم نتقدم إليك ، ولم نهك عن ذلك ؟ فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء . وكان — عليه السلام — ينههم عن ذلك بقدر وسعه ويحول بينهم وبين من يتعرضون له ، وكانوا قد نهوه عن تعاطي مثل ذلك ، فكأنهم قالوا : ما ذكرت من الفضيحة والخزي إنما جاءك من قبلك لا من قبلنا .

« قال : هؤلاء بناتي » يعني نساء القوم ، أو بناته حقيقة ، أي فتزوجوهن « إن كنتم فاعلين » شك في قبولهم لقوله فكأنه قال . إن فعلتم ما أقول لكم ، وما أظنكم فاعلين .
وقيل . إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله تعالى دون ما حرم . « لعمرك » قسم من الله تعالى بعمر نبينا صلى الله عليه وسلم .

عن ابن عباس . ما خلق الله تعالى ، وما ذرأ ، وما برأ نفسا ، أكرم عليه من محمد صلى الله عليه ، أو ما سمعت الله سبحانه أقسم بحياة أحد غيره ، قال تعالى : (لعمرك) الخ ؟
والعمر . بالفتح والضم البقاء والحياة « إنهم لفي سكرتهم » أي لفي غوايتهم أو : شدة غلغلتهم التي أزالوا عقولهم ، وتمييزهم بين خطيئهم والصواب الذي يشار به إليهم « يعمهون » يتحيرون فكيف يسمعون النصح . وأصل العمه عى البصيرة وهو مورث للحيرة « فأخذتهم الصيحة » يعني صيحة هائلة .

قيل : الصيحة مثل الصاعقة . فكل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة « مشرقين » داخلين في وقت شروق الشمس والجمع بين مصبحين ومشرقين — باعتبار الابتداء والانتهاء — بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح ، وانتهاءه عند الشروق أو أخذ الصيحة قهرها إياهم وتمكنها منهم .

«جعلنا عاليها سافلها» أى المدينة وما يتبعها من قرى «وأمطرنا عليهم» فى تضاعيف ذلك «حجارة» كائنة «من سجيل» من طين متحجر. «إن فى ذلك» فيما ذكر من القصة «آيات» لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق.

«للمتوسمين» للناظرين. أو : للمتفرسين أو : للمعتبرين «وإنها» أى المدينة المهلكة ، «ابسبيل مقيم» أى طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها «إن فى ذلك» فيما ذكر من المدينة ، أو القرى «لآية» عظيمة «المؤمنين» بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولوطا .. آتيناه حكما وعلما ١٤

قال تعالى : «وَنَجَّيْنَاهُ ، وَلُوطًا ، إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا للعَالَمِينَ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ . وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » . [الأنبياء ٧١ - ٧٥]

«ونجيناه ووطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين» يريد نجينا ابراهيم ووطا إلى أرض الشام ، وكانا بالعراق .

وقيل لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء . «وكلا جعلنا صالحين» أى وكلا من ابراهيم واسحاق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله ، «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا» أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ، ومعنى «بأمرنا» أى بما أنزلنا عليهم من الوحي والامروالنهي . فكأنه قال : يهدون بكتابنا «ولوطا آتيناه حكما وعلما» أى واذكر لوطا . والحكم النبوة ، والعلم المعرفة بأمر الدين ، وما يقع به الحكم بين الخصوم .

وقيل : علما ، فهما «ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث» يريد سدوم ، وفى الخبائث التى كانوا يعملونها : اللواط على ما تقدم . والضراط ، أى كانوا يتضارطون

في نأديهم ومجالسهم « إنهم كانوا قوم سوء فاسقين » أي خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج . « وأدخلنا في رحمتنا » في النبوة . « إنه من الصالحين » من الكاملين في الصلاح .

أتأتون الذكران من العالمين ؟

وقال تعالى : « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين ؟ . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ ، بل أنتم قوم عادون . قالوا : لئن لم تنته لوط لتكونن من المخرجين . قال : إني لعمليكم من العالمين . رب نجني وأهلي مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطراً ، فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . [الشعراء ١٦٠ - ١٧٥]

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط - عليه السلام - وكان الله قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم - عليهما السلام - ودانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكها الله وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهي مشهورة . ببلاد النور . مشاخرة لجبال البيت المقدس (١) .

فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم ، مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله ، من أتيان الذكور دون الإناث . .

ولهذا قال تعالى : « أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون » لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش ، وغشيانهم الذكور ،

(١) يعني البحر الميت .

وأرشدهم الى اتيان نساءهم اللاتي خلقهن الله لهم ، ما كان جوابهم له إلا أن قالوا « لئن لم تنته يا لوط « أى عما جئتنا به « لتكونن من المخرجين » أى تنفيلك من بين أظهرنا .
فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه ، وانهم مستمررون على ضلالتهم تراء منهم وقال « انى لعملكم من القالين » أى المبغضين لأحبه ، ولا أرضى به ، وانى برىء منكم ثم دعا الله عليهم فقال « رب نجى وأهلى مما يعملون » قال الله تعالى « فنجيناها وأهله أجمعين » أى كلهم « إلا عجوزا فى الغابرين » وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقى من قومها .

لوط يصارع المجتمع الخبيث ١٤

وقال تعالى : « فآمن له لوط وقال : إني مهاجرٌ إلى ربِّي، إنه هو العزيزُ الحكيمُ .
ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . وَلوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَأَنْتُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ . وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ : إِنْ فِيهَا لَوطاً ۖ قَالَوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ، وَقَالُوا : لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَك كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مَنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . »

[العنكبوت ٢٦ - ٣٥]

يقول تعالى مخبرا عن ابراهيم أنه آمن له لوط ، وكان ابن أخى ابراهيم . ولم يؤمن به

لمن قومه سواه ، وسارة امرأة ابراهيم الخليل . وهاجر معه إلى بلاد الشام . ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها .

ويقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط — عليه السلام — أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في اتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ، ويخالفون ، ويقطعون السبيل ، أى يقفون في طريق الناس يقتلونهم ، يأخذون أموالهم . « وتأتون في ناديكُم المنكر » أى يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التى يجتمعون فيها ؛ لا ينكر بعضهم على بعض شيئا من ذلك . فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضا فى الملاء . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديكة . وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شرا من ذلك .

« الا امرأته كذابت من الغابرين » أى من الهالكين لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم « ولقد تركنا منها آية بينة » جعل الله مكانها بحيرة خيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد . ولهذا قال تعالى : « ولقد تركنا منها آية بينة » أى واضحة .

« لقوم يعقلون » كما قال تعالى « وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » !!

فكلا أخذنا بذنبه ١٩

وقال تعالى : « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . » [العنكبوت ٤٠]

« فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا » قال ابن عباس فى قوله « فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا » قال قوم لوط . والحاصب الريح التى تحمل الحصى ، وهى الحصى الصغار . « ومنهم

من أخذته الصيحة » يعنى ثمود « ومنهم من خسفنا به الأرض » يعنى قارون وأصحابه ،
« ومنهم من أغرقنا » يعنى قوم نوح وفرعون وقومه .

الا ... عجوزاً ؟

وقال تعالى : « وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمَرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَتَجَعِّلِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِالْأَيْلِ ، أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ؟ ! » [الصافات ١٣٣ - ١٣٨]

« ثم دمرنا الآخرين » أى بالعقوبة ، « وإنكم تمرّون عليهم مصبحين » خاطب
العرب ، أى تمرّون على منازلهم وآثارهم . « مصبحين » وقت الصباح « وباليل » تمرّون
عليهم أيضا « أفلا تعقلون » أى تعتبرون وتندبرون ؟

فحق عقاب ؟

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، وَعَادٌ ، وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَثَمُودُ ،
وَقَوْمُ لُوطٍ ، وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ، أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ
عِقَابٌ . » [ص ١٢ - ١٤]

« أولئك الأحزاب » أى هم الموصوفون بالقوة والكثرة أى أولئك الأمم العتيدة
الكثيرة العدد . « إن كل » بمعنى ما كل
« إلا كذب الرسل فحق عقاب » أى فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب . أى فنزل
بهم عقابي .

فحق وعيد ؟

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ، وَثَمُودُ ، وَعَادٌ ،
وَفِرْعَوْنُ ، وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ، وَقَوْمُ تَبَعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرَّسُلَ ،
فَحَقَّ وَعِيدٌ . » [ق ١٢ - ١٤]

« كل كذب الرسل » من هذه الأمم المكذبة « فحق وعيد » فحق عليهم وعيدي وعقابي .

بيت واحد ... من المسلمين ١٤

وقال تعالى : « قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ . قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين : لَنرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ . فَأَخْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . » [الذاريات ٣١ - ٣٧]

« قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » يريد قوم لوط « لَنرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ » أى لَنرْجِيهِمْ بِهَا « مسومة » معروفة بأنها حجارة العذاب « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » يعنى لوطا وبنتيه . أى : فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ أَهْلِ بَيْتٍ .

والمؤتفة أهوى ١٤

وقال تعالى : « وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . » [النجم ٥٣ - ٥٤]

فطمسنا أعينهم ١٤

وقال تعالى : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آلَ لُوطٍ ، نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَافِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرٍ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرٍ . »

[القمر ٣٣ - ٣٩]

امرأة لوط ١٤

وقال تعالى : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ، فَخَانَتَاهُمَا ، فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ . » [التحريم ١٠]

كيف كانوا ... وكيف ذهبوا ؟

والآن ... ما هي القصة ... وكيف كانوا ... وكيف ذهبوا ؟ انهم قصة ليست
دخيلة على قصة ابراهيم ... وانما هي مشهد من حياته ... فلوط هو ذلك الشاب الذي
أعجب بعمه وهو يصارع الباطل وحده ... ويحاكم وحده ... ويلقى في النار وحده ...
فها من له لوط ...

ثم قال لوط : اني ذاهب إلى ربي ... وهاجر مع عمه ابراهيم إلى الشام ... ثم افترقا ..
فاستقر لوط في تلك القرى التي عاصمتها سدوم ... التي كانت تعمل الخبائث ... واستقر
ابراهيم بفلسطين ... ولما اقحطت بلاد الشام رحل مع عمه إلى مصر ... ثم عادا إلى
مستقرهما ... ويعث الله لوطا نبيا رسولا إلى تلك القرية سدوم ومن حولها ...

وانتهض لوط يدعوهم إلى الله ، فلم يستجب له منهم أحد ... لا أنثى ولا ذكر !!!
إلا ابنتاه ... كاتتا مؤمنتين به ...

أما زوجه فكانت كافرة ... لا تؤمن به ولا برسائله !!! وكانت تلك القرية سدوم
التي استقر فيها لوط رسولا تعمل الخبائث كلها ... يأتون الذكران ... ويتركون اتيان
النساء ... فهم يرتكبون جريمتين ... جريمة اتيان الذكور ... وجريمة الاعراض عن
زوجاتهم اللائي لهن حق في ذلك مشروع !!

ويقطعون السبيل ... يعتدون على المارة بالطريق ... ويسرقونهم ... ويأتون الرجال
منهم !! ويأتون بناديهم المنسكر ... مجتمعاتهم كلها تدور على الاجرام ... يأتون فيها
الذكور ، ويفعلون كل ما يمكن أن يتصور إنسان من الخبائث ...

وكانوا على الغاية من الفجور والانهيار ... فهم لا يستحون أن يأتوا الذكور علانية ..
جهارا ... نهارا !! الخلاصة ... شعب فاجر ... عاهر ... ممسوخ ... بلغ به الانهيار
أقصاه ... وقام لوط يناديهم ... ولا حياة لمن تنادى ...

دعاهم إلى الله ... وإلى التنزه عن تلك الفاحشة ... وعن غيرها من الجرائم ... ولكن
القوم كانوا قد بلغوا أحط درجات الانهيار ... فلم يفلح معهم نذير ولا وعيد ...

بل لم يقفوا عند حد التكذيب .. وإنما بلغت بهم الوقاحة حدا .. جعلهم يستهزءون بلوط ... ويتحدونه أن يأتيهم بذلك العذاب الذي يهددهم به ...
فنادى لوط ربه : رب انصرني على القوم الفاسقين ... فاستجاب له ربه ...

وكان إبراهيم قد بلغ مائة وعشرين عاما ... ويقوم في بلاد فلسطين ... قريبا جدا من قرى لوط ... وكانت سارة قد بلغت تسعين عاما ... وفي ذات يوم فوجيء إبراهيم بمجموعة من الرجال يدخلون عليه ... وكانوا على أجمل صورة ... وأحسن هيئة ... وبشروه بسلام عليم ... ثم أخبروه أنهم سوف يدمرون قرى لوط بما كانوا يفسقون ... فجادلهم إبراهيم : كيف تدمرون لوطا وهو من المؤمنين ؟!

قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله أجمعين . الا عجوزا في الغابرين ... وخرجوا من عنده ... واتجهوا في نفس النهار إلى سدوم ... ودخلوا ... رجالا على الغاية من جمال الخلقة ... وقصدوا بيت لوط ... فكان أعجب ما كان من رجال تلك القرية سدوم ...

انهم جاءوا جميعا إليه بهرعوث ... يراودونه عن هؤلاء الرجال ... ان يخلى بينهم ليأتوهم !! فاغلق لوط باب دونهم ...

وجعل يصددهم عن ضيوفه ... وهم يحاولون اقتحام الباب ... والهجوم على الضيوف ، ليأخذوهم ويفعلوا بهم ما يريدون ... ولما عجز لوط عن مدافعتهم ، وحار فيهم ... وخاف الفضيحة في ضيفه ...

عرض عليهم بناته ... بدلا من هذا الخزي الذي يطالبون ... فأبوا ... وقالوا : مالنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ... أي أنهم لا يريدون النساء ، وإنما يريدون هؤلاء الرجال !!!

وهجموا على الباب ... يتدافعون إليه ... يريدون اقتحامه ... حتى قال لوط : لو أن لي بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ؟!

ولما بلغت الأزمة أشدها ... وظن لوط أنهم داخلون لأمحالة ... هنالك طمأنه
الرسل ... وكشفوا عن حقيقتهم إنا رسل ربك ... إنهم لن يصلوا إليك ...
واشتد هجوم المجرمين على بيت لوط ... فانهار الباب ... ودخلوا كالوحوش
الكاسرة ... يريدون أن يتخطفوا أولئك الرجال الحسان ...
هنالك وقع الحق ... فطمسنا أعينهم !!! طمس الله عيونهم جميعا ... فانهبوا عما
لا يبصرون ... ولا يهتدون سبيلا !!! فارتدوا خاسئين .. وهم يتوعدون لوطا ...
وما أن هدأت المعركة ... وتفرق المجرمون ... حتى أخبر الرسل لوطا بكل شيء ...
إن الله قرر تدمير تلك القرى ... إن الله يأمرك أن تأخذ ابنتيك وترحل عن
هذه البلاد ...
عليك أن تخرج في السحر خفية بابنتيك ... ولا تأخذ زوجك ... إن الله قرر أن تهلك
مع الهالكين ... وكن على آثارها ... ولا يتخلف منكم أحد ... ولا ياتفت وراءه فيصيبه
من الهول الذي سيقع بهم ...
وفي السحر ... خرج لوط بأهله ... ابنتاه ... فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ...
هو لوط وابنتاه ... هذه هي حصيلة دعوة رسول في قومه !!! ورحل لوط وابنتاه
أمامه ... في الظلام ... ولم يلتفتوا وراءهم ... ولما كان الصباح .. عند شروق الشمس ...
جاء أمر ربك ...
فحملت تلك القرى حملة واحدة إلى أعلى حتى إن أهل السماوات كانوا يسمعون صياح
الديكة التي تصيح فيها ... ثم قلبت ... ودكتا دكة واحدة ... فجعلنا عاليها سافلها ...
ثم ماذا ؟ أمطر الله عليها مطرا شديدا من حجارة كبريئة ... خصصت لعذاب من
شاء من عباده ... فأهلك ما بقي فيها من آثار الحياة اهلا كما تاما ...
وتركها الله تعالى هكذا ... قرى مهلكة مقلوبة ... عبرة لمن يعتبر ...
هذه هي الواقعة العظمى ... التي وقعت بالقرب من إبراهيم ... وكان يعلمها قبل
أن تقع ...

وجادل فيها الملائكة ... وجادل فيها ربه ... يريد أن يؤخر الله عذابهم لعلمهم
يرجعون ...

« يجادلنا في قوم لوط ... يا إبراهيم أعرض عن هذا ... لقد جاء أمر ربك ...
إنهم آتيهم عذاب غير مردود !!! »

تحققت المعجزة ... وولدت سارة ؟

ثم كان ما كان من تحقق أمر الله تعالى ... وعاد الشباب إلى سارة ... وحملت سارة
بعد بأس وكبر ... وولد لإبراهيم منها غلام عليم ... وسموه « إسحاق » ...
وترعرع إسحاق ليكون قرّة عين له ولها ... ويكون بعد ذلك رسولا نبيا ...
ويكون منه ذلك الفرع المبارك المقدس ... النبي انبت تلك السلسلة الخالدة من
الأنبياء من بني إسرائيل ... حتى انتهت بالمسيح عليه السلام ...
وشب إسحاق ... وبلغ ... وتزوج زوجة جميلة ... فولدت له « يعقوب » ... ومن
يعقوب كان الأسباط ...

أى ولد يعقوب اثني عشر ولدا ... وكان منهم يوسف ...
ثم من هؤلاء الأسباط كانت قبائل بني إسرائيل ... ومنهم كان فيما بعد موسى
وهارون ... وداود وسليمان ... وأيوب ... حتى اختتم الفرع بـ زكريا ويحيى ...
وكان آخر النبوة فيه المسيح عيسى عليه السلام ...

ويشير الله تعالى إلى ذلك بقوله : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ
لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا .

[مريم ٤٩ - ٥٠]
« فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » بالمهاجرة « وهبنا له إسحاق ويعقوب » بدل
من فارقهم من أبيه وقومه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة .

المشهور أن أول ما وهب له - عليه السلام - من الأولاد اسماعيل - عليه السلام -
فبشرناه بغلام حليم - أثر دعائه بقوله « رب هب لي من الصالحين » وكان من هاجر ،

فغارت سارة ... فحملت بإسحاق - عليه السلام - فلما كبر ... ولد له يعقوب - عليه السلام - .

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعم التي اعطاها الله تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء فانهما شجرتا الأنبياء ، ولهما اولاد واحفاد أولو شأن خطير ، وذوو عدد كثير ، مع أنه سبحانه أراد أن يذكر اسماعيل - عليه السلام - بفضلته على انفراد .

« وكلا » أى وكل واحد من إسحاق ويعقوب أو منهما ومن إبراهيم - عليه السلام - « جعلنا نبيا » أى كل واحد منهم جعلنا نبيا « ووهبناهم من رحمتنا » النبوة .
وقيل : المال والولد وقيل : هو الكتاب والأظهر أنها إمامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه مما لم يؤت أحد من العالمين .

« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » يفتخرون بهم الناس ، ويشنون عليهم ، استجابة لدعوته - عليه السلام - بقوله « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » وزيادة على ذلك والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام .

ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم ، وإن محامدهم لا تخفى كأنها نار على علم ، على تباعد الأعصار ، وتبدل الدول ، وتغير الملل والنحل .
وخص بعضهم لسان الصدق ، بما يتلى فى التشهد (كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) والعموم أولى .

وقال تعالى : « ووهبنا له إسحاق ، ويعقوب ، نافلة » ، وكلاً جعلنا صالحين .
وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وكانوا لنا عابدين » .
[الأنبياء ٧٢ - ٧٣]

« وكانوا لنا عابدين » لا يخطر ببالهم غير عبادتنا . وكانوا لنا ؟! خاصة دون غيرنا ...
إنها سلالة إبراهيم ... إنها إمامة إبراهيم تتسلسل فيهم ... إنها الكلمة الباقية فى عقبه ...

انا أخلصناهم !!

وقال تعالى : « واذكُرْ عبادَنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ » .
[ص ٤٥ — ٤٧]

« واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب » وخص بعنوان العبودية لمزيد شرفه .
« أولى الأيدي والأبصار » أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين .

الأيدي : مجاز مرسل عن القوة . والأبصار : جمع بصر بمعنى بصيرة .
أو : أولى الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة . وقيل : الأيدي : النعم : أى أولى النعم
التي أسداها الله تعالى إليهم من النبوة والمكانة ،

أو : أولى النعم والاحسانات على الناس بارشادهم ، وتعليمهم إياهم .
« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ » وتنويناها للتفخيم « ذِكْرَى الدَّارِ » بيان لها . بعدا بها
للتفخيم ، أى الدار الآخرة .

وفيه اشعار بأنها الدار في الحقيقة . أى : جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة
جليلة الشأن ، لاشوب فيها ، هى تذكرهم دائما الدار الآخرة فإن خلوصهم في الطاعة بسبب
تذكرهم إياها .

وذلك لأن مطمح أنظارهم ، ومطرح أفكارهم ، فى كل ما يأتون ويذرون ، جوار
الله عز وجل ، والفوز بلاقائه ، ولا يتسنى ذلك إلا فى الآخرة .

وقيل : أخلصناهم بتوفيقهم لها ، واللفظ بهم فى اختيارها . وقيل : إن ذكرى الدار
تذكيرهم الناس الآخرة ، وترغيبهم إياهم فيها ، وتزهيدهم إياهم فيها على وجه خالص من
الحظوظ النفسانية ، كما هو شأن الأنبياء — عايهم السلام — .

وقيل : المراد بالدار الدار الدنيا . وبذكرها ، الثناء الجميل ، ولسان الصدق الذى ليس
لغيرهم أى : انا خصصناهم بالذكر الجميل فى الاعقاب أى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى

الدار .

« وانهم عندنا لمن المصطفين » أى المختارين من بين أبناء جنسهم عندنا تعالى
 « الأخيار » القاضين عليهم فى الخير ودو جمع خير مقابل شر .
 إنها سلسلة ... تتوارث النبوة ... تتوارث الاخلاص ... تتوارث الكلمة الباقية ...
 عبادنا ... ابراهيم ... واسحاق ... ويعقوب ...
 عبادنا ؟! نخصصوا لنا ... وحدنا ... عبادنا ؟! فيها ما لا يعلمه إلا الله تعالى عنهم ...
 إنهم فى قمة مقام العبودية !!!

زواج اسماعيل ١٤

والآن نعود مره أخرى إلى اسماعيل — عليه السلام — وقد تركناه قليلا .
 واستطردنا مع ابراهيم وهو يتلقى البشرى باسحاق ، ثم يتلقى البشرى باهلاك قوم لوط ، ثم
 استطردنا مع اسحاق ، حين ولد وحين ترعرع ، وحين بعث نبيا ...
 والآن نعود ثانية إلى اسماعيل — عليه السلام — وقد تركناه عند مرحلة « وشب
 الغلام » التى وردت فى ذلك الحديث الذى رواه البخارى ...
 والآن نعود إلى نفس الحديث ونصل ما لقطع منه هناك ...
 « ... فلما أدرك زَوْجُهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ ... » [البخارى]
 « زوجوه امرأة منهم » وعن ابن اسحاق : ان اسماعيل خطبها إلى ابيها فزوجها منه .
 إن اسماعيل اذن قد أدرك ... قد بلغ مبلغ الرجال ... وتاقت نفسه إلى الزواج ...
 فزوج امرأة من أولئك الذين وفدوا يساكنوهم حول زمزم ...
 وقد رغبوا جميعا فى مصاهرته ، وتنافسوا عليه ... لما يرون من امتيازهم ... وكيف لا ...
 وفيه جمال أبيه ... ونبوة أبيه ١٤

وفى رواية البخارى الأخرى : « فَبَلَغَ ابْنُهَا ، فَتَكَحَّ فِيهِمْ امْرَأَةٌ »

موت أم اسماعيل ١٤

[البخارى]

« وماتت أمُّ إسماعيلَ ... »

« وماتت أم إسماعيل » يعنى فى خلال ذلك وفى رواية عطاء بن السائب : فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر عليها السلام ، وكان عمرها تسعين سنة ، فدفنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام فى الحجر .

انقد ماتت هاجر ... بعد أن أدت دورها ... وتركت إسماعيل رجلاً ... له زوجة ..

لماذا طلق إسماعيل زوجته؟

« ... فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ، يطالع تركته .

« فلم يجد إسماعيل

« فسأل امرأته عنه

« فقالت : خرج يبتغي لنا

« ثم سألهما عن عيشهم وهيتهم

« فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق ، وشدة

« فشكت إليه

« قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئى عليه السلام ، وقولى له يُعِيرُ عَتَبَةً بِأَبِيهِ

« فلما جاء إسماعيل كآته آس شيناً

« فقال : هل جاءكم من أحد ؟

« قالت : نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك ، فأخبرته ، وسألنى كيف

عيشنا ، فأخبرته أنا فى جهد وشدة

« قال : فهل أوصاك بشىء ؟

« قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول غير عَتَبَةٍ بِأَبِيكَ

« قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك الحقيقى بأهلك

« فطلقها .. وتزوج منهم أخرى ... »

[البخارى]

« يطالع تركته » أى يتفقد حال ما تركه هناك . والتركة ، بمعنى المتروكة والمراد بها

أهله ، والمطالعة النظر فى الأمور .

« خرج يتغى لنا » أى يطلب لنا الرزق وفى رواية ابن جريج : وكان عيش اسماعيل الصيد ، يخرج فيصيد . وفى حديث أبى جهم ، : ولكن اسماعيل يرعى ماشية ، ويخرج متنكباً قوسه ، فيرمى الصيد .

« ثم سألتها عن عيشهم » وزاد فى رواية عطاء بن السائب : وقال : هل عندك من ضيافة ؟

« فقالت : نحن فى ضيق وشدة » وفى حديث أبى جهم : فقال لها : هل من منزل ؟ فقالت : لاها الله إذا . قال : فكيف عيشكم ؟ . قال : فذكرت جهدا . فقالت : أما الطعام فإل طعام ، وأما الشاء فلا نحب إلا المصر أى الشخب ، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ (الشخب : السيلان) .

« يغير عتبة بابه » هى ههنا كناية عن المرأة .

« جاءنا شيخ كذا وكذا » وفى رواية عطاء بن السائب : كالمستخف بشأنه .
« ذاك أبى » أى ذاك الذى هو أبى إبراهيم . « ونزوح منهم أخرى » أى نزوح من جرم امرأة أخرى .

* * *

إنها واقعة عظيمة من وقائع إبراهيم ... وما أكثر عظمته !
كان من دأبه أن يتردد على هاجر وابنها ... فيسافر من الشام حيث كان يقيم ، إلى وادى مكة حيث كانت هاجر تقيم ...
وقد روى أن إبراهيم كان يزور هاجر كل شهر ... ثم كان ما كان ... ونزوح اسماعيل ... وماتت هاجر ... فلم يعد هناك حاجة بإبراهيم أن يتردد كل شهر على أهله ...

وإنما كان يتردد بعد ذلك ... كلما رأى أن يطالع تركته هناك ... وفى ذات يوم سافر إبراهيم إلى وادى مكة ... وجاء منزل ابنه اسماعيل فلم يحده ... وسأل زوجته عنه فأخبرته أنه خرج يصيد كعادته ... ثم جعل يختبرها فبألها عن حالهم ... فانطلقت تسب

حالتها . وتنعى حظها ، وتندب عيشها ... فعلم ابراهيم انها امرأة كفورة بنعم ربها ... ثم تأكد له ذلك حين سألها : هل من منزل ؟

فقلت : لا !!؟

فكيف عيشكم ؟

فقلت : أما الطعام فلا طعام . وأما الشاء فلا نخلب إلا الشخب ، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ !!؟

انها امرأة كفورة ... وبلغة العصر الحاضر متشائمة ... فهي لا ترى من نعم الله شيئاً ...

كذلك المثل المشهور ... رجلان ... أحدهما شاكر أى متفائل ... والآخر كافر أى متشائم ... رأيا كوباً ممتلئاً إلى نصفه بالماء ... أما الشاكر فإنه يقول : الكوب مملئ إلى نصفه بالماء ... وأما الكافر فإنه يقول : الكوب نصفه فارغ ليس به ماء !!

فهذه المرأة لم تر من الطعام شيئاً يذكر ... فقلت : أما الطعام فلا طعام !! ولم تر من لبن الشاء شيئاً فقلت : أما الشاء فلا نخلب إلا الشخب ... ولم تر من الماء بزمزم شيئاً فقلت : وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ !!؟

حتى الماء عميت عنه حتى وصفته بالغلظ !!؟ انها امرأة كفورة ... متشائمة ... ويصور نفسيته قولها : نحن في ضيق وشدة ...

إنها لا ترى من حياتها الزوجية إلا أنها في ضيق وشدة !!!

أما اسماعيل ... ذلك الشاب الرائع ... الشجاع ... القوى ... العظيم ... الذى تستمتع بشبابه ... وجماله ... وأما تلك اللحوم التى يأتيا بها من حصيلة صيده كل يوم ... كل هذا لا تراه ... وإنما ترى الجانب الفارغ من حياتها ...

انها في ضيق وشدة !! امرأة كفورة ... لا ينبغي أن تكون زوجاً لاسماعيل ... انها على النقيض منه ... فهو الشاكر لأنعم الله ... وهى الكافرة بأنعم الله ... وعلى الفور صدر أمر لإبراهيم إلى ابنه : غير عتبة بابك ...

وأدركها اسماعيل على الفور فقال : أنتِ ذاك ... فاذهي إلى أهلك !!!
واقعة عظيمة ... من ابراهيم ... وواقعة أعظم ... من اسماعيل ...
أما ابراهيم ... فمنه عظمة بأنه اختبر المرأة ... حتى رأى باسعاع النبوة أنها ليست
أهلا لابنه ... وأنها كفورة بربها ... فأمره أن يفارقها ...
وأما من اسماعيل ... فطاعته لأبيه ... وسرعة امتثاله لأمره .. فما أن اتمت حديثها ...
حتى كان قد سرَّحها !!!
إنه اسماعيل ... لا يعصى لأبيه أمرا !!! وكيف يعصيه وهو أبوه ... فوق ما هو
رسول الله إليه ؟
أو كيف يعصيه .. وهو يعلم بما أودع الله فيه من نور النبوة ... أن ابراهيم لا ينطق
عن الهوى !

في ظلال الزوجة الشاكرة ؟

« ... فلبثَ عنهم إبراهيمُ ماشاءُ اللهُ ، ثم أتاهم بعدُ
فلم يجدوه »
« فدخلَ على امرأته ، فسألها عنه »
« فقالت : خرجَ يبتغي لنا »
« قال : كيفَ أنتم ؟ »
« وسألها عن عيشتهم ، وهَيْئَتِهِمْ »
« فقالت : نحنُ بخيرٍ ، وسعةٌ »
« وأُثنتُ على الله »
« فقالَ : ما طعامُكم ؟ »
« قالت : اللحمُ »
« قال : فما شراؤُكم ؟ »

« قالت : الماء »

« قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء »

« قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حُبٌّ ، ولو كان لهم دعا لهم فيه . »

« قال : فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاهُ »

« قال : فإذا جاء زوجك فاقري عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابيه . »

« فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحدٍ ؟ » قالت : نعم أتانا شيخ ،

حسن الهيئة

« وأثنت عليه »

« فسألني عنك ، فأخبرته »

« فسألني : كيف عيشنا ، فأخبرته أننا بخير »

« قال : فأوصالك بشيء ؟ »

« قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرُك أن تثبت عتبة بابك »

« قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة . أمرني أن أمسيكك . » [البخاري]

« نحن بخير وسعة » وفي حديث أبي جهم : نحن في خير عيش بحمد الله ، ونحن في

ابن كثير ، ولحم كثير ، وماء طيب .

« اللهم بارك لهم في اللحم والماء » وفي رواية إبراهيم بن نافع : اللهم بارك لهم في

طعامهم وشرابهم «فهما لا يخلو عليهما أحد» أي فاللحم والماء لا يعتمد عليهما أحد بغير مكة

إلا لم يوافقاه .

والغرض أن المداومة على اللحم والماء لا يوافق الا مزجة ، وينحرف المزاج عنهما ،

الا في مكة فانهما يوافقانه وهذا من جملة بركاتها ، وأثر دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وفي حديث أبي جهم : ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة الا اشتكى بطنه

يقال خلوت بالشئ واختليت به اذا لم تخلط به غيره .

« هل أتاكم من أحد ؟ » وفي رواية عطاء بن السائب : فلما جاء اسماعيل وجد ريح أبيه ، فقال لامراته : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم : شيخ أحسن الناس وجها ، وأطيب ريحا .

« ان تثبت عتبة بابك » وفي حديث أبي جهم : فإنها فلاح المنزل .
« ان امسكك » وفي حديث أبي جهم : ولقد كنت على كريمة ، ولقد ازددت على كرامة ، فولدت لاسماعيل اثني عشر رجلا وهم : نابت . قيدار . اذميل . ميثى . مسمع . ذوما . ماش . ازر . فطور . نافش . ظميا . قيدما .
وكانت له إبنة تسمى نسمة .

* * *

وهنا يتلأأ إبراهيم نورا عظيما ... لا يمكن أن يكون إلا من إبراهيم !
إنه عاد بعد مدة ... فوجد اسماعيل قد تزوج أخرى ... فقال : أين اسماعيل ؟
فقلت : ذهب يصيد ... ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟
وهنا تفترق هذه الزوجة ... عن الأخرى ... من أول لحظة ...
إن الأولى لم تدعه إلى النزول ، ولم تدعه إلى طعام ، أو شراب ... بل ذهبت توصله
الأبواب في وجهه ... أما الطعام فلا طعام ، وأما اللبن فلا شيء إلا الشخب ... كأنها
تقول له : لاضيفة ... ارجع من حيث أتيت !!!
أما هذه فتقول : ألا تنزل فتطعم وتشرب !!؟
فارق كبير جدا بين نفسية ونفسية ... هذه تصد إبراهيم صدودا ... وهذه تدعوه
وتدعوه ...

إنه الفارق بين نفس مظلمة ، كفورة ... وأخرى منيرة ، شكورة ...
فقال الشيخ : وما طعامكم ، وما شرابكم ؟
قلت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء .

قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم . وسألها عن عيشهم ، وهيئتهم .

قالت : نحن بخير ، وسعة ، وأثنت على الله ...
بل في رواية أنها قالت : نحن في خير عيش ... بحمد الله : ونحن في لبن كثير ...
ولحم كثير ، وماء طيب !!
وهنا تفرق النفسيتان افتراقا عظيما ... كما ينفلق الليل عن النهار ، إذا انشق الصباح ..
نفس العيشة ... لم يتغير شيء من حياة إسماعيل ... ومع هذا يكون تعبير هذه عن
حالتها نحن في خير عيش ، بحمد الله ، ونحن في لبن كثير ، ولحم كثير ، وماء طيب ...
بينما يكون تعبير الأخرى عن نفس المستوى ، ونفس العيش : نحن بشر ، نحن في
ضيق ، وشدة ...

أما الطعام فلا طعام ، وأما الشاء فلا نخلب إلا الشحب ، وأما الماء فعلى ما ترى
من الغلظ !!!

هذه تقول : نحن في خير عيش . والأخرى تقول : نحن بشر ، نحن في ضيق
وشدة !!! وهذه تقول : بحمد الله ... وهذه لا تذكر الله ... ولا وجود له في تفكيرها !!!
وهذه تقول : نحن في لبن كثير .

والأخرى تقول : أما اللبن فلا نخلب إلا الشخب !!! وهذه تقول : ولحم كثير
والأخرى تقول : أما الطعام فلا طعام . وهذه تقول : وماء طيب والأخرى تقول : أما
الماء فعلى ما ترى من الغلظ !!!

افتراق ... نفسيتان على النقيض ... بينهما من البعد كما بين المشرقين ... وبينهما
من الاختلاف كما بين الظلام والنور ...

هذه ترى كل شيء حسنا وكثيرا وطيبا ... والأخرى ترى كل شيء رديئا وقليلًا
وسيثا !!! وهذا كله ناشئ عن سبب واحد ...

أن هذه شكورة ... والأخرى كفورة ... أن هذه تعرف ربها وتشكره ... والأخرى
لا تعرف ربها ولا تشكره ...

وقد وضع هذا جدا ... في أن الشاكرة أثنت على الله وقالت : بحمد الله ... بينما

الأولى لم تذكر الله إطلاقاً في حديثها ... وفي أن الشكورة دعت أن ينزل ، وأن يطعم ، وأن يشرب ... بينما القديمة دفعته دفعا بسوء حديثها أن يرحل عنهم !!!

شيخ ... أحسن الناس وجها ؟

ثم كان من تعبير الشكورة حين سألتها إسماعيل : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم ، شيخ ، أحسن الناس وجها ، وأطيب ريحا !!

بينما الأخرى حين سألتها ، أجابته في استخفاف ، كأنها تمحقر من شأن ذلك الشيخ ... جاءنا شيخ كذا وكذا !!!

هذه تعظم من شأن الرجل الزائر ... وتراه أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا ... وهذه تستخف بشأنه !!!

وهذا أول الدلائل على أن هذه مؤمنة شاكرة ... وهذه كافرة ناكرة ...

أما الشاكرة المؤمنة فرأت ببصيرتها ، واحساس قلبها السليم أن هذا القادم يزورهم رجل عظيم الباطن والظاهر ... يتلأأ فيه نور النبوة ، وجلال المقام ... فسكانت تعبيرها عنه : أحسن الناس وجها ، وأطيبهم ريحا ... وعن نفس الشخصية ، وعن نفس المنظر كان تعبير الأخرى : شيخ شأنه كذا وكذا ... في استخفاف وعدم مبالاة ...

وماذا ترى هذه الكفورة من إبراهيم إلا أنه ضيف ثقيل جاء يشاركهم طعامهم القليل وابنهم النادر ؟ إنها مادية ... لا ترى من نور إبراهيم شيئا ... أما الأخرى ... ففي قلبها نور ... كشف لها من حقيقة إبراهيم ... وعظمة إبراهيم ... وجلال إبراهيم ...

هنالك ... استبان لإبراهيم أن هذه هي المرأة اللائقة بإسماعيل .

هنالك قال لها : مريه أن يثبت عتبة بابه !! نعم ... هذه هي المرأة التي عبر عنها

إبراهيم ..

فإنها فلاح المنزل ١٤

في تلك الرواية التي تروى عن ابراهيم ... « فإنها فلاح المنزل » ... هذا رأى ابراهيم في تلك المرأة ... وفي كل امرأة شاكرة ... ومن هنا أمره أن يثبت عتبة بابه ... أن يستمسك بها ... فإنها فلاح منزله ...

لماذا ؟ ... وماوجه الأهمية في هذا ؟ .

وجهه أن اسماعيل ابى ... ورسول ... فهو قمة في معرفة الله ... والشكر لله ... ونفسية كهذه عبارة عن نور يتحرك ... فهي أحوج ماتكون إلى شريكة حياة منيرة مؤمنة ... أما أن تكون الشريكة مظلمة كفورة ... فهذا شيء يتناقض ... ويؤدي إلى الشقاء ...

وابراهيم قد ذاق حلاوة معاشرة المرأة المؤمنة ... حين عاش سارة سيدة لساء زمانها ... المؤمنة ... وهو يحرص على أن ينعم ابنه اسماعيل بتلك العمة ... الكبرى ... لتتواءم شخصيته النورانية ... مع شخصية زوجه ... فيكون بينهما الخير والسعادة ... ثم هو يرى بنور النبوة أن اسماعيل مرشح من قبل الله تعالى ليكون رأس فرع مبارك ... ينتهى بنبوة عليا ... فلا بد إذا أن يصطفى له زوجة مؤمنة ... شاكرة ... مخلصه ... فكانت هذه الزوجة ... وكان لاسماعيل منها اثني عشر ولدا ... ثم كان من هؤلاء الاثني عشر ذلك الشعب العربى العظيم ... الذى انبثق عنه ذلك النبي العربى العظيم ... كما كان من اسحاق يعقوب ... وكان من يعقوب أولئك الأسباط الاثني عشر ... حيث انبثقت منهم تلك السلسلة المباركة من أنبياء بنى اسرائيل ...

اسماعيل ... يزداد حبا لزوجته ١٥

هنالك قال اسماعيل في حب واكبار لزوجته الشاكرة : ولقد كنت على كريمة ، ولقد ازددت على كرامة ...

لقد كان اسماعيل يحب زوجته الجديدة لما يرى فيها من شمائل الشكر والأيمان بالله ...

ولما كانت تشيعه في حياته من جو التفاؤل والرضى والقناعة ... فلما أن جاء والده العظيم ...
وأمره أن يثبت عتبة بابه ...
كان ذلك شهادة من أبيه ... زادته حبا لامراته، واكرامها ... لقد اجتمع لتلك المرأة
شهادتان ... شهادة زوجها ... نبي الله اسماعيل بأنها كانت عليه كريمة ...
وشهادة أبيه ... نبي الله وخليله ... بأنها فلاح المنزل ... وهاتان الشهادتان كانتا
بمثابة وسامين رفيعين ... يؤكدان طيب معدنها ... ورفعة شأنها ... فكانا بمثابة شارة
الانطلاق في حياة اسماعيل ... فانطلقا ... هو وهي ...
وكان منهما ... ذلك الشعب العظيم ... الذي انتهى بمنير البشر ... محمد ... صلى الله
تعالى عليه وسلم ...

ان الله أمرني بأمر؟

« ... ثم لبث عنهم ما شاء الله
ثم جاء بعد ذلك
« وإسماعيل يُبْرِى لَهُ نَبْلًا ، تَحْتَ دُوْحَةٍ قَرِيبَا مِنْ زَمْزَمَ
« فَلَمَّا رَأَاهُ ، قَامَ إِلَيْهِ
« فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ
« ثُمَّ قَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ
« قَالَ : قَاصِّنِعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ
« قَالَ : وَتَعِينَنِي ؟
« قَالَ : وَأَعِينُكَ
« قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَتِيَهَا هُنَا بَيْتًا
« وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا
« قَالَ : فَعِنْدَ ذَلِكَ ، رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
« فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ

« وإبراهيمُ يبنى »

« حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه »

« وهو يبنى ، وإسماعيلُ يناوله الحجارة »

« وما يقولان : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . [البخارى]

« يرى له نبلا » النبل السهم قبل أن يركب فيه نصله وريشه وهو السهم العربى .

« دوحة » هى التى نزل اسماعيل وامه تحتهما أول قدومهما . وفى رواية إبراهيم بن نافع :

من وراء زمزم « كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد » يعنى من الاعتناق والمصافحة وتقبيل اليد .

« إن الله امرنى بأمر » قيل كان عمر إبراهيم فى ذلك الوقت مائة سنة وعمر اسماعيل ثلاثين

سنة « وتعيننى » وفى روايه إبراهيم بن نافع : إن الله أمرنى أن تعيننى عليه قال : اذن افعل

« اكمة » هى الراية . « رفعا القواعد » جمع قاعدة . وفى رواية عن ابن عباس :

القواعد التى رفعها إبراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك . « جاء بهذا الحجر » اراد به

الحجر المشهور بمقام إبراهيم عليه السلام . وفى رواية إبراهيم بن نافع : حتى ارتفع البناء ،

وضعف الشيخ عن نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام « حتى يدورا » من الدوران .

وفى حديث ابى جهم : ... وجعل طوله فى السماء تسعة اذرع ، وعرضه فى الأرض يبنى

دوره ثلاثين ذراعا ، كان ذلك بذراعهم .

زاد ابو جهم : وادخل الحجرة فى البيت وكان قبل ذلك زربا لغم اسماعيل .

وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض ، ولم يجعل له سقفا ، وجعل له بابا ، وحفر له بئرا ،

عد بابه خزانة للبيت يلقى فيها ما يهدى للبيت .

أول بيت ... وضع للناس ١٤

قال تعالى : « قل صدقَ الله ، فاتبعوا ملةَ إبراهيمَ حنيفاً ، وما كانَ منَ المشركينَ .

إنَّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للناسَ للذى ببكةَ مُباركا وهُدى للعالمينَ . فيه آياتٌ بيناتٌ .

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . [آل عمران ٩٥ — ٩٧]

« قل صدق الله » أى ظهر وثبت صدقه فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم على دين
إبراهيم — عليه السلام — فاتبعوا ملة إبراهيم ، وهى دين الاسلام ، فانكم غير متبعين ملته ،
كما تزعمون .

وقيل : اتبعوا ملته ، حتى تخلصوا عن اليهودية التى اضطرتكم إلى الكذب على الله
والتشديد على أنفسكم « حنيفا » مائلا عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق . أو : مستقيما على
ما شرعه الله تعالى من الدين الحق فى حجه ونسكه ومأكله .

« وما كان من المشركين » فى أمر من أمور دينهم أصلا « إن أول بيت وضع للناس »
قيل : بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة ، لأنه مهاجر الأنبياء ،
ولأنه فى الأرض المقدسة ، فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم

فبأن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت إلى مقام إبراهيم . والمعنى إن أول بيت
وضع لعبادة الناس ربهم ، أى دىء وجعل متعبدا والواضع هو الله تعالى .

« لاذى بيكة » لغة فى مكة عند الأكثرين ثم المراد بالأولية الأولية حسب الزمان
وقيل : بحسب الشرف . ويؤيد الأول ما أخرجه الشيخان ، عن أبى ذر — رضى الله تعالى
عنه — قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع للناس . « فقال :
المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس » فقيل : كم بينهما ؟ فقال : أربعون سنة .
« مبارك » أى كثير الخير ، لما أنه يضاعف فيه ثواب العبادة .

وقيل : لأنه يغفر فيه الذنوب لمن حجه وطاف به ، واعتكف عنده . ووجه الكرماني
كونه مباركاً بأن الكعبة كالنقطة ، وصفوف المتوجهين إليها فى الصلوات كالدوائر المحيطة
بالمركز ولا شك أن فيهم اشخاصا أرواحهم علوية وقلوبهم قدسية ، وأسرارهم نورانية ،
وضمائرهم ربانية .

« ومن كان في المسجد الحرام يتصل أنوار تلك الأرواح الصافية المقدسة بنور روحه ،
فيزداد الأنوار الالهية في قلبه ، وهذا غاية البركة .

« ثم إن الأرض كرية ، وكل آن يفرض فهو صبح اقوم ، ظهر لثان ، عصر لثالث ،
وهلم جرا ، فليست الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها لأداء الفرائض فهو دائماً
كذلك » .

« وهدى للعالمين » أى هادياً لهم إلى الجنة أو : هاد إليه جل شأنه بما فيه من الآيات
العجيبة « فيه آيات بينات » ظاهرات « مقام ابراهيم » أى منها ، أو أحدها . مقام
ابراهيم .

قيل : لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة « ومن
دخله كان آمناً » بمعنى الحرم ، على ما قاله ابن عباس .. وعن الحسن : كان الرجل في الجاهلية
يقتل الرجل ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو ابوه فلا يحركه .

ويجوز ارادة العموم بأن يفسر بالامن في الدنيا والآخرة ، ولعله الظاهر من إطلاق اللفظ
« والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً » والتقدير من استطاع منهم اليه سبيلاً
فله عليه أن يحج والمراد بالاستدعاء الإرادة وهي تقتضى القدرة .

وأطلقت على قدره مطلقاً ، أو بسهولة . والقدرة إما بالبدن أو بالمال أو بهما وإلى الأول
ذهب الأمام مالك : فيجب الحج عنده على من قدر على المشى والكسب في الطريق .
والى الثانى ذهب الشافعى : ولذا أوجب الاستئابة على الزمن إذا وجد أجرة من
ينوب عنه .

والى الثالث : ذهب الإمام إمام حنيفة . وعن ابن عباس أنه قال ، السبيل أن يصح بدن
العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يحفف به .

واستدل الشافعى بما أخرجه الدارقطنى عن جابر بن عبد الله قال : « لما نزلت هذه الآية
« والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً » قام رجل فقال : يا رسول الله
ما السبيل ؟

« قال : الزاد والراحلة » .

« ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . يحتمل أن يزاد بمن كفر من لم يحج ، وعبر عن ترك الحج بالكفر تغليظا وتشديدا على تاركه كما وقع مثل ذلك .
عن أبي أمامة من قوله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يحج حجة الاسلام لم يمنعه مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو حاجة ظاهرة ، فليمت على أى حالة ، شاء يهوديا ، أو نصرانيا » .

وقيل : لما نزلت آية الحج جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الملل مشركي العرب ، والنصارى ، واليهود ، والمجوس ، والصابئين فقال إن الله تعالى قد فرض عليكم الحج فحجوا البيت .

فلم يقبله إلا المسلمون ، وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لا تؤمن به ، ولا نصلى اليه ، ولا نستقبله . فأنزل الله سبحانه (ومن كفر) الخ .

وإلى إبقائه على ظاهره ذهب ابن عباس ، قال فى الآية : (ومن كفر) بالحج فلم يرجعه برأ ولا تركه مأثما .

وروى ابن جرير أن الآية لما نزلت قام رجل من هذيل فقال : يا رسول الله من تركه كفر ؟

« قال : من تركه لا يخاف عقوبته ، ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك . »

« غنى عن العالمين » تأكيد الايدان بأن ذلك هو الإيمان على الحقيقة ، وهو النعمة العظيمة . وأن مباشره مستأهل لأن الله تعالى بجلالته ، وعظمته يرضى عنه رضا كاملا ، كما كان ساخطا على تاركه سخطا عظيما .

واستأنس بعضهم لكونه عبادة عظيمة بأنه من الشرائع القديمة .

اختيار مكان البيت ١٢

قال تعالى : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ، والمسجد الحرام ، الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب

أليم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرِكْ بي شيئاً ، وطهرت بيتي للطائفين ،
والقائمين ، والرُّكع السُّجودِ » [الحج ٢٥ - ٢٦]

« إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام » وعيد لصنف
من الكفرة .

روى أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأصحابه رضى الله تعالى عنهم عام الحديبية عن المسجد الحرام . « الذي جعلناه للناس
كائناً من كان من غير فرق بين مكى وآفاقى .

« سواء العا كنف فيه والباد » أى المقيم فيه والطارىء ، فإن الإقامة لا تكون فى
نفسه بل فى منازل مكة . أى جعلناه مباحاً للناس أو معبداً لهم « ومن يرد فيه . » ومن يرد
فيه شيئاً ما ، أو مراداً ما . « بالحاد » عدول عن القصد ، أى الاستقامة المعنوية . « بظلم »
بغير حق أى ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام .

فيشمل سائر الآثام لأن حاصل معناه الميل عن الحق إلى الباطل ، وهو محقق فى
جميع الآثام . « نذقه من عذاب أليم » الوعيد على إرادة ذلك مطلقاً ، فيفيد أن من أراد
سيئة فى مكة ولم يعملها يحاسب على مجرد الإرادة
ولذلك قيل : تضاعف السيئات بمكة ، كما تضاعف الحسنات . والظاهر أن هذه
الاذاقة فى الآخرة . وأما المسجد الحرام فيطلق على الحرم كله عند عطاء . فيكون
حده ما ذكر .

عن أبى هريرة : إنا لنجد فى كتاب الله تعالى أن حد المسجد الحرام إلى آخر المسعى .
« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » اذكر هؤلاء الكفرة الذين يصدون عن سبيل الله
تعالى والمسجد الحرام ، وقت جعلنا مكان البيت مباءة لجدم إبراهيم — عليه السلام —
أى مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة ، . ويقال بوأه منزلاً ، إذا أنزله فيه ولما لزمه .
وقال الزجاج : المعنى يئنا له مكان البيت لينيه ، ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون
إليه ويحجونه . وأراد بالبيت بيت الله عز وجل الكعبة المكرمة .

« ان لا تشرك بى شيئاً » باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : أمرنا إبراهيم — عليه السلام — بالعبادة . والظاهر أن الخطاب لإبراهيم — عليه السلام — .
« وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » . أى وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى عنده . والمراد بالمطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية .
ويجوز أن يكون (القائمين) بمعنى المقيمين و(الطائفين) بمعنى الطارئين فيكون المراد بالركع السجود فقط المصلين .

* * *

ومن ذلك يتضح أن الله تعالى هو الذى بوأ لإبراهيم مكان البيت ... وأنه تعالى هو الذى بينه له ...
وأن هذا المكان الذى تقوم فيه الكعبة إلى يومنا هذا مكان حدده الله تعالى لإبراهيم ... وهذا واضح كذلك من قول إبراهيم لإبنيه إسماعيل وهو يحاوره فى أمر البيت :
« فإن الله أمرنى أن أبني هاهنا بيتاً » ...
« وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها » ... إذن المكان محدد ... ومختار ... الله حدده لإبراهيم واختاره ...

وأذن فى الناس بالحج ١٤

قال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقرضوا نقضهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور . »
[الحج ٢٧ — ٣٠]

« وأذن فى الناس » أى ناد فيهم . « بالحج » بدعوة الحج والأمر به ويصح عندي ،
المعنى : وأمر الناس بالحج يأتوك من كل فج عميق .

« يَأْتُولُكَ » يَأْتُوا يَتَوَكَّلُ . « رجالا » أى مشاة . جمع راجل . « وعلى كُلِّ صَامِرٍ »
وركبانا . على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة ، فهزله ، أوزاد هزاله .
وعدل عن ركبانا الأخصر للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة . « يَأْتِينَ »
صفة لضمير ، كأنه قيل وركبانا على ضوامر يأتين . وقرئ : يأتون . أى الحجاج .
« من كل فج » أى طريق « عميق » بعيد . « ليشهدوا » متعلق بيأتولك . « منافع » عظيمة
الخطر ، كثيرة العدد . فتسكيرها وإن لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير .
ويجوز أن يكون للتنويع أى نوعا من المنافع الدينية والدينية .
قيل : منافع فى الدنيا ، ومنافع فى الآخرة . فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ،
وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبايح والتجارات .
وخص مجاهد : منافع الدنيا بالتجارة ، فهى جائزة للحاج من غير كراهة . « لهم »
أى منافع كائنة لهم . « ويذكروا اسم الله » عند النحر . « فى أيام معلومات » أى
مخصوصات وهى أيام النحر .
وعدها ثلاثة أيام ، يوم العيد ، ويومان بعده عند الحنفية . « على مارزقهم من بهيمة
الأنعام » الذكر على بهيمة الأنعام أو مطلقا .
وذكر أنه دل بذلك على المقصود الأصلي من النحر وما يميزه من العادات . وأودأ فيه
إلى أن الأعمال الحسنة كلها شرعت للذكر .
وأنه قيل (على مارزقهم) إلى آخره تشويقا فى التقرب بهيمة الأنعام المراد بها الإبل
والبق والضأن والمعز إلى الرزق وتهوينا عليهم فى الأنفاق .
وقيل : المعلومات عشر ذى الحجة . « فكلوا منها » . فاذكروا اسم الله تعالى على
ضمائكم فكلوا من لحومها . والأمر للإباحة . أو : للندب ، على مواساة الفقراء ، ومساواتهم
فى الأكل منها .
« وأطعموا البائس » أى الذى أصابه بؤس أى شدة . وفسر بالذى يمد كفيه إلى
الناس يسأل . « الفقير » أى المحتاج .

وقيل : لا تحديد فيها يؤكل أو يطعم ، لاطلاق الآية . « ثم ليقتضوا تفهم » في الأصل
الوسخ والقذر . ثم ليؤدوا نسكهم ، ثم ليزيلوا وسخهم ، بتقليم الأظفار والأخذ من الشوارب
والمراضين ، ونتف الإبط ، وحلق الرأس ، والعانة .

« وليطوفوا » طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ، وبه
تمام التحلل ، فإنه قرينة قضاء التفث بالمعنى السابق .

« بالبيت العتيق » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما سمي الله البيت العتيق لأنه
أعتقه من الجبابرة ، فلم يظهر عليه جبار قط . وقيل : القديم ، فإنه أول بيت وضع للناس .
« ذلك » أى الأمر ، وهذا للفصل بين الكلامين . « ومن يعظم حرمات الله » وهو
ما يحترم شرعا .

المراد بها جميع التكليفات من مناسك الحج وغيرها . جميع المناهى فى الحج فسوق وجدال
وبخاع وصيد . وتعظيمها أن لا يحوم حولها . « فهو » أى فالتعظيم « خيره » من غيره
« عند ربه » يثاب عليه يوم القيامة .

« وأعطت لكم الأنعام » أى ذبحها وأكلها والمراد بها الأزواج الثمانية على الاطلاق
« إلا ما يتلى عليكم » إلا ما يتلى عليكم آية تحريره كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى ،
« فاجتنبوا الرجس » أى القذر « من الأوثان » أى الذى هو الأوثان على أن من
بيانية . يعنى بالرجس عبادة الأوثان .

فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو العبادة لأن المحرم منها إنما هو العبادة « واجتنبوا
قول الزور » فان عبادة الأوثان رأس الزور ، لما فيها من ادعاء الاستحقاق ، والمراد من
الزور مطلق الكذب . وهو من الزور بمعنى الانحراف فان الكذب منحرف
عن الواقع .

وقيل : هو أمر باجتناب شهادة الزور . يعنى بقول الزور : الشرك بالكلام وذلك
أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويقولون فى تلبيةهم لبيك لأشريك لك إلا شريكا هو لك ،
فلكما وما لك ، وهو قول بالتخصيص .

وأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ !
أمر من الله إلى إبراهيم ... أن يدعو الناس جميعاً إلى الحج ... أن يقصدوا بيت الله
تعالى الذى بناه ...

لماذا ؟ ... ايشهدوا منافع لهم ... واذكروا اسم الله فى أيام معلومات ...
انه دعوة للناس ... ليجتمعوا بالبيت ... فيكون من اجتماعهم هذا ، ولقاؤهم هذا ،
منافع عظيمة لهم فى الدنيا بالتعارف والتقارب وبحث ما يصلح شئونهم ، ومنافع أخروية
كبيرة بتعرضهم لرحمة الله تعالى ومغفرته ...
ثم تكون فرصة طيبة يذكرون الله تعالى فيها فى أيام معلومات ...
وهكذا ... شرع الله الحج ، وأمر إبراهيم بأذاعة ذلك على الناس ... ووعدته أن
كثيراً من الناس سوف يستجيبون لدائه ... يأتوك رجلاً ... وعلى كل ضامر ... أتين
من كل فج عميق ... من كل مكان بعيد ...

حنفاء لله ١٥

قال تعالى « حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ
فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهَوَّىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . » [الحج ٣١]
« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء » شبه الإيمان بالسماء لعلوه ، والاشراك
بالسقوط منها ، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر .
وهذا السقوط إن كان فى حق المرتد فظاهر ، وهو فى حق غيره باعتبار الفطرة ،
وجعل التمسك والقوة بمنزلة الفعل .

« فتخطفه الطير » فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وفى ذلك تشبيه الأفكار
الموزعة بخطف جوارح الطير ، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة . « أوتهوى به الريح »
تسقطه ، وتقذفه . « فى مكان سحيق » بعيد . فإن الشيطان قد طوح به فى الضلالة .
قيل : إن الكافر قسمان لاغير . مذبذب ، متمادي على الشك ، وعدم التصميم على

ضلالة واحدة . وهذا مشبه بمن اختطفته الطير ، وتوزعته ، فلا يستولى طائر على قطعة منه إلا انتهبها منه آخر وتلك حال المذبذب ، لا يلوح له خيال إلا أتبعه ، وترك ما كان عليه . ومشارك مصمم على معتقد باطل ولو نشر بالمناشير لم يكع ، ولم يرجع ، لا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطمع في نقله عما هو عليه فهو فرح ، مبتهج بضلالاته .

وهذا مشبه في قراره على الكفر باستقرار من هوت به الريح إلى وادٍ سافل هو أبعد الأحياء عن السماء فاستقر فيه .

حنفاء لله ؟ ! أى مائلين عن كل معتقد باطل ... متجهين لله وحده... وهذا هو صلب دعوة إبراهيم ... وشرعته ... ودعوة كل رسول وشرعته ... كأن الحج كله تذكير بملة إبراهيم ... التى هى التوجه المباشر لله وحده ... والميل عما سواه ... والبعد عن اشراك غيره معه سبحانه ...

طهرا بيتى ١٢

قال تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ، وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُحَلِّيًّا ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ . وَالْمَاكِفِينَ ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » [البقرة ١٢٥]

« وإذ جعلنا البيت » البيت من الأعلام العالمة للكعبة « مثابة للناس » مجعاً لهم ، أو معاذاً ، أو ملجأ ، أو مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم ، أو : موضع ثواب يثابون بحجه وأعماله .

« وأمن » موضع أمن . إما لسكانه من الخطى أو لحجاجة من العذاب . حيث أن الحج يزىل ويمحو ما قبله من حقوق العباد والحقوق المالية على الصحيح . أو : للجاني المتعجب . إليه من القتل ولم يذكر للناس هنا كما ذكر من قبل اكتفاء به ، أو إشارة إلى العموم .

أهم أنه أمن لتشكل من كائنات ما كان في خفى الطير ، والوحش ، إلا الخمس الفواسق ،

« واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » وقلنا لهم اتخذوا والمأمور به الناس ، أو إبراهيم —
عليه السلام — وأولاده .

وقيل الخطاب لأمة محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو رأس الخطابين . والمقام هو
المكان ، أى مكان قيامه ، وهو الحجر الذى ارتفع عليه إبراهيم — عليه السلام — حين
ضعف من رفع الحجرة التى كان ولده اسماعيل يناوله إياها فى بناء البيت . وهو قول
جمهور المفسرين .

وسبب النزول ما أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عمر : « أن النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم أخذ بيد عمر — رضى الله تعالى عنه — فقال : يا عمر ، هذا مقام إبراهيم ،
فقال عمر : أفلا تتخذة مصلى ؟ ، فقال : لم أؤمر بذلك . فلم تغب الشمس حتى نزلت هذه
الآية » .

والأمر فيها للاستحباب ، إذ المتبادر من المصلى موضع الصلاة مطلقا .

وقيل المراد به الأمر بركعتى الطواف لما أخرجه مسلم عن جابر « أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ، وقرأ الآية . »
« وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل » أى وصينا ، وأمرنا ، أو أوحينا ، أو قلنا . وإسماعيل
علم أعجمى معناه بالعربية مطيع الله .

« أن تطهرا بيتى » المراد من التطهير التنظيف من كل مالا يليق . فيدخل فيه الأوثان
والأنجاس وجميع الخبائث وما يمنع منه شرعا كالحائض .
« للطائفين » أى لأجلهم : والمراد كل من يطوف من حاضر وباد . وقيل : المراد الغرباء
الوافدون مكة حجاجا وزوارا .

« والعاكفين » هم أهل البلد الحرام المقيمون عنده وقيل : هم الجالسون من غير
طواف من بلدى وغريب . وقال مجاهد : المجاورون له من الغرباء .
وقيل : هم المعتكفون فيه . « والركع السجود » وهم المصلون . جمع راكع وساجد .

فما هذا ؟! هذا بيان الناس ...

البيت ... هذا الذى شاده ابراهيم بيديه ، وأعانه عليه اسماعيل ...
 هذا الذى عين مكانه رب العالمين ... وأمر ابراهيم واسماعيل ... أن يبنياه ...
 وحدهما ... لا يشركا معهما أحدا من الناس ... ليكون خالصا لله وحده ... لم يشترك فى
 بنائه غير أخلص اثنين لله تعالى فى الأرض ... ابراهيم ... وابنه ...
 هذا البيت ... هذا الحرم المكى ... جعله الله للناس مثابة ... مجمعا ... وأما ...
 يجتمعون فيه وهم آمنون ... ويفقدون اليه وهم آمنون ...
 قطعة من الأرض جعلها الله سلاما للعالمين ... حتى الطير ... حتى الحيوان ... جعله
 الله آمنا فيه ... ليتحقق السلام ... والأمن ... لجميع المخلوقات على وجه الأرض ... وهذا
 المكان ... الذى وقف فيه ابراهيم ... بينى البيت ، واسماعيل يناوله الحجارة ...
 هذا المكان ... ينبغى أن تخلد ذكره .. ينبغى أن يتخذ الناس مصلى ... واتخذوا
 من مقام ابراهيم مصلى ... ليذكروا جميعا ... أن ابراهيم إمامهم ... وقف فيه يبنى لله أول
 بيت وضع للناس فى الأرض ...
 وليذكروا جميعا أن ابراهيم إمامهم جميعا .. إلى جاعلك للناس إماما ...
 إمامهم لأنه إمام الحنيفية .. قائد فكرة التوجه المباشر إلى الله ... والميل عن كل
 شيء سواه ...

اجعل هذا بلدا آمنا ؟!

ثم يقول تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ
 الثَّمَرَاتِ ، مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » قَالَ : « وَمَنْ كَفَرَ » فَأَمَّتُهُ قَلِيلًا ، ثُمَّ
 اضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ، وَبَلَّغَ الْمَصِيرَ . » [البقرة ١٢٦]
 « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا » الإشارة إلى الوادئ المذكور بقوله
 تعالى : (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) .

أى : اجعل هذا المسكان القفر ، بلدا كاملا فى الأمن ، معلوم الاتصاف بالأمن ، مشهورا به . « وازدق أهله من الثمرات » أى من أنواعها . بأن تجعل قريبا منه قرى يحصل فيها ذلك ، أوتجىء اليه من الأقطار الشاسعة .

وقد حصل كلاهما . حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية ، والصيفية ، والخريفية ، فى يوم واحد !!

« من آمن منهم بالله واليوم الآخر » اقتصر بذكر المبدأ والمعاد لتضمن الإيمان بهما الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به .

« قال » أى الله تعالى « ومن كفر » أى وأرزق من كفر أيضا . وكأن إبراهيم — عليه السلام — قاس الرزق على الأمانة فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية لا تخص المؤمن بخلاف الامامة .

« فامتعه قليلا » أى زمانا قليلا . « ثم أضطره إلى عذاب النار » أى أن العذاب وأقامه وقوعا محققا حتى كأنه مرتبط به . « وبئس المصير » أى وبئس المصير النار . أو : وبئس الصيرورة صيرورته إلى النار .

اذن تحریم مكة ... كان إستجابة لدعاء إبراهيم « رب اجعل هذا بادا آمنا » ... فاستجاب الله لدعائه ... وأجعلها بلدا آمنا غاية الأمن ... وفرض أن تكون كذلك إلى يوم القيامة ..

وقد وقف محمد صلى الله عليه وسلم يعلن ذلك فى حجة الوداع ... وسيأتى تفصيله ...

ربنا ... تقبل منا ١٤

ثم يقول تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ، وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . » [البقرة ١٢٧]

« وإذ يرفع إبراهيم » أثر صيغة المضارع مع أن القصة ماضية استحضارا لهذا الأمر ، ليفتدى الناس به فى اتیان الطاعات الشاقة ، مع الإبهال فى قبولها . وليعلموا عظمة البيت المنى فيعظموه .

« القواعد من البيت » جمع قاعدة وهى الأساس وقيل : المراد بناؤها نفسها
« وإسماعيل » وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة . وقيل : كانا بينيان فى طرفين أو : على
التناوب .

« ربنا تقبل منا » أى يقولان : ربنا والمراد من التقبل الرضا فقط دون الإثابة
وايس الإثابة مما يخطر لهم ببال !!

« إنك أنت السميع العليم » السميع لدعائنا ، والعليم بنياتنا .
صورة عظيمة ... عظيمة ... ينبغي أن يستحضرها كل مؤمن وهو يعمل
لله ... او يتجه إلى الله ...

شيخ مجوز ... وابن شاب قوى ... رجلان ... اثنان ... لا ثالث لهما ... بينيان
السكبة وحدها ... ومع ما فى ذلك العمل من مجهود شاق ... وتعب ... وارهاق ...
فانهما يتوجهان فى وجل ... وخوف ... إلى الله ... ويرددان : ربنا ... تقبل منا ...
ثم يرددان : إنك ... أنت السميع ... العليم ...

كلمات تتموج من أفواههما الشريفة ... بل من قلوبهما السليمة ... على أعلى ما يكون
التصعيد ... والتوجه ... وإرادة الله ... وحده لا شريك له ...
فهل تقبل الله منهما ؟! نعم ... نعم ... ثم نعم ... نعم ...

وأى بيت فى الأرض أعظم عند الله إلى يوم القيامة من هذا البيت الذى بينيان ؟!
أو أى بيت يرجى فيه قبول الدعاء والتوجه إلى الله من هذا الذى يدعوان ؟!
لقد قبل الله منكما ... يا إبراهيم .. يا إسماعيل .. لأن قلوبكما كانت وانما تتجهان إليه ..
خالصة له وحده ...

فهذا خليله يدعوه ... وذاك ابن خليله ونبيه يرجوه !!
إن القلب السليم ... قلب إبراهيم يتجه إلى ربه ... إذ جاء ربه بقلب سليم ... وإن
القلب السليم ... قاب إسماعيل ... الذى قدم نفسه من قبل راضيا ليذبح لله ... يتجه
إلى ربه ...

انها لحظة نور الشق من الأرض إلى السماء ... فانشقت له السماوات ... وانزاحت ...
لترفعه إلى ربها ... لقد تقبل منك ربك ... يا ابراهيم ... يا خليله ... يا أسلم قلب على
أرضه ... يا صفوة من خلقه ...
ولقد تقبل الله منك ... يا إسماعيل ... يا ذبيحه ... يا صادق الوعد ... يا صاحب
مقام « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .
وهكذا ... يفعل الاخلاص ما يشاء ... ويرفع الحجب بين العبدوين ربه ... ويجعل
له ما يشاء ...

واجعلنا .. مسلمين .. لك ؟

ثم يقول تعالى : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا
مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم » [البقرة ١٢٨]
« ربنا واجعلنا مسلمين لك » أى منقادين ، قائمين بشرائع الاسلام أو : مخلصين ،
موحدين لك فمسلمين امان استسلم إذا انقاد أو : من أسلم وجهه ، إذا أخلص نفسه ،
أوقصده .

« ومن ذريتنا » واجعل من ذريتنا « أمة مسلمة لك » والمراد من الأمة الجماعة او الجيل
وخصها بعضهم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

« وأرنا مناسكنا » معالم الحج وقيل : مواضع الذبح وقيل : أعمالنا التي نعملها
إذا حججنا .

والنسك غاية العبادة ثم شاع في الحج لما فيه من الكلفة غالبا ، والبعد عن العادة « وتب
علينا » أى وفقنا للتوبة أو اقبلها منا .

والتوبة تختلف باختلاف التائبين فتوبة سائر المسلمين الندم والعزم على عدم العود ورد
المظالم إذا أمكن ونية الرد إذا لم يمكن .

وتوبة الخواص : الرجوع عن المكروهات من خواطر سوء ، والفتور في الاعمال ،

والاثنين بالعبادة على غير وجه الكمال. وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات ، والترقى في المقامات .

فإن كان ابراهيم واسماعيل — عليهما السلام — طلبا التوبة لأنفسهما خاصة . فالمراد ما هو من توبة القسم الأخير .

وإن كان الضمير شاملا لهما وللذرية كان الدعاء بها منصرفا لمن هو أهلها ممن يصح صدور الذنب الخل بمرتبة النبوة منه « إنك أنت التواب الرحيم » تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للاجابة .

واجعلنا ؟ ! انهما يرجوان الله تعالى ... مسلمين ؟ ! كاملي الاستسلام ... كاملي الانقياد ... في القمة من الإسلام ...

لك ؟ ! لك وحدك ... نسلم أنفسنا لك أنت وحدك ...

إنه لمقام عظيم ... مقام ابراهيم ... من هنا ... يكون المرتقى ... إلى الله ...
وان قوله تعالى : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ... ايرمز إلى ذلك المعنى الرفيع
أى أسلموا كما أسلم ابراهيم لى ... واتخذوا كما اتخذ لى ... واتجهوا إلى كما اتجه إلى
مباشرة ... وميلوا عن كل شيء ... واستقيموا إلى ... أنا ... وحدى ...

إذا تم لكم الارتقاء إلى ذلك المقام ... مقام ابراهيم ... استطعتم أن ترتفعوا إلى
بدعائكم ... وصلاتكم ... وكان دعاؤكم واصلًا إلى ... وصلاتكم صاعدة إلى ...
وهكذا ... اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ... إذا ارتفعت إلى مقامه ... فصلوا لى ،
وادعوني ... استجب لكم ... ومن أجل ذلك جعلناه للناس إماما ...
لأن طريقته هى المثلى ... وهى التى تمكنكم من الاتصال بنا اتصالا سليما ..

وابعث فيهم رسولا ؟ !

ثم يقول تعالى : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم
الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » [البقرة ١٢٩]

« ربنا وابعث فيهم » أى أرسل في الأمة المسلمة . «رسولا منهم» أى من أنفسهم ولم يبعث من ذرية كليهما سوى محمد صلى الله عليه وسلم . وجميع أنبياء بنى اسرائيل من ذرية ابراهيم — عليه الصلاة والسلام —

روى الإمام أحمد ، وشارح السنة ، عن العرياض ، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « سأخبركم بأول أمرى ، أنا دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى » .

(وفى الأثر) أنه لما دعا إبراهيم قيل له : قد استجيب لك ، وهو يكون فى آخر الزمان « يتلوا عليهم آياتك » يقرأ عليهم ما يوحى اليه من العلامات الدالة على التوحيد والنبوة وغيرها .

وقيل : خبر من مضى ومن يأتى إلى يوم القيامة . « ويعلمهم الكتاب » بأن يفهمهم ألفاظه ويبين لهم كيفية أدائه ، ويوقفهم على حقائقه وأسراره .

والظاهر أن مقصودهما من هذه الدعوة أن يكون الرسول صاحب كتاب يخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . وقد أجاب سبحانه هذه الدعوة بالقرآن « والحكمة » أى وضع الأشياء مواضعها .

أو : ما يزيل من القلوب وهج حب الدنيا ، أو الفقه فى الدين ، أو السنة المبينة للكتاب ، أو الكتاب نفسه .

وقيل : المراد بها حقائق الكتاب ودقائقه ، وسائر ما أودع فيه . ويكون تعليم الكتاب عبارة عن تفهيم ألفاظه ، وبيان كيفية أدائه . وتعليم الحكمة الايقاف على ما أودع فيه . وفسرها بعضهم بما تكمل به النفوس من المعارف والأحكام فتشمل الحكمة النظرية والعملية .

أى يعلمهم التطبيق ، كيف يطبقون ما فى الكتاب فى حياتهم العملية . « ويزكيهم » أى يطهرهم من أرجاس الشرك ، وأنجاس الشك ، وقاذورات المعاصى . . وهو إشارة إلى التخلية .

« إنك أنت العزيز الحكيم » أى الغالب المحكم لما يريد .

وهكذا ... كان محمد ...

صلى الله عليه وسلم ... هو استجابة دعوة أبويه إبراهيم ... وإسماعيل ... عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ...

فجاء وقرأ عليهم آياته ... وعلمهم الكتاب ... والخسكة ... وزكاهم ... كما طلب إبراهيم وإسماعيل ... وأكثر مما طلبا ...

فمكّن خاتم النبيين ... وسيد البشر ... وإمام المرسلين ... وصاحب أكبر رسالة ... وأعظم كتاب ... واشتمل منهج ... وأوضح سنة ... وترك من ورائه خير أمة أخرجت للناس ... صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ...

إبراهيم ... يطلب تحريم مكة ؟

قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ، واجنّبني وبني أن نعبد الأصنام . ربّ إنهنّ أضللنّ كثيراً من الناس ، فمن تبعني فأإنه مني ، ومن عصاني فأإنك غفورٌ رحيمٌ » [إبراهيم ٣٥ - ٣٦]

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » اذكر ذلك الوقت « رب اجعل هذا البلد » يعني مكة ، شرفها الله تعالى « آمناً » ذا أمن .

والمستول أولاً صلوحه للسكنى ، بأن يؤمن فيه أهله في أكبر الاحوال على المستمر في البلاد .

وقيل : ان المراد منها تأكيد ماسلف من تعجيبه صلى الله عليه وسلم ببيان فن آخر من جنایات القوم حيث كفروا بالنعمة الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعمة العامة وعصوا أباهم إبراهيم - عليه السلام - حيث أسكنهم مكة لاقامة الصلاة ، والاجتناب عن عبادة الأصنام ، والشكر لنعمة الله تعالى ، وسأله أن يجعله بلداً آمناً ، ويرزقهم من الثمرات ، ويهوى قلوب الناس إليهم ، فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء ، فكفروا بتلك النعمة العظام ، واستبدلوا داز البوار بالبلد الحرام ، وجعلوا لله تعالى أنداداً ، وفعلوا ما فعلوا من القبائح الجسام .

« واجتنبى وبنى » أى بعدنى وإياهم « أن نعبد الأصنام » أى عن عبادتها أى ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد ، وملة الاسلام . والبعد عن عباده الأصنام .
والصوفية يقولون : الشرك نوعان ظاهر ، وهو الذى يقول به المشركون وخفى ، وهو تعلق القلب بالوسائط ، والاسباب الظاهرة والتوحيد المحض قطع النظر عما سوى الله تعالى فيحتمل أن يكون مراده — عليه السلام — من هذا الدعاء العصمة عن هذا الشرك . ولا شك أن دعوته — عليه السلام — مجابة فيهم . أو بان دعاءه استجيب فى بعض دون بعض .

« رب انهن » أى الاصنام « أضلن كثيرا من الناس » أى تسببن له فى الضلال « فمن تبعنى » منهم فيما أدعو اليه من التوحيد وملة الاسلام « ومن عصانى » أى لم يتبعنى « فانك غفور رحيم » أى قادر على أن تغفر له وترحمه ومن عصانى فلا أدعو عليه ... فانك الخ .

وهكذا طلب ابراهيم تحريم مكة ... فخرمها الله تعالى إلى يوم القيامة !!!
ثم ماذا ؟ ... ثم يسترسل ابراهيم فى دعائه ...

عند بيتك المحرم ١٢

قال تعالى : « ربنا إني أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرعٍ عندَ بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلمهم يشكرون . ربنا إني أعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل ، وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا و تقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى ، وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . [ابراهيم ٣٧ — ٤١]

« ربنا » كثر النداء رغبة فى الاجابة والالتجاء اليه تعالى « من ذريتى » بعض ذريتى والمراد بالمسكن اسماعيل — عليه السلام — ومن سيولده . فان اسكانه حيث كان على

وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم . « بواد غير ذى زرع » وهى وادى مكة شرفها الله تعالى ، والمعنى ليس صالحا للزراع .

« عند بيتك المحرم » معنى كون البيت محرما أن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به « ربنا ليقموا الصلاة » أى لأن يقيموا أى ما اسكنتهم بهذا الوادى الخالى من كل مرتفق ومرزق إلا ليقموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك ، بما تعمروا به مساجدك ومتعبداتك ،

متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع متعبدين بجوارك الكريم ، متقربين إليك بالعباد عند بيتك ، والطواف به مستزائين رحمتك التى آثرت بها سكان حرمك .
« فاجعل افئدة من الناس » أى افئدة من إفتدتهم « تهوى إليهم » تسرع إليهم شوقا وودادا وقيل : هذا دعاء بتوجيه القلوب إلى البيت .

والافئدة جمع فؤاد ، وفسروه بالقلب ، لكن يقال له فؤاد اذا اعتبر فيه معنى التفؤد أى الترقد أى قلوبا تتوقد شوقا إليه « وارزقهم » أى ذريتي الذى اسكنتهم هناك .

وجوز أن يريد هم والذين ينحازون اليهم من الناس . « من الثمرات » من أنواعها بأن تجبى إليهم من الأقطار الشاسعة . وقد يصل كلا الأمرين حتى إنه يجتمع في مكة المكرمة ابوا كبير ، والفواكه المختلفة الازمان من الربيعية ، والصيفية ، والخريفية في يوم واحد !
« اعلمهم يشكرون » تلك النعمة ، بإقامة الصلاة ، وإداء سائر مراسم العبودية . واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هى ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات . « ربنا إلك تعلم ما نخفى وما نعلن » من الحاجات وغيرها .

وقيل : ما نخفى من حب اسماعيل وأمه ، وما نعلن لسارة من الجفاء عليهما . وقيل : ما نخفى من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة ، وما نعلن من البكاء والدعاء . وقيل : ما نخفى من كآبة الإفتراق ، وما نعلن مما جرى بيننا وبين هاجر عند الوداع من قولها : إلى من تكلنا ؟ وقولها : إلى الله تعالى .

أى تعلم سرنا كما تعلم علننا والمقصود من خوى كلامه — عليه السلام — ان اظهر

هذه الحاجات وما هو من مبادئها وتتماتها ليس لسكونها غير معلومة لك بل إنما هو لاظهار العبودية والتخضع لعظمتك ، والتذلل لعزتك ، وعرض الافتقار لما عندك ، والاستعجال لنيل أياديك .

وقيل : أراد عليه السلام : إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا بنا من أنفسنا ، فلاحاجة لنا إلى الطلب ، لكن ندعوك لأظهار العبودية إلى آخره .

وقد أشاروا إلى أن ظهور الحال يغني عن السؤال بقولهم :

ويعني الشكوى إلى الناس اني عليل ومن أشكو إليه عليل

ويعني الشكوى إلى الله انه عليم بما أشكوه قبل أقول

لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن ، بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه — عليه السلام — بقوله على وجه الاعتراض .

« وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » لما أن علمه تعالى ذاتي ، فلا

يتفاوت بالنسبة اليه معلوم دون معلوم .

« الحمد لله الذي وهب لي على الكبر » أي مع كبر سني ويأسى عن الولد والتقيد بذلك

استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها .

« اسماعيل واسحاق » روى انه وهب له اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وذهب

له اسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة « إن ربي » ومالك أمرى « لسميع الدعاء »

أي لجيبه . فالسمع بمعنى القبول والاجابة مجاز كما في سمع الله لمن حمده .

يتوسل اليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه ، كأنه عليه السلام يقول : اللهم

استجبت دعائي في حق ذريتي في هذا المقام ، فانك لم تزل سميع الدعاء ، وقد دعوتك على

الكبر أن تهب لي ولدا فأجبت دعائي ووهبت لي اسماعيل واسحاق .

« رب اجعلني مقيم الصلاة » وأراد بهذا الدعاء الديمومة على ذلك . أي مواظبا عليها ،

« ومن ذريتي » للاشعار بانه المقتدى في ذلك ، وذريته أتباع له ، فإن ذكرهم بطريق

الاستطراد .

وإنما خص — عليه السلام — هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهته تعالى أن بعضاً منهم لا يكون مقبلاً للصلاة ، بأن يكون كافراً ، أو مؤمناً لا يصلي .

« ربنا وتقبل دعاء » ظاهره دعائي وقيل : الدعاء بمعنى العبادة أى تقبل عبادتى « ربنا اغفرلى » أى ما فرط منى مما أعده ذنباً .

« ولوالدى » أى لأبى وأبى وكانت أمه — على ماروى — مؤمنة فلا إشكال فى الاستغفار لها .

وأما استغفاره لأبيه فقد قيل فى الاعتذار عنه : انه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه ، والله تعالى قد جلى ما قاله — عليه السلام — فى أحايين مختلفة .

وفى قراءة : ولولدى ، يعنى بهما إسماعيل وإسحاق . ويكون قد دعا — عليه السلام — لذريته « والمؤمنين » كافة من ذريته وغيرهم « يوم يقوم الحساب » أى ثبت ويتحقق .

ابراهيم... يحدد حدود الحرم ؟!

« عن ابن عباس : ان جبريل — عليه الصلاة والسلام — ارى ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — موضع انصاب الحرم ، فنصبها .

« ثم جددها إسماعيل — عليه الصلاة والسلام — ثم جددها قصي بن كلاب .. ثم جددها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

« فلما ولى عمر — رضى الله تعالى عنه — بعث اربعة من قريش ، فنصبوا انصاب الحرم » . قالوا : « وحرم مكة هو ما احاطها من جوانبها .

« جعل الله حكمه فى الحرمه تشريفاً لها . وحده من المدينة على ثلاثة أميال . ومن اليمن والعراق على سبعة .

« ومن الجدة على عشرة » .

ودكذا .. حدد ابراهيم حدود الحرم .. وجعله شيئاً معلوماً للجميع ... وأصبح هناك مكان معين من الأرض محرماً إلى يوم القيامة ... مكان يترسّطه بيت الله ... ويأمن فيه جميع الناس .. وجميع المخلوقات ...

من الذى حرمها ؟

من الذى حرم هذا المكان ؟ هل هو ابراهيم ؟
كلا .. فان ابراهيم لا يملك ذلك .. انما هو رجل يرجو ذلك .. ليس إلا ...
اذن من الذى حرمها ؟! قال تعالى : « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ،
الَّذِي حَرَّمَهَا ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . »

[النمل ٩١]

اختص الله تعالى مكة من بين جميع البلاد باضافة اسمه إليها . لانها أحب بلاده اليه ،
وأكرمها عليه ، وأعظمها عنده حيث أن حرمها لا يسفك فيها دم حرام . ولا يظلم فيها أحد .
ولا يهاج صيدها . ولا يختلى خلاها .

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة » أى انى أخص رب هذه البلدة بالعبادة .
ولا اتخذ له شريكاً . والبلدة مكة .

وأشار إليها إشارة تعظيماً لها ، وتقريباً ، دالاً على انها موطن نبيه ، ومهبط وحيه ووصف
ذاته بالتحريم الذى هو خاص وصفها ، فاجزل بذلك قسمها فى الشرف والعلو .
ووصفها بأنها محرمة ، لا ينتهك حرمتها إلا ظالم ، مضاد لربه . « وله كل شيء » خلقا
وملكا . وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته « وأمرت » أن أكون من الخنفاء
الثابتين على ملة الإسلام ..

إن الله تعالى هو الذى حرم مكة .. وليس ابراهيم .. وانما ابراهيم دعا .. وطلب ..
والله تعالى استجاب .. وأمر .. فكانت حراماً إلى يوم القيامة !!

أولم يمكن لهم حرماً آمناً ؟

وقال تعالى : « .. أَوَلَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ، يُجْبَى إِلَيْهِ ثُرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ،
رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . »

[القصص ٥٧]

وصف الله تعالى الحرم بالأمن ، ومن على عباده بأن مكن لهم هذا الحرم .

وروى النسائي في التفسير « ان الحارث بن عامر بن نوفل قال للنبي صلى الله عليه وسلم (ان تتبع الهدى معك تتخطى من أرضنا) فانزل الله عز وجل ردا عليه (أولم نمكن لهم حرما آمنا) الآية معناه جعلهم الله في بلد أمين ، وهم منه في أمان في حال كفرهم . فكيف لا يكون لهم أمن بعد أن أسلموا وتابوا الحق ؟

« آمنا » ذو أمن يأمن الناس فيه وذلك أن العرب في الجاهلية كانت يغير بعضهم على بعض وأهل مكة آمنون في الحرم من السبي والقتل والغارة . أى : فكيف يخافون إذا أسلموا وهم في حرم آمن .

« يجي إليه » أى إلى الحرم ، أى تجلب وتحمل من النواحي . « ثمرات كل شئ » رزقا من لدنا « أى من عندنا ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون ان الله تعالى هو الذى فعل بهم فيشكرونه .

رسول الله يعلن ... أن هذا البلد حرمه الله ؟

« عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة

« إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ

« لَا يَعْزَدُ شَوْكُهُ

« وَلَا يَنْقَرُ صَيْدُهُ

« وَلَا يَأْتِيهِ لَقُطَتُهُ إِلَّا مِنْ عَرَفَاءِهَا . » [البخارى]

« إن هذا البلد حرمه الله » فيه تعظيم له ، وتعظيمه يدل على فضله ، واختصاصه من بين سائر البلاد . حرمه الله ، أى جعله حراما .

وافظ البخارى في باب غزوة الفتح « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يوم الفتح فقال : ان الله حرم مكة ، يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام بمحرام الله تعالى إلى يوم القيامة » الحديث .

فان قلت : ان قوله صلى الله عليه وسلم « ان ابراهيم عليه السلام حرم مكة وانا احرم ما بين لابتيها » أى لابتى المدينة يعارض هذا الحديث .

قلت . ليس الأمر كذلك ، لان معنى قوله « ان ابراهيم حرم مكة » أعلن بتحريمها ، وعرف الناس بانها حرام بتحريم الله اياها ، فلما لم يعرف تحريمها إلا فى زمانه على لسانه أضيف اليه ، وذلك كما فى قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس) فإنه أضاف اليه التوفى ، وفى آية أخرى (قل يتوفاكم ملك الموت) أضاف اليه التوفى ، وقال فى آية أخرى (الذين تتوفاهم الملائكة) فاضاف اليهم التوفى ، وفى الحقيقة التوفى هو الله عز وجل ، وأضاف إلى غيره لأنه ظهر على أيديهم .

« لا يعضد شجرها » أى لا يقطع « ولا ينفر صيده » أى لا يزعب من مكه ، وهو تنبيه من الأدنى إلى الأعلى ، فلا يضرب ولا يقتل بالطريق الأولى . « ولا يلتقط اقطته إلا من عرفها انها تقطع فيلتقطها ليردها إلى صاحبها ولا يملكها .

والآن ... ماذا فى هذا الحديث ؟ فيه ان مكة حرام ، فلا يجوز لأحد ان يدخلها إلا بالاحرام . وهو قول الجمهور من الفقهاء . وفيه انه لا يجوز قطع شوكه ولا قطع شجره . وقال ابن المنذر : أجمع العلماء على تحريم قطع شجر الحرم وفيه أنه لا يجوز رفع لقطتها إلا لمنشد ، أى لا تحل إلا لمن يعرفها .

لماذا جعل الله الكعبة ... قياماً للناس ؟!

قال تعالى : « جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ ، الْبَيْتَ الْحَرَامَ ، قِيَامًا لِلنَّاسِ ... »

[المائدة ٩٧]

أشار فيه إلى أن قوام أمور الناس ، وانتعاش أمر دينهم ، ودنياهم ، بالكعبة المشرفة يدل عليه قوله (قياماً للناس) .

فإذا زالت الكعبة تختل أمورهم وأشار به إلى تعظيم الكعبة وتوقيرها يدل عليه قوله (البيت الحرام) حيث وصفها بالحرمة . كما أشار به إلى أن الكعبة لا تنقطع الزوار عنها . « البيت الحرام » نصب على أنه عطوف بيان على جهة المدح لاعلى التوضيح « قياماً »

أى عمادا للناس فى أمر دينهم ودنياهم . ونهوضا إلى اغراضهم ومقاصدهم ، فى معاشهم ومعادهم . لما يتم لهم أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهن وأنواع منافعهم . وعن عطاء : لو تركوها عاما واحدا لم ينظروا ولم يتجروا . وقيل : قياما أى معالم للحق . وقيل : يعنى علما لقبيلتهم يصلون إليها . وقيل : صلاحا لدينهم .
والآن ... لماذا كل هذا ؟ .

لأن الكعبة هى النقطة ... هى مركز الدائرة ... الذى فرض الله تعالى على الناس جميعا أن يتوجهوا إليه . ولكن لماذا يتجه الناس جميعا إلى هذه النقطة ؟ . وما وجه الأهمية فى ذلك ؟ ! ليكون رمزا إلى توجههم جميعا ... إلى الله ... الذى خلقهم ... وإلى تلك المعانى البعيدة .. العزيزة .. الرفيعة .. يشير قوله تعالى .

حيث ما كنتم .. فولوا وجوهكم شطره ؟

قال تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ، لئلا يكون للناس عليكم حجة ، إلا للذين ظلموا منهم . فلا تخشونهم واخشوني ، ولأتم نعمتى عليكم ، ولعلكم تهتدون .
[البقرة ١٥٠]

« ومن حيث خرجت » أى ومن أى بلد خرجت للسفر فول وجهك شطر المسجد الحرام إذا صليت . « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .
أمر إلى الجميع أن يتوجهوا إلى المسجد الحرام حيث ما كانوا ... فى أى مكان كانوا ... غليهم أن يتجهوا إليه .

لماذا ؟ ... رمزا للاتجاه إلى رب ذلك البيت ؟ لماذا ؟ . ان السر كامن فى نفس قوله تعالى « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . فى أى مكان تكونون فيه ... وفى أى زمان تكونون فيه ... عليكم أن تتجهوا بوجوهكم شطره .
شطر من ؟ ... شطر الله .

إذن هناك تربية عالية جدا ... إن الله يأمر كل مؤمن أن يتجه في صلاته إلى الكعبة .
وأن يوجه وجهه إليها ... مهما كان مكانه في الأرض وزمانه ... وهو يصلي .
ليركز في أعماق كل مؤمن ومؤمنة ان الاتجاه ينبغي أن يكون إلى رب ذلك البيت ..
إلى الله ... انها نقطة ... يتجه إليها الجميع .. لتعلمهم .. وتركز في نفوسهم أن عليهم أن
يتجهوا إلى الله وحده .. جميعا .
فما أجمل التربية .. وما أعظم التوجيه .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون !!

لماذا التحول الى قبلة ابراهيم ؟

قال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ،
وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. »
[البقرة ١٤٣]

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا » أى كما اخترنا ابراهيم — عليه الصلاة والسلام —
وأولاده ، وأنعمنا عليهم بالحنيفية جعلناكم أمة وسطا . وقال ابن كثير في تفسيره يقول
الله تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — واختارناها لكم
لنجعلكم خيار الأمم ، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ، لأن الجميع معترفون
لكم بالفضل .

وَالْوَسْطَ الْعَدْلُ أى كذلك جعلناكم أمة عدولا ، أمة عدلا .

وروى ان الرب عز وجل وصفهم بذلك لتوسطهم في الدين فلام أهل غلو فيه
كالنصارى ، ولام أهل تقصير فيه كاليهود . قلت : إنما حول الله تعالى هذه الأمة إلى
قبلة ابراهيم ..

إلى الكعبة ... ليعلم الجميع أن ابراهيم امامهم ... وان طريقته ... واسلوبه .. وهى
الحنيفية .. هى الطريقة .. وهو الاسلوب المأمورون جميعا باتباعه .. بل التى لا يرضى الله
سواها للناس ديناً .

ورضيت لكم الاسلام ديناً .. لقد شرع ابراهيم للناس جميعا الحنيفية ... وجاء محمد

صلى الله عليه وسلم .. يجدد دعوة ابيه ابراهيم ... ويدعوهم إلى الحنيفية السمحة ...
ملة أييكم ابراهيم .

فكان أمرا طيعيا .. وحكما منطقيا .. أن يؤمر محمد صلى الله عليه وسلم .. وتؤمر
أمته .. أن يتجهوا إلى الكعبة .. إلى قبلة ابراهيم .. إشارة إلى اتحاد الاتجاه .. وإلى
وحدة الطريق .

والى أن هذا الأسلوب ، الذى جاء به ابراهيم .. والذى بعث محمد صلى الله عليه وسلم
ليجده ويدعو الناس جميعا اليه .. هو العدل .. وهو وحده الرضى عند الله .

« ومن يتبع غير الاسلام ذينا فلن يقبل منه » أى من يعبد الله على أسلوب غير أسلوب
ابراهيم .. غير ملة ابراهيم .. وهى نفسها ملة محمد .. التى سماها الاسلام .. فلن يقبل منه .
« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ؟! » . « فاتبع ملة ابراهيم حنيفا ،
وما كان من المشركين » .

إذن هذه الملة .. أو هذا الأسلوب .. هو العدل .. الذى يرتضيه الله .. وكذلك
جعلناكم أمة وسطا .

هكذا جعلناكم يامن اتبعتم محمدا صلى الله عليه وسلم .. أمة عدلا .
لماذا ؟ .. لانكم اتبعتم ملة ابراهيم .. اتبعتم الحنيفية .. حنفاء لله .. غير مشركين به .
فانتم شهود على غيركم .. انتم الميزان الذى يقيس الناس جميعا عليه أنفسهم .. فيتبين لهم ان
كانوا على هدى ، أم فى ضلال مبين ..

ومن أجل ذلك حولناكم إلى قبلة ابراهيم .. اعلانا لاتحادكم معه فى الأسلوب !!!

جميع مناسك الحج تخليدا لذكرى مواقف ابراهيم ؟

هل هذا صحيح ؟ هل هذه القضية على إطلاقها ؟

هل صحيح ... أن فريضة الحج إنما فرضها الله علينا ... وأن جميع ما فيها من مناسك ...

إنما كانت تخليدا لذكرى مواقف ابراهيم ؟!

لقد تأكدلى ذلك ... وأنا أجوس خلال تلك المباحث عن ابراهيم ... بما يدع إلى الشك ادنى سبيل .

واليكم البيان ... أولا ... ماهو الحج ؟

الحج فريضة افترضها الله على عباده من استطاع اليه سبيلا .. واعتبر من قعد عنها بغير عذر كافرا .

فما هو هذا الحج ؟ الذى وعد الله ورسوله عليه غفران الذنوب جميعا ؟ ... « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ؟

هو أن يتوجه الانسان فى ايام معلومة من السنة إلى بيت الله الحرام ... حتى اذا كان يوم التروية خرج من مكة حتى إذا كان اليوم التاسع وقت بعرفة ملييا ... ثم يعود نيرى الجمرات ... وينحر ضحاياه ... ثم يعود إلى مكة ... ثم يتحلل .

فما هذا ؟ ... أولا ... تجرى المناسك كلها فى الحرم ... هذا من حيث المكان .
ثانيا ... يلبس الإنسان ملابس الأحرار ... وينخلع من زينته ... وهذا اشارة إلى خلعه للدنيا ... واقباله على الله ... ثم طواف القدوم حول الكعبة ... فيه تجديد العهد مع الله ... صاحب هذا البيت ... ثم السعى بين الصفا والمروة ...

فيه تخليد لذكرى سعى هاجر بينهما بحثا عن الماء ... ثم الخروج إلى عرفات للجؤار إلى الله .

فيه التوجه الصادق إلى الله ... فيه الحنيفية التى هى صلب ملة ابراهيم ... ونحها .
امواج من البشر الحفاة العراة ... يتدافعون إلى جبل ... إلى صحراء ... يتهلون إلى الله ... ويلبون ... فما معنى هذا ؟ !

هذه هى الحنيفية التى يريد بها ابراهيم ... والتى بعث بها محمدا صلى الله عليه وسلم .
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ! « الحج عرفة » ... لأنه المقام الذى تتحقق فيه

الحنيفية... حيث يسقط الإنسان كل الوسائط... وكل الاسباب... وكل الحجب... ويتجه إلى الله مباشرة... مائلا عن كل شيء... حنيفا لله وحده.

ومتى تم ذلك منه.. فقد حجب.. فقد قصد ربه... فقد استحق أن يغفر له... فقد عاد كيوم ولدته أمه... فقد اسقط كل ماضيه بعفوناته، وقاذوراته، ونجاساته... وفتح صفحة جديدة في علاقاته بربه.. تماما كما يبدأ الطفل المولود حياة جديدة لا ماضى لها.. تماما كما قال صلى الله عليه وسلم « رجع كيوم ولدته أمه »

ثم ماذا؟.. ثم رمى الجمار.. تمجيد لذكرى ابراهيم.. والشيطان يعرض له ليصده عن ذبح ابنه.. عن طاعة أمر ربه.. وابراهيم يرميه بالحجارة تأكيداً لعارضه عن وسوسته.

وكما يعاود الشيطان ويكرر وسوسته للإنسان.. والإنسان لا يئأس.. فان الله فرض أن يرمى الجمار.. ونكررها في يومين.. أو ثلاثة.. ليعلمنا المثابرة.. ومصابرة جهاد الشيطان.. حتى يئأس أن نعبد.. أو نطيعه في أمر من أمورنا.

ثم ماذا؟ ثم ذبح الاضحى والهدى.. تذكيرا بذبح اسماعيل.. وفداء الله له بذبح عظيم.. وكيف أن الاخلاص ارتفع في الأب والابن إلى مستوى جعلهما يستسلمان في أشق أمر... أن يذبح الأب ابنه بيده.. وأن يصبر الابن على الذبح!!!

ثم ماذا؟.. ثم طواف الافاضة.. حول الكعبة.. تجديد للعهد مع رب البيت.. وتجديد تخليد ذكرى مؤسس هذا البيت.. ثم طواف الوداع عند مغادرة مكة.

كأن الانسان يؤكد لله أنه على العهد سوف يكون.. وعلى الحنيفية سوف يستقيم!!!

أليس هذا هو الحج؟ فماذا فيه؟

فيه أنه لا يخرج عن كونه تخليدا لسلسلة الأفاعيل التي صدرت عن ابراهيم، أو اشتقت عنه.. وهو ينفذ أوامر ربه.. كلمات ربه..

وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فآتمهن، قال: انى جاعلك للناس اماما.. من اجل

انك يا ابراهيم على خير اسلوب احبه وارتضيه .. اسلوب الحنيفية .. اسلوب الاتجاه المباشر الى .. اسلوب اسقاط كل شيء من قلبك ... وتخصيصه لي أنا وحدي .

ومن أجل أنى أمرتك فأطعت .. وسلمت تسليماً .. من أجل أنى أمرتك أن تدع طفلاً وأمه في صحراء لا ماء فيها ولا غذاء .. فأطعت .. ومن أجل أنى أمرتك حين بلغ ذلك الطفل معك السعى أن تذبحه ، فأطعت .. وشرعت في ذبحه .

ومن أجل أنا أمرناك أن تقيم لنا بيتاً .. ويعينك على اقامته اسماعيل .. فأقمته .. وأنت في أعلى مقامات الاخلاص لنا ،، وسألنا أن نتقبل منك .. ودعوتنا أن نجعل افئدة من الناس تهوى اليه .

ومن أجل أنا أمرناك أن تؤذن في الناس بالحج فأذنت ، ومن أجل أن سألنا أن نجعل هذه البلدة جرماً آمناً .. فاستجبنا لك .. ومن أجل انك وفيت في كل ما أمرناك به .. وفي كل مقامات قلبك .. وانت تتجه الينا .. من أجل ذلك كله جعلناك للناس إماماً .. وأمرناهم جميعاً أن يتبعوا ملتك .. ووجهناهم جميعاً الى قبلتك .. وأمرنا خيرهم جميعاً .. محمداً صلى الله عليه وسلم .. أن يتبع ملتك .. ثم فرضنا عليهم جميعاً أن يحجوا .. أن يقصدوا تلك الأماكن التي باشرت فيها تنفيذ أوامرنا .. واخلصت فيها الإخلاص كله لنا .
وفرضنا عليهم فيها شعائر ومناسك .. لتذكركم موافقك .. ولعلها ترفعهم إلى ادراك مقاماتك وانت تبشر الاسلام لنا .. وتأتى طاعاتنا ..

وفرضنا عليهم العمرة .. زيارة البيت الحرام .. ليدذكروا في أوقات غير الحج عظم تلك الأمور .

وجعلنا تلك الشعائر .. رموزاً تربطهم بأفعالك .. لعلها ترفعهم إلى حالك .. لعلك تمكنهم من ادراك حقوقنا عليهم .. وكيف يسلكون السبيل الينا .

ثم اجزلنا لهم العطاء .. لقاء ما يقومون به في تلك المناسك .. ووعدناهم أن يعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم إذا أدوا ما عليهم فيها .

ليبدءوا صفحة جديدة .. حياة جديدة .. بقلوب سليمة كقلبك .. وحنيفية سمحة
كملتك .

تلك اشارات إلى مافى تلك الفريضة العظمى .. فريضة الحج .. وكأنها كلها تؤكد ..
أنها من أولها إلى آخرها .. كانت تمجيذا لما فعل إبراهيم .. وما صدر عن إبراهيم .

ومتى مجد الانسان اخلاص ابراهيم .. فقد ادرك طريقه إلى ربه .

أدرك الحنيفية التي دعا اليها ابراهيم .. أدرك معنى قوله وهو يؤدي تلك الفريضة « ابيك
اللهم ابيك » ومتى المنتقام كل ذلك في قلب الانسان .. فقد أصبح اهلا لأن يغفر له .. وأن
يسقط عنه ماضيه كله بظلماته .

والآن انادى باعلى صوت يستطيعه انسان : اى اخلاص كان بقلبك .. يا ابراهيم
فانبثقت عنه تلك الأنوار السرمدية ؟ ! !

شخصیۂ ابرہیم؟

ادخل إلى هذا الباب .. وأنا شديد الخوف .. أن يعاقبني الله أشد العقاب .. أن سمحت لنفسي .. المظلمة .. الشديدة الظلمة .. أن تدخل إلى شخصية ابراهيم .. ذلك النور .. أو ذلك القمر المنير ..

الا اننى أطمع حين ادخل اليه بظلمتى .. أن يشرق هو على بنوره .. فأضىء .. ولو شيئاً قليلاً .. يمكننى من رؤية .. ولوأدنى ملامح من شخصية .. ذلك المسمى ابراهيم .. ذلك الذى اثنى عليه ربه .. فاكثر الثناء .. وحين يثنى الله عز وجل على انسان فهو الإنسان .. أو على صفات فهى الصفات .. فلندخل إذا .. ذلك الحرم المقدس .. بأذنه تعالى .. وباسمه سبحانه .

فاتمهن ؟

ليست النبوة شيئاً جزافاً .. ولا الرسالة شيئاً يسيراً .. كلا .. وإنما أعلى مقامات البشر .. عند رب العالمين .. لا يرقى إليهما الا من هو أهل لأن يرقى .. ولننظر الآن ماذا دفع ابراهيم من ثمن .. أهله لذلك المقام الذى ارتفع اليه ..

قال تعالى : « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ : لَئِنِ ابْتَلَيْتُ النَّاسَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَفِّرُونَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَئِنِ ابْتَلَيْتُ النَّاسَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَفِّرُونَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَئِنِ ابْتَلَيْتُ النَّاسَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَفِّرُونَ إِلَّا بِالْحَقِّ » [البقرة ١٢٤]
فى هذه الآية .. مراحل ثلاث .

مرحلة البلاء .. الاختبار .

مرحلة المكافأة .. أو الامامة

مرحلة الذرية .. أو تحريم الإمامة على من ظلم منهم .

والآن نبدأ بالأولى .. مرحلة الاختبار .. « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ » ... ماهى

هذه الكلمات ؟ الكلمات هى الأوامر فالمعنى وإذا أمر الله ابراهيم بأوامر . فما هى تلك الأوامر ؟

هل هي سريين ابراهيم وربه ؟ يحتمل .. فمن اتخذ الله خليلا .. يحتمل جدا أن يكون بينهما ما لا يعلمه الا اياها .

ولنطرح الآن .. ذلك الذى كان بينهما .. مما لاسييل إلى الرق اليه .. ولندخل إلى مآظهر منها .. وما أعلنه الله تعالى فى كتابه .. أو أعلنه رسوله صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه .

« وإذا ابتلى » وإذا اختبر والمراد به هنا التكليف ، أو المعاملة معاملة الاختبار .
« إبراهيم » وقرأ ابن عامر ، وابن الزبير ، وغيرهما (إبراهيم) .
« ربه » التعرض لعنوان الربوبية تشريف له — عليه السلام — وإيذان بان ذلك الابتلاء تربية ، وترشيح لأمر خطير « بكلمات » بأوامر .

عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : إنها العشرة التى من الفطرة ..
« المضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، وتنف الإبط ، وتقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والأستطابة ، والختان » .

وقال عكرمة — رواية عنه — أيضا : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله الا ابراهيم .
« ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الاسلام .

« عشر منها فى سورة براءة (التائبون) الخ » وعشر فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الخ « وعشر فى (المؤمنين) و (سأل سائل) إلى (والذين هم على صلاتهم يحافظون) .

فالذى فى براءة التوبة . والعبادة . والحمد . والسياسة . والركوع . والسجود . والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والحفظ لحدود الله تعالى ، والإيمان المستفاد من (وبشر المؤمنين) أو من (إن الله اشترى من المؤمنين) وفى الأحزاب ، الاسلام ، والايمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع ، والتصدق ، والصيام ، والحفظ للقروج ، والذكر ، والذى فى المؤمنين ، الايمان . والخشوع ، والاعراض عن اللغو . والزكاة . والحفظ

للفروج . - الاعلى الأزواج أو الائمة ثلاثة - والرعاية للعهد . والامانة - اثنين - ،
والحفاظة على الصلاة .

وهذا مبنى على أن لزوم التكرار في بعض الخصال بعد جمع العشرات المذكورة
كالإيمان والحفظ للفروج لا ينافي كونها ثلاثين تعدادا ، إيماننا في تغيرها ذاتا .

وقيل : ابتلاه الله تعالى بسبعة أشياء : الكوكب . والقمرين . والختان على الكبر
والنار . وذبح الولد . والهجرة من كوثى إلى الشام .

وقيل : هي ما تضمنته الآيات بعد من الأمانة ، وتطهير البيت ، ورفع
قواعده ، والإسلام .

« فآتمهن » أتى بهن على الوجه الأتم ، وأداهن كما يليق .

* * *

هذه هي المرحلة الأولى .. مرحلة الاختبار .. وإذا ابتلى . وإذا وضع الله تعالى إبراهيم
موضع التجربة . بكلمات ؟ ! ! بأوامر .. منها مالا يعلمه إلا الله تعالى وإبراهيم .
شيء باطن .. خاص به وبمقامه .. يرقى عليه إلى حيث شاء الله تعالى له أن يرقى ..
وشيء ظاهر .. هو هذا الذي توسع فيه العلماء والمفسرون .

فمنهم من حصرها في خصال الفطرة كالمضمضة ونف الأبط .. إلا أن هذه الخصال
وإن كانت من كمالات الإنسان ألا أنها ليست شيئا ذا بال .. يميز إبراهيم على سائر الناس
فليس كل من تمضمض واستنشق ونف الأبط وحلق العانة .. الخ .. برجل يستحق أن يكون
اماما للناس !

ومنهم من قال انه ابتلى بتلك الخصال الثلاثين التي ذكرناها . إلا أن هذه الخصال وإن
كانت هي الأخرى صفات يجب أن يتميز بها إبراهيم .. إلا أنها ليست هي التي تؤهله لأن
يرتفع إلى مقام « جاعلك للناس اماما » ..

ومنهم من قال ، وقال .. إلا أن الرأي الجامع .. الذي يليق بمقام إبراهيم .. هو قولهم
لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم .

هذا رأى قد يكون اقرب الآراء إلى مقام إبراهيم .. واوسعها .. واشملها .. فأتمهن ..
فأنى بهن على أكمل ما يتصور من التمام .. أى فنجح إبراهيم فى الاختبار .. وبلغ ذروة النجاح
المستطاع لآسان .. ابتلى ان يعتقد أن لا إله إلا الله .. فى عالم يعبد الأصنام والنجوم ..
فاعتقد ذلك وحده .. ولم يبال الناس جميعا .

فأى نجاح بعد أن تكون وحدك موحدًا والناس جميعا كفارا ؟ وابتلى ان يعلن ذلك
إلى أبيه .. فأعلمه .. وصادمه .. حتى طرده من أجل ذلك .. وابتلى أن يعلن ذلك إلى
قومه .. وعلى رأسهم النروذ .. فأعلمه .. وسخر منهم .. وهزأ بألهتهم .. فأى نجاح
بعد هذا ؟

وابتلى أن يدمر عليهم أصنامهم .. فحطمها .. فحاكوه .. فحكوا بأعدائه حرقا .. فجاءه
جبريل : ألك حاجة : فأنى .. فقفوه فيها ليصلها .

فأى نجاح يتصور فوق هذا النجاح ؟ من أجل ذلك كانت المكافأة : يا نار كونى بردا
وسلاما على إبراهيم ؟ وابتلى ان يعال ن قومه وأباد مرة أخرى بالحق .

فما زال يعالهم .. حتى اضطروه إلى الهجرة عن أبيه .. وأسرته .. وعشيرته .. ووطنه
إلى الشام .. فاجتمع لأبراهيم غربتان .. غربة العقيدة من قبل .. وغربة الأوطان .. فاحتملها
وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين .. فأى نجاح بعده يتصورون ؟

وابتلى أن يذبح بيده ابنه ووحيدده .. فأسلم .. وتله للجبتين .. وذبح .. فأى نجاح بعد
ذلك يكون ؟ فكانت المكافأة : وناديناه أن يا إبراهيم .

وابتلى .. وابتلى .. مما لا يعلمه إلا الله .. ومما يناسب مقام إبراهيم .. وكان فى كل
بلاء .. « الذى وفى » فاستحق إبراهيم بذلك كله ..

انى جاعلك للناس اماما ؟

هذه هى المرحلة الثانية من الآية .. مرحلة المكافأة .. مرحلة الإمامة ، المترتبة على
الفوز فى الامتحان .. على النجاح فى البلاء .. على دفع الثمن .

قال تعالى : « قال : إني جاعلك للناس إماماً » الامام اسم للقدوة الذي يؤتم به والمراد به هاهنا النبي المقتدى به . وهذه الامامة إمام مؤبدة . كما هو مقتضى تعريف الناس ، وصيغة اسم الفاعل الدال على الاستمرار . ولا يضر مجيء الأنبياء بعده ، لأنه لم يبعث نبي إلا وكان من ذريته . ومأمور باتباعه في الجملة . لافي جميع الأحكام ، لغدم اتفاق الشرائع التي بعده في الكل .

فتكون امامته باقية بامامة أولاده التي هي ابعاضه على التناوب . والامتان على ابراهيم — عليه السلام — بذلك دون غيره لخصوصية اقتضت ذلك لاتكاد تخفى فتدبر . وظاهر الآية يشير إلى أن الابتلاء كان قبل النبوة ، لأنه تعالى جعل القيام بتلك الكلمات سببا لجعله اماما .

ما هذا ؟ هذا أخطر جانب من شخصية ابراهيم . . إنه الجانب الذي ينبغي أن يصغى اليه الناس جميعا . . على اختلاف أديانهم . . وملهم . . ونحلهم . . ومذاهبهم الفكرية . . أو الفلسفية . . أو العقائدية . . سواء كانوا دينيين . . أو لا دينيين . . متفلسفين . . أو غلفا لا يفكرون . . الجميع . . كل الناس . . مدعوون أن يستمعوا إلى هذا الأمر .

إني جاعلك للناس إماما ؟!! إني . . أنا الله لا إله إلا أنا . . جاعلك . . قررت أن تكون إلى يوم القيامة يا ابراهيم . . للناس . . لكل الناس . . ذكرهم وأنشاهم . . لافرق بين أحد دون أحد . . إماما . . قدوة يقتدون بها .

لقد رفع الله ابراهيم في هذا الأمر درجات . ودرجات . . ألم يقل سبحانه : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه . . نرفع درجات من نشاء » . ؟!

رجل . . رجل واحد . . ليس اثنين . . يعطيه الله كل هذا ؟!! يجعله لجميع الناس . إماما إلى الأبد ؟! لماذا يعطي الرب تبارك وتعالى كل هذا لابراهيم دون سواء ، أهو مجرد تفضل الله تعالى عليه ؟ كلا . . إنه هو الحكيم في أفعاله .

أوهو محض الصدقة ؟ كلا . . إنه هو القائل : « وكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » .، اذن هناك استحقاق في ابراهيم . . يؤهله لكل هذا ؟

هناك استعداد .. هناك عظمة كامنة في معدن الرجل .. فماذا في ابراهيم رفعه إلى مقام
امامة الناس أجمعين ؟ . أهو نجاحه في تلك الكلمات التي ابتلى بها ؟ كلا .. فإن ذلك كله
لا يرفعه إلى ذلك المقام .

اذن ماهو هذا الشيء الذي أعطى الله تعالى من أجله ابراهيم ما أعطى ؟ .

إنه .. ؟ ! . إنه .. ؟ ! .

الحنيفية .. ملة ابراهيم .. طريقته في الاتصال بالله .. أسلوبه في الاتجاه إلى الله ..
أسلوبه الذي لا استطاع الوصول إلى الله الا بسلكه .

ان ابراهيم أول من سار إلى الله في هذا الطريق .. طريق الحنيفية .. فعلى كل من يريد
الذهاب إلى الله .. أن يسير وراءه .. إنه هو الرائد .. رائد الناس إلى ربهم .

فعلينهم جميعا أن يتبعوه .. أن يسيروا وراءه .. أن يقتدوا به .. أن يتخذوه اماما ..
إني جاعلك للناس إماما ١٢٢

هل استبان الآن .. لماذا رفع الله ابراهيم ذلك المنام .. انها الحنيفية .. طريق الله
الأوحد .. وانه ابراهيم .. أول من سار فيه .. فكل من جاء الله .. وجد ابراهيم
أمامه .. إمامه .

إني جاعلك للناس إماما .. والناس في هذا سواء .. جميعا .. مأمورون باتباع ابراهيم
حتى الأنبياء .. من بعده .. كلهم ..

« فاتبع ملة ابراهيم حنيفا » .. لماذا ؟ .. لأنه لا طريق إلى الله إلا هذا !! لقد قالها
ابراهيم : إني ذاهب إلى ربي سيهدين . واستمر يسير إلى الله من يومها .. إلى
ما شاء الله .

فأي انسان من بعده يريد أن يقول : إني ذاهب إلى ربي سيهدين .. سوف يتحتم
عليه أن يسير في نفس الطريق .. وسوف يجد أمامه ابراهيم .. أي إمامه ابراهيم .. أي :
إني جاعلك للناس إماما .. فهاهي هذه الحنيفية التي جاء بها ابراهيم .. فتحت على الناس أن
يتبعوها إذا أرادوا أن يذهبوا إلى ربهم ؟

هى الاتجاه المباشر إلى الله .. هى اسقاط كل شىء من الطريق .. والتوجه إلى الله مباشرة .. هى عدم الالتفات إلى ماسواه .. حنيفا .. وما أنا من المشركين .. مائلا .. عن كل شىء .. ولا أشرك به شيئا من الأشياء !!

لا ينال عهدى الظالمين ؟

ثم ندخل المرحلة الثالثة من الآية .. وهى قوله تعالى : « قال : ومن ذريتى ، قال : لا ينال عهدى الظالمين » . انها مرحلة تحريم الامامة على من ظلم من ذريته .. فامعنى هذا؟ معناه أن الأمر ليس فوضى .. بل يجرى على نواويس محكمة ، لا خلل فيها ، ولا محاباة . إنك يا ابراهيم استحققت أن تكون اماما للناس .. لما نعلمه منك من حنيفة .. وصدق وتسليم .. وتوفية .. أمانسلك ، أما ذريتك .. فلن ينالها من ظلم .. سنجعل الإمامة فى ذريتك .. سنجعل النبوة وهى أعلى مقامات الامامة فى ذريتك ..

ولكن لمن من ذريتك ؟! لمن كان على ملتك .. أمان من كان منهم ظلما فهى عليه حرام .. إنه العدل الإلهى .. يسرى فى كل شىء .

« قال » أى ابراهيم « ومن ذريتى » الذرية نسل الرجل وأصلها الأولاد الصغار ، ثم عمت الكبار والصغار ، الواحد وغيره .

« قال » الله « لا ينال عهدى » لا ينال الامامة . وليست هى هنا إلا النبوة . وآثر النيل على الجمل ايماء إلى أن إمامة الأنبياء من ذريته — عليه السلام — ليست بجعل مستقل بل هى حاصلة فى ضمن إمامته ، تنال كلا منهم فى وقته المقدر له .

« الظالمين » المتبادر من الظلم الكفر ، ويؤيده قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون) أى لا يكون نبيا من ذريتك من كان كافرا ، أو مشركا ، أو ظلما لنفسه ، أو لغيره ، ، هنالك تقررت الامامة للصفوة من ذرية ابراهيم ، ، وعلم أنها محرمة على الظالمين منهم .

ولقد اصطفيناه ... فى الدنيا ؟

قال تعالى : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، ولأنه فى الآخرة لَيْنَ الصَّالِحِينَ .

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم » انكار واستبعاد لأن يكون من العقلاء من يرغب عن ملة إبراهيم ! وهى الحق الواضح غاية الوضوح أى : لا يرغب عن ذلك أحد .
« إلا من سفه نفسه » أى جعلها مهانة ذليلة .

وقيل : أى جهل نفسه ، خلقة عقله ، وعدم تفكره أو : أهلكها . وسبب نزول الآية :
ماروى أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه ، سلمة ومهاجرا ، إلى الاسلام . « فقال لهما :
قد علمنا أن الله تعالى قال فى التوراة : إني باعث من ولد اسماعيل نبيا اسمه أحمد ، فمن آمن
به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو مطعون .

فأسلم سلمة ، وأبى مهاجر .. فنزلت . « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » أى اخترناه
بإرسالة بتلك الملة واجتبييناه من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشيء أى
خالصه .

وذلك من حيث المعنى دليل مبين لكون الراغب عن ملة إبراهيم سقيها . إذ الاصطفاء
والعز فى الدنيا غاية المطالب الدنيوية . والصلاح جامع للكمالات الأخروية ولا مقصد للانسان
الغير سقيه سوى خير الدارين .

* * *

ومن يرغب عن ملة إبراهيم الامن سفه نفسه ؟ لا يتصور أن يتحول عاقل عن ملة إبراهيم
ولا يتحول عن أسلوب إبراهيم الاكل مجنون . أو ناقص العقل . أو سفيه . أو انسان لا يميز
بين الخير والشر . أو انسان يهين نفسه ويذلها ويضيعها .

أما العاقل .. أما الذى يحسن التفكير ، فلا يتصور أن يرغب عن ملة إبراهيم . فما هى
هذه الملة ، أو هذا الاسلوب الذى يعتبر المتحول عنه سقيها ؟

أما تفاصيل تلك الملة .. فسوف نقرأه فى فصل قادم .. من هذا الكتاب .. وإنما
آخرناه .. لخطورته .. غاية الخطورة .. فإن معرفتك كيف تسلك الطريق الصحيح فى حياتك ..
تعتبر أهم وأخطر موضوع فى حياة كل انسان .

ولذلك أفردنا له بابا مستقلا .. ولكن لماذا ارتفع إبراهيم هذا الارتفاع .. حتى اعتبر

الله تعالى الراغب عن ملته سفيها ؟ « ولقد اصطفيناه في الدنيا » .. هاهنا السر .. هاهنا المفتاح .. أن الله اصطفاه من بين الناس جميعا .
أن الله نظر إلى سكان الأرض جميعا .. فوجد إبراهيم خلاصتهم .. وذروتهم .. وقتهم .. فاختاره لنفسه .. لأنه أسلم قلب على ظهر الأرض .. ولقد اصطفيناه !!
إنها جملة فيها من تشریف إبراهيم مافيها !
اصطفيناه !!! نحن الله .. نحن ؟ اصطفيناه إبراهيم ؟ .
نحن اخترنا إبراهيم . نحن .. الله .. لا يوجد تعبير بشري يسع ادراك ذلك المعنى ؟
إنه شيء عظيم .. لقد اصطفيناه .
في الدنيا ؟ .. فيها مطلقا .. ما وجدت حياة بشرية على الأرض .. ليس في زمانه وحده .. ولكن ما وجدت الحياة .. وما وجد الإنسان .
ثم ماذا ؟ وإنه في الآخرة لمن الصالحين .. وفوق هذا وذاك .. هو في الحياة الآخرة قمة الصالحين .. وذروتهم .. وإمامهم .. أنه إذا قمة الفوز في الحياتين .. ومن هنا كان المعرض عن أسلوبه سفيها .
إذ لو كان يعقل .. لاتبعه واقتدى به .. ليفوز في الحياتين كما فاز . ولكن لماذا نال إبراهيم كل هذا ؟

أسلم ... أسلمت ؟

قال تعالى : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : اسْلِمْ ، قَالَ : اسَلَمْتُ لربِّ العالمين » .

[البقرة ١٣١]

ما نال ما نال .. إلا بالمبادرة ، والانقياد إلى ما أمر به .. واخلاص سره حين دعاه ربه وقيل : أخطر بياله الدلائل المؤدية إلى المعرفة ، واستدل بها ، وأذعن بمدلولاتها إلا أنه سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بالقولين تصويرا لسرعة الانتقال بسرعة الإجابة .
فهو إشارة إلى استدلاله — عليه السلام — بالسكوكب والشمس والقمر ، وإطلاعه

على امارات الحدوث ، من أن ذلك قبل النبوة ، وقبل البلوغ . واطافة الرب في الجواب إلى (العالمين) للايدان بكامل قوة اسلامه ، حيث ايقن حين النظر شمول ريو بيته تعالى للعالمين قاطبة ، لالنفسه فقط ، كما هو المأمور به . ظاهرا .

أمن أجل هذا ارتفع ابراهيم هذا الارتفاع ؟ وماذا بقي من معارج الصعود بعد هذا ؟ !

إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمتُ لرب العالمين .
هذا هو المفتاح الاكبر لتلك الشخصية العظمى .. هل صدر هذا الأمر فعلا من الله إلى ابراهيم ؟ نعم .. نعم .. صدر .

إن حقيقة ابراهيم .. تدرك على اعلى مستوى من الإدراك ما هي عظمة الله ؟ تدرك ما لا يدرك الناس جميعا ما هي الألوهية .. تدرك أن الله هو الوجود الحق .. وأن كل شيء بعده عدم .. لأن الله هو الذى خلق كل شيء .

فهو سبحانه الوجود الحق .. وكل شيء بعده باطل .. سوف يبطل يوما ما .. سوف يفنى يوما ما .. سوف يهلك .. كل شيء هالك الا وجهه .. تدرك حقيقة ابراهيم .. هذا وما هو اعلى من كل هذا .. مما لا يستطيع بشر أن يدركه إلا ابراهيم .. ومن كان في مستواه .. أو اعلى .. وهو محمد صلى الله عليه وسلم .. وحده .

تدرك حقيقة ابراهيم اذن أن الله هو الوجود الحق .. وأن كل شيء عدم ، فهو سبحانه صاحب الأمر وحده وصاحب الخلق وحده .. ألا له الخلق والأمر :
فاذا أمر تحم الاقياد لأمره توا .. وفورا .. إذ قال له ربه : أسلم .. قل : أسلمت .. فكانت حقيقة ابراهيم .. هي الاقياد .. فوراً لربها .

لماذا ؟ .. لأن ربها قاهر فوق كل شيء .. ومن هنا كان جواب حقيقة ابراهيم :
أسلمتُ لرب العالمين .. أى أطعت فوراً هذا الذى هو رب كل شيء لاربي أنا وحدى ..
فلا فرار منه الا اليه .

ان حقيقة ابراهيم .. في الذروة .. من معرفة الله .. وماله لا يبلغ ذلك المقام من معرفة ربه .. وهو ابراهيم ؟!

وتتبدى اشعاعات .. ادراكات .. حقيقة ابراهيم .. في تلك المقامات التي ابتلى بها .. فتحقت منه تلك المعرفة الباطنة من شخصيته .. في مقام النار .. حين عرض له جبريل ألك حاجة ؟

فكان جوابه جواب حقيقته وهي تسكلم : علمه بحالى يغنى عن سؤالى !!! انه كان في تلك اللحظة .. يتلألاً بالألاء : أسلمت لرب العالمين .. فكان جواب رب العالمين : يا نار كونى !!!

هذا مقام التسليم .. تلاًاً من ابراهيم .. في ذلك الحال .. وتلاًاً منه كذلك في مقام البلاء المبين : اذبح ابنك .. فكان جواب حقيقته .. ذبحت !! وتله للجبين .. وشرع يذبح !! هنالك .. كانت حقيقة ابراهيم تتلألاً .

وكان اشعاعها قاهراً .. فكان جواب رب العالمين : وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا !!! وهذا مقام آخر .. من مقامات التسليم الابراهيمى !!! وهكذا .. ما أمره ربه بأمر ظاهر .. الا استبقه .. وسارع اليه .. مستسلماً بباطنه لله على أعلى ما يكون الاستسلام .

أسلم .. أسلمت .

أسلم .. أسلمت .

أسلم .. أسلمت .

رددوها .. تدركوها .

انها بحار من نور ،، يسبح فيها ابراهيم وحده ،، لأنه مقامه وحده !!

ووصى بها ابراهيم بنيه ؟

قال تعالى : « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ، وَيَعْقُوبُ ، يَا بَنِيَّ ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » . [البقرة ١٣٢]

« ووصى بها ابراهيم بنيه » مدح له — عليه السلام — بتكيله غيره ، إثر مدحه بكاله في نفسه . وفيه تأكيد لوجود الرغبة في ملته والتوصية بالتقدم إلى الغير لفعل فيه صلاح وقربة ، سواء كان حالة الاحتضار أولا ، وسواء كان ذلك التقدم بالقول أو الدلالة . والضمير في (بها) إما للملة أول قوله (أسلمت) .

« ويعقوب » أى ووصى بالملة أو بأسلمت يعقوب بنيه « يابنى » قال ابراهيم : يابنى وقال يعقوب : يابنى .

وبنو ابراهيم — اثنا عشر — (فى قول) وهم اسماعيل ، واسحاق .. الخ . وبنو يعقوب أيضا كذلك ، وهم يوسف وروبيرل .. الخ « إن الله اصطفى لكم الدين » أى جعل لكم الدين الذى هو صفوة الأديان ، أن شرعه لكم ، ووقفكم للأخذ به .

والمراد به دين الاسلام الذى به الاخلاص لله تعالى ، والالتقياد له « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نهى عن الاتصاف بخلاف حال الاسلام وقت الموت والمراد من الأمر الذى يشير اليه ذلك النهى الثبات على الاسلام لأنه المقصود من التوصية .

ماهى هذه التوصية ؟ وما وجه الخطورة منها حتى يوصى بها ابراهيم اولاده جميعا ؟ ويوصى بها يعقوب اولاده جميعا ؟

وجه الخطورة أنها هى الطريق الصحيح الوحيد ، فى الحياة ، وماسواه ضلالات وانحرافات ، ومن هنا كانت خطورتها .

ووصى بها ؟ هل هى الملة أم هى أسلمت ؟ هذه هى تلك ، وتلك هى هذه ؟ فاذا وصاهم بالاسلام فقد وصاهم بملته ، وإذا وصاهم بملته فقد اوصاهم بالاسلام ، لأن ملته تدور على الحنيفية ، على التوجه المباشر إلى الله ، وعدم الالتفات إلى شىء مع الله ، وهذا الاسلوب من التوجه إلى الله ، يركز فى الإنسان حتمية التسليم لله ، والاستسلام لأمره ، والمصارعة والمبادرة والالتقياد له سبحانه فى كل مأمر ، لأنك إذا اتجهت مباشرة إليه فقد عرفتته ، وإذا عرفتته فقد ادركت حتمية اتقيادك لأمره .

إن ابراهيم وصى اولاده جميعا بملته .. ووصاهم بطريقته التى تدور فى كلمة واحدة :

أسلمت لرب العالمين .. وصى بها إسماعيل .. ووصى بها إسحاق .. لتتسلسل منهما إلى من ورأتهما من الأبناء ، والشعوب .. .

ولعل يعقوب كان من الذين وصاهم إبراهيم بها كذلك .. وحضرها مع أبيه إسحاق . وسمعا من جده العظيم إبراهيم .. أولاده سمعا من إسحاق نفسه بعد ذلك ..؛ يحتمل هذا أوذاك .. المهم أن تلك التوصية التي هي جماع ما عند إبراهيم قد بثا في بنيه ، لتكون توجيهها منبثا في الشعوب من بعدهم .. وليعلم الناس جميعا أنه لا طريق صحيح في الحياة سواها .. .

المشهد الرابع ... يعقوب يوصى بها أبناءه ١٢

قال تعالى : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك ، وإله آبائك ، إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون . » [البقرة ١٣٣ - ١٣٤]

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت » أي ما كنتم حاضرين حين احتضاره — عليه الصلاة والسلام — وسؤاله بنيه عن الدين ، فلم تدعون ما تدعون ؟ الخطاب لجنس اليهود . ذكر الواحدى : أن الآية نزلت في اليهود حين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أأنت تعلم أن يعقوب لما مات أوصى بنيه باليهودية ؟ . والشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى حاضر .

« إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ » أي : أى شيء تعبدونه بعد موتى ؟ والغرض حثهم على ما كانوا عليه حال حياته من التوحيد والاسلام ، وأخذ الميثاق منهم عليه . وكان هذا بعد أن دخل — عليه السلام — مصر ، ورأى فيها من يعبد النار ، فخاف على ولده ، فحثهم على ما حثهم .

« قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ، إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق » قدم إسماعيل على إسحاق لكونه أسن منه . وعد إسماعيل من آبائه لأنه شبه العم بالأب .

« إلهها واحدا » وفائدة الابدال دفع توهم التعدد الناشئ من ذكر الإله مرتين .
أو نصب على المدح .

« ونحن له مسلمون » أى مذعنون ، مقرون بالعبودية ، وقيل : خاضعون ، منقادون
مسلمون له ، وأمره ، قولا وعقدا . وقيل : داخلون فى الاسلام ، ثابتون عليه .
« تلك أمة قد خلت » الإشارة إلى ابراهيم وأولاده . والمراد ، بالأمة هنا الجماعة ،
وخلت : أى مضت . والمعنى إن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون
بمواقفهم واتباعهم .

« ولا تسألون عما كانوا يعملون » والمراد تخيب المخاطبين ، وقطع أطماعهم ، من
الانتفاع بحسنات من مضى منهم وقيل : لا تؤاخذون بسيئاتهم ، كما لا تثابون بحسناتهم .
هذا هو المشهد الرائع .. يعقوب .. ذلك النبى الكريم .. فى مصر .. وقد علا فيها
ابنه يوسف — عليه السلام — علوا عظيما .. فصار إليه الأمر والنهى .. إنك اليوم
لدينا مكين أمين .

حضرتة الوفاة .. فجمع أولاده جميعا .. ومن بينهم يوسف العظيم : ماتعبدون من
بعدى ؟ لقد كان يخاف عليهم أن يتأثروا بمخاطبة المصريين الذين لا يعبدون الله
ولا يوحده آذاك .

فلما كان جوابهم جميعا : نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق ، الها
واحدا !! فاطمأن يعقوب على أولاده أن تفتنهم معتقدات مصر الفاسدة .. البعيدة عن
ملة ابراهيم .

لقد اطمأن يعقوب أن كلمة جده العظيم ابراهيم : أسلمتُ لرب العالمين .. مازالت
تدوى فى أعماقهم .. وتسرى فى كيانهم .. وهى منح معتقداتهم !!

درجة ابراهيم ١٢

قال تعالى : « تلك الرسل ، فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس . »
[البقرة ٢٥٣]

« تلك الرسل » للايدان بعلو طبقتهم ، وبعد منزلتهم « فضلنا بعضهم على بعض » بأن خصصنا بعضهم بمنقبة ليست تلك المنقبة للبعض الآخر وقيل : المراد التفضيل بالشرائع فمنهم من شرع ، ومنهم من لم يشرع .

« منهم من كلم الله » إما موسى عليه السلام . أو : كل من كلمه الله تعالى عن رضا بلا واسطة ، وهم آدم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة . وموسى .. وهو الشهير بذلك . ونبينا صلى الله عليه وسلم وهو المخصوص بمقام قاب ، والفائز بعرائس خطاب . « ورفع بعضهم درجات » أى ومنهم من رفعه الله تعالى على غيره من الرسل بمراتب متباعدة ، ومن وجوه متعددة . وتغيير الأسلوب لثبوت ما بينهم من اختلاف الجال في درجات الشرف . والمراد ببعضهم هنا النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد به ابراهيم حيث خصه الله تعالى بمقام الخلقة ، التي هي أعلى المراتب . والدرجة بمعنى الرفع . فكأنه قيل : ورفعنا بعضهم درجات . « وآتينا عيسى بن مريم البينات » الآيات الياهرات ، والمعجزات الواضحات ، كإبراء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى .. الخ والآية ناطقة بأن الأنبياء — عليهم السلام — متفاوتة الأقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض .

وقال تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها لإبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء »
[الأنعام ٨٣]

« نرفع درجات » أى : نربا عظيمة ، عالية ، من العلم والحكمة « من نشاء » من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وإثارة صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة فيما بين المصطفين الأخيار ، غير مختصة ، بإبراهيم — عليه السلام — .

« إن ربك حكيم » أى فى كل مايفعل من رفع وخفض « عليم » أى بحال من يرفعه واستعداد له على مراتب متفاوتة .

والآن أين درجة ابراهيم ؟ إن الذى يحددها هو قوله تعالى : « نرفع درجات من نشاء » . إن الله تعالى اذن قد رفع إبراهيم درجات عظيمة .. عالية جدا .. وفضله بذلك على جميع الرسل والأنبياء .. إلا محمدا صلى الله عليه وسلم .. فانه إمام المرسلين . وقد نصت الأخبار على أن ابراهيم مقامه فى السماء السابعة . فهو فوق الأنبياء جميعا .. ودون درجة محمد صلى الله عليه وسلم .. فهو بذلك يعتبر أعلى الأنبياء درجة .. باستثناء إمام المرسلين .

وابراهيم فى هذا يعتبر أعظم شخصية بشرية على الإطلاق .. بعد محمد صلى الله عليه وسلم .. فهو فى درجات الأنبياء .. الرجل الثانى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم .. الرجل الأول .. فإذا استثنينا درجة محمد صلى الله عليه وسلم مؤقتا .. برز إبراهيم على الفور .. الرجل الأول . نرفع درجات .. درجات لا حدود لها .. لا يعلم قدرها إلا الله .. من نشاء .. ولقد شئنا أن نرفع إبراهيم تلك الدرجات .. وكُنَّا به عالمين ؟!

.. ويكفى من كان فى أدنى شك من هذا .. أن يتابع حياة إبراهيم .. يدرك على الفور مدى عظمة ذلك الرجل .. ومن هنا .. ومن هنا وحده .. يصبح حتما على الناس جميعا أن يدرسوا حياة إبراهيم .. وشخصيته .. وكمالاته .. ومذاقاته .. اجمالا وتفصيلا .. ليصلوا من خلالها إلى معرفة ربهم .. ومعرفة الطريق الصحيح اليه ..

ابراهيم فى عين اليقين ؟!

وباخت شخصية إبراهيم مقام عين اليقين .. بعد أن كانت فى علم اليقين .. حين سأل ربه : أرني كيف تحي الموتى ؟
قل : أو لم تؤمن ؟

قال : بلى .. ولكن ليطمئن قلبي .. وأراه الله كيف يحيى الموتى .. وشهد التجربة بعينه .. واشترك فيها بيديه .. فارتفعت شخصيته في هذا المقام من علم اليقين إلى عين اليقين .. إلى ذات اليقين نفسه .. حين شهد التجربة عمليا .. واشترك فيها .

ما كان بإبراهيم شك .. وما كان له أن يشك .. ولكنه يريد أن يشهد قدرة ربه شهودا ماديا .. ليطمئن قلبه اطمئنانا لا يزول أبدا .. وخلدها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال ..

نحن أحق بالشك من إبراهيم ؟

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أولم تؤمن ؟ ، قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي »

« وترحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » [البخارى]

« ولو لبثت في السجن طول ما لبث يؤمنن لأجبت الداعي . » [البخارى]

« نحن أحق بالشك » معناه نحن أحق بالشك في كيفية الأحياء لاني نفس الأحياء وعن الشافعي وغيره : ان الشك مستحيل في حق إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم . ولو كان الشك متطرقا إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لكنت أنا أحق به من إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن إبراهيم لم يشك فإذا لم أشك أنا ، ولم أرتب في القدرة على الإحياء ، فأبراهيم أولى بذلك . وقيل : معناه أن هذا الذي يظنونه شكا فليس بشك ، فلو كان شكا لكنت أنا أولى به ، ولكنه ليس بشك ولكنه تطلب لمزيد اليقين .

وقال عياض : يحتمل أنه أراد أمة الذين يجوز عليهم الشك ، أو أنه قلله تواضعا

مع إبراهيم .

« إذ قال » أى حين قال « ويرحم الله لوطا » ولوط صلى الله عليه وسلم هو ابن أخى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن آمن بإبراهيم ، وهاجر معه إلى مصر ، ثم عاد معه إلى

الشام ، فنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلسطين ، ونزل لوط الأردن ، ثم أرسله الله إلى أهل سدوم وهي عدة قرى وكانوا يعبدون الأوثان ، ويأتون الفواحش . ويسافد بعضهم بعضا على الطريق ، وغير ذلك من المفاسد . وذكر الله لوطا في القرآن في سبعة عشر موضعا . ولوط .. قيل إسم عربي من لاط لأن حبه لاط بقلب إبراهيم صلى الله عليه وسلم أي تعلق ولصق ،

« لقد كان يأوى إلى ركن شديد » وهو إشارة إلى الآية الكريمة وهي قوله تعالى (قل: لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) وقال الطيبي . قل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لأن كلامه يدل على اقناط كل ، ويأس شديد ، من أن يكون له ناصر ينصره . وكأنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم استغرب ذلك القول وعده نادرا منه ، إذ لا ركن أشد من الركن الذي كان يأوى إليه . وقيل : معناه إلى قوى استند إليه ، وامتنع به ، فيحميني منكم . وقيل : يجوز أنه نسي الإلتجاء إلى الله في حمايته الأضياف ، أو أنه التجأ إلى الله فيما بينه وبين الله ، وأظهر للأضياف العذر وضيق الصدر .

« ولو لبثت » في السجن مالبث يوسف .. وقد لبث سبع سنين ، وسبعة أشهر ، وسبعة أيام ، وسبع ساعات .

« لأجبت الداعى » يعنى لأسرعت إلى الإجابة إلى الخروج من السجن ، ولما قدمت العذر . قل الله تعالى (فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك) الآية . وصفه رسول الله عليه الصلاة والسلام بالصبر حيث لم يبادر إلى الخروج وإنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك تواضعا ، لأنه كان في الأمر منه مبادرة ومجالة لو كان مكان يوسف . والتواضع لا يصغر كبيرا ، بل يزيده اجلالا وقبرا .

ليست المسألة شكاً .. وإنما ...

ولكن ليطمئن قلبي ؟

ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام (أرني كيف تحيي الموتى) أسبابا .. منها . إنه لما قال لمرود لعنه الله (ربى الذى يحيى ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين

اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرني كيف تحيي) كما أن الإنسان يعلم الشيء ويثيقنه ولكن يحب أن يراه عيانا .

ومنها .. انه لما بشر بالخلعة سأل ذلك ليتيقن بالإجابة لصحة ما بشر به .

ومنها .. إنه إنما سأل لي شاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها ، واتصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها فأراد أن يجمع بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين .

ومنها .. ماروى أن إبراهيم أتى على دابة توزعتها الدواب والسباع فقال : رب أرني كيف تحيي الموتى ، لي شاهد ذلك لأن النفوس متشوقة إلى المعاينة ، بصدقه الحديث الصحيح : ليس الخبر كالمعاينة . ومنها .. ما قيل .. مر إبراهيم بحوت نصفه في البر ، ونصفه في البحر ، والذي في البحر تأكله دواب البحر ، والذي في البر تأكله دواب البر فقال إبليس الخبيث : يا إبراهيم ! متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟! فقال : رب أرني كيف تحيي الموتى ، ليطمئن قلبي ، ايسكن ويهتدي باليقين الذي يستيقنه . وقيل .. إنما سأل الله أن يحيي الموتى على يديه ، يدل على ذلك قوله تعالى (فصرهن اليك) فأجابه على نحو ما سأل وعلم أن أحدا لا يقترح على الله مثل هذا فيجيبه بعين مطلوبه إلا عن رضا واصطفاء ، بقوله (أولم تؤمن) بآنا اصطفيناك واتخذناك خليلا ؟ ، قال : بلى

« كيف تحيي الموتى ؟ » السؤال بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود ،

متقرر الوجود عند السائل ، فكيف هنا استفهام عن هيئة الأحياء ، وهو متقرر .

« قال : أولم تؤمن ؟ » يعنى بأحياء الموتى وإنما قال : أولم تؤمن مع علمه بأنه أثبت

الناس إيماننا ليحيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين « بلى » أى آمنت .

« ولكن ليطمئن قلبي » أى ليزيد سكوننا ، وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم

الاستدلال ، لأن ظاهر الأدلة اسكن للقلوب ، وازيد للبصيرة واليقين . وعن ابن عباس

والحسن وآخرين : ليطمئن قلبي للمشاهدة ؛ كأن نفسه طالبت برؤية ذلك فاذا رآه اطمأن .

وقد يعلم المرء الشيء من جهة ثم يطالب أن يعلمه من غيرها . وقيل : المعنى ليطمئن قلبي ، بأنى

إذا سألتك اجبتنى . وقيل : كان سؤاله على طريق الأدب . يعنى اقدرنى على احياء الموتى

ليطمئن قلبي عن هذه الامنية فأجابه الله إلى سؤاله . وقال : فخذ أربعة من الطير .. وهي الغرموق والطاووس والديك والحمامة . ولما أخذ إبراهيم هذه الطيور الأربعة قال الله تعالى له «فصرهن إليك» أي قطعهن ثم خاطهن ثم اجعلها أربعة أجزاء ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا . ففعل إبراهيم مثل ما امر به ، ثم امره الله أن يدعوهم فدعاهن ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طير يقصد بعضها بعضا ، حتى قام كل طير على حذته واتينته يمشين سعيا ، ليكون أبلغ في الرؤية التي سألها قال ابن عباس : وكان إبراهيم قد أخذ رؤسهن بيديه ، وجعل كل طير يحىء ليأخذ رأسه من يد إبراهيم . فاذا قدم إبراهيم غير رأسه يأباه ، وإذا قدم رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله تعالى وقوته . ولهذا قال الله : واعلم أن الله عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع منه شيء ، حكيم في اقواله وافعاله ! !

أثر التجربة في شخصيته ؟

ماذا أفاد إبراهيم من تلك التجربة العجيبة ؟ ! أفاد كثيرا . . أيقن أن الله يحيب دعوته .. أرنى .. فأراه . . كيف تحيي الموتى ؟ .. فأحيا له الموتى وأشركه في التجربة .. ليطمئن قلبي . . فاطمأن قلبه . . وهذا اكبر شيء أفاده إبراهيم من تلك التجربة ليطمئن قلبي .. ليزداد سكينته وطمأنينته .

وخرج إبراهيم من تلك التجربة وفي قلبه من السكينة اضعاف اضعاف ما كان به .. لقد ترقى إبراهيم مقامات كبرى حين فرغ من مشاهدة تلك التجربة . وهذه الحادثة في حياة إبراهيم تشبه إلى حد كبير حادثة الاسراء والمعراج في حياة محمد .. صلى الله عليهما وسلم .

لقد أصبح محمد صلى الله عليه وسلم صبيحة حادثة الاسراء والمعراج وعليه من السكينة اضعاف اضعاف ما كان به ، وجعل يحدث الناس بما رأى ، فمن مكذب ومن مصدق .. ويومها تلاؤا أبو بكر .. وصدقه .. فسمى الصديق .

كذلك إبراهيم خرج من تلك الحادثة ... حادثة احياء الموتى أكثر سكينته وأكبر طمأنينته .

لقد رأى لحمد من آيات ربه الكبرى في تلك الحادثة .. فنزل أكثر سكينته .. ولقد رأى إبراهيم آية من آيات ربه الكبرى .. آية كيف يحيى الموتى .. فأصبح أكثر سكينته .. وأكثر طمأنينته .. وهكذا تترقى قلوب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
ثم ماذا ؟ ثم علم إبراهيم أن له قدراً عند ربه .. قدراً عظيماً .. سأله أن يمنحه القدرة على احياء الموتى .. فمنحه تلك القدرة .. أذن له فيها .. وقال له : افعل كذا وكذا يحدث كذا .. وفعل إبراهيم ما أمر .. فوجد ما قال له ربه حقاً .. وجئته سعياً !!!

هنالك ارتفع إبراهيم ارتفاعاً عظيماً .. وأدرك أن له عند ربه مقاماً رفيعاً !!
ثم ماذا ؟ ثم شيء كامن في قوله تعالى « واعلم أن الله عزيز حكيم » .. سوف تعلم يا إبراهيم وأنت تجري بيدك تلك التجربة أنى عزيز .. لا يمتنع منى شيء .. حكيم .. في أقوال وأفعال .

ان إبراهيم شهد صفتين من صفات الله تتحقق أمامه في عالم المادة .. صفة العزة .. وصفة الحكمة فازداد بالله علماً .. على علم .

وكان هذا شيئاً من تفسير قوله تعالى في إبراهيم « وكنا به عالمين » .. أى وكنا عالمين بما فى قلبه من معرفة بالله وصفاته !! وأفاد .. وأفاد .. والله تعالى وحده الأعلم بما أفاد !!

ان الله ... اصطفى ؟!

قال تعالى : « إن الله اصطفى آدم ، ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران ، على العالمين . ذريةً بعضها من بعض ، والله سميعٌ عليمٌ » . [آل عمران ٣٣ — ٣٤]

روى عن ابن عباس — رضى الله عنه — أن اليهود قالوا : نحن أبناء إبراهيم واسحاق ويعقوب ونحن على دينهم ، فنزلت .

« إن الله اصطفى آدم » اختار آدم والاصطفاء الاختيار ، وأصله أخذ صفوة الشيء وبدأ بآدم .. لأنه أول النوع .

« ونوحا » . واختار نوحا وثنى بنوح لأنه آدم الأصغر . والأب الثانى . وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله ، لقوله سبحانه (وجعلنا ذريته هم الباقين) .

« وآل إبراهيم » واختار آل إبراهيم . قيل : اسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط .

« وآل عمران » واختار آل عمران والمراد بهم : عيسى وأمه ، مريم بنت عمران ،

بن ماشان ، من ولد سليمان بن داود .

« على العالمين » على أهل زمان كل واحد منهم .

أى اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه ، ويدخل الملك فى ذلك ومن هنا استدل

بعضهم بالآية على أفضلية الأنبياء على الملائكة ، « ذرية » نسلا .

« بعضها من بعض » فى النية ، والعمل ، والاخلاص ، والتوحيد أى سلالة منتقاة فى

الصفات العليا .

« والله سميع » لاقوال العباد « عليم » بأفعالهم وماتكته صدورهم ، فيصطفى من

يشاء منهم .

ووجه الاصطفاء فى جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس القدسية ، وما يليق بها من

الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية . حتى أنهم امتازوا كما قيل على سائر الخلق خلقا

وخلقاً .

وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى ومظهرها اسمائه ، وصفاته ومحل تجليه الخاص من عبادته ،

ومهيبط وحيه ، ومبلغ أمره ونهيه . وأما اصطفاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فمفهوم

بطريق الأولى وعدم التصريح به الايدان بالغنى عنه ، لكمال شهرة أمره بالخلة وكونه شيخ

الأنبياء ، وقدوة المرسلين وأما اصطفاء نبينا صلى الله عليه وسلم فيفهم من دخوله فى

آل إبراهيم .

وقيل : المراد بآل إبراهيم محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه كل الآل مبالغة فى مدحه !

والآن .. ما هذا .. وماذا فى هذا ؟ فيه أمر خطير .. خطير .. جد خطير .. إن الله

يعلن إلى العالمين .. إلى كل الجنس البشرى .. ثم إلى كل ما خلق من غير الجنس البشرى ..

ماذا يعلن رب العالمين .. إلى العالمين ؟ يعلن أنه اصطفى .. إن الله اصطفى .. اصطفى ماذا ؟
اصطفى آدم ؟ لماذا .. وماذا في آدم .. يميزه عن جنسه كله حتى يصطفيه ؟
فيه ما فيه .. فيه أنه النسخة الأولى من البشر .. وضع الله فيه كل ما شاء من صفات
علياً في هذا الجنس كله .. قاختاره من أجل هذا .. وتجلى عليه بما شاء من صفاته .. ونفخ
فيه من روحه .. هنا لك صدر الأمر .. اسجدوا لآدم .. أمر إلى كل الملائكة أن يسجدوا
لآدم !! لماذا ؟ لأنه قمة الجنس كله .

ثم ماذا ؟ .. ثم كانت الحياة .. وتدهورت البشرية .. وشاع فيها الانحطاط وذاع ..
فجاء دور الاختيار الثاني .. « ونوحا » .. استخلص الله من بين البشر جميعا .. انسانا
ممتازا .. اصطفى نوحا .

لماذا ؟ .. لأنه سوف يهلك البشر جميعا .. سوف يهلك الجنس كله .. ويجعل هذا
الانسان الواحد .. بداية بشرية جديدة .. وقد كان .. (وجعلنا ذريته هم الباقين) .. ثم
أغرقنا الآخرين .. أهلاك تام لكل الناس .. ماعدا نوح .. وأولاده الثلاث المؤمنين ..
سام ، وحام ، ويافث .. ومن هؤلاء بدأت بشرية أخرى .

لماذا هذا ؟ .. أمر غاية في الحكمة والاحكام .. لقد أذهب الله الجنس الخبيث كله ..
ليبدأ بشرية أصلها طيب .. مؤمن .. كما يقوم الزارع إلى حقله فيقتلع كل الحشائش الضارة
ولا يبقى منها شيئا .. الا تلك الاشجار الطيبة .. ليفسح لها المجال كي تنمو وتؤتي أكلها ..
أما تلك الملايين من الطفيليات التي لا خير فيها فيذهبها !! هذا هو ما حدث للبشرية في
عهد نوح .

تجربة عظيمة جدا .. ألف سنة يدعو نوح هذه البشرية إلى الله .. فلم يزدحم دعاؤه
الا فرارا .. ألف سنة ؟!! عشر مئات من السنين .. ولا فائدة !!! هنالك كان قراره ..
رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا !!! فمكان الأمر .. ففتحنا أبواب السماء بماء
منهمر .. وفجرنا الأرض عيونا .. فالتقى الماء على أمر قد قدر .

ثم ماذا ؟ .. وغيض الماء .. وقضى الأمر .. وقلنا : يا نوح اهبط ببركات منا عليك ،

وعلى أسم من معك.. هكذا.. تمت إبادة ملايين الحشائش الضارة.. من وجه الأرض..
ليخلو وجهها لنوح وحده لتلك الشجرة الطيبة وحدها.. ومن هذه الشجرة الواحدة.. كانت
البشرية كلها مرة أخرى!!!

تماما.. كعملية تنظيف الحقل من الحشائش الضارة.. ليخلو الحقل للشجرة
النافعة!!!

ثم ماذا؟ ثم العجب العجب.. ثم عادت البشرية إلى الفساد.. وكفرت ربها.. وأظلمت
ظلاما بعيدا!!! فجاء الدور الثالث فكان إبراهيم.. (وآل إبراهيم على العالمين) .. وتم
اصطفاء إنسان ممتاز.. وصنعه الله على عينه.. فكان إبراهيم.. وانبعث إبراهيم يعلن الدور
الجديد.. ويدعو البشرية إلى ربها.. ولكن البشرية هذه المرة أيضا.. كانت شديدة الظلمة..
كسابقتها!!! ولقد مكث إبراهيم يدعوها قرنين.. فما آمن به الا قليل!! وكانت تجربة لوط
مع قومه.. جزءا من تجربة إبراهيم الكبرى للبشرية.. دعاهم ونهاهم.. فلم ينفع فيهم شيء
بل على العكس تدهوروا تدهورا أبعد من سابقهم كلهم.. وابتدعوا انحطاطا جديدا.. هو
اتيانهم الرجال.. ما سبقكم بها من أحد من العالمين!!!

فماذا كان الأمر؟ فجعلنا عاليها سافلها.. نصف تام.. إبادة تامة لذلك القطاع من
البشرية.. انها نفس الفكرة.. حشائش ضارة.. يجب إبادتها.. لماذا؟ لتخلو الأرض
للشجرة الطيبة.. لوط وابنتيه المؤمنتين!!! فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين!!! بيت
واحد!!! من أمة ما كملها!! وتم الدمار.. وخلت الأرض للشجرة الطيبة..

هذا قطاع صغير من التجربة.. أما القطاع الأكبر.. أما باقي البشرية فإبراهيم هناك
يدعوها إلى الله ولكن الاستجابة محدودة جداً.. قليل جداً قبلوا دعوته!! إذن لابد من
أسلوب جديد في تعريف البشرية ربها وإلا لاستمرت إبادة الاجيال تباعا.. وهنا يأتي الدور
الجديد.. الذى حددته الآية تحديداً معجزاً جداً جداً.. بقولها « وآل إبراهيم »
لماذا لم يقل كما قال في آدم ونوح « وإبراهيم ».. وإنما زادها لفظة « آل ».. لماذا؟
هنا يتشعشع علينا شيء من اعجاز هذا الكتاب.. كتاب الله.. زاد إل « آل »..

لأن هذه المرحلة مرحلة جديدة .. مرحلة سوف يقوم بها إبراهيم والأنبياء الذين سيكونون من نسله .. ليس إبراهيم وحده هو صاحب هذا الدور .. ولكن هو ومعه .. ومن بعده .. وعلى ممر أجيال كثيرة .. أنبياء كثيرون .. من ذريته .. آل إبراهيم ؟!!! انه .. كتاب الله .. لا يأتيه الباطل .. من بين يديه ولا من خلفه !!! وهذا ما كان ... وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب .. وجعلها كلمة باقية في عقبه .. كان هذا الدور دورا عريضا بدأ بإبراهيم .. ثم آتاه الأنبياء من ذريته من بعده .. لم يتفرد إبراهيم هنا بالأمر وحده .. ولكن توزع الأمر عليه وعلى آله .. على الأنبياء من ذريته ..

أرأيت ؟!! إعجاز .. إعجاز .. اللهم أن كتابك حق !!! وآل إبراهيم !؟ اصطفى إبراهيم .. ثم اصطفى من ذريته كثيرين .. هم أولئك الذين اختتموا بآخهم .. محمد صلى الله عليه وسلم ..

ثم ماذا ؟ .. ثم أعجب وأعجب وأعجب .. ثم عاد يقول « وآل عمران » .. وهنا يقول قائل : لماذا نص على آل عمران .. وهل هم البعض ذرية إبراهيم .. وآل إبراهيم ؟! والجواب : أى واصطفى أنثى من آل إبراهيم .. اصطفى أنثى من البشرية .. كما اصطفى رجلا .. وهذا هو الجديد في الأمر .. أن الناس يظنون دائما أن الاصطفاء يكون من الرجال وحدهم دون النساء .. فنص الله على أنه يصطفى كذلك من النساء .. فنص هنا على « آل عمران » ،، اعلنا أنه سبحانه يصطفى كذلك من النساء ،، ليس الأمر قاصرا على الرجال وحدهم ..

ثم ماذا ؟ ،، ثم أين دليل هذا الاتجاه من كتاب الله ؟ ،، هاكه ،، دليلا ،، لا يبارى ،، ولا يجارى ،، قال جل ثناؤه « .. يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ، وَطَهَّرَكِ ، واصطفاكِ على نساء العالمين » !! [آل عمران ٤٢]

ان الله اذن اصطفاها اختارها ، كما يختار من الرجال .. انها انثى .. ولكنه اصطفاها !! هذا هو الجديد في القضية .. ومن أجل هذا نص على آل عمران .. ولكن لماذا قال هنا « آل عمران » ولم يقل « عمران » ؟ لأن الأمر سوف يتوزع على مريم

ثم على ابنها المسيح - عليه السلام - ليست وحدها .. وإنما هناك ذريتها سوف تحمل الأعباء من بعدها .. هناك المسيح - عليه السلام - !!!
ثم ماذا ؟ .. ثم يتلأأ هنا إبراهيم دورا طليعيا وحده في الأنبياء .. ومستوى رفيعا في المرسلين .. فهو بداية المرحلة الثالثة .. مرحلة دعوة البشر إلى الله والصبر عليهم حتى يتعرفوا عليه واعطائهم الفرصة ليتفكروا .. ثم هو القدوة في التعريف بالله .. ثم هو الصفوة المصطفاة .. والبذرة المنتقاة .. لينبت الله منها الأنبياء جميعا من بعده فلا بد وأن يكون شيئا ممتازا جدا .. فأى شخصية كان إبراهيم ؟ !

ما كان إبراهيم يهوديا ... ولا نصرانيا ؟

قال تعالى : « يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ؟ . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا ، مسلما ، وما كان من المشركين ، » - [آل عمران ٦٥ - ٦٧]

« يا أهل الكتاب » خطاب لليهود والنصارى .

« لم تحاجون في إبراهيم » أى تنازعون وتجادلون فيه أى : تناعون في دين إبراهيم أوشريعته ويدعى كل منكم أنه - عليه السلام - كان على دينه ؟ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « اجتمعت نصارى نجران ، وأخبار يهود ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقال النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية « وما أنزلت التوراة » على موسى « والإنجيل » على عيسى « إلا من بعده » حيث كان بينه وبين موسى - عليه السلام - خمسمائة وخمس وستون سنة وقيل : سبعمائة وقيل : ألف سنة . وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة وقيل : ألف سنة « أفلا تعقلون » ألا تفكرون فلا تعقلون بطلان قولكم ؟! وهذا تجهيل لهم في تلك الدعوى وتحقيق .

« ها أنتم هؤلاء » أنتم هؤلاء الحمقى « حاجتكم فيما لكم به علم » كأمر موسى وعيسى .

« فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم » وهو أمر إبراهيم — عليه السلام — ! « والله يعلم » حال إبراهيم ، وما كان عليه « وأنتم لاتعلمون » ذلك « ما كان إبراهيم يهوديا » كما قالت اليهود أى من الطائفة اليهودية المخالفة لما جاء به موسى « ولا نصرانيا » كما قالت النصارى أى من الطائفة النصرانية المخالفة لما جاء به عيسى .
إذن ماذا كان إبراهيم ؟!

حنيفا ؟ !

« ولكن كان حنيفا » أى مائلا عن العقائد الزائفة « مسلما » متقادا لطاعة الحق ، موحدا ، لأن الاسلام يرد بمعنى التوحيد . أى على دين الإسلام الذى ليس عند الله دين مرضى سواه ، وهو دين جميع الأنبياء وفى ذلك إشارة إلى أن أولئك اليهود والنصارى ليسوا من دين الله فى شيء ، لمخالفتهم نفس الأمر .

« وما كان من المشركين » أى عبدة الأصنام ، كالعرب الذين كانوا يدعون انهم على دينه أو سائر المشركين .. ليعم أيضا عبدة النار كالمجوس ، أو عبدة الكواكب كالصابئة وقيل : أراد بهم اليهود والنصارى لقول اليهود (عزيز بن الله) وقول النصارى (المسيح ابن الله) .

من أولى الناس بإبراهيم ؟ !

ثم يقول تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَهَذَا النَّبِيُّ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . » [آل عمران ٦٨]

« إن أولى الناس بإبراهيم » إن أقرب الناس إلى إبراهيم ، وأخصهم بإبراهيم وقيل إن أحق الناس بإبراهيم « للذين اتبعوه » أى كانوا على شريعته فى زمانه أو : اتبعوه مطلقا .

« وهذا النبي » وكون نبينا صلى الله عليه وسلم أولاهم به لموافقة شريعته للشريعة
الابراهيمية ، أكثر من موافقة شرائع سائر المرسلين بها « والذين آمنوا » وكون المؤمنين
من هذه الأمة كذلك لتبعية نبيهم فيما جاء به « والله ولي المؤمنين » ينصرهم ، ويجازيهم
بالحسنى ، كما هو شأن الولي .

قال ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت
أنا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وأنه كان يهوديا ، وما بك إلا الحسد ، فأنزل الله
تعالى هذه الآية .

لماذا يتنازعون إبراهيم ؟ !

القضية العالمية الكبرى هي هذا .. أن أهل الأديان العالمية السماوية الثلاث .. يتنازعون
إبراهيم !!! لماذا هذا ؟ ! ولماذا إبراهيم بالذات ؟ ! ولماذا ليس نبيا غيره يتنازعه هؤلاء
وهؤلاء وهؤلاء ؟ ! إنها القضية الخالدة .

أن اليهود يزعمون أن إبراهيم جد لهم وجد ابنائهم .. وصدقوا .. فاليهود من إسرائيل
النبي هو يعقوب .. ويعقوب بن اسحاق بن إبراهيم !!! .

والمسيحيون .. النصراني .. يزعمون أن إبراهيم صاحبهم .. لأنه جد المسيح .. وصدقوا
فالمسيح من سلالة اسحاق بن إبراهيم !!

والمسلمون يزعمون أن إبراهيم صاحبهم دون غيرهم لأنه جد نبيهم محمد .. وهذا صحيح
محمد من نسل اسماعيل بن إبراهيم !!!

إن الرجل إذا شخصية الجميع .. فمن هؤلاء جميعا أحق به ؟ ! هذه هي القضية الخالدة
التي ثارت .. وتثور .. وسوف تثور .. ما بقى دين من تلك الأديان السماوية الثلاث ..
إن هناك اليهود في العالم .. نحو من عشرين مليونا .. يزعمون أنهم أولى بإبراهيم ..
وهناك المسيحيون نحو من ثمانمائة مليون أو زيادة يزعمون أنهم أولى الناس بإبراهيم ..
وهناك المسلمون نحو من سبعمائة مليون من البشر يزعمون نفس الزعم ...

العالم إذا كله يتنازع إبراهيم !! والعالم إذا كله سوف يظل إلى يوم القيامة يتنازع إبراهيم !! فما معنى هذا .. وأين الحق من هذا الأمر العظيم ؟ ولماذا ظفرت هذه الشخصية بمالم يظفر به موسى .. أو عيسى .. أو محمد ؟ لماذا .. ومن هؤلاء من هو أعلى منه مقاماً .. وأكثر تبعاً ؟ لأن ذلك كان مطلباً من مطالب إبراهيم .. فأجابه الله إليه .. ألم يقل إبراهيم : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » ! ثم ألم يستجب له الله فقال « وتركنا عليه فى الآخرين » ! وقال : « إنا أخلصناهم بخالصة .. ذكرى الدار ! »

إن إبراهيم طلب هذا من ربه .. وإن ربه قد أجابه إلى هذا .. وإن هذا الذى نراه من تنازع العالم لإبراهيم .. تحقيقاً لدعائه ، وتنفيذاً لاستجابة ربه !! وما البشرية ؟ أليست أعداداً من خلق الله يفعل بها ما يشاء ؟! وهكذا .. جعلهم الله جميعاً .. يتنازعون إبراهيم .. ويثنون على إبراهيم .. ويريدون أن يظفروا بشرف الإتيان إلى إبراهيم !!

الله ... يحكم فى القضية ؟

فأين الحق إذا من تلك القضية ؟ ومن أحق بإبراهيم ؟ آليهود .. أم النصارى .. أم المسلمون ؟! فكان لزاماً أن يحكم الله فى القضية بنفسه .. وأن يعلن ذلك الحكم فى آخر كتاب أنزله إلى هؤلاء الناس .. وأن يأمر آخر رسول أرسله إليهم أن يذيع هذا عليهم .. أن يبلغه إليهم .

وكان نص الحكم .. هو تلك الآيات المحكمات .. إلى يوم القيامة « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم » .. يا أيها اليهود ، يا أيها المسيحيون .. لم تجادلون فى إبراهيم ؟! « وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده » ؟! إن كتابكم أيها اليهود وهو التوراة أنزل إليكم بعد إبراهيم .. واليهودية لم تنشأ إلا من بعد نزول التوراة ؟ وإن كتابكم أيها المسيحيون وهو الإنجيل أنزل إليكم بعد إبراهيم .. فكيف يتصور أن يكون إبراهيم مسيحياً .. والمسيحية لم تنشأ إلا بعد نزول الإنجيل ؟! « أفلا تعقلون ؟! أين عقولكم ، أين ذهبت .. أين كانت .. وأنتم تزعمون ذلك الزعم ؟! ها أنتم هؤلاء

حاججتم فيما لكم به علم « قد يعقل أن تجادلوا في اليهودية أوفى المسيحية لأنكم درستوها وقرأتم عنها .. » فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم « ؟! ولكن الذى لا يعقل أن تجادلوا في أمر ابراهيم وليس لكم به علم .. » والله يعلم وأنتم لا تعلمون « والله وحده هو الذى يعلم الحق من هذا الذى فيه تختلفون .. أما أنتم جميعا فلا تعلمون شيئا .. وما أوتيتهم من العلم إلا قليلا .

إليكم أيها المتنازعون جميعا .. اليكم أيها الناس جميعا .. الحكم في تلك القضية .. التى فيها تختلفون .. « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » قطعا .. وبدون أدنى شك .. ومستحيل أن يكون إبراهيم يهوديا .. ولا نصرانيا .. لأن ابراهيم وجد قبل أن توجد اليهودية والمسيحية التى أنتم عليها .. فكيف يتأتى له أن يكون على دين لم يكن في زمانه ؟!

« ولكن كان حنيفا » وإنما الذى لاشك فيه أنه كان مائلا عن كل العقائد الزائغة الفاسدة الضالة .. كان على الحق .. على الطريق المستقيم « مسلما » .. وكان طائعا لنا في كل ما أمرناه به .

« وما كان من المشركين » ولم يشرك في عبادتنا أحدا .. ولا شيئا .. مما تزعمون من عقائد لفقتموها .. فإن أردتم بعد ذلك أن تعلموا من أحق الناس بابراهيم .. فإليكم البيان .. « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه » .. إن أحق الناس بإبراهيم هم أولئك الذين اتبعوه في عقيدته .. هو كل انسان اتبعه .. هو كل من كان حنيفا كما كان .. مسلما كما كان .. غير مشرك كما كان .. هذا هو الإنسان الذى هو أحق الناس بابراهيم ..

« وهذا النبي » .. وإن أحق الأنبياء بابراهيم هو محمد .. هو هذا النبي .. لماذا ؟ لا نابعثناه بالحنيفية السمحة .. كما بعثنا ابراهيم بها .. ولأنه جاء بالإسلام الذى جاء به ابراهيم .. فان تنازعتم بعد ذلك في أمر ابراهيم ، وادعى كل منكم أنه أحق به .. فإليكم الحكم النهائى فى الأمر ..

« والذين آمنوا » .. ان أحق الناس بابراهيم ... كل من آمن بالله على طريقة ابراهيم

كل من آمن برسول الله محمد .. الذى هو على ملة ابراهيم .. فكل من آمن بالله ربنا
وبمحمد رسولا فهو أحق الناس بابراهيم .. وإني سوف أنصر كل من آمن بهذا الإيمان .
واتبع هذا الرسول .. الذى يتبع ابراهيم .. ويدعو إلى الحنيفية التى دعا إليها ابراهيم .
« والله ولى المؤمنين » دائما وأبدا .. إنها سنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول ..
وهكذا .. فصل الله فى القضية الكبرى .. التى تشغل أهل الأديان العالمية السماوية
الثلث .

أمر لا إبراهيم ... أن يؤمن بمحمد !

قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذُلِّكُمْ ، إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَالَ : فَاشْهَدُوا ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . »
[آل عمران ٨١]

عن على : لم يبعث الله تعالى نبيا .. آدم .. فمن بعده .. إلا أخذ عليه العهد فى محمد صلى
الله عليه وسلم ! اتن بعته وهو حى ، ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه
ثم تلا الآية . والمعنى : وإذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه النبىون على أمهم ومن هنا .. ذهب
العارفون إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبى المطلق ، والرسول الحقيقى ، والمشرع
الإستقلالى . وأن من سواه من الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — فى حكم التبعية له
صلى الله عليه وسلم .

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ » وإذ فرض على النبیین جميعا .. « قال » أى الله تعالى
للنبیین ، وهو بيان لأخذ الميثاق « أَأَقْرَرْتُمْ » بذلك المذكور « وَأَخَذْتُمْ » قبلتم . أو : هل
أخذتم « على ذلکم إصرى » على الأمم — والإصر العهد « قَالُوا : أَقْرَرْنَا » على ذلك
إصرک « قال : فَاشْهَدُوا » أى فليشهد بعضكم على بعض بذلك الاقرار . وقيل : الخطاب
فيه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام أمروا بالشهادة على أمهم « وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ »
أى على اقراركم وتشاهدكم .

مامعنى هذا ! معناه ان الله تعالى فرض على كل نبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بمحمد .. بالغيب .. ذلك النبي الذى سوف يأتى فى آخر الزمان .. فلماذا ! إعلانا لوحدة كلمة التوحيد ووحدة الهدف .. ووحدة الرسالة .. وانهم جميعا .. وإن تباعدوا فى الأزمنة ليسوا إلا رجالا بعثوا لإعلان كلمة واحدة هى لا إله إلا الله .. فتحتم والحالة هذه أن يؤمن كل منهم بالآخر .. رآه أولم يره .. وأن يؤمنوا جميعا بهذا الذى سوف يسكون خاتمهم .. وسوف تذوب رسالاتهم جميعا فى رسالته .. لتصبح هى الرسالة الجامعة ، العالمية ، الناسخة لكل الشرائع من قبلها .. إلى يوم القيامة .. وكان طبيعيا أن يأمر الأنبياء اتباعهم بالإيمان بذلك الرسول الأخير .. ليعلموهم أن الأنبياء جميعا مقدمة له .. وأنه هو المظهر الجامع لهم جميعا .. تفرقت الحاسن فيهم .. وتبدت خلاهم .. ثم تجمعت كلها فيه .. وتجلت من خلاله .. صلى الله تعالى عليهم وسلم ..

ثم ماذا ! وكان ابراهيم .. ممن أمرهم الله تعالى بالإيمان بمحمد .. قبل أن يراه .. ومن فرض عليهم ذلك .. وفرض عليهم إذاعته فى أتباعه .. وإذاعته فى ابنه .. اسماعيل .. وإسحاق ..

وماله لا يؤمن بمحمد .. وهو الذى دعاربه بكيونته فقال . «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» ! فاستجاب الله دعاءه .. وكان ذلك النبي من فرع اسماعيل .. فى آخر الزمان .

وعندى أن ابراهيم حين فرض الله تعالى عليه أن يؤمن بمحمد إنما قد طرب طربا كبيرا .. وقرت عينه .. وانشرح صدره .. أن سيكون من ذريته نبي هو امام المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين .. ولا يخفى ما فى ذلك من آثار بعيدة فى أعماق شخصية ابراهيم .. إن الرجل قد استجيب دعاؤه .. وزاده الله فضلا من عنده .. فلم يبعث فيهم رسولا منهم مجرد رسول .. وإنما خير رسول .. وأفضل رسول .. وأكرم رسول عند الله !! ان ابراهيم يرى فى حياته مدى تكريم الله تعالى لشخصه .. أن جعل سلسلة الأنبياء جميعا من نسله .. ثم جعل خاتمهم نبيا عظيما ، كريما ، رءوفا ، رحيا .. وإماما لهم جميعا !!

أى سعادة ملأت قلب الخليل ..

وأى فرحة كانت بنفسه .. حين أمره الله أن يؤمن بمحمد .. آخر الأنبياء !
وأى فضل أعظم من محمد ! وقد قال فيه ربه : « وكان فضل الله عليك عظيماً ! » وأى
رحمة أكبر من محمد ! وقد قال الله فيه . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » !
والآن .. هل أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بإبراهيم بالغيب ؛ كما أمر إبراهيم
أن يؤمن به بالغيب .

أو بمعنى أوسع وأشمل وأكمل ، هل أمر محمد أن يؤمن بجميع الأنبياء من قبله ، كما
أمروا جميعاً أن يؤمنوا به من بعدهم !

أمر الى محمد ... أن يؤمن بإبراهيم؟!

قال تعالى : « قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل ،
وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، والنبيون من ربهم ،
لا نفرق بين أحد منهم . ونحن له مسلمون . ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل
منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » [آل عمران ٨٤ و ٨٥]

انه تبادل الايمان .. انها سلسلة واحدة .. هذا يؤمن بذاك .. وذاك يؤمن بهذا ..
إشارة إلى أنها حقيقة واحدة .

« قل آمنا بالله » أمر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه ، والمؤمنين بالايان .
فضمير آمنا للنبي صلى الله عليه وسلم والأمة ،

قيل : لما أخذ الله تعالى الميثاق من النبيين أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة
والسلام وينصروه ، أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به ،
وبكتبهم . فيكون آمناً في موضع آمنت لتعظيم نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام .
أو : لما عهد مع النبيين وأممهم أن يؤمنوا ، أمر محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته أن
سيؤمنوا بهم وبكتبهم . والحاصل أخذ الميثاق من الجانبين على الايمان على طريقة واحدة .

قيل : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا « وما أنزل علينا » وهو القرآن المنزل عليه صلى الله عليه وسلم أولا وعليهم بواسطة تبليغه إليهم « وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب » المراد بالموصول صحف إبراهيم .

« والأسباط » الأحفاد . المراد بهم - على رأى - أبناء يعقوب الاثنا عشر وذرائعهم .
أى : بنى إسرائيل . أى : ما أنزل على أى نبي من أنبياء بنى إسرائيل .

« وما أوتى موسى وعيسى » من التوراة ، والإنجيل ، وسائر المعجزات « والنبيون » على تعدد افرادهم واختلاف اسمائهم « من ربهم لا تفرق بين احد منهم » أى بالتصديق والتكذيب ، كما فعل اليهود والنصارى .

« ونحن له مسلمون » مستسلمون بالطاعة والالتقياد فى جميع ما أمر به ونهى عنه .
أو : مخلصون له فى العبادة . « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » والإسلام قيل : التوحيد والالتقياد .

وقيل : شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام .

بين تعالى أن من تحرى بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم غير شريعته فهو غير مقبول منه وقبول الشيء هو الرضا به ، وإثابة فاعله عليه « وهو فى الآخرة من الخاسرين » أى وهو خاسر فى الآخرة .

وقيل : أصل الخسران ذهاب رأس المال . والمراد به هنا تضييع ما جبل عليه من الفطرة السليمة المشار إليها فى حديث « كل مولود يولد على الفطرة » وعدم الانتفاع بذلك ، وظهوره بتحقيق ضده (يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) .

ما هذا ، إنه ميثاق واحد .. فرضه الله على جميع الرسل .. والأنبياء .. والمؤمنين .. كلهم يؤمنون ببعضهم البعض .. كما آمن جميع الرسل ، وجميع أتباع الرسل بمحمد قبل أن يبعث .. بالغيب .

فرض على محمد .. والمؤمنين به أن يؤمنوا بجميع الرسل من قبله ، وبكتبهم ، وما أوتوا ..

فما معنى هذا ؟ معناه كبير جدا ..

أن الجميع يدورون في فلك واحد .. هو فلك لا إله إلا الله .. وأن هذه الحقيقة لا تختلف
وان اختلفت الأزمنة .. أو اختلف المؤمنون بها .. وأعلى من هذا .. وأعلى ..
أن الإنسان هو الإنسان .. وأنه ما خلق الا ليعبد ربه .. وأن يعرف أنه اله واحد ،
وأن رسالات الرسل كلها لا تخرج عن هذه الحقيقة .

فسواء بعث بها آدم .. أو نوح .. أو إبراهيم .. أو موسى .. أو عيسى .. أو محمد ..
أو غيرهم .. فانهم جميعا داعون إلى لا إله إلا الله .. فتحتم أن يؤمن بعضهم ببعض .. لأنهم
جميعا حلقات في سلسلة واحدة .. يشد بعضها بعضا .

وأعلى .. وأعلى .. وأعلى .. أنهم جميعا جاءوا بدين واحد تحدده كلمة « الاسلام » ..
أى الاستسلام لأمر الله ونهيه .. أى الاتقياء له سبحانه .. « ونحن له مسلمون » .. أى جميعا
منقادون لأمره .

ولذلك عقب على تلك الحقيقة مباشرة فقال « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل
منه » .. أمر نهائى .. إلى البشر جميعا .. لا أقبل من أحد أن يتعبدنى بغير الإسلام .

اعلان عام .. من رب الناس .. إلى جميع الناس .. والإسلام هو وحده الدين الذى
أقبله .. لماذا .. لماذا الإسلام وحده ؟ لأنه هو دين الفطرة .. ليس الناس وحدهم .. وإنما
جميع المخلوقات .

ولذلك يقول تعالى مباشرة بعد آية أخذ الميثاق على جميع النبيين : « أفغير دين الله
يغيرون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض ، طوعا ، وكرها ، وإليه يرجعون ! »

[آل عمران ٨٣]

ها هنا سر الأسرار .. كيف يريدون دينا غير الإسلام وهو دين الله الوحيد .
كيف .. وهو دين من فى السماوات والأرض ، كيف وله أسلم من فى السماوات والأرض ؟
ليس الإنسان وحده هو الذى تأمره أن يسلم لنا ، وإنما من فى السماوات والأرض جميعا
يسلمون لنا .. طوعا .. عن طواعية .. ورضا واستسلام وكرها .. ورغم ارادتهم وقهر أعينهم

« إن كل مَنْ في السماوات والأرضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا » [مريم: ٩٣]
إذن جميع المخلوقات أسلمت لله .. بارادتها أو قهرا عنها .. فكيف يبحث الإنسان عن
دين غير الإسلام لي ؟

أو كيف يتصور أن اقبل منه ديناً غير الإسلام ؟ كلا .. لن يسكون هذا .
إن الأمر بسيط جدا .. ان الله تعالى هو الذي أوجد كل هذه المخلوقات .. وهى كلها
بيده هو وحده .. ألاله الخلق والأمر .. فتحتم أن تنقاد كلها لأمره .. وتستسلم لأمره .. طوعا
فان أبت .. وتأتبت .. قهرها .. فانصاعت لارادته كرها ..

تلك هى الحقيقة العظمى .. التى يدور فيها الانبياء جميعا .. لا إله إلا الله .
حقيقة تحتم أن ينقاد الإنسان لربه .. أن يتبع ملة إبراهيم .. التى تدور فى : إذ قال له ربه
أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين .. وأن يتبع بعد إبراهيم .. ذلك النبي الأخير .. الذى جاء
يدعو الى ملة إبراهيم .. التى هى الإسلام .

ومن هنا أعلن الله تعالى إلى الناس أخطر بيان فى حياتهم إلى يوم القيامة « ومن يتبع
غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » .

تلك هى الحقيقة العظمى .. التى يسبح فى فلكها جميع الرسل .. وجميع المؤمنين من
بعدهم .. قد تختلف شرائعهم ، ومناهجهم ، باختلاف عصورهم ، وازمنتهم ، واحوال
اممهم ..

ولكنهم جميعا .. داعون إلى تلك الحقيقة الكبرى .. لا إله إلا الله .. أسلمت لرب
العالمين .. ولا يوجد نبي من لدن آدم إلى محمد .. دعا إلى غير هذا .. ومستحيل أن يدعو
إلى غير هذا .. وهذا هو الاسلام فى جوهره .. الذى أعلن الله تعالى أنه لا يقبل
غيره ديناً .

إن إبراهيم لأواه ؟!

قال تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى
قربى ، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن

مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ .

[التوبة ١١٣ — ١١٤]

هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ، فطلب الغفران للمشركين مما لا يجوز .

« وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » والمعنى لاجبة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَّة .

قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدو لله ، فترك الدعاء له .

وقيل الواعد إبراهيم ، أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركاً تبرأ منه ، ودل على هذا الوعد قوله : (سأستغفرُ لك ربي) « إن إبراهيم لأواه » اختلف العلماء في الأواه على خمسة عشر قولاً :

الأول : أنه الدَّعاء الذي يكثر الدعاء .

الثاني : أنه الرحيم بعباد الله .

الثالث : أنه الموقن .

الرابع : أنه المؤمن بلغة الحبشة .

الخامس : أنه المسيح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة .

السادس : أنه الكثير الذكر لله تعالى .

الثامن : أنه المتأوه ، وكان إبراهيم عليه السلام يقول . « آه من النار قبل ألا

تنفع آه » .

التاسع : أنه الفقيه .

العاشر : أنه المتضرع الخاشع .

الحادي عشر : أنه الذي إذ ذكر خطاياهم استغفر منها .

الثاني عشر : أنه الكثير التأوه من الذنوب .

الثالث عشر : أنه المَعْلَمُ للخير . (معلم كل شيء : مظهره) .

الرابع عشر : أنه الشفيق :

الخامس عشر : أنه الراجع عن كل ما يكره الله تعالى .

وأصله من التأوه ، وهو أن يُسمع صوت من تنفّس الصعداء . « حلیم » كثير الحلم ، وهو الذي يصفح عن الذنوب ، ويصبر على الأذى . وقيل : الذي لم يعاقب أحداً قط إلا في الله ، ولم ينتصر لأحد إلا لله . وكان إبراهيم كذلك . وكان إذا قام يصلي سُمع وجيب قلبه على ميلين . (وجيب القلب : خفقانه واضطرابه) .

حلیم ١٩

وتلك صفته الأخرى . . . وقد تَلَأَلَّتْ في بكره . . . اسماعيل . . . « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » [الصافات ١٠٠ — ١٠١]

كما تَلَأَلَّتْ صفة العلم منه في ولده الآخر . . . إسحاق . . .

قال تعالى « فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَمَخَضْ وَبَشِّرُوهُ بَغُلَامٍ عَلِيمٍ . »

[الذاريات ٢٨]

منيب ٢٠

قال تعالى : « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ، وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى ، يَجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ، أَوَّاهٌ ، مُنِيبٌ » . [هود ٧٤ — ٧٥]

وتلك هي الصفة الأخرى . . . التي وصفه ربه بها . . . منيب ؟! أي راجع إلى الحق دائماً . . . أي راجع إلى الله في أمره كله . . .

أتم عليه نعمته ٢١

قال تعالى : « وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » . [يوسف ٦]

« كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم » بالنبوة ، وبالحلة ، وإنجائه من النار ، وغير ذلك من النعم ، « وعلى آل يعقوب » أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوة ، « إن ربك عليم » بما يعطيك « حكيم » في فعله بك .

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ؟

قال تعالى : « قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمت الله ، وبركاته ، عليكم ، أهل البيت ، إنه حميدٌ مجيدٌ » .

[هود ٧٣]

أخرج أبو داود في سننه :

« قالوا : يا رسول الله ، أمرتنا أن نصلي عليك وأن نسلم عليك ، فأما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلي عليك ، قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على [آل] إبراهيم ، إنك حميدٌ مجيدٌ » وهكذا أصبح شيئاً ثابتاً .. في صلواتنا إلى يوم القيامة .. حين نقرأ التحيات .. أن نقول : اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم .. أى اللهم ارحم محمداً .. وآل محمد .. كما رحمت إبراهيم .

هى نفس قوله تعالى « رحمت الله ، وبركاته ، عليكم أهل البيت » .
ثم ماذا ، ثم يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم أن نقول في نفس هذه التحيات في كل صلاة : « وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم » !!

تماماً .. كما جاء في الآية !! حتى الختام .. ختام الآية « إنه حميدٌ مجيدٌ » .
والأمر الصادر من الرسول صلى الله عليه وسلم أن تختتم التحيات بقولك : إنك حميدٌ مجيدٌ !!

ما هذا ؟! هذا هو الأحكام .. والأعجاز .. من أمر هذا القرآن .. وهذه السنة البيضاء ! الملائكة تقول لسارة : رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ .. ويمضى هذا الدعاء ، أو هذا التقرير .. يمضى عليه أكثر من الفين وخمسمائة سنة .. أى منذ كان إبراهيم نبياً .. حتى كان محمد نبياً ..

ثمضى هذه القرون كلها .. ثم يأتى محمد .. فيأمر أمته أن تردد كلها .. فى التحيات .. من كل صلاة مفروضة أو مسنونة : « اللهم صلى على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على [آل] إبراهيم ، إنك حميد مجيد » !! هل هى محض صدقة ؟!! كلا .. وإنما هو صدق الوحي .. واتحاد الوحي .. ووحدته كلمة الله .. إن الذى نطق به الملائكة .. كان تقريراً لنا موسى الهى ثابت .. أن الله رحم وبارك بيت إبراهيم وآل بيت إبراهيم ..

وإن الذى أمر به محمد صلى الله عليه وسلم هو تقرير لذلك الناموس عينه .. وامتداد له .. الملائكة تدعو : رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

ومحمد يدعو : اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد .. لماذا .. لتتصل النهاية .. بالبداية .. وتتم الدائرة .

فكما كان محمد نهاية النور والنبوة من شجرة إبراهيم .. وكما أمر باتباع ملته .. وكما أمر بانتهاج نهجه .. فانه هنا يؤمر أن يتصل بنفس الدائرة .. لتتكمّل به .. وتتم وحدة النور .. وحدة الإيمان بالله ..

ولذلك أمر أمته كلها أن تردد ذلك الدعاء فى التحيات من كل صلاة !! عجائب .. غرائب .. والله عجائب .. ولكننا نقول كما قالت الملائكة فى ذلك المقام : اتعجبين من أمر الله !.

وماهى هذه الزحمت التى يرحمها الله لإبراهيم وآله، ويريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصل بها . وماهى هذه البركات التى بارك الله بها على إبراهيم وآله ..

ويريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصل بها؟ هى شئ فوق العقول .. هى هذه الأنوار .. أنوار النبوات .. المتلاحقة .. المتتابعة .. فى تلك الشجرة .. وأسناها .. وأبهاها .. نور محمد صلى الله عليه وسلم ..

هى أشياء فوق الحصر .. وفوق العقول .. فماذا نقول . نقول : اللهم صل على محمد،

وآل محمد، كما صليت على إبراهيم . وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم،
إنك حميد مجيد .

وتتذكر في ذلك المقام قوله تعالى : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ، وَعَلَى إِسْحَاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسَنٌ ، وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » ، [الصافات ١١٣]

هل هو الشجرة الطيبة ؟

في سورة إبراهيم بالذات .. من القرآن العظيم .. كتاب الله .. نجد هذه الآية : « أَلَمْ
تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ ، وَفُرْعَاهَا فِي السَّمَاءِ .
تُؤْتِي أُكْلَهَا ، كُلَّ حِينٍ ، بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »
[إبراهيم ٢٤ - ٢٥]

« أَلَمْ تَرَ » الخطاب لمن يصلح له . « كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » كيف اعتمله ووضعه في
موضعه اللائق به « كَلِمَةً طَيِّبَةً » أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة أى : حكم بأنها مثلاً
« أَصْلُهَا ثَابِتٌ » أى ضارب بعروقه في الأرض .

وجعل الشجرة بثبات أصولها ثابتة بجميع غصوناتها « وَفُرْعَاهَا » أى أعلاها أو : فروعها
« فِي السَّمَاءِ » أى في جهة العلو « تُؤْتِي أُكْلَهَا » تعطى ثمرها « كُلَّ حِينٍ » كل وقت أفقه
الله تعالى لإثمارها « بِإِذْنِ رَبِّهَا » بإرادة خالقها جل وعلا والمراد بالكلمة : لا إله إلا الله .
وقيل : كل كلمة حسنة . والمراد بالشجرة المشبه بها النخلة « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ » لأن في ضربها زيادة افهام وتذكر ، فإن تصوير المعاني العقلية بصور المحسوسات ،
وبه يرتفع التنازع بين الحس والخيال .

والآن .. ماهى هذه الكلمة الطيبة . هى لاشك .. لا إله إلا الله .. لأنها خروقة الكلم
الطيب .. وقمة أحسن الكلام .. والكلمة الجامعة لكل خير يتصور أو يكون ..
فاذا كانت الكلمة الطيبة هى لا إله إلا الله .. فان الشجرة الطيبة هى إبراهيم من
غير شك ..

لماذا . لأن الله تعالى يقول : « وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه » .. [الزخرف ٢٨]

أى جعل « لا إله إلا الله » خالدة ، مستمرة في من شاء من ذريته .. فيمن يختارهم من ذريته .. فيمن يراهم صالحين للنبوة والرسالة منهم :

وإبراهيم هو أصل هذه الشجرة الطيبة .. والأنبياء جميعاً غصونها .. وأزهارها .. وثمارها .. وسوف تظل تلك الشجرة تؤتي أكلها .. وتعطي خيرها .. إلى ما شاء الله .. بإذن ربها .. ولعل ذلك يرشدنا لماذا جعل الله هذه الآية في سورة إبراهيم بالذات .

وإبراهيم .. حقا .. وفعلا .. الشجرة الطيبة .. الباقية .. الخالدة .. في الجنس البشري كله .. إلى يوم القيامة .. إنه أصل عظيم .. لشجرة عظيمة .. انبثق منها فرعان .. فرع اسماعيل .. وفرع إسحاق .. وانبثق من فرع اسماعيل .. فروع عديدة .

ظلت تتفرع .. وتتفرع .. حتى كانت منها تلك الثمرة الكبرى .. التي اسمها « محمد » .. ثم اختتمت تلك الثمار الطيبة بها ..

وانبثق من فرع اسحاق .. فرع اسمه يعقوب .. وانبثق من يعقوب اثني عشر فرعاً .. خرج من أحدها ثمرة طيبة .. اسمها يوسف .

ثم تفرعت من تلك الفروع الاثني عشر .. فروعاً .. وفروعاً .. وكلما جاء دور ثمرة من الثمار أن تكون .. خرجت باذن ربها نبياً من الانبياء الكرام .. ايوب .. داوود .. سليمان .. زكريا .. يحيى .. وأخيراً المسيح .. واختتمت النبوة به في ذلك الفرع .. وغيرهم .. وغيرهم ..

الا أن ثمار تلك النبوات التي انبثقت عن تلك الفروع الكريمة .. لم تتوقف .. ولن تتوقف إلى يوم القيامة .. فان انتشار تعاليمهم التي جاءوا بها في العالم ، وتمدها في القلوب ، والرموس .. يعتبر امتداداً لتلك الثمار المباركة ..

فأى شجرة أطيب من هذه الشجرة ، أو أى شجرة أخلد من هذه الشجرة .

ان ابراهيم كان أمة ١٤

ندخل الآن إلى أخطر منطقة من شخصية إبراهيم .
منطقة كشف الله تعالى لنا فيها الحجاب عن تلك الشخصية ، وأرانا الحقيقة الإبراهيمية
في لآلئها الأصيل .

فقال تعالى يتحدث عنه : « إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ، قَانِتًا لِلَّهِ ، حَنِيفًا ، وَلَمْ يَكُ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ ، وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ ، فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ، حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . » [النحل ١٢٠ — ١٢٣]

أولا : ان ابراهيم كان أمة . ثانيا : قانتا .. لله . ثالثا : حنيفا . رابعا : ولم يك من
المشركين . خامسا : شاكرا لأنعمه . سادسا : اجتباه . سابعا : وهده إلى صراط مستقيم .
ثامنا : وآتيناه في الدنيا حسنة . تاسعا : وإنه في الآخرة لمن الصالحين .

تسع صفات بينات .. من شخصية ذلك الرجل .. تصالح كل واحدة منها مستقلة أن
تشع اشعاعها الباهر العظيم .. « إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » دعا — عليه السلام —
مشركي العرب إلى ملة ابراهيم ، إذ كان أباهم ، وباني البيت الذي به عزهم .

والأمة : الرجل الجامع للخير ، وقيل : الأمة الذي يعلم الناس الخير .
والقانت هو المطيع . « شاكرا » أي كان شاكرا . « لأنعمه » الأنعم جمع نعمة .
« اجتباه » أي اختاره ، « وهده إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة » قيل :
الولد الطيب .

وقيل : الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد — عليه
السلام — في التشهد . وقيل : انه ليس أهل دين الا وهم يتولونه . وكل ذلك قد أعطاه الله
وزاده صلى الله عليه وسلم .

« وإنه في الآخرة لمن الصالحين » أي مع الصالحين ، لأنه كان في الدنيا أيضا مع
الصالحين . « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » قيل :

أمر باتباعه في جميع ملته ، إلا ما أمر بتركه . والصحيح : الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع لقوله تعالى : لِكُلِّ جَبِيلًا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ .

اجتباؤه .. وهداؤه .. وآتيناه ؟!

هذا هو الثالث .. وهذه هي المفاتيح الثلاث .. التي يفتح كل منها بابا إلى شخصية ابراهيم . اجتباؤه ؟ . اختاره .. ولكن لمن اختاره ؟ لنفسه .. اصطفاؤه لنفسه . نظر في خلقه كلهم .. استعرض سكان الأرض جميعا فوجد ابراهيم أصلحهم لنفسه .. وأكثرهم استعدادا .. وأسلمهم قلبا .. فقرر أن يجتبيه .. أن يختاره .. لنفسه . انه نفس المعنى الذي قاله لموسى « وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي » [طه ٤١] هذا هو المفتاح الأول .. يفتح لنا بابا إلى ابراهيم .. ان الله اختاره بنفسه .. لنفسه .. اجتباؤه هو .. ليختصه لنفسه .. أما المفتاح الثاني .. فهو قوله « وهداؤه » . بعد أن اختاره ، تولى هدايته .. فأى هدى هداؤه .

هل هو كهذا الهدى الذي يهدى به الناس : كلا .. انه اعداد خاص .. أعده به ليكون أهلا للمستوى الذي سوف يرفعه اليه .. هداؤه .. أنعم عليه بهدى عظيم .. عظيم جدا .. هدى لا يعلمه إلا هو ..

ثم ماذا ، ثم المفتاح الثالث .. وآتيناه .. بعد أن اختاره لنفسه .. وأعده اعدادا يجعله أهلا لأن يتخصص لله .. آتاه ..

فماذا آتاه . آتاه نعماء .. لا يصل إلى مداها قلب بشر .. قد نعد شيئا من تلك النعم . فيما نعرفه من حياته ، وآثاره .. ولكن النعم الباطنة التي آتاه .. تبقى شيئا مكتوما بينه وبين الذي .. اجتباؤه .. وهداؤه .. وآتاه ..

وماذا تظن تكون تلك النعم التي أوتيها ابراهيم ؛ شئ بنسبة سعة فضل الله .. وسعة رحمته .. وسعة علمه .. وليس بنسبة استحقاق ابراهيم .. واستعداد ابراهيم .

انها مفاتيح سحرية .. إذا أدرناها .. انفتحت لنا أبواب شخصيته السحرية .. فإذا كل باب يؤدي إلى بحر من النور الذي لا أول له ولا آخر .. وفي النهاية .. تجد ابراهيم ..

أولئك .. الذين أنعم الله عليهم !؟

قال تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، من ذُرِّيَةِ آدَمَ ، ومن حملنا مع نوحٍ ، ومن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ . وإِسْرَائِيلَ ، ومن هَدَيْنَا ، واجتَبَيْنَا ، إذا تتلَّى عليهم آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا . »
[مريم ٥٨]

« أولئك » إشارة إلى المذكورين في السورة الكريمة .. سورة مريم .. ومنهم إبراهيم — عليه السلام — حيث قال فيها « واذكر في الكتاب إبراهيم .. »

وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو مرتبتهم ، وبعد منزلتهم في الفضل « الذين أنعم الله عليهم » بفنونه النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير إليه مجملًا « من النبيين » وهم بعض النبيين « من ذرية آدم » قيل : بيانية ، وقيل هي تبعية .

« ومن حملنا مع نوح » أي ومن ذرية من حملناهم معه — عليه السلام — خصوصًا وهم من عدا أدريس عليه السلام — لما سمعت من أنه قبل نوح ، وإبراهيم عليه السلام ، كان بالإجماع من ذرية سام بن نوح عليهما السلام .

« ومن ذرية إبراهيم » وهم الباقون « وإسرائيل » أي ومن ذرية إسرائيل أي يعقوب عليه السلام « ومن هدينا واجتبتنا » أي ومن جملة من هديناهم إلى الحق ، واخترناهم للنبوة والكرامة . « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » سجدا جمع ساجد ، وبكيا جمع باك أي : ساجدين ، وباكين .

والمراد من الآيات ما تضمنته الكتب السماوية سواء كان مشتملا على ذكر السجود أم لا . وسواء كان متضمنا لذكر العذاب المنزل بالكفار أم لا . ومن هنا استدل بالآية على استحباب السجود والبكاء عند تلاوة القرآن . وقيل المراد منه الخشوع والخضوع .

* * *

ما هذا ، هذا شيء عظيم .. من مقومات شخصية إبراهيم !
إنه من الذين أنعم الله عليهم .. بل هو من ذروة .. بل هو ذروة الذين أنعم الله عليهم

باستثناء محمد صلى الله عليه وسلم .. أولئك ! أولئك الذين ذكرنا .. هم قمة البشر .. وإبراهيم
قمة قم البشر .. أولئك ! الذين أنعم الله عليهم .. أى نعم .. وكم من النعم .. وكيف
تلك النعم .. لا نستطيع أن ندرك منها إلا ما يسمح به ظلامنا من إبصار .. أما حقيقة
شموسهم فلانرى منها شيئاً !!

وكما يلزم للعين كي ترى الماديات من ضوء .. فانه يلزم للعقول كي تدرك النبوة من
نور .. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .. وكما ارتقت عقولنا .. واستنارت قلوبنا كما
كنا أقرب إلى إدراك عظمة النبوات .. ونورها الباهر .

أولئك ؟ أولئك هم العظماء حقا .. الذين لا يعلم قدرهم إلا ربهم ..

سجداً ... وبكياً ؟

صفة عظمى من صفات إبراهيم الكبرى ؟! « إذا تتلى عليهم آياتُ الرحمن خروا
سُجَّداً وبُكياً » ؟! اكتبوا في ظاهرهم .. واكتبوا في باطنهم ..

أدركوا من الله .. وعظمته .. ورحمته .. وعلمه .. وجبروته .. وقهروته .. وجماله ..
وجلاله .. و... و... و... شيئاً عظيماً .. عظيماً جداً .. فرعبوا .. وزلزلوا .. أمام قهروت
الجبار .. ثم سكنوا .. واستسلموا .. أمام عظمته .. ثم اطمأنوا .. وفرحوا .. أمام ..
رحمته .. تلك القلوب العليا .. التى تجلى فيها بجماله وجلاله ..

ما إن سمعت آيات ربها .. واستشعرتها .. حتى هوت له ساجدة .. وله باكياً !!
قلوبهم على أعلى مستوى من ادراك صفات الله .. وعلى أعلى مستوى من الانفعال بصفات
الله .. انهم فى ذروة الحيوية .. وقمة الاحساس بتلك الصفات .

ومن هنا كانت سريعة الانفعال بآيات الله .. فخروا سجداً وبكياً .. بقلوبهم .. ومتى
خرت القلوب سجداً .. فقد خرت الأجسام فوراً .. ومتى خرت القلوب بكياً .. فقد خرت
العيون فوراً باكياً .

ما هذا ؟ هذا شيء من انفعالات إبراهيم .. شخصية حية إلى أبعد ما يتصور من الحياة

يحركها قلب علم من الله مالا نعلم .. فكيف كان هذا العظيم إبراهيم ؟ كان إذا تليت عليه آيات الرحمن خر ساجدا وباكيا .. ولكن أى سجود ، وأى بكاء ، من أراد أن يتصور الصورة الأبراهيمية وهى فى تلك الأحوال .

فعليه أن يتصور الصورة الحمديّة وهو يتهجد فى الليل .. ويبكى بكاء شديدا .. لقد كان إبراهيم اقرب الأنبياء إلى محمد صلى الله عليه وسلم .. إن قلب إبراهيم قلب دائم السجود البكاء !

وكنّا به عالمين ؟

أخطر منطقة من شخصية إبراهيم ! قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل » [الأنبياء ٥١]

وهناك .. فى موضع آخر يقول : « وآتيناه » . وهناك .. يقول .. « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل » . إذن ما آتاه الله من رشد .. هو التصريح بما أبهمه هناك حين قال « وآتيناه » .

آتاه رشده ! من الصغر .. من الطفولة .. سلك به مسلك العقول الرشيدة .. التى تعرف الحق من الباطل .. هو الذى عصمه .. ومنعه من الانحراف ووجهه إلى صراط مستقيم .

ثم ماذا ؟ ثم هل كان هذا محض تسلط الهى لا يملك إبراهيم منه فكّا .. ولا فضل له فيه ؟ كلا .. بل كان معدنه أصلا ممتازا .. يستحق أن يؤتیه الله كل هذه النعم ... ما دليل ذلك ؟ قوله تعالى : « وكنّا به عالمين » .. وهى من نفس معين قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .. وكنّا .. نحن الله .. به .. بإبراهيم .. عالمين .. نعلم من هو قبل أن يكون ، ومن هو حين كان .. ومن هو بعد أن مات جسده .. وانتقل إلينا بالمولود .. ومن هو فى برزخه .. ومن هو بعد يوم القيامة .. بل نعلمه أكثر من نفسه .. فاذا اخترناه فقد اخترناه على علم .. وإذا اصطفيناه فلما نعلمه من امتياز معدنه .. وما أودع فيه من أسرار وأنوار .

وكنّا به عالمين ؟ ! جملة .. يستحيل أن تصدر إلا عن إله .. قهار .. جبار .. أحاط بكل شيء علما !!! فيها قهر الألوهية .. وعلمها .. ونورها .. وصدقها .. وجمالها .. وجلالها ..
أيمكن أن يكون هذا تعبير بشر ؟ كلا .. والله .. انه كلام رب العالمين .
وكنّا به عالمين ! فيها اعماق بعيدة جدا .. كأنها تقول : ما لكم وإبراهيم ! .. وماذا تعرفون عن إبراهيم ! .. واين انتم وإبراهيم ! انه مقام وحده .. وارتفاع وحده .. نحن وحدنا الذى نعلمه .. لا أحد منكم يعرف عنه شيئا .. وهل أنتم فى مقامه حتى تدركوا عنه شيئا ! وماذا يفهم الصغار عن أفكار الكبار ! فكيف يفهمون عن إبراهيم .. أو تدركون إبراهيم ! .. أنا .. أنا وحدى الذى اعلمه ... وكنّا به عالمين !!! كأن الآية تشير إلى شيء من هذا .. أو أبعد من هذا .. فانظر ماذا تكون شخصية إبراهيم بعد ذلك ! .

وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا !

والضهير عائد على إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب .. ، أى على إبراهيم والانبياء من ذريته .. وكون إبراهيم اماما شيء مفروغ منه . . فقد قيل فيه منفردا « إني جاعلك للناس إماما » .. ولكن الجديد هنا .. قوله : « يهدون بأمرنا » أى أن عماد هذه الأمامة « يهدون بأمرنا » . أى إنهم قدوة للناس . . ليهدوا الناس بأمر الله ، ، أى بشريعته . . أى بأوامره .. أى انهم تخصصوا فى هذا الفن ، ، الذى هو ارفع فنون التوجيه فى العالم .
انهم يوجهون البشرية نحو ربها .. على هدى من شريعة ربهم .. لا يبتدعون للناس من مفاهيمهم الخاصة . وإنما يوجهونهم نحو ربهم .. على هدى من توجيه ربهم .
بأمرنا ! بشريعتنا .. بأوامرنا ونواهيها . فأبراهيم إذن صاحب شريعة وصاحب وحى مستقل .. وصاحب مفاهيم ربانية .. فأى أثر لهذا كله فى شخصيته !

وأوحينا اليهم ... فعل الخيرات .. ؟ !

أمرناهم عن طريق الوحي أن يفعلوا الخير .. مطلق الخير .. الخير يعنى البشرية كلها .. لا ينحصرهم وحدهم .. وإنما يمتد إلى غيرهم .. عبر الأجيال والقرون .. وأمرناهم أن يأمروا

أتباعهم بذلك .. فهم أئمة للناس في فعل الخيرات .. وآمرون للناس أن يفعلوا الخير ..
ثم ماذا !

واقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؟

أوحى الله تعالى إلى ابراهيم واسحاق .. ويعقوب .. أن يقيموا الصلاة .. وأن يؤتوا
الزكاة .. ليكونوا للناس أئمة في ذلك .. ان ابراهيم صاحب شريعة فيها صلاة .. وصاحب
شريعة فيها زكاة .. إنه يبين للناس كيف يصلون ، وكيف يخرجون زكاة أموالهم ..
ثم ماذا ؟

وكانوا لنا عابدين ؟!

لنا ؟ لا شيء آخر سوانا .. لنا .. يتجهون إلينا بعبادتهم .. لا يشركون
بنا شيئاً .

لنا عابدين ؟ لا يعرفون لهم رباً سوانا .. ولا يتجهون بوجوههم إلى شيء آخر . تخصصوا
لنا .. فهم عبادنا نحن .. لا يشركون في عبادة ربهم أحداً .. فشخصية إبراهيم إذن شخصية
إمامة .. وقد تقدم عموم امامته للناس .. وشخصية تشريع .. تأمر بالخير ، وإقامة الصلاة
 وإيتاء الزكاة .. وشخصية غابدة في كل أحوالها .. وكل مقاماتها .. عابدة على أعلى مستويات
العبادة وأرقاها ..

لا تشرك بي شيئاً ؟!

قال تعالى . « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، أن لا تشرك بي شيئاً » .

[الحج ٢٦]

هذا قوام شخصيته .

ولا تشرك بي شيئاً ؟! هذا هو الأمر العام الصادر من الله إلى عبده إبراهيم .. إياك
يا إبراهيم أن تشرك بي شيئاً .. أى شيء قل أم كثر .. أنا خالق كل شيء .. يا إبراهيم ..

فكيف تتجه إلى المخلوق وتترك من خلق ! لا يحل لك يا إبراهيم أن تشرك بي شيئا ..
اطلاقا .. لا وساطات .. لا حجب .. لا التواءات .. لا شفعاء .. لأصنام .. لا شيء يجوز أن
يكون بيني وبينك ، وإنما اتجه إلى مباشرة .. ووجه وجهك إلى ربك وحده ..

هذا هو الأمر الصادر إلى إبراهيم .. وقد قام به خير قيام .. ووفى بحقوقه خير الوفاء ..
وعاش ومات حنيفا .. أى مائلا عن الانحرافات .. وعن كل شيء .. متجها إلى الله
وحده .. مباشرة .. ثم ماذا ؟

وطهر بيتي ؟

ثم يقول له تعالى : « .. وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ [الحج ٢٦]
وهى تنمة الآية السابقة .. أى ينبغى عليك أن تطهر بيتي .. أن تطهر قلبك .. الذى
هو موضع تجلياتي عليك .. هذا البيت ينبغى أن تطهره من ماذا ؟ من كل انواع الرجس ..
« فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » [الحج ٣٠]
نظف قلبك من كل وسخ يتصور .. ليكون أهلا لاستقبال تجلياتي وانوارى .. ومر
الناس بذلك .. طهره .. ليستقبل الطائفين .. انوارى التى سوف تطوف بقلبك
والقائمين .. أنوارى التى سوف .. تبقى بقلبك .. والركع السجود .. وأنوارى التى سوف
تخضع بقلبك ..

وأذن فى الناس بالحج ؟

وعليك يا إبراهيم أن توجه الناس إلى .. أن يقصدونى .. أن يريدونى .. أن
يعرفونى .. وارمز لهم يا إبراهيم فى ذلك بتلك القريضة المسماة بالحج .. فتكون الكعبة
قبلتهم .. توجههم .. إلى .. وتكون مناسك الحج كلها تمريناهم على الانخلاع من الدنيا ..
والتخصص لى ..

فهل استجاب إبراهيم إلى كل هذا ؟ نعم .. عاش ومات سليم القلب .. ونادى فى

الناس بالحج .. وما زال نداءه يتحقق في تلك الافواج التي تهوى افئدتها إلى بيت الله
كل عام .. بل في كل من توجه إلى القبلة يعبد الله تعالى نافلة أو فرضا ..
شخصية ! يالها من شخصية !

أعداء إبراهيم ١٤

قال تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً من المجرمين ، وكفى بربك
هاديا ونصيراً » [الفرقان ٣١]

كما جعلنا لك يا محمد أعداء من المشركين ، يقولون ما يقولون ، ويفعلون ما يفعلون ،
من الأباطيل ، جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة ، والدعوة إليها ،
عدوا من مرتكبي الجرائم والآثام .

« وكفى بربك هاديا ونصيرا » وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة
مطالبه ، والنصر على أعدائه أي كفاك مالك أمرك ! ومبلغك إلى الكمال ، هاديا لك إلى
ما يوصلك إلى غاية الغايات ، التي من جملتها تبليغ ما أنزل إليك ، وناصرالك عليهم على
أبلغ وجه

هؤلاء هم أعداء إبراهيم .. انهم المجرمون .. في كل زمان .. وفي كل مكان ..
المجرمون .. الذين يرغبون في الاجرام ، وينزعجون إلى الانحراف عن الخط المستقيم ..
هؤلاء لا يحبون إبراهيم لأنهم يريدون أن ينحرفوا .. وإبراهيم يريد أن يستقيموا ..
فستحيل أن يتلاقى الطرفان

هذا من جهة الناس .. فهل حدد إبراهيم أعداءه من جهة الخلق عموما ؟

إبراهيم يحدد أعداءه ١٥

قال تعالى : « قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم
عدوئي ، إلا رب العالمين » . [الشعراء ٧٥ — ٧٧]

وهنا تتجلى نفسية إبراهيم .. اعماق نفسيته .. انه يعلن أن هذه الحقارات .. المسماة

بالأصنام .. التى يعبدها قومه .. يبغضها أشد البغض .. يبغضها لأنها تعبد من دون الله .. وهى أحقر من أن تعبد .. أحقر من أن تكون شيئاً يتجه اليه الناس .. انها لاتعدوان تكون حجارة .. أو قطعاً من خشب أو نحاس .. فكيف تعبد من دون الله !! إبراهيم يكره هذه الحقارات كرها شديداً .. ويبغضها بغضا حارقاً .

وإنما يحب شيئاً واحداً حباً شديداً .. لأنه أهل للحب ، وأهل لأن يتجه اليه الإنسان . « إله الرب العالمين » .. الذين خلقنى فهو يهدين .. الخ ان إبراهيم هنا يصور نفسيته تصويراً صادقاً .. إلى أقصى درجات الصدق .. إنه يعلن إلى العالم كله أنه يشعر أن أكبر عدوله هو تلك الحجب التى تحجبه عن الله الحق .. سواء أكانت الحجب أصناماً تعبد .. أو دنيا أو اشخاصاً .. أو رؤساء .. أو شفعاء .. أو أى شئ يشغل الإنسان عن ربه .. أى يحجبه عنه .

وهنا دقيقة عميقة جداً .. تسمح لنا أن ننفذ إلى اعماق إبراهيم .. إنه يكره أشد الكره أى شئ يحجبه عن ربه .. مهما كان هذا الشئ .. انه يريد ان يهاجر إلى الله .. ويترك الحجب كلها وراءه .. وهذا واضح جداً فى شخصيته .. حين قال : انى مهاجر إلى ربى سيهدين .. هجر أباه .. وهو أقرب الناس اليه .. وهجر قومه .. وهم عشيرته .. وهجر وطنه إلى الشام .. وما ادراك ما حب الاوطان !

ثم علا .. وارتفع .. حين هجر عاطفة حب الابن الا وحدى الكبير .. فسارع إلى ذبحه .. حتى لا يحجبه حب الأبناء عن ربه .. فارتفع على عاطفة الابوة .. حتى لاتكون حجاباً بينه وبين محبوبه .. وهكذا .. وهكذا .. فهو شديد البغض .. يكره كأشد ما يكون الكره كل ما يحجبه عن محبوبه ..

وقوله « فانهم عدولى ، إله الرب العالمين » .. يصور أدق تصوير احساسه هذا .. انه يتحدث عن نفسه .. عن شخصيته .. وانه لصادق .. أشد الصدق ..

فانهم .. لم يقل فانه .. وإنما بصيغه الجمع .. أى كل شئ يعبد من دون الله .. أى كل ما سوى الله .. عدولى .. يعتبر عدواً لى لأنه يحجبني عنه .. وأنا لا أريد شيئاً يبنى

وبينه .. أريده هو مباشرة . فأى شيء يصدني عنه .. أو يحجبني .. أوعوق سيرى إليه ..
هو عدولي .. أكرهه أشد الكره .
إلا رب العالمين .. إلا هذا الذي خلقتني .. وأوجدني .. هو وحده محبوبي ..
ووجهتي .. ومقصودي .
هذه نفسية إبراهيم .. كما يصورها إبراهيم .. أو هذا إحساسه .. كما يشعر به .. ومن أدرى
بإبراهيم من إبراهيم !

من أولى العزم ؟

قال تعالى : « وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْ نُوحٍ ، وَإِبْرَاهِيمَ ،
وَمُوسَى ، وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ
وَأَعِدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا . » [الأحزاب ٨٧]

« وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ » واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم
بتبليغ الرسالة ، والشرائع والدعاء إلى الدين الحق ، وذلك — على ما قيل — وقت استخراج
البشر من صلب آدم — عليه السلام — كالندر . وقيل : أنه سبحانه أخذ من النبيين عهودهم
بتصديق بعضهم بعضا ، واتباع بعضهم بعضا .

وقيل : أنه أخذ الله تعالى ميثاقهم بتصديق بعضهم بعضا ، والإعلان بأن محمدا رسول
الله ، وإعلان رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نبي بعده .

« وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » تخصيصهم بالذكر مع
اندراجهم في النبيين اندراجا بينا للايذان بمزيد مزياتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب
الشرائع ، واشتهر أنهم أولو العزم من الرسل ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .
عن أبي هريرة : أنهم خيار ولد آدم عليهم الصلاة والسلام .

وتقديم نبينا صلى الله عليه وسلم مع أنه آخرهم بعثة للايذان بمزيد خطره الجليل .
« وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » أى عهدا عظيم الشأن ، أو وثيقا قويا .

أين المنافذ إلى شخصية إبراهيم هنا ! أنه أحد خمسة .. هم أولو العزم من الرسل .. هم قمة الرسل .. وإذا كان النبيون هم صفوة البشر .. وهؤلاء قمة الصفوة .. فهم إذن صفوة الصفوة .. ومقرر أن قمة هؤلاء الخمسة هو محمد صلى الله عليه وسلم .. وأن الذي يليه هو إبراهيم .. فإبراهيم إذا هو الرجل الثانى فى البشرية على الإطلاق .. فهو الرجل الأول عند الله .. بعد محمد .

رجل هذا شأنه .. كيف كانت شخصيته .. وكيف كانت ارادته ! ويكفى أن الله تعالى يقول « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » أى فرضنا عليهم فروضا شاقة ، شديدة ، لا يستطيعها إلا هم وحدهم .. ليكونوا أهلا لحل رسالاتنا ، وكلماتنا ، إلى الناس جميعا .. وحسبنا فى هذا المقام .. أن فرض الله عليه أن يذبح ابنه .. فمن من الناس يستطيع أن يحتمل هذا البلاء ؟

صادق ١٢

ثم يقول تعالى مباشرة : « لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدُقِهِمْ » [الأحزاب ٨]
تقرير بأن هؤلاء الرسل فى القمة من الصدق .. الذى هو أول شرط من شروط الرسل .. إنه يتحتم أن يكونوا أصدق الناس فى كل أحوالهم ومقاماتهم .. لأن الله سوف يأتهم على خبير السماء .

ليسأل الصادقين عن صدقهم ؟ .. إن هؤلاء الرسل هم الصادقون .. سوف يسألهم الله عن ذروة الصدق .. عن تلك الرسالات التى صدقوا الناس فى تبليغها .. هل بلغوها .. حق البلاغ .. لقد كان إبراهيم صادقا .. فى ذروة الصدق !!

ويخشونه ١٢

قال تعالى : « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ، وَيَخْشَوْنَهُ ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا » [الأحزاب ٣٩]

« الذين يبلغون رسالات الله » صفة للذين خلوا .

« ويخشونه » أى يخافونه تعالى ، فى كل ما يأتون ، ويذرون ، لاسيما فى أمر تبليغ الرسالة « ولا يخشون أحدا إلا الله » فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه — عليه الصلاة والسلام — من الاحتراز عن لأئمة الناس من حيث أن إخوانه المرسلين لم تكن سيرتهم التى ينبغى الاقتداء بها ذلك .

« وكفى بالله حسيبا » أى كافيا للمخاوف . أو : محاسبا على الكبائر والصغائر من أفعال القلب ، والجوارح ، فلا ينبغى أن يخشى غيره . .
والخشية أخص من الخوف لأنها الخوف الشديد ، والمنفى فى الآية ههنا هو ذلك ، لا مطلق الخوف ، المثبت فيما حكى عن موسى عليه السلام .

وقالوا : الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه .
ما هذا ؟ هذه هى الصفة الأصلية من صفات شخصية إبراهيم الكبرى .. التى تصدر عنها كل أحاسيسها ، وصفاتها ، وأفعالها ، وأقوالها .

ويخشونه !! إن هؤلاء الرسل .. كلهم .. يخافون الله تعالى أشد الخوف .. ليس هذا الخوف الغريزى الجائز صدوره عن البهائم وسائر البشر .. كلا .. بل هو هذا الخوف المقرون بالتعظيم والإجلال والمهابة والرهبة .. خوف أعماقه بعيدة جدا .. يكفى ما قلب أحدهم منه .. إذا وزع على قلوب البشر جميعا .. أن يحدث فيهم كلهم رعبا !!! لماذا .. لماذا كل هذا .. لماذا يعيش هؤلاء الرسل فى مثل هذا الرعب الشديد ! الأمر بسيط جدا .. لو علم السبب لبطل العجب .. بأنهم يعلمون من الله ما لا يعلم سائر الناس !!

ولكن ما هو هذا الذى يعلمونه من الله فجعلهم كذلك ! هو ان الله تعالى كشف لهم صفاته ، وأفعاله ، وأسراره .. أوقفهم على جلاله ، وقهروته ، وجبروته ، وملكوته . . فرعبوا رعبا شديدا .. سيطر على أحاسيسهم كلها .. ووجهها نحو الحق .. والصدق .. دائما وأبدا .. علموا من الله .. من قوته .. من بطشه .. من صفاته .. ما جعلهم دائما فى خشية منه .

ولقد كان إبراهيم كذلك .. بل قمة ذلك .. بعد محمد صلى الله عليه وسلم . فهو هناك

يحب الله حبا شديدا .. وهو هنا يخشى الله خشية شديدة .. وهاتان هما الصفتان اللتان تتمركز عليهما شخصية كل نبي دائما وأبدا . الحب .. والخشية .. وهم في ذلك درجات .. وعلى قدر نصيبهم من هاتين الصفتين يكون مقامهم من الله تعالى .. ومن هنا كان محمد صلى الله عليه وسلم أعلى البشر مقاما عند ربه .. كان علمه بالله .. سبب خشيته لله .

ومالنا نذهب بعيدا .. وهاهو الله يكفيننا مثونة ذلك كله .. بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

إنما يخاف الله خوفا شديدا .. ويعظمه تعظيما كبيرا .. العلماء .. العلماء بالله .. فكيف إبراهيم .. وهو قمة العلماء .. وفي الذروة منهم ! ويخشونه !! هو وحده .. الذي يخشونه . ثم ماذا ؟ « ولا يخشون أحدا إلا الله » .. هذه أيضا خطيرة جدا . انهم لم يقفوا عند حد خشية الله كما يفعل أولئك المتصوفة الذين لم تتكامل معرفتهم بالله .. تراهم يذوبون من خشية الله .. ثم يصابون بعد ذلك بالشلل النفسى .. فلا يجاهدون عدوا في الله .. ولا يجودون بأنفسهم في سبيل تبليغ رسالاته .. وإنما هم يخشون ربهم .. ويقفون عند ذلك .. فهم قوم سلبيون .. لا أثر لهم في مجتمعاتهم .. كأولئك الرهبان في معابدهم .. يذوبون خوفا من الله .. ثم ماذا بعد هذا ! .. لا شيء !!!

أما الرسل .. أما هؤلاء الكاملون المتكاملون المبكرون .. فليسوا كذلك .. ان خشيتهم لله .. تحركهم أشد الحركة نحو مجاهدة الناس .. فتراهم ينطلقون إلى الناس جميعا يدعونهم إلى الله .. فان أبوا قاتلوهم على ذلك .. حتى يظهر الله الحق على أيديهم .

لماذا ! .. لأنهم لا يخشون أحدا إلا الله .. لأنهم أشجع ما خلق الله من عباده . لا يخشون .. لا يخافون .. ولا يكبر في صدورهم أحد . فهم يجترئون على الخلق .. ويدعونهم إلى ربهم .. انهم إيجابيون .. وليسوا سلبيين كبعض المتصوفة .. أ وهؤلاء الرهبان ..

وذلك تجده واضحا في تسلسل كلمات الآية « الذين يبلغون رسالات الله .. ويخشونه .. ولا يخشون أحدا إلا الله » أى أنهم مصلحوا لتبليغ رسالات الله .. وما تستلزمه من جهاد الناس جهادا كبيرا إلا لأنهم يخشون الله .. وإلا لأنهم لا يهابون أحدا من الناس .

ولقد كان إبراهيم — عليه السلام — فى القمة من تلك الصفة الكبرى .. كان يخشى الله .. ولا يخشى أحداً إلا الله ..
انظر إليه حين قام وهو قى .. وحده .. فى العالم كله .. فخطم الآلهة كلها .. ثم وقف على مشهد من الأمة كلها يعلن أنه فاعل ذلك وحده .
قوة خارقة .. صدرت من تلك الشخصية .. من تلك الصفة .. ويخشونه .. ولا يخشون أحداً إلا الله .
أو انظر إليه .. يلقى إلى الجحيم .. فلا يهتز ولا يجبن .. ولا يخشى أحداً إلا الله !!!
هذه هى الصفة العظمى من صفات إبراهيم .. وهى المحرك لتلك المواقف الكبرى التى عنه صدرت ..

مخلص ١٢

وأخرى .. أعظم .. وأكبر .
قوله : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ . »
[الصافات ١٥٩ — ١٦٠]
ولقد كررها الله تعالى فى تلك السورة « الاعداد الله المخلصين » .
فمن هم أولئك عباد الله المخلصون ؟ هم الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل بموجب الإنذار . وقرىء بكسر اللام ، أى الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى فإبراهيم إذن هو أحد أولئك .. أحد المخلصين .. وأحد المخلصين .. على القراءتين .. أو قل : إن الله أخلصه لنفسه .. فصار بذلك من المخلصين لربه .. وحين نقول أن إبراهيم مخلص لله .. ومخلص لله .. لا نغنى أنه فى مستوى ذلك الإخلاص التافه الذى يكون منى ومنك نحو الله .. كلا .. وإنما هو على مستوى الرجل الثانى فى البشر .. قربا من الله .

فهو يتحرك لله ، ويتكلم لله ، ويفكر لله . ومنزه لله ، وأنفاسه لله ، وكل ما فيه ،

وما يصدر عنه ، خالصا لله وحده .. علي مستوى رفيع .. رفيع .. لا يعلمه إلا الله .. إلا الذي أخلصه لنفسه .

فكل ما كان من إبراهيم كانت فيه .. في أعماقه تلك الصفة .. ولذلك تقبلها كلها منه ربه تبارك وتعالى .. فما من دعوة صدرت عن إبراهيم إلا استجاب الله تعالى لها .. لماذا ؟ لأنها صادرة عن تلك الصفة .. صفة الإخلاص بالله .. والله .. مُخْلِص .. ومُخْلِص .. إلا عبادَ الله المُخْلِصين ؟! وإبراهيم .. كان في القمة من هؤلاء المُخْلِصين ؟!

كذلك نجزي المحسنين ؟!

وتلك صفة أخرى من صفاته .. الإحسان ...

إن إبراهيم في القمة من ذلك الإحسان .. وإذا كان الإحسان قد حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .. فإن إبراهيم فوق هذا التحديد .. يبعد .. لأن ذلك مقام العوام . والجاهير .. أما إبراهيم أما ذلك الذي اتخذ الله خليلا .. وأراه ملكوت السماوات والأرض .. ذلك الذي هذا هو شأنه .. فإنه فوق ذلك التحديد .. إنه لا يعبد الله كأنه يراه .. بل يعبدوه وهو يراه .. يراه الرؤيا التي اذن له فيها ربه .. وتناسب مقامه الذي رفعه إليه .. إنه إذا قمة في تلك الصفة .. صفة الإحسان .

وهذا واضح في قوله تعالى « .. إنا كذلك نجزي المحسنين » .. ان فيها إشارة إلى أن إبراهيم ذروة المحسنين .. وقتهم .

إنه من عبادنا المؤمنين ؟!

ثم يصفه تعالى بقوله : « إنه من عبادنا المؤمنين » . [الصفات ١١١]
أى الكاملين في الإيمان .. ومرة أخرى نكرر أن إبراهيم كان مؤمنا .. ولكن ليس كإيمان الناس — أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كلا .. بل شيء فوق هذا .. شيء يوازي أن اتخذ الله خليلا ..

ومن كان ذلك مقامه .. كان من الله بمكان يجعل إيمان البشر جميعا .. الاحمدا صلى الله عليه وسلم .. إيماننا تبدو تلك التحديدات إلى جوارها .. مستوى بسيطا .. وظلالا باهتة .. ولكن إبراهيم مقام وحده .. فوق ذلك كله .. مقام لا يعلمه إلا الله الذي قال له « أولم تؤمن » ؟! وإلا إبراهيم الذي أجابه : « بلى ، ولكن ليطمئن قلبي » .. ان في هذا السؤال .. تقرير من الله بأن إبراهيم قد آمن الايمان الكامل .. وإن في هذا الجواب تقرير من إبراهيم بأنه فعلا قد آمن .

وما ظنك بايمان يقرره الله ، ويقرره خليله .. ولكن ذلك التقرير بينهما هما وحدهما .. لأن أحدا غيرهما لا يستطيع ادراكه ؟!

ماذا يعلم عن الله ؟

قال تعالى : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْخُلَصِينَ » .

[الصفات ١٥٩ - ١٦٠]

كل ما يصف الناس به ربهم ويتصورون .. فالله اعلى من ذلك .. وإنما المخلصون وحدهم هم الذين يعلمون عنه العلم الصحيح وإبراهيم قمة هؤلاء .. « سبحان الله عما يصفون » تنزيه من جهته تعالى لنفسه عن الوصف الذي لا يليق به أى أن الله تعالى منزّه عن كل ما يصفه به الناس انه فوق ذلك كله .. وفوق التصور .. وفوق الادراك .

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْخُلَصِينَ » ولكن المخلصين هم وحدهم الذين يصفون الله تعالى الوصف اللائق به .. ويعلمون عنه العلم الصحيح الذى يمكنهم من وصفه تعالى بالصفات اللائقة به سبحانه .. فماذا كان يعلم إبراهيم عن ربه ، وهو قمة هؤلاء المخلصين ؟ لقد كان يعلم كثيرا .. شيئا فوق اوهامنا .. وإيماننا .. وتصوراتنا .. ومعتقداتنا .. كلنا .. إنه الخليل .. فأى علم كان علمه ؟! أو أى معرفة بالله كانت معرفته ؟!

سبحان ربك .. عما يصفون ١٤

قال تعالى : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .
[الصفات ١٨٠ - ١٨٢]

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون » تنزيه لله تعالى شأنه عن كل ما يصفه الناس ..
كانه قيل : سبحان من هو مريبك ومكملك ، ومالك العزة والغلبة على الإطلاق .
« وسلام على المرسلين » تشریف للرسول كلهم ، بعد تنزيهه تعالى عما ذكروا تنويه
بشأنهم ، وإيدان بانهم سالمون عن كل المكارِه ، فأزود بكل المآرب .
« والحمد لله رب العالمين » إشارة إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمة الثبوتية ، بعد
التنبيه على اتصافه عز وجل بجميع صفاته السلبية . وإيدان باستتباعها للأفعال الحميدة التي من
جملتها إفاضته تعالى على المرسلين ، من فنون الكرامات السنية ، والكمالات الدينية ،
والدنيوية ، وأسبابه جل وعلا عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة ،
والباطنة الموجبة لحمده تعالى .

إذن المرسلون :- وحدهم هم الذين يستطيعون وصف الله تعالى الوصف الصحيح ..
أما من عداهم من البشر .. ليسوا أهلا لذلك .. فكيف بإبراهيم ؟ .. إنه يعلم من الله
ما لا نعلم جميعا .

وإذا كان يعقوب .. وهو شيء من إبراهيم يقول عن نفسه « وأعلم من الله
ما لا تعلمون » .. فماذا يمكن أن يقول إبراهيم؟ انه يستطيع أن يقول لجميع الرسل سوى محمد
- صلى الله عليه وسلم - وأعلم من الله ما لا تعلمون!!!

أولى الأيدي والأبصار ١٥

قال تعالى : « واذكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » .
[ص ٤٥]

مدح آخر .. يمدحه الله تعالى به .. وبشره شرفا رفيعا .. « واذكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ

وإسحاق ويعقوب » وخص بعنوان العبودية لمزيد شرفه .. « أولى الأيدي والأبصار »
 أولى القوة في الطاعة ، والبصيرة في الدين . الأيدي : مجاز مرسل عن القوة . والأبصار :
 جمع بصر بمعنى بصيرة . أو أولى الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة . وقيل : الأيدي النعم
 أى : أولى النعم التى أسداها الله تعالى اليهم من النبوة ، والمكانة . أو : أولى النعم
 والاحسانات على الناس بارشادهم وتعليمهم إياهم .

فما معنى هذا كله ؟ معناه ان إبراهيم .. عبد لله . وهذه صفة من أعلى صفات إبراهيم ..
 واذكر عبادنا .. إبراهيم .. الله يقرر انه ارتضى إبراهيم عبدا .. وذلك أعلى مقامات إبراهيم
 عند ربه .. وايسر عبودية إبراهيم كعبودية سائر المؤمنين .. وإنما .. عبودية عليا ..
 توازى مقام الرجل الذى اتخذ الله خليلا .

ثم ماذا ؟ ثم إبراهيم من أهل القوة في الطاعة .. من أهل العزم .. من أهل الإرادة
 التى لا تتقهقر أمام الشيطان .. قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .. ليس
 للشيطان أدنى تسلط أو تأثير على عباد الرحمن .. فكيف بإبراهيم وهو فى القمة من ذلك ؟
 ان ارادته جبارة .. خارقة .. ليس للشيطان عليه أدنى سلطان .. فهو إذا جاهد فى الله ..
 أوتى بالطاعات .. أو دعا إليه .. أو فعل الخيرات .. أو تقرب إليه .. انطلق قويا .. ذاقوة
 حبارة ..

ثم ماذا ؟ ثم إبراهيم من أهل الأبصار .. من أهل البصيرة .. ولكن أى بصيرة ؟
 بصيرة تناسب كذلك مع مقامه من ربه .. بصيرة فوق بصائر الرسل جميعا .. والمؤمنين
 جميعا .. الاخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .. فماذا كان يرى إبراهيم .. بقلبه ؟ كان يرى
 ما يرى .. الله وحده الذى يعلم !!

انا أخلصناهم

ثم يقول تعالى مباشرة « إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ مُخْلِصَةً » ذكرى الدار . [ص ٤٦]
 أى جعلناهم خالصين لنا ، بسبب خصلة خالصة جليلة الشأن ، لا شوب فيها ، هى تذكرهم

دأما الدار الآخرة فان خلوصهم في الطاعة ، بسبب تذكرهم اياها وذلك لأن مطمح أنظارهم، ومطرح أفكارهم، في كل ما يأتون ويذرون ، جوار الله عز وجل ، والفوز بملقائه . ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة .

إنا أخلصناهم ؟ ! تعبير لا يصدر إلا عن إله !! إنا نحن الله . . أخلصناهم . . جعلنا إبراهيم خالصا لنا . . وجعلنا اسحاق خالصا لنا . . وجعلنا يعقوب خالصا لنا . .

لماذا ؟ ! بخالصة . . بصفة رفيعة . . نقية . . نورانية . . لاظلمة فيها . . ما هي هذه الصفة ؟ ذكرى الدار . . دائما يتمركز في تفكيرهم تلك الدار الآخرة . . يعملون لها ويفكرون فيها . . فهم نوع غير الناس جميعا . . بينما الناس يفكرون في دنياهم إذا هم يفكرون في آخرهم . . بينما الناس يركزون اهتمامهم على الحياة الدنيا . . إذا هم همهم كله على الآخرة . . نوع ؟ . . ياله من نوع ! . . نوع رفيع . . رفيع . . رفيع . . إنهم إبراهيم . . واسحاق . . ويعقوب . . إنا أخلصناهم ؟ !

أشهر رجل ؟ !

وفي قول للمفسرين : إنا أخلصناهم بخالصة ، ذكرى الدار . . أى المراد بالدار الدار الدنيا ، وبذكرها الثناء الجميل ، ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم . . أى إنا أخلصناهم بالذكر الجميل فى الاعقاب أى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

فما معنى هذا ؟ معناه أن الله اختص إبراهيم بشرف لم يختص به أحدا من العالمين . . أن جميع الناس يتنازعون إبراهيم . . ويفتخرون بإبراهيم . . ويزعمون الانتساب إلى إبراهيم . . ليسهم شئ من شرف إبراهيم !! إنها الشهرة . . فى الدنيا . . شهرة الخير . . والثناء الجميل . . لاشهره الشر . . والقدح . . واللعن كما هو شأن إبليس . . فان إبليس بلغ من الشهرة حدا بعيدا . . ولكنها شهرة الشر . . واللعنة . . أما إبراهيم . . وأما الناس . . وخليل الله وأبو الأنبياء . . وقدوة المرسلين . . و . . و . . شهرة لم تتحقق لأحد من قبله أو من بعده . حتى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم الذى قال له ربه : « ورفعنا لك ذكرك » فان

محمدًا صلى الله عليه وسلم مشهور عند المسلمين فقط - يمتدحونه جميعا - وليس هو كذلك عند اليهود والمسيحيين - بل ربما لا يحب هؤلاء حتى مجرد ذكره أمامهم - أما إبراهيم - فصاحب شهرة عند الجميع - يحبه ويزعمه اليهود .. والنصارى .. والمسلمون !!! لماذا ؟ لأنه هو رائد التوحيد - له أسبقية زمنية - وهذا مشار إليه في قوله «إني جاعلك للناس إماما» .. لهم .. كلهم .. مهما اختلفت شرائعهم .. ورسولهم .. إنه رائد الحنيفية .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

انهم عندنا ؟

ثم يقول تعالى مباشرة : **وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** [ص ٤٧]
أى المختارين من بين أبناء جنسهم - عنده تعالى . «الأخيار» الفاضلين عليهم في الخير وهو جمع خير مقابل شر . والجديد هنا هو قوله «عندنا» . لا قوله «لن المصطفين الأخيار» .. فان كونهم كذلك شيء طبيعي مشهور وإنما الجديد هو «عندنا» ..
أى هم قم عليا في طبقة الرسل .. وهم كذلك عندنا .. فوق ما هم كذلك في الدنيا .. لهم عندنا درجات ، فوق درجات ، فوق درجات .

أولو العزم ؟

قال تعالى : **«فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ..»**
[الأحقاف ٣٥]

فأصبر كما صبر الرسل المجدون المجتهدون في تبليغ الوحي ، لا يصرفهم عنه صارف .
- صابر على أمر الله تعالى فيما عهده سبحانه اليهم ، وقضائه وقدره عز وجل عليهم
بواسطة أو بغيرها . وقيل : انهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى .. وهذا أصح الأقوال . ويضاف إليه محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا :

أولو العزم نوح والخليل والمجد

وموسى وعيسى والحبيب محمد

إذا إبراهيم من أولى العزم من الرسل .. فاذا علم أنه الثاني في ترتيبهم .. أدركنا مدى ارتفاعه في هذا المقام .

أولو العزم ! أهل الإرادة التي لاتلين في تبليغ رسالات الله .. إبراهيم .. من هؤلاء .. فهو صاحب إرادة حديدية .. بل فوق ذلك .. ويسكفيه في هذا المقام أنه كان يوما ما .. المؤمن الوحيد في الكرة الأرضية .. يوم وقت يسخر من أصنامهم ويعلن اليهم أنه وجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض .. يومئذ كان إبراهيم .. وحده هو المؤمن بالله !!! أما جميع سكان هذه الأرض ، فكانوا لا يعرفون شيئا عن التوحيد !! ومع هذا .. صبر .. وجاهد حتى انتصر في نفسه .. وفي ذريته .. وجعله الله بداية شجرة التوحيد في البشر !!! فأى إرادة تلك ؟ !

إبراهيم الذي وفى ؟!

قال تعالى : « وإبراهيمَ الذي وفى » . [النجم ٣٧]
« الذي وفى » وفى ، وأتم ، ما أمر به . أو بالغ في الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى . عن ابن عباس : وفى بسهام الإسلام كلها . ولم يوفها أحد غيره . وهى ثلاثون سهما . منها عشرة في براءة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآيات . وعشرة في الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الآيات . وست في (قد أفلح المؤمنون) الآيات . التى فى أولها . وأربع فى سأل سائل (والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات .

والأولى العموم .. ما أمره الله تعالى بشيء الا وفى به وتخصيصه - عليه السلام - بهذا الوصف لاحتماله مالا يحتمله غيره وفى قصة الذبح ما فيه الكفاية .

فما معنى هذا كله ؟ معناه أن إبراهيم شخصية امتازت انها وفّت بكل أوامر الله .. أنها نفس قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيمَ ربه بكلمات فأتمهن » .

مامن شيء أمره الله تعالى به الاجاء به على أكمل وأتم ما يكون التنفيذ .. انه شخصية كاملة .. إنه .. إبراهيم الذي وفى ؟ !

مسألة إبراهيم؟

أو

الحنيفية

أو

أسلوب إبراهيم

لعل هذا الباب هو أخطر أبواب ذلك الكتاب .. ذلك أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم .. وأمرنا نحن كذلك باتباع ملة إبراهيم .. فمن الحتم أن تكون ملة إبراهيم من الخطورة بمكان .. والا لما حتم الله تعالى اتباعها .
فما هي هذه الملة التي بلغت من الخطورة حدا لم يبلغه سواها ؟!

الله ... يعتبر الراغب عنها ... سفيها ؟!

ويكفي للتدليل على خطورة تلك الملة أن الله تعالى يقول في شأنها : « وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسُهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَإِنَّ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ . قَالَ : أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ، وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . »
[البقرة ١٣٠ — ١٣٢]

إن الله تعالى إذن يعان أن كل من تحول عن ملة إبراهيم فهو سفيه .. أى جعل نفسه مهانة ذليلة أى جهل نفسه بخفة عقله وعدم تفكره أى عرضها بذلك للهلاك .
فما معنى هذا ؟ معناه أن على كل من يحترم عقله ، وعلى كل من له أدنى تفكير أن يتبع ملة إبراهيم في هذه الحياة .. وإلا كان سفيها ، جاهلا بنفسه ، جاهلا بالحياة التي يعيش فيها .. هذا هو البيان الذي أعلنه الله تعالى إلى الناس جميعا .. كل من تحول عن ملة إبراهيم هو سفيه .. هو جاهل .. هو مختل العقل .

ثم ماذا ؟ ثم نجد أمراً أخطر ، وأخطر .. نجد إبراهيم يوصي بنيه بتلك الملة .. ونجد يعقوب من بعده يوصي بنيه بها كذلك .. « ووصى بها إبراهيم بنيه ، ويعقوب .. » إذن هذه التوصية هي أغلى وأخطر توصية يمكن أن تصدر من والد إلى أولاده .

لماذا ؟ لأنها تكشف لكشف لهم معالم السير في هذه الحياة .. وكيف يسلكون فيها . طريقا صحيحا .. وإن أجمل ، وأكمل ، وأثمن ، توصية أن ترشد غيرك إلى طريق السعادة

في هذه الحياة .. فكيف إذا كانوا بنيك .. أقرب الناس إليك ؟ إبراهيم وصى بها .. بتلك الملة .. بنيه .. ويعقوب وصى بها .. بتلك الملة .. بنيه .
فماذا قال ؟ .. قال : يا بني .. إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .
هذه هي التوصية .. في اختصار .. إن الله اصطفى .. اختار لكم الدين .. اختاره بنفسه ..
اختار لكم ملة إبراهيم .. فلا ينبغي أن تعيشوا أو تموتوا إلا وأنتم مسلمون . - منقادون له
في أمره .. وهذا الذي قاله يعقوب .. هو هو نفس الذي قاله من قبل إبراهيم ابنيه ..
ووصى بها ؟! بأي شيء كانت التوصية ؟! بالملة .. التي تاختصت في الآية التي توسطت
هذه الآيات وهي : « إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين » .. هذا هو ملخص
تلك الملة .. أمره ربه أن يسلم ، أن يطيع فأطاع .. في باطنه وظاهره .. هذا هو الإجمال ،
فأين تفصيل ذلك الأمر الخطير ؟!

بل ملة إبراهيم ؟!

قال تعالى : « وقالوا : كونوا هوداً ، أو نصارى ، تهتدوا ، قل : بل ملة إبراهيم ،
حنيفاً ، وما كان من المشركين . » [البقرة ١٣٥]

« وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » المراد منها رد دعوتهم إلى دينهم الباطل
إثر رد ادعائهم اليهودية على يعقوب - عليه السلام - أي : قال اليهود للمؤمنين :
كونوا هوداً . وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى و(تهتدوا) جواب الأمر .. أي إن
كنتم كذلك تهتدوا . « قل » خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . أي : قل لأولئك القائلين
على سبيل الرد عليهم ، وتبيين ما هو الحق لديهم ، وارشادهم إليه .

« بل ملة إبراهيم » لانكون كما تقولون ؛ بل نكون أهل ملته بل تتبع ملة إبراهيم .
وجوز أن يكون المعنى : بل اتبعوا أنتم ملته . أو : كونوا أهل ملته .

« حنيفاً » أي مستقيماً . أو : مائلاً عن الباطل ، إلى الحق ويوصف به المتدين والدين .
« وما كان من المشركين » المقصود التعريض بأهل الكتاب ، والعرب الذين

يدعون اتباعه ، ويدينون بشرائع مخصوصة به ، من حج البيت وأختان وغيرها فان في كل طائفة منهم شركاء .. فاليهود قالوا : المسيح ابن الله والعرب عبدوا الأصنام ، وقالوا : الملائكة بنات الله .

* * *

إذن هناك رفض تام .. من الله .. خالق هذا العالم .. وخالق هذا الانسان .. لتلك اليهودية القائمة في العالم .. ولتلك المسيحية المنتشرة في الأرض .. يرفض الله تعالى هذين الدينين المبتدعين .. لا لأن أصولهما باطلة .. كلا .. فقد كانت أصولها حقا .. وإنما انحرف بها أهلوها عن الطريق المستقيم .

وقالوا : كونوا هودا .. تهتدوا .. ببيان عام من الله تعالى عنهم إلى أهل الأرض جميعا . سيزعم اليهود في العالم هذا الزعم : كونوا هودا .. كونوا يا أهل الأرض جميعا يهودا . تهتدوا .. تكونوا بذلك على الحق .. انهم يظنون ذلك .. يظن اليهود في العالم أن دينهم هو الحق وحده .. فعلى من اراد الهدى أن يتبعه .

ثم ماذا ! ثم يعلن الله تعالى بيانا اخطر إلى أهل الأرض جميعا .

أو نصارى ! أى سوف يقول المسيحيون على مر العصور : كونوا نصارى تهتدوا . انهم يظنون أن دينهم هو الدين الحق .. وأن من أراد الهدى عليه باتباعه !!! اليهود يزعمون هذا .

والنصارى يزعمون هذا .

وكلهم يدعون الناس إلى هذا ،

فأين الحكم في تلك القضية الكبرى !

إن الله تعالى يحكم فيما فيه يختلفون .. قل .. بلغ الناس جميعا .. بل ملة إبراهيم .. بل على كل من أراد أن يهتدى إلى الحق أن يتبع ملة إبراهيم .. ان يتبع طريقة إبراهيم .. لا هذه اليهودية القائمة .. التي انحرفت عن سواء السبيل .. ولا هذه النصرانية القائمة .. التي زعمت ان المسيح هو الله ولكن ملة إبراهيم .. ولكن كونوا على ملة إبراهيم تهتدوا .. ان

إبراهيم هو الذى كان على الحق .. ونحن نأمر الناس جميعاً أن يتبعوا طريقته .. ويهتدوا ..
فماهى ملة إبراهيم !

« حنيفاً » مائلاً عن كل هذه الأباطيل المخترعة ، الى الحق الذى أنزله الله اليه ..
« وما كان من المشركين » .. ما كان من الذين يشركون فى عبادة ربه أحداً .. كما يفعل
هؤلاء المنتسبون إليه زوراً وبهتاناً .

لقد كان إبراهيم مستقيماً .. على طريق مستقيم ..

دعوة عامة ؟

ثم بقول تعالى : « قولوا : آمناً بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم ،
 وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، وما أوتى
النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » ، [البقرة ١٣٦]
« قولوا » أمر عام إلى الناس جميعاً .. عموماً .. وإلى المؤمنين .. خصوصاً ..
« آمناً بالله » قدم الإيمان بالله لأنه أول الواجبات ، ولأنه بتقديم معرفته تصبح معرفة
النبوات والشرعيات .

« وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » يعنى الصحف والأسباط
جميع سبط ، وهم أولاد إسرائيل وقيل : هم فى أولاد اسحاق ، كلقبائل فى أولاد إسماعيل
مأخوذ من السبط ، وهو شجرة كثيرة الأغصان ، فكانهم سموا بذلك لكثرتهم .
« وما أوتى موسى وعيسى » أى التوراة ، والانجيل وسائر المعجزات الظاهرة بايدى
هذين النبيين الجليلين ، حسبما فصل فى التنزيل الجليل ولكون أهل الكتاب زادوا
ونقصوا وحرفوا فيها وادعوا أنها أنزلت كذلك ، والمؤمنون منكرونها ، اهتم بشأنها ،
فأفردوا بالذكر . وبين طريقة الايمان بهما « وما أوتى النبيون » تعميم بعد التخصيص ، كيلا
يخرج من الايمان أحد من الأنبياء ويشبل الكتب والمعجزات .
« من ربهم » الضمير للنبيين خاصة .

« لا تفرق بين أحد منهم » كما فرق أهل الكتاب ، فأمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، بل تؤمن بهم جميعا .

« ونحن له مسلمون » أى خاضعون لله تعالى بالطاعة ، مذعنون بالعبودية . وقيل : متقادون لأمره ونهييه .

هذا هو البيان العام الذى أعلنه الله تعالى إلى سكان هذه الأرض ليضبط لهم الطريق . ان اليهود يزعمون أن الهدى فى اليهودية . . وان النصارى يزعمون كذلك . . وان الأمر لا بد فيه من ميزان يزن الناس به أمورهم .

فكان الميزان . . قولوا . . آمركم أيها الناس جميعا ان كنتم تريدون الهدى حقا أن تقولوا . . آمنا بالله . . آمنوا جميعا بى . . صدقوا بوجودى . . زهوى عن كل نقص . . وما أنزل إلينا . . آمنوا بكتابتى الذى أنزلته على محمد . . آخر رسول أرسلته إليكم . . وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . . آمنوا بما أنزل إلى هؤلاء جميعا . . لأن كلمة الحق واحدة . . وهذا كلامى . . وذاك كلامى . . وإنما أنزلته فى أزمنة متباعدة لحكمة أعلمها . . والأسباط . . آمنوا بما أنزل على كل نبي كان من أنبياء بنى إسرائيل . . انهم جميعا أنبيائي ورسلى . . بعثتهم بلا إله إلا الله . . ولا شئ سواها . . وما أوتى موسى . . وآمنوا بكل ما آتته موسى . . ذلك الذى يتعصب له اليهود .

وعيسى . . آمنوا بكل ما آتته عيسى . . ذلك الذى افتتن به المستحيون . . وما أوتى النبيون من ربهم . . ليرتفع لهذا الخلاف البغيض بين الناس جميعا . . لا تفرق بين أحد منهم . . افرض عليكم أن تؤمنوا بهم جميعا . . ولا يجوز لكم أن تؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض . . كما آمن اليهود بموسى . . وكفروا بعيسى . . أو كما آمن المسيحيون بعيسى وكفروا بمحمد .

ونحن له مسلمون . . وأفرض عليكم فى النهاية . . أن تدعوا لأمرى ونهىي .
ما هذا ؟ هذه دعوة عامة من الله . . رب الناس جميعا . . إلى الناس جميعا . . يدعونهم في أولها أن يؤمنوا بالله . . وفى آخرها أن يسلموا لله فى البداية إيمان به . . وفى النهاية . . بعد

مسير طويل .. تسليم له .. وما هذه النبوات كلها .. على جانبي الطريق الا مصابيح ..
تضيء للسائرين طريقهم .. إلى الله .

فلما إذا يختلفون ؟! لماذا يقولون هذا نبي .. وذلك ليس نبي ؟ لماذا يبددون طاقاتهم
في الهواء ؟ ما الأنبياء إلا مصابيح .. تنير لهم الطريق .. كلهم .. يضيئون على طريق واحد ..
ويؤدون عملا واحدا ويقومون بدور واحد .. هو اعانة الذاهبين إلى الله على الوصول إليه
تعالى .

إذن تحتم على جميع الناس أن يؤمنوا بهم جميعا .. ليستطيعوا أن يصلوا إلى ربهم ..
وأن لا يخرجوا عن طريقه الطريق المستقيم .. فيضلوا عن مقصودهم ..

آخر بيان ... إلى البشر !؟

ثم يقول تعالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ
فِي شِقَاقٍ ، فَيَسْكَفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » [البقرة ١٣٧]

بيان خطير .. خطير .. خطير .. يذيعه الله تعالى .. على بني آدم جميعا .. حيثما
كانوا .. وأينما كانوا .. ومهما كانوا .. وعلى أى عقيدة كانوا .

فإن آمنوا .. فإن صدقوا بمثل ما آمنتم به .. بمثل ما صدقتم به .. فإن آمنوا بالله ،
ورسله ، وكتبه ، وأسلموا لله .. فإن اعتقدوا بمثل ما تعتقدون ، فإن اعتقدوا هذه العقيدة
الصحيحة .. التي لا انحراف فيها .. فقد اهتدوا !؟ .. فقد ساروا في الطريق الصحيح إلينا ..
فقد عرفوا الطريق .

وإن تولوا ؟! .. وإن أعرضوا عن هذه العقيدة .. « فإنما هم في شقاق » أى مجالة لله تعالى
او : منازعة ومحاربة أو : عداوة أى ان أعرضوا عن هذه العقيدة العالمية الجامعة .. فإنما
أعرضوا عنها لأنهم في شقاق .. لأنهم يريدون أن ينحرفوا عن طريقى .. ولا يرغبون فيه .

فسيكفيكم الله ١٤

سلية له صلى الله عليه وسلم .. وفريح للمؤمنين ، بوعده النصر والغلبة ، وضمن التأييد والاعزاز ، على ابلغ وجه . للسين الدالة على تحقق الوقوع البتة . والمراد : سيكفيك كيدهم ، وشقاقهم ، لأن الكفاية لاتتعلق بالاعيان بل بالأفعال .

هذا اعلان عام من الله تعالى .. لكل سالك في طريقه .. وكل مؤمن يريد وجهه .. بأنه تعالى سيكفيه أمر الناس جميعا .. مهما كثروا .. ومهما كانت خلافاتهم .. ومهما كانت ظلماتهم لتقطع بذلك المعاذير .. ويطمئن السالكون إليه .. أنه سبحانه كافيهم أمر الناس جميعا .

وهو نفس الناموس العام : « من يهد الله فلا مضل له .. » ذلك بأن الهدى موضعه القلب .. والقلب لاسلطان لأحد عليه .. « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

ومن هنا كان إبراهيم .. سليم القلب .. والعالم كله مريض القلوب .. وكان قابله قطعة نور .. وقلوب الناس جميعا ظلمات بعضها فوق بعض .

ومن هنا كان الحساب على أساس القلب .. وليس على أساس شيء غيره . إنما الأعمال بالنيات .. لأن القلب هو الشيء الأوحد الذى لاسلطان للناس عليه .

ومن هنا كذلك لا يؤاخذ الله المكروه على كفره .. « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

عدالة الهية عجيبة .. لا يمكن أن تتأتى .. أو تتحقق الا من تصميم وضعه إله !!!
فسيكفيكم الله .. ليثق كل مؤمن بى .. إيمانا خالصا .. لا شرك فيه .. اننى كافيه الناس جميعا .

مهما تكاثروا عليه بظلماتهم ، وافاعيلهم .. فانى كافيه .. لأن قلبه لا يستطيعون الوصول اليه !!!

صبغة الله ؟

ثم يقول تعالى : « صِبْغَةَ اللَّهِ ، ومن أحسن من الله صِبْغَةً ، ونحن له عابدون » .
[البقرة ١٣٨]

« صبغة الله » طابع الله ، فطرة الله وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ عبرها عن التطهر بالإيمان ، بما ذكر على الوجه الذي فصل ، لأنه أظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ .

وتداخل في قلوبهم تداخله فيه ، وصار حلية لهم .

« ومن أحسن من الله صبغة » لا طابع أحسن من طابع الله تعالى « ونحن له عابدون »
أى موحدون أو : مطيعون : متبعون ملة إبراهيم . أو : خاضعون ، مستكنون في اتباع تلك الملة .

ما هذا ؟ هذا تأكيد من الله تعالى ، أن ملة إبراهيم هي صبغة الله ، هي فطرة الله ، هي الطابع الطبيعي الذي طبع الله عليه الناس جميعا .. هي النظام الطبيعي .. الذي ينبغي أن يظل الناس عليه .. ولا يغيروه .

اذن ملة إبراهيم هي الفطرة .. وهي الطبيعة الاولى للانسان .. وانما الناس حين يمشون في هذه الحياة .. ينحرفون عنها .

ونحن له مخلصون ؟

ثم يقول تعالى : « قل : أحتاجوننا في الله ، وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون » .
[البقرة ١٣٩]

« قل أحتاجوننا » أى تجادلونا « في الله » أى في دينه ، وتدعون أن دينه الحق اليهودية والنصرانية ، وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما « وهو ربنا وربكم » والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلا ، لأنه تعالى مالك أمرنا وأمركم .

« ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » ولنا جزاء أعمالنا الحسنة الموافقة لأمره ، ولكم جزاء أعمالكم السيئة المخالفة - لكمه - .

« ونحن له مخلصون » في تلك الأعمال لا نبتغي بها الاوجهه ، فأتى لكم الحاجة ودعوى حقية ما أنتم عليه ؟

أأنتم أعلم أم الله ؟

ثم يقول تعالى : « أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل : أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون » . [البقرة ١٤٠]

« قل أأنتم أعلم أم الله » أى لستم أعلم بحال إبراهيم عليه السلام في باب الدين ، بل الله تعالى أعلم بذلك ، وقد أخبر سبحانه بنفى اليهودية والنصرانية عنه .
« ومن أظلم » انكار لأن يكون أحد أظلم . « ممن كتم شهادة » ثابتة « عنده » واصله .

« من الله » اليه .. وهى شهادته تعالى لإبراهيم عليه السلام بالحنيفية ، والبراءة عن اليهودية ، والنصرانية ، حسبما تلى آنفا .

والمعنى : لأحد أظلم من أهل الكتاب ، حيث كتموا هذه الشهادة ، وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء .

أو : لأحد أظلم منا لو كتمنا هذه الشهادة ، ولم نقمها في مقام الحاجة وقيل : ومن أظلم من الله ممن كتم شهادة حصلت عنده .

والمعنى : لو كان إبراهيم وبنوه يهودا أو نصارى ، ثم إن الله تعالى كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم الشهادة أظلم منه ، لكن كما استحال ذلك مع عدله ، وتنزيهه عمالاً ، يليق ، علمنا أن الأمر ليس كذلك .

كان حنيفا ١٤

ويعلن الله تعالى إلى أهل الكتاب بيانا .. أشمل .. وأكمل .. بيانا يرميهم فيه بالجهالة والحقارة .. وانهم لا يعقلون .. إذ لو كانوا يعقلون ما جادلوا في أمر إبراهيم .. وما زعموا .
انه كان يهوديا .. او نصرانيا .. خاصة وان التوراة التي هي أساس الدين اليهودي والانجيل الذي هي أساس الدين المسيحي .. انزلت من بعده .
فيقول : « يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده ، افلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » . [آل عمران ٦٥ - ٦٧]

« ما كان إبراهيم يهوديا » كما قالت اليهود .
« ولا نصرانيا » كما قالت النصارى . أى من الطائفة النصرانية المخالفة لما جاء به عيسى .

« ولكن كان حنيفا » مأثلا عن العقائد الزائفة . « مسلما » منقاداً لطاعة الحق موحداً . لأن دين الإسلام يرد بمعنى التوحيد أى على دين الإسلام الذى ليس عند الله دين مرضى سواه ، وهو دين جميع الأنبياء .

« وما كان المشركين » أى عبدة الأصنام كالعرب ، الذين كانوا يدعون أنهم على دينه . أو : سائر المشركين ليعم أيضا عبدة النار كالجوس ، وعبدة الكواكب كالصابئة .
لقد كان إبراهيم إذن حنيفا .. مأثلا عن كل اتجاه منحرف .. يتجه رأسا .. بدون التواءات .. أو زيغ .. أو ضلالات .. انه كان مسلما .. لأن الإسلام هو الدين الذى شرعه الله لجميع خلقه .. وجميع رسله .. ولا يقبل من أحد ديناً سواه .
قال تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين »
[آل عمران ٨٥]

من أجل هذا أمر الله تعالى جميع الناس أن يتبعوا ملة إبراهيم .. فقال :

فاتبعوا ملة إبراهيم ؟

قال تعالى : « قل صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم ، حنيفاً ، وما كان من المشركين . » [آل عمران ٩٥]

« قل : صدق الله » ظهر وثبت صدقه في أن محمدا صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم عليه السلام . — « فاتبعوا ملة إبراهيم » وهى دين الإسلام « حنيفاً » مائلا عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق . أو : مستقيما على ما شرعه الله تعالى من الدين الحق . « وما كان من المشركين » فى أمر من أمور دينهم أصلا .

وهكذا يأمر الله تعالى جميع الناس أن يتبعوا ملة إبراهيم .. طريقة إبراهيم .. أسلوب إبراهيم .. فى التوجه إلى الله .. ومعركة الله .. وعبادة الله .

من أحسن الناس ديناً ؟

قال تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ، حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا . » [النساء ١٢٥]

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » أى أخلص نفسه له تعالى لا يعرف له رباً سواه وقيل : أخلص توجهه له سبحانه . وقيل : يذل وجهه له عز وجل فى السجود . والمقصود : مدح من فعل ذلك على أتم وجه . وفيه تنبيه على أن صرف العبد نفسه بكليتها لله تعالى ، أعلى المراتب التى تبلغها القوة البشرية .

« وهو محسن » أى آتٍ بالحسنات ، تارك للسيئات أو : آتٍ بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق ، الذى هو حسنها الوصفى ، المستلزم لحسنها الذاتى . وقيل : المراد وهو محسن فى عقيدته .

« واتبع ملة إبراهيم » الموافقة لدين الإسلام ، المتفق على صحتها . « حنيفاً » مائلا عن الأديان الزائغة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » تذييل جىء به للترغيب فى اتباع ملته عليه السلام ، والإيذان بأنه نهاية فى الحسن .

والآن .. يبين الله تعالى لنا أن أحسن الأديان هو دين الإسلام ، الذى ينحصر فى

في إسلام الوجه لله .. وان أحسن الإسلام هو الإحسان .. وان اتباع ملة إبراهيم .. هو أحسن الطرق .. وأن الحنيفية هي خلاصة تلك الملة .. وأن إبراهيم لسلوكه هذا السلوك .. . بلغ أعلى مراتب الوصول إلى الله .. مرتبة الخلقة .. فاتخذ الله خليلاً .
 فما معنى هذا ؟ . معناه أن الله تعالى يرشدنا إلى قمة الأمر .. أحسن الأديان .. الإسلام الذي يتلخص في : أسلم .. قال .. أسلمت .. وهو معنى : أسلم وجهه لله .. وأن ذروة هذا الإسلام .. هو إحسان الأعمال .. والإتيان بها على الوجه الأكمل .. وان الطريق إلى هذا كله هو ملة إبراهيم .. هو أسلوب إبراهيم .. هو اتباع طريقة إبراهيم .
 وأن خلاصه هذه الملة .. هو .. أن يكون الإنسان حنيفاً .. أن يميل عن كل عقيدة زائفة .. وعن كل شيء سوى الله .. ويتجه رأساً إلى الله .. مستقيماً إليه .
 وأن هذا الخط المستقيم هو أقرب الطرق إلى الله .
 وأن من سلك هذا المسلك .. واتبع إبراهيم في هذا الأسلوب .. كان هناك احتمال أن يتخذ الله تعالى خليلاً .. أي أن يحببه الله تعالى حباً .. كما أحب إبراهيم .
 وهذه الآية هي جامع ملة إبراهيم .. ظاهراً ، وباطناً .. وذروة الدين كله .
 والآن .. ماهي ملة إبراهيم هذه التي اعتبرها الله تعالى أحسن الأديان ؟ !

هذه هي ملة إبراهيم ؟ !

قال تعالى « قل إني هادي ربي إلى صراطٍ مستقيم ، ديناً قيمياً ، ملة إبراهيم ، حنيفاً ، وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ، رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين . »

[الأنعام ١٦١ - ١٦٣]

« قل إني هادي ربي » أمر صلى الله عليه وسلم بأن يبين ماهو عليه من الدين الحق . الذي يدعي المفرقون أنهم عليه ، وقد فارقوه بالكلية أي : قل يا محمد لهؤلاء المفرقين أو : للناس كافة : أرشدني ربي بالوحى ، وبما نصب في الآفاق ، والأنفس من الآيات .
 « إلى صراط مستقيم » موصل إلى الحق . « ديناً » هادياً . أو : أعطاني . أو : عرفني

دينا . « قيا » مستقيما « ملة إبراهيم » طريقة إبراهيم . « حنيفا » مائلا عن الأديان الباطلة .
أو : نخلصنا لله تعالى في العبادة وهو حال من إبراهيم .

« وما كان من المشركين » إعتراض مقرر لثراسته — عليه الصلاة والسلام — عما
عليه المبتلون . « قل : إن صلاتي » أي جنسها ، لتشمل المفروضة وغيرها .

« ولسكني » أي عبادتي كلها .

« ومحياي ومماتي » أي ما يقارن حياتي وموتي من الإيمان والعمل الصالح . « لله رب
العالمين » إذ المراد به الخلوص بحسب الظاهر ، وقيل . المراد به نظرا لهذا الاختمال أن ذلك
له تعالى ملكا وقدره . « لا شريك له » أي في عبادتي ، أوفيتها ، وفي الإحياء والإماتة .
« وبذلك » أي القول : أو الإخلاص . « أمرت » لا بشيء غيره .

« وأنا أول المسلمين » أي المنقادين إلى امثال ما أمر الله تعالى به . وقيل : المستسلمين
لقضاء الله تعالى وقدره . والمراد مسلمي أمته كما قيل . وهذا شأن كل نبي بالنسبة إلى أمته .
ما هذا ؟ هذا بيان خطير جدا جدا .. أن الله تعالى يأمر محمدا صلى الله عليه وسلم
رسوله إلى الناس كافة .. إلى يوم القيامة .. والذي لا نبي بعده .. يأمره أن يذيع على كل
الناس .. في كل زمان ومكان .

« قل » أمرك يا محمد أن تذيع على البشرية كلها .. « انني هداى ربى » .. « اننى أنا محمد
رسول الله اليكم كافة .. أعلمكم أن الله هداى .. بنفسه .. لا باجتهادى .. ولا بهتيرتى ..
ولمما هو الذى هداى .. هو الذى عرفنى .. لأنه ربى .. الذى ربانى .. وتولانى .. ووجدنى
ضالا فهدانى .. هو الذى أوحى إلى .. « إلى صراط مستقيم » إلى طريق مستقيم .. لا التواء
فيه .. ولا انحناء فيه .. ولا ضلالة فيه .. ولا ظلمة فيه .. وإنما مستقيم .. يودى إليه مباشرة ،
ما هو هذا الصراط المستقيم ؟ « ديننا » ديننا عظيما .. رائعا هو أحسن الأديان وأعلاها ..
عرفنى ربى ديننا ليس كمثل دين .. « قيا » مستقيما .. يودى إلى الله مباشرة .

ما هو هذا الدين ، وما هو هذا الأسلوب ، وما هو هذا الطريق ؟ « ملة إبراهيم » هو
طريقة إبراهيم في التعرف على ربه .. هو أسلوب إبراهيم في الاتجاه إليه .. والاتصال به ..

ولكن ماهو هذا الأسلوب الابراهيمى ! « حنيفا » مائلا عن كل باطل . متجها الى الحق وحده سبحانه .. مائلا عن كل ماسوى الله .. متجها الى الله مباشرة .. لا يلتفت إلى شىء سواه .. وانما وجهه يوجهه اليه .. « وما كان من المشركين » .. وما كان ابراهيم من المشركين بالله شيئا ما .. قل أو كثر .. وانما اتجاهه اليه تعالى خالصا .

اذن جوهر ملة ابراهيم .. وحقيقتها .. أنه كان حنيفا .. وأنه لم يكن مشركا .. يفتأ أى مائلا عن كل ماسوى الله .. متجها اليه مباشرة .. وما كان من المشركين .. لا يلتفت بقلبه إلى ماسوى الله .

اذن هو يسقط السوى اسقاطا تاما .. ولا يشغل قلبه بشىء سوى ربه .. فهو على صراط مستقيم ببذنه .. ولا مجال في قلبه لغير ربه .. هذا هو جوهر ملة ابراهيم .. هذه هى الملة التى أمر الله تعالى بها جميع أنبيائه ورسله .. وأمر بها جميع المؤمنين من بعدهم إلى يوم القيامة .

وهذه هى الطريقة التى لا يقبل الله من احد سواها .. وهذا هو السبيل الأوحيد الذى يوصل اليه سبحانه .. ومن سلك سبيلا غيره انتهى الى شىء غير الله .. انتهى الى لاشىء انه يصل الى اوهام .. اما الله .. فسوف لا يجده .. ومن هنا .. ومن هنا وحده .. صدر امر الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم مباشرة ليعلم الى الناس كافة انه على هذه الملة .. وعلى هذه الطريقة .. وانه اول من يتجه الى الله عن طريقها ، ليكون ذلك امرا ، بالتبعية الى جميع الناس .. ان يتبعوا ملة ابراهيم .. ان كانوا يريدون ربهم .. ويريدون الاتصال به .. ويريدون معرفته .

ومن هنا كان هذا الامر .. اخطر امر صدر من الله الى الناس جميعا .. فما هو هذا الأمر ! .

محيى .. وعائى .. لله ؟ !

« قل » أذع يا محمد على البشرية كلها .. « إن صلاتى » إن صلاتى كلها .. فرضا ، تطوعا ، نفلا .. أى صلاة .. أى دعاء .. أى اتصال بالله .. « ونسكى » وعباداتى كلها .. مهما

تنوعت .. ومهما اختلفت .. ومهما ظهرت .. أوبطنت .. كل اتجاهاتى .. كل قربانى .. كل ما عبد به ربي .. بل اوسع من هذا .. وأبعد من هذا .. « ومحيى » كل حياتى .. وما يصدر عنها .. « ومماتى » وكل موتى .. وما يصدر عنه .. « الله » وحده ..

لماذا ! .. كل هذا لله .. دون سواه ؟

« رب العالمين » لأنه هو رب كل شيء .. وأنا شيء من هذه الأشياء التى يتولاها .. ويرعاها .. ويربها .. فلا ينبغي أن اتجه الا اليه .. ولا اعبد إلا اياه ..

ثم ماذا ؟! « لا شريك له » فى عبادتى ، أوفى تحياتى ومماتى .. « وبذلك أمرت » وبهذا الاتجاه ، وبهذا القول أمرت من الله .. الذى له حق الأمر وحده « وأنا أول المسلمين » وأعلنكم انى أول من يستسلم لأمر الله تعالى .. وينقاد له ..

هذا هو آخر بيان .. إن الله يأمر محمدا صلى الله عليه وسلم .. أن يعلن إلى الناس أمرين خطيرين .

الأول .. أن الله هو الذى هداه عن طريق الوحى إلى صراط مستقيم ، وأن هذا الصراط المستقيم هو نفسه الدين المستقيم وأن هذا الدين المستقيم .. هو ملة إبراهيم .. وأن هذه الملة هى الحنيفية .. وتحريم الشرك بالله ..

والثانى .. أن على محمد صلى الله عليه وسلم أن يذيع على الناس جميعا أنه سيكون أول من يتبع إبراهيم .. ويسلك ملته .. فيكون بذلك أول المسلمين .. وأن عليه أن يعلم الناس جميعا كيف يكونوا على تلك الملة ، وماهى تفصيلاتها .. وذلك بان يعلن خلاصتها بقول « إن صلاتى ، ونسكى ، ومحيى ، ومماتى ، لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » ..

فمن قال مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتقد مثل عقيدته .. فهو مسلم ، وهو من المسلمين .. وهو على ملة إبراهيم حنيفا .

ان هذا الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، إن هو الا تجديد ملة إبراهيم ، وتوجيه الناس اليها .

واذن هذا الرسول الاخير .. خاتم النبيين .. قد جاء ليحدد ملة ابيه ابراهيم .. ويدعو
الناس اليها .

واذن هو أولى الناس بابراهيم .. « ان أولى الناس بابراهيم ، للذين اتبعوه ، وهذا
النبي . »

وهذه هي الخيفية .. أو هذه هي ملة ابراهيم .. أو هذا هو اسلوب ابراهيم .
والآن .. هل كان محمد صلى الله عليه وسلم .. وحده هو النبي الذي اتبع ملة ابراهيم ؟

يوسف .. يعلن .. اتباعه ملة ابراهيم ؟

قال تعالى : « .. إني تركتُ ملةَ قومٍ لا يؤمنونَ باللهِ ، وهم بالآخرةِ ، هم كفارونَ .
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي اِبْرَاهِيمَ ، واسحاقَ ، ويعقوبَ ، ما كانَ لنا أنْ نشركَ باللهِ من شيءٍ ،
ذلك من فضلِ اللهِ علينا ، وعلى الناسِ ، ولكنَّ أَكْثَرَ الناسِ لا يشكرونَ . يا صاحبي
السجنِ أربابٌ متفرقونَ خَيْرٌ أُمُّ اللهِ الواحدُ القهارُ . مانعبدونَ من دونه إلا أسماءُ
سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ ، إنَّ الحُكْمَ إلا لله ، أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا
إِلَّا إِيَّاهُ ، ذلكَ الدينُ القَيمُ ، ولكنَّ أَكْثَرَ الناسِ لا يعلمونَ » . [يوسف ٣٧ - ٤٠]
وهذا هو يوسف .. نبي الله يعلن أموراً خطيرة .. يعلن أنه هو نفسه اتبع ملة ابراهيم
وان اسحاق اتبع تلك الملة .. وان يعقوب اتبعها كذلك .. وأنه حلقة في سلسلة ذلك
الاتباع .. فهو يوسف ، بن يعقوب ، بن اسحاق ، بن ابراهيم .. وهم جميعاً على ملة واحدة ..
هي ملة ابراهيم ثم جعل يفصل لصاحبيه تلك الملة .. « ما كان » أي ما ينبغي « لنا أن
نشرك بالله من شيء » من شيء ما « ذلك من فضل الله علينا » إشارة إلى عصمته من الزنى ،
وعصمته من الشرك ، « وعلى الناس » أي على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك .
وقيل : « ذلك من فضل الله علينا » إذ جعلنا أنبياء « وعلى الناس » إذ جعلنا الرسل إليهم .
« ولكن أكثر الناس لا يشكرون » على نعمة التوحيد والإيمان .

وأقول : ذلك من فضل الله علينا .. أي اعظم فضل أعطانا هو أن علمنا أن لا نشرك

به من شيء .. وعلى الناس .. أن يعلمهم أن لا يشركوا به من شيء ..

لأن التوحيد هو الحقيقة الأولى التي أن سلمت سلم للإنسان كل شيء .. وإن تداخلت
أوشابها شيء .. فسد كل شيء !!

ذلك الدين القيم؟!

إذن التوحيد هو الدين المستقيم ..
لماذا؟ لأن الله يقول: «ذلك الدين القيم» .. أي المستقيم .. ولكن أكثر الناس
لا يعلمون .. وإنما المصيبة أن الأغلبية العظمى من الناس لا يعلمون ذلك !! إذن ملة
إبراهيم .. هي ملة الأنبياء جميعا .. والمرسلين جميعا .. هي الطريق المستقيم .. وهي الدين
المستقيم .. وهي الأسلوب الذي لا يقبل الله سواه ..

اتبع ملة إبراهيم؟!

ويقول تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ، قَانِتًا لِلَّهِ ، حَنِيفًا ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .
شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ، اجْتِبَاهُ ، وَهْدَاهُ ، إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآيِنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً . وَإِنَّهُ فِي
الْآخِرَةِ لَيَنَّ الصَّالِحِينَ ، ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .»
[النحل ١٢٠ - ١٢٣]

هكذا .. إبراهيم كان أمة .. إماما .. إني جاعلك للناس إماما .. لماذا؟ لأنه كان
« حنيفا » و « لم يك من المشركين » .. من أجل هذا كان إماما للناس جميعا .. قدوة
لكل البشر إلى يوم القيامة .
ثم ماذا؟ ثم الله تعالى هو الذي هداه هذا الصراط المستقيم .. اجتباه .. وهداه إلى
صراط مستقيم .

ثم ماذا؟ ثم ما هو أخطر من هذا كله .. أمرٌ صادر من الله تعالى إلى محمد صلى الله
عليه وسلم باتِّباع ملة إبراهيم .. « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .. فالمسألة
ليست مسألة خيار .. وإنما هي أمر من الله إلى خاتم النبيين .. ليكون أمرا إلى سائر الناس
من بعده .

ثم لماذا ملة إبراهيم وليس غيرها؟ «حنيفاً» لأنه كان حنيفاً .. مائلاً عن كل باطل .. متجهاً إلى الحق وحده .. «وما كان من المشركين» ولأنه لم يشرك بعبادة ربه أحداً .. وهذا هو وجه الخطورة .. ان كل انسان مطالب باتباع ملة إبراهيم .. ومطالب أن يكون حنيفاً .. كما كان إبراهيم .. ومطالب ألا يكون من المشركين كما كان إبراهيم .. وأن هذا هو الطريق المستقيم .. ولا طريق يتصور غيره .

لماذا حنفاء لله؟

قال تعالى : « حُنَفَاءَ لِلَّهِ ، غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنِ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . » [الحج ٣١]

« حنفاء لله » مائلين عن كل دين زائغ ، إلى الدين الحق ، مخلصين له تعالى « غير مشركين به » أى شيئاً من الأشياء « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء » شبه الايمان بالسماء لعلوه ، والاشراك بالسقوط منها فالمشرك ساقط من أوج الايمان إلى حضيض الكفر « فتخطفه الطير » فان الالهواء المردية توزع افكاره ، وفي ذلك تشبيه الافكار الموزعة بخطف جوارح الطير ، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة « أوتهى به الريح » تسقطه وتقذفه « في مكان سحيق » بعيد ، فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة ، إذن الانسان الذى لا يشرك بالله انسان عال جداً .. انه فى السماء .. إنه فى قمة الارتفاع .

وهؤلاء الذين يشركون بالله قوم خروا من سمائهم .. فجعلت تتخطفهم الطيور الجارحة أو تندرج بهم الرياح إلى مكان سحيق .

انهم عبارة عن جثث ليس إلا .. كهؤلاء الذين يسقطون فى حادث طائرة .. فى مكان مجهول .. انهم يصبحون جثثاً تتخطفها جوارح الطير .. أو أشلاء تهوى بها الريح فى أماكن بعيدة مجهولة .

ان الاتجاه إلى الله وحده ، يرفع الانسان .. ويمكنه من التحليق إلى أعلى ، أما الشرك بالله فيحطه ويجعله مجرد جثة .. ميتة .. تتقاذفها الطيور أو الرياح .

إذا الأيمان بالله وحده .. يحى الانسان .. والاشراك به يميت الإنسان .
إذا التوحيد هو الحياة .. والاشراك هو الموت .

ملة أبيكم إبراهيم ١٩

قال تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ، ونعم النصير . » [الحج ٧٨]
« وجاهدوا في الله » أى لله تعالى أو : فى سبيله سبحانه والجهاد است فراغ الوسع فى مدافعة العدو ، وهو ثلاثة أضرب مجاهدة العدو الظاهر كالكفار ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس « حق جهاده » أى جهاداً حقاً والآية تدل على الأمر بالجهاد ، على أتم وجه ، بأن يكون خالصاً لله تعالى ، لا يخشى فى الله لومة لأثم وهى محكمة .
« هو اجتباكم » أى هو جل شأنه اختاركم لاغيره سبحانه . فإن علة الأمر بالجهاد ، فإن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته ، ومن قربه العظيم يلزمه دفع أعدائه . ومجاهد نفسه بترك ما لا يرضاه ،

« وما جعل عليكم في الدين » أى فى جميع أموره ، ويدخل فيه الجهاد « من حرج » من ضيق . بتكليف ما يشتد القيام به عليكم ، إشارة أنه لا مانع لهم عنه .
« ملة أبيكم إبراهيم » أى وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو : اتبعوا ، أو : الزموا ملة والمراد بالملة اماما يعم الأصول والقروع أو : ما يخص الأصول . وجعله عليه السلام أباهم لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كالأب لأمته من حيث أنه سبب حياتهم الأبدية أو : لأن أكثر العرب كانوا من ذريته عليه السلام .
« هو » أى الله تعالى « سماكم المسلمين من قبل » أى من قبل نزول القرآن وذلك فى السكتب السماوية ، كالنوراة ، والإنجيل .

« وفي هذا » أى فى القرآن وقيل : الضمير لإبراهيم عليه السلام ، تسميته إياهم بذلك فى قوله (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) « ليكون الرسول » يوم القيامة « شهيداً عليكم » أن قد أبلغكم « وتكونوا شهداء على الناس » .

فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة « فتقربوا إليه تعالى لما خصكم بهذا الفضل والشرف بأنواع الطاعات . وتخصيص هذين الأمرين بالذكر لفضلهما .. » واعتصموا بالله « أى ثقوا به تعالى فى جميع أموركم . « هو مولاكم » ناصركم ، ومتولى أموركم . « فنعم المولى ونعم النصير » إذ لا مثل له تعالى فى الولاية والنصرة فإن من تولاه لم يضع ومن نصره لم يخذل . بل لا ولى ولا ناصر فى الحقيقة سواه عز وجل .

وهذا إشارة إلى أن قصارى الكمال الاعتصام بالله تعالى . وتحقيق مقام العبودية ، وهو وراء التسمية والاجتباء .

اذن .. ها هنا أمور .. أن ملة إبراهيم .. ليس فيها حرج .. ليس فيها تضيق .. ليس فيها عسر .. بل هى يسر .. وسهولة .. وفطرة .
وهى نفس الأسلوب الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم .. وقد استفاضت أحاديثه بذلك .. وأن إبراهيم هو الذى سُمى هذه الأمة .. الأمة الإسلامية .. المسلمين .
وأن محمداً صلى الله عليه وسلم .. على دين إبراهيم .. وعلى ملة إبراهيم .. التى هى دين كل نبي .. وملة كل نبي .

وأن هذا كله اسمه الإسلام .. الذى سُمى الله تعالى به آخر دين .. بعث به خاتم رسله « إن الدين عند الله الإسلام » .

الحنيفية ... هى الفطرة ؟ !

قال تعالى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللَّهِ ، الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

[الروم ٣٠]

« فأقم وجهك للدين حنيفا » فعدل وجهك للدين . وأقبل عليه إقبالا كاملا ، غير ملتفت يمينا وشمالا . واصل الحنف الميل من الضلال إلى الاستقامة ، وضده الجنف . « فطرت الله » أى الزموا فطرة الله أى : اتبع فطرة الله . والفطرة من الفطر بمعنى الإبتداء والاختراع . وفسرها الكثير بقابلية الحق ، والتهيء لادراكه . ومعنى لزومها الجريان على موجبها ، وعدم الاختلال به باتباع الهوى ، وتسويل شياطين الالاس والجن . « التى فطر الناس عليها » لتأكيد وجوب امتثال الأمر . « سألت قتادة عن قوله تعالى : (فطرت الله التى فطر الناس عليها) . فقال : حدثني أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فطرة الله التى فطر الناس عليها دين الله تعالى » والمراد بفطرهم على دين الاسلام ، خلقهم قابلين له ، غير ناين عنه ، ولا منكرين له ، لكونه مجاوبا للعقل ، مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديننا آخر .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » . والمراد بالناس جميعهم . وقيل : فطرة الله العهد الأخوذ على بنى آدم . ومعنى فطرهم على ذلك ، خلقهم مركوزا فيهم معرفته تعالى ، كما أشير إليه بقوله سبحانه (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) . « لا تبديل لخلق الله » تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى ، أو لوجوب الامتثال به .

والمعنى : لاصحة ، ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى ، بالاخلال بموجبها ، وعدم ترتيب مقتضاها عليها ، باتباع الهوى ، وقبول وسوسة الشياطين .

وقيل : المعنى : لا يقدر أحد أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته عز وجل ، فلا بد من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأسا ، ووضع فطرة أخرى مكانها ، غير مصححة لقبول الحق ، والتمكن من إدراكه ضرورة ، ويحتمل أن يقال : إن الله تعالى خلق خلقه للعبادة وهم كلهم عبيده .

لا تبديل لخلق الله ، أى ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للإنسان ، فإنه ينتقل عنه إلى غيره ، ويخرج عن ملكه بالعتق ، بل لا خروج للمخلوق عن العباداة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول : العباداة لتحصيل السكال ، وإذا كمل العبد بها لا يبقى عليه تكليف . « ذلك » إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له . أو : إلى لزوم فطرة الله تعالى ، « الدين القيم » المستوى الذى لا عوج فيه ، ولا انحراف عن الحق بوجه من الوجوه . « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ذلك فيصدون عنه صدودا . وقيل : لا يعلم لهم أضلا . ولو علموا لعلموا ذلك .

ما هذا ؟ هذا مستوى أعلى .. وأعلى .. وأعلى .. من كل ما سبق .
إن الله تعالى هنا يكشف لنا الغطاء عن أسرار عليا .. ويكشف عن أعيننا تلك الحجب .

فأقم وجهك للدين حنيفا .. اتجه إلى هذا الدين .. إلى هذا الإسلام .. حنيفا .. ومل عما سواه .. أى اتجه إلينا رأسا .. مباشرة .. ومل عما سوانا .

لماذا ؟ « فطرت الله التى فطر الناس عليها » .. لأننى خلقت عبادى خلقتهم محفيا كلهم .. خلقتهم لى .. ليعبدونى .. ليكونوا عبادا لى .. خلقتهم مستعدين لمعرفة ربهم .. كل الناس فطرتهم .. بدأت خلقتهم مستعدين لادراك ذلك .

ما معنى هذا ؟ هل معناه أن الانسان خلق موحدا لله ، جارفا له . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا اذن تفضل الكثرة الغالبة من الناس عن ربها وتكفر به ؟
اليك سر الأمر كله .. إن الله تعالى فطر الانسان مستعدا للحق .. خلق الناس جميعا حنفاء .. أى موحدين لله .

هذا هو الناموس الذى يخلق الله جميع الأطفال عليه .
إن جميع الأطفال فى العالم يخلقون وفى تركيبهم العبودية لله ، وفى أعماقهم : لا إله إلا الله .
هذه هى الفطرة التى فطر الناس عليها .

ثم ماذا يحدث ؟ . يحدث الانحراف من آباء الأطفال وأمهاتهم . وموجهيهم .. فأبواه

يهودانه .. أو ينصرانه .. أو يمجسانه .. فمن كان أبواه يهوديين ما زالوا به .. يدفعانه إلى اليهودية .. حتى يعتقدها .. وتحجب فطرته بذلك .. ومن كانا نصرانيين .. مازالا .. يدفعانه إلى المسيحية .. حتى يعتقدها .. وتحجب فطرته بذلك .. ومن كان مجوسيا .. كذلك .. ومن كان شيعيا .. كذلك .. ومن كان لادينيا .. كذلك .. ومن كان على أى عقيدة .. غير الاسلام .. يصنع بأطفاله كذلك .. وتحجب الفطرة التى فطر الله الأطفال جميعا عليها بذلك !!

هنا العقدة .. هنا الجريمة .. فحين يقول الله « فأقم وجهك للدين حنيفا » .. إنما يأمر الإنسان أن يتجه إلى فطرته .. أن يتلاقى مع فطرته .. حين يأمرك بالإسلام .. وبالأقرار بأن لا إله إلا الله .. إنما يأمرك أن تتلاقى مع الحقيقة التى فطرك عليها ..

أن تنمى فطرتك التى فطرك عليها .. فالاسلام إذا دين الفطرة .. ليس فقط فى الإنسان .. وإنما فى كل شىء .. وله أسلم من فى السماوات ومن فى الأرض .. فكأنك حين تسلم .. إنما تتلاقى مع فطرتك .. وتتلاقى كذلك مع فطرة الخلائق كلها .. إنما تتساقق ، وتماوج ، وتنسجم .. مع أنعام الكون كلها .. التى تسبح بحمد ربها .. « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » !!

« لا تبديل لخلق الله » أى لا تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها ، ولا لفطرة الخلائق التى خلق الأشياء عليها .. الناس جميعا خلقوا عبادا لله .. وكل شىء خلق عبدا لله . « إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » .

العبودية ناموس عام ينتظم كل شىء .. الناس .. فمن سواهم .. العبودية شىء فطر الله عليه كل شىء .. ولا تبديل لهذا الناموس .. فمن تساقق معه .. وانتظم عليه فقد فاز .. وأحسن إلى نفسه .. ومن خرج على هذا الناموس .. وخالفه .. فقد خسر نفسه .. وأهلكها ..

ذلك الدين القيم « ذلك الدين المستقيم .. ذلك وحده هو الحق .. وما سواه انحرافات لا تؤدى إلى شىء .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. ولكن المصيبة أن الناس محجوبون عن تلك الحقائق البسيطة .. لا يدركونها .. وإن أدركوها لا يصدقونها !!

إذن هذا الدين .. المسمى بالإسلام .. هو فطرة الله التي فطر الناس عليها .. وإذن هذه الملة .. ملة إبراهيم .. هي فطرة الله التي فطر الناس عليها .. لأن الإسلام هو ملة إبراهيم . وإذن الأنبياء جميعا .. دعوا الناس إلى فطرتهم .. وجاءوهم ينبهوهم .. ويذكروهم أن لا إله إلا الله .. مركوزة في تكوينهم .. وما عليهم إلا أن يستجيبوا لها .. ويتلاقوا معها . وإذن السعادة كل السعادة أن ينسجم الإنسان مع فطرته .. ألا يبدل فطرته .. لأنه لا تبدل خلق الله .

والشقاء كل الشقاء أن يتصادم الإنسان مع فطرته .. أن يبدل خلق الله . وإذن ملة إبراهيم هي طريق السعادة . وأن هذا الإسلام الذي يتطابق مع هذه الملة .. هو طريق السعادة كذلك .. والآن نلقى هذا السؤال ؟

ما هي ملة إبراهيم ؟

هل هي شيء كهنوتي ، لاهوتي ، يحتاج إلى صفوف متراصة من الطقوس ، والالغاز ؟ كلا .. بل هي شيء بلغ من البساطة حدا لا يتصوره إنسان . إن ملة إبراهيم .. باختصار .. هي الفطرة .. التي فطر الله الناس عليها .. فما هي هذه الملة إذا ؟ .

هو الاتجاه المباشر إلى الله .. دون وساطة .. ودون حجب .. ودون شفعاء .. ودون اضرة .. ودون أولياء .. ودون أي شيء .

فما معنى هذا ؟ معناه أن ننظر ما هي فطرة الخلائق ؟ ما هي فطرة العصفور مثلا إذا أراد أن يسبح ربه ، أو يسأله ؟ .

ومعلوم أن العصفير تسبح ربها وتسال ربها بنص قوله تعالى « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » وقوله « يسأله من في السماوات والأرض .. »

ما هي فطرة هذا العصفور إذا أراد أن يسبح ربه ، أو أراد أن يدعو ؟ .

هل يذهب العصفور يلتمس له صنما يتوسل به ؟ أو عصفورا أعبر يتقرب به إلى ربه ؟
أو عصفورا ميتا يتشفع به إلى الله ؟

أو ماذا يفعل ؟ إنه يفعل شيئا عجيبا .. تمليه عليه فطرته .. وتوحيه إليه غريزته ،
إذن ماذا يفعل ؟ انه يتجه رأسا إلى ربه .. يتجه مباشرة إلى خالقه .. فتراه يسبحه ..
ويسأله .. ويدعوه .. بلا وسطاء .. وبلا شفعاء .. وبلا أصنام .. وبلا أضرحة .. وبلا أولياء
يقربونه إلى ربه .

هذه هي الفطرة .. هذه الأعداد التي لاحصر لها من الطيور ، والحيوانات ،
والحشرات .. كيف تسبح ربها ، وكيف تسأله ؟ . لا شيء هناك .. إلا أنها تتجه رأسا إلى
ربها .. مسبحة ، أو سائلة .. لا شيء إلا أن توجه قلوبها إليه سبحانه .. لا شيء إلا أنها تحقق
الحنيفية .. إلا أن تميل عن كل شيء .. وتتجه إلى ربها مستقيمة .. مباشرة .

وكذلك الملائكة .. وكذلك ما لانعلم من خلق الله .. تتجه إلى ربها مباشرة ..
بلا وسائط .. وبلا حجب .. وبلا شفعاء .. إلا هذا المخلوق المسمى بالإنسان .. فقد
بلغ من الحماقة ، والجهل ، والاضلال .. حدا .. جعله يتصور .. ويعتقد .. أنه كي
يتصل بربه .. لابد له من كهنونية .. وطفوس .. والتواءات لا أول لها ولا آخر ..
فتارة يتخذ أصناما .. لتقربه إلى ربه .. وترفع حاجته إلى الله .. وتارة يتخذ الموتى ..
وسطاء بينه وبين الله .. ويختار هؤلاء الموتى من الأولياء الصالحين .. ليستطيعوا أن
يقربوه إلى الله .. لقربهم هم من الله .. وتارة يتخذ مقابر هؤلاء الموتى ، واسطة بينه وبين
الله .. ويتصور أنها رافعة حاجته إليه .. وتارة يتخذ رجال الدين ، من قسيسين ، ورهبان
وأحبار .. واسطته إلى الله ، ليرفعوا حاجته إليه .. ويتوسطوا له لديه ليغفر له ، ويستجيب
لحاجته .. وتارة .. وتارة .. إلى آخر هذه السلسلة من الظلمات .. والانحرافات ..
والأوهام !!!

لماذا هذا ؟ لماذا هذا كله .. وقد أعلنها الله على لسان رسله جميعا .. أنه قريب منهم
وأن الاتصال به لا يحتاج إلى أكثر من مجرد التوجه إليه .. مجرد أن تريده هو سبحانه .

وايسمع العالم اجمع قول ربهم تبارك وتعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » . [ق ١٦]
إذن هو سبحانه اقرب إلى الإنسان من هذا الشريان الذي يخرج من قلبه ويوزع عليه دم الحياة .. إذن هو سبحانه أقرب إلى الإنسان من قلبه .. إذن هو قريب جدا إلى الإنسان .. قريب قريبا فوق ما يتصور هذا الإنسان ..

ويعلمها تبارك وتعالى لتذاع على الناس جميعا .
« وإذا سألك عبادي عني ، فإني قريب » ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون . » [البقرة ١٨٦]
انه قريب جداً جداً .. منك .. كما قال .. « أقرب اليه من حبل الوريد » ..
أقرب اليك من نفسك .. إذن ما عليك اذا أردت أن تتصل به الا أن تتجه بهذا القلب اليه حينئذ تجده فوراً .. ما عليك الا أن تتجه اليه سبحانه مباشرة .. أن توجه قلبك اليه مباشرة .. حينئذ سوف تجده مباشرة .. بدون وسائط .. بدون التواءات .. بدون شفعاء من الأموات أو الأحياء .. مباشرة .. حنيفا .. متجها اليه مستقيما .
هذه هي ملة ابراهيم .. أو أسلوب ابراهيم .. أو طريقة ابراهيم .. التي هي ملة الانبياء جميعا .. وهذا هو الطريق المستقيم .. وهو الطريق الاوحد المؤدى إلى الله .
وهو الطريق الذي فطر الله تعالى الإنسان عليه .. وفطر جميع خلقه عليه وهو الفطرة التي تجدها في الاطفال .. يتجهون إلى ربهم مباشرة ، لا يعرفون وسائط ولا شفعاء .. وهو أبسط طريق .. وأقصر طريق .. وأسهل طريق .
لا يكتف الإنسان شيئا .. ولا يدفع فيه مليا .. ويحفظ عليه كرامته .. ويحفظ عليه عزته .

فما للناس عن هذا يعرضون ؟! ويستبدلون به أو هاما من صنع انحرافاتهم ؟!
ويوم يعرف الناس هذا الأسلوب .. أسلوب ابراهيم .. فقد عرفوا ربهم .. وادركوا دينهم الحق .. وتحرروا من أوهامهم .. وارتفعوا بانسانيتهم إلى مقامها الطبيعي .

وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ؟

لا ينال عهدي الظالمين ١٤

قال تعالى : « قال : إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين . » [البقرة ١٢٤]

« قال » إبراهيم . « ومن ذريتي » الذرية لمسلسل الرجل وأصلها الاولاد الصغار ، ثم عمت السكهار والصغار ، الواحد وغيره . « قال » الله .

« لا ينال عهدي » لا ينال الإمامة ، وليست هي هنا الا النبوة . وآثر النيل على الجعل إيماء إلى أن إقامة الانبياء من ذريته عليه السلام ليست بجعل مستقل بل هي حاصلة في ضمن امامته ، تنال كلا منهم في وقته المقدر له .

« الظالمين » المتبادر من الظلم ، الكفر ، ويؤيده قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون) .

ما هذا ؟ إن الله ينهى إبراهيم انه جاعله للناس إماما .. أى قلوة يهتدى بها .. فيسأل إبراهيم : ومن ذريتي ؟ أتجعل كذلك أئمة من ذريتي ؟ إن إبراهيم يعلم أنه يوم ما سيموت .. وهو يخشى أن تنقطع النبوة بموته .. ويريد أن يطمئن على امتدادها .

فماذا كان جواب رب العالمين ؟ لا ينال عهدي الظالمين .. لا تنال تلك الامامة من كان ظالما من ذريتك يا إبراهيم .. وذلك أعذل .. وأدق .. مقياس .. يقرره الله تعالى .

ليس الأمر إذا فوضى .. ولا مجرد انتساب إلى إبراهيم .. كلا .. بل لابد من الاستعداد والمعدن الطيب .. والجوهر النقي .

لا بد أن يكون طاهرا مطهرا .. ليس به أدنى أثارة من ظلم أو اظلام .. وبذلك يكون النبي الذي يختاره الله من ذريته مستعدا لحمل الأنوار الالهية .. والاشراقات الربانية . هو في ذاته نور .. والوحي ينزل عليه نور .. فالأمر نور على نور .. أما من كان

مظلما .. مغدنه سيئا .. ظالما لنفسه .. أو غيره .. في سلوكه .. فذلك لن تناله النبوة ..
ولن يناله عهد الله .. وبذلك تقرر أعظم ناموس .. ناموس النبوة في ذرية إبراهيم .
صحيح أن الله تعالى حصر النبوات في ذريته .. ولكن ايس على إطلاقها .. وإنما سوف
تصيب من كان أهلا لها . وبذلك يخرج من ذرية إبراهيم .. من كان ظالما . والظلم هنا ما بين
أدنى ظلم يكون من الانسان .. إلى أعلى مستوى من الظلم يكون منه .. وهو يقع ما بين
هاتين فالكفر أعلى مستوى في الظلم .. «والكافرون هم الظالمون» والشرك من وراءه ..
«إن الشرك لظلم عظيم» . ثم بعد ذلك تأتي مستويات متفاوتات من الظلم .
حتى تتناهى الى صغار الذنوب .. التي تقع من الانسان .. كل ذلك ظلم ..
وظلمات .. لأن الظلم ظلمات .

والمطلوب في الشخص الذي يمكن أن يكون نبيا .. أن يكون بعيدا كل البعد عن الظلم
في شتى مسترياته .. فلا يصلح للنبوة من كان كافرا .. لأن الكفر تمام الظلم .. فكيف
يضيء للناس من كان هو في نفسه مظلما اظلاما تاما ؟

والشرك ظلم عظيم .. فكيف يدعو الناس إلى التوحيد من هو في ذاته مشركا بالله ؟
والمعاصي كلها ظلم على نسب متفاوتة .. فكيف يدعو الناس إلى التطهر من كان هو
في نفسه غير طاهر ؟

من هنا .. حرمت النبوة .. وحرمت الإمامة .. على كل من كان به ظلم .. كبير ..
أو صغير .

وصار ناموسا إلهيا مقررا .. لا ينال عهدي الظالمين .. لن تنال النبوة .. لن يكون
اماما من كان ظالما ..

وهذا الناموس شيء تقرر وتحقق .. فلن تجد نبيا من ذرية إبراهيم .. أو غير إبراهيم ..
إلا وكان قبل النبوة معدنا طاهرا .. نقيا .. بعيدا بعدا تاما عن الظلم .. بانواعه كلها ..
لا ينال عهدي الظالمين ؟!! ما أشد لأئمتها .. وأعلى نورها .. وأصدق ناموسها !!!
لا .. ولن .. ينال عهده سبحانه الظالمين .. لا بد من الاستعداد .. حتى إذا جاءت النبوة ..
كانت شيئا طبيعيا .. تتلاقى أنوارها مع أنوار قلوبهم الشريفة .

لابد أن تكون قلوب أولئك الانبياء أجهزة — ان صح ذلك التعبير — صالحة لاستقبال الاذاعات الالهية — ان صح ذلك التعبير كذلك — وإذا عتها على العالم .. فكل نبي .. هو في ذاته .. وقبل أن يكون نبيا .. معدن طاهر .. طيب .. منير .. وسلوك رفيع .. وأخلاق عظيمة .. قبل أن يختاره الله لرسالته .. وادركها إبراهيم .. ووعاها .. وعلم منها أن الله جاعل في ذريته النبوة .. إلا أنها محرمة على الظالمين من ذريته .

وسوف يرى .. ونحن نجوس خلال تلك الشجرة الطيبة .. شجرة النبوة .. كيف أن الله تبارك وتعالى اختار لنبوته أشخاصا دون أشخاص .. فتسأل لماذا هذا دون غيره ؟ فلا يكون الجواب الا : لأن هذا هو المعدن المؤهل لتلك النبوة .

لماذا يوسف دون اخوته الاحد عشر ؟ لأن يوسف هو المعدن الكريم من دونهم أجمعين ولقد تبدى ذلك واضحا .. خلال قصته معهم ..

وقالوها في نهايتها .. « .. تالله لقد آترك الله علينا .. » III [يوسف ٩١] وأدركوها .. وعلموا أن النبوة استعداد .. وأنهم كانوا ظالمين .. فمن أجل هذا حرموها .. وأعطاه الله يوسف .. من دونهم .. عن استحقاق .. وعن جدارة .. وحسبه أن سيد الرسل شهده بذلك في حديثه « إن الكريم ، بن الكريم ، بن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف ، بن يعقوب ، بن اسحاق ، بن إبراهيم » .. هو إذن الكريم .. المعدن الكريم من بين اخوته اجمعين .. ومن أجل هذا آتاه الله .. أو آثره .. بلغة اخوته .

ولكن على أي قاعدة ؟ قاعدة العدل الالهي .. الناموس الالهي الخالد .. لا ينال عهدى الظالمين .. وفي هذا رد على أولئك الذين يتخذون انتسابهم إلى السلالة النبوية الطاهرة راسما لهم .

لعلهم يدركون أن الإمامة محصورة في العدول .. ومحرومة على من كان ظالما .. ولو أدنى ظلم .

لماذا اشعاع النبوات؟

قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة » ، فبعث الله النبيين ، مبشرين ، ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه ، من بعد ما جاءتهم اليينات ، بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

[البقرة ٢١٣]

« كان الناس أمة واحدة » أمة واحدة ضالة .. كانوا كفارا .. كانوا جميعا في ظلمة .. فأراد الله تعالى أن يرحمهم .. ويرسل إليهم من نوره .. « فبعث الله النبيين » أرسل هؤلاء النبيين تباعا .. « مبشرين » من آمن بالنبوات « ومنذرين » من كفر بالعباد وهم كاهنون .

« وأنزل معهم الكتاب » والكتب المنزلة مائة وأربعة في المشهور « بالحق » متلبسة بالحق « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » أى فى الحق الذى اختلفوا فيه ، بناء على أن وحدة الأمة بالاتفاق على الحق وإذا فسرت الوحدة بالاتفاق على الجهالة والكفر فالمنى : فيما التبس عليهم « وما اختلف فيه » أى فى الحق ، أوفى الكتاب المنزل ، متلبسا به بأن حرفوه ، وأولوه بتأويلات زائفة .

« إلا الذين أوتوه » أى الكتاب المنزل لازالة الاختلاف ، وإزاحة الشقاق ، أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل مزيحا للاختلاف سببا لرسوخه واستحكامه .

« من بعد ما جاءتهم اليينات » أى رسخت فى عقولهم الحجج الظاهرة الدالة على الحق « بغيا بينهم » البغى ، الظلم ، أو الحسد - وفيه إشارة إلى أن البغى قد باض وفرخ عندهم فلا مطمع له فى غيرهم - ومنشأ ذلك مزيد حرصهم فى الدنيا ، وتكالبهم عليها .

« فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » أى بأمره وتوفيقه وتيسيره والضدير عام شامل للمختلفين السابقين واللاحقين والقرينة على ذلك عموم الهداية للمؤمنين

السابقين على اختلاف اهل الكتاب ، واللاحقين بعد اختلافهم « والله يهدي من يشاء .
إلى صراط مستقيم » وهو طريق الحق الذى لا يضل سالكه .
إذن هذه البشرية كانت أمة واحدة .. أى متفقة كلها على الضلالة .. والظلام ..
وليس هذا شيئاً كان ومضى .

بمعنى أن البشرية كانت ضالة فيما مضى ، وفي عهود انحطاطاتها .. وأنها الآن أصبحت
رشيدة .. عارفة للحق .. مدركة لربها .. وأنها كلما ارتقت .. فى مستقبل الأيام .. سوف
تعرف ربها أكثر كلاً .. بل إن الأمر ناموس عام .. خالد .. مقرر .. لا تغيير له ولا تبديل ..
« كان الناس أمة واحدة » .. كانوا .. وما زالوا .. وسوف يكونون ..
أمة واحدة .. كلهم ضالون .. حاثرون .. مظلومون .

ومن كان فى شك من هذا القانون .. فلينظر إلى الكرة الأرضية .. وليشر بأصابعه ..
إلى الذين عرفوا ربهم .. فى هذه الحياة القائمة على الأرض .. وهم يبلغ عددهم ١٤٠ آحاد ..
عشرات .. ألوف .. بضعة ملايين ؟! وأين هذه الأرقام .. بالنسبة إلى سكان هذه الأرض
من الناس الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف مليون ؟ كان الناس أمة واحدة ؟! كانوا .. وما زالوا ..
وهكذا سيكونون فى مستقبل الأيام .. ولينظر من شاء إلى تلك الملايين الكافرة بربها ..
أولئك الشيوعيين .. فى أنحاء العالم .. ليدرك صدق الناموس الإلهى « كان الناس أمة
واحدة » .

لماذا هذا ؟ لماذا دائماً .. هذا الإنسان .. يتمتع بالجهل التام .. والظلام التام ؟ لأنه
يعتمد على العقل وحده .. والعقل أداة تصلح للهدى وتصلح للضلال .. ومركب تركبه إلى
الكفر .. كما تركبه إلى الإيمان .

وكأين من عالم خطير .. فى الذرة .. أو فى إبحاث القضاء .. وهو جاهل بربه لا يعتقد
له وجودا .. ولا يرجوه وقاراً ؟!

فما تفسير ذلك ؟ لماذا لم يهده عقله الكبير .. الذى برع فى علوم خطيرة كتلك
العلوم ؟ الجواب : لأن العقل وحده قاصر عن بلوغ الحقيقة من أسرار الحياة الكبرى !

العقل حدوده عالم المادة.. يبحث ويسخر ، ويبدع فيها .. أما الله الذى هو وراء تلك المادة..
فيقف العقل حياله لا يدري شيئا .. يقف فى اظلام تام إلا أن يبحث الله له خلال تلك
الظلمات نورا من عنده .

هنالك يدرك ذلك العقل ما لم يكن يدرك ، ويعلم ما لم يكن يعلم .. هنالك يرى افعال
الله .. ويدرك الحقيقة من هذه الحياة كلها .
« كان الناس أمة واحدة » .. كل الناس مظلومون .. عاجزون .. حائرون .. بعقولهم
وحدها .

إلا أن أبعث إليهم نورا من عندى .. ولذلك قال تعالى مباشرة ..
« فبعث الله النبيين » .. من أجل ذلك .. بعثت إليهم النبيين .. أرسلت إليهم تلك
الانوار .. تلك النبوات .. أرسلت إليهم اشعاعا من عندى .. نورا يكشف لهم
الحجب .. ويريهم الحق من أمرى .

« مبشرين ومنذرين » .. وحددت لهم رسالتهم .. أن بشروا من أطاع بالجنة ..
وانذروا من عصى بالنار .. هناك اذن حياة أخرى وراء هذه .. هناك أمور لا سبيل
للعقل وحده أن يدركها .. إلا أن ارسل إليه نورا من عندى .

« وأنزل معهم الكتاب بالحق » .. وأنزل مع هؤلاء النبيين كتباً تنطق بالحق ..
وتبينه .. وتوضحه .. « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » من شئون حياتهم كلها .
هناك طوفان .. سيال .. لا يتوقف من الخلافات الفكرية .. فى البشر جميعا ..
فلا بد من ميزان يزنون به افكارهم .. ليعرفوا باطلها وحقها .
وتلك رسالة الرسل ، ومهمة الكتب التى أنزلناها معهم .

ثم عاد فبين أنه لا يستفيد من تلك الموازين .. الا الذين آمنوا .. الا الذين
استضاءت قلوبهم بانوار الله .

أولئك وحدهم هم المستفيدون من تلك النبوات .. ومن تلك الكتب .. أما الذين
لم يؤمنوا .. فهى عليهم عمى .. ودليل ذلك أنك تجد اكبر الخلافات ، وأعقها ،

وأكثرها تعقيدا ، وثرسبا في النفوس ، في أولئك العلماء ، الذين درسوا ، واحترفوا مهنة الأديان ، تراهم يختلفون ، ويتراشقون ، لاشيء إلا ليغنى بعضهم على بعض ، ويتعالى بعضهم على بعض .. طلبا للدنيا .. لاطلبا للحق في ذاته .. « وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

وكان الظن أن يكون علماء الأديان ابعد الناس عن الخلاف ، فاذا بهم عكس ذلك .. إذا بهم أكثرهم خلافا .. وأشدهم عدااء !! إنه الإنسان .. هناك استحالة أن يهتدى إلى الحق .. ما لم ينزل عن هواه .. ويستنير بنور الله وحده .
فهدي الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه .. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

- والآن .. لماذا النبوات ؟ لتكون نورا .. يضئ للناس كافة الطريق إلى ربهم .
وبغير هذا النور الإلهي .. لا يستطيع العقل وحده أن يبصر الأمر على حقيقته .
ومن هنا ندرك خطورة تلك السلسلة من النبوات التي جعلها الله تعالى في ذرية ابراهيم .

وتلك السلسلة من الكتب السماوية التي أنزلها على من بعثه من النبيين من ذريته .
إنها اشعاعات لازمة للبشرية .. لازمة لعقلها .. كي تستنير بها .. وتدرك موقفها من ربها .. ومن هذه الحياة .

هل الرسل سواء ؟!

كلا .. ليسوا سواء .. واليك الدليل .
قال تعالى . « تلك الرسل ، فضَّلنا بعضهم على بعض ، منهم من تكلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس .. »
[البقرة ٢٥٣]

ليسوا سواء .. هؤلاء الرسل العظام .. ولا بد أن يكونوا كذلك . وإن الحكمة

لتتلاؤم في تفضيلهم أكثر مما تتلاؤم في اتحادهم في الدرجة والفضل .. هم يتفاضلون .. وهم يتفاوتون في الدرجات .. ولكنهم جميعا .. سلسلة .. وثمار .. وأنوار .. وأزهار .. لتلك الشجرة الطيبة .. شجرة ابراهيم .. شجرة المرسلين .

ولقد تلاؤم فضل الله العظيم ، عليهم ، فيهم .. فأتاهم ماشاء .. وفضلهم بما شاء .. وبعثهم لمن شاء .. وادسلهم متى شاء .. ورفعهم كيف شاء .. وأيدهم بما شاء .. وابتلاهم بما شاء .. فكانوا جميعا رحمته المهداة إلى خلقه .. ونوره الموهوب إلى عباده .

إلا أنهم أولا .. وقبل كل شيء .. فروع من شجرة أبيهم .. ابراهيم .

فأى بركات أعطاك ربك في ذريتك .. يا ابراهيم ؟

وأى رحمت .. تنزلت على النبيين من ذريتك ؟

وأى فضل آتاك .. فيهم .. يا ابراهيم ؟

هل نفرق بين أحد من رسله ؟

كلا .. ثم كلا .. لا نفرق بين أحد من رسله .. وإليك الدليل .

قال تعالى : « آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكِتَابِهِ ، وَرُسُلِهِ ، لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ .. »

[البقرة ٢٨٥]

إذن نحن نؤمن بجميع الرسل .. نحن لا نفرق بين أحد من رسله .. نحن لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض .. كلا .. وإنما اتجهاء عام .. اتجهاء عالمي .

نحن نؤمن بالرسول جميعا .. من آدم حتى محمد .. عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لماذا ؟ لأنهم جميعا جاءوا بكلمة واحدة .. لا إله إلا الله .. لأنهم جميعا أرسلوا من إله واحد .. فمن آمن بذلك الإله .. وجب أن يؤمن برسوله إلى الناس .. وإلا فهو مكذب به سبحانه .. وإذا علم أن جميع الأنبياء بعد ابراهيم من ذرية ابراهيم .. أمكننا أن ندرك إلى أى مدى نحن نؤمن بابراهيم .

فنحن لا تؤمن بإبراهيم في ذاته .. وتقف بعد ذلك .. بل نحن تؤمن به في تفصيله .. في تسلسله في البشرية .. في أولئك الدين من ذريته .. في النبيين من بعده .. الذين هم ابعاضه .
فنحن آمنّا بإبراهيم كفرد .. وآمنا به مرة أخرى .. في الأنبياء من بعده .. من ذريته .

لماذا الاصطفاء ؟

لماذا لاتقع النبوة حينما اتفق ؟ لماذا لا يختار الله لها أى إنسان .. بصرف النظر عن سلالة ، وأصوله ؟
لماذا هذه الارستقراطية في اختيار الأشخاص الصالحين لأن يكونوا أنبياء ؟ اليك الجواب .

قال تعالى : « إن الله اصطفى آدم ، ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران ، على العالمين ، ذريةً بعضها من بعض ، والله سميعٌ عليمٌ » [آل عمران ٣٣ و ٣٤]
ما هذا ؟ إن الله اختار .. آدم .. ونوحاً .. وآل إبراهيم .. وآل عمران .. على سائر الناس .. على العالمين .

لماذا ؟ . لأنهم أصاح الناس لجل هذا الأمر .. فليس الأمر أمراً سهلاً ، يحمله كل من هب ودب .

وإنما هو أثقل شيء .. وأشق شيء .. وأخطر شيء .
ومن هنا تحتم أن يختار له خلاصة ، وصفوة البشر .. فكانوا هؤلاء .. اختارهم الله على علم « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .. وأنزل عليهم كتبه .. وأوحى اليهم كلامه .. وكلفهم أن يبلغوه إلى الناس .. حقيقة أن الله مطلق الحرية في اختيار من شاء ، لما شاء .

إلا أنه يجب أن نفهم جميعاً أن الاختيار الإلهي يطابق دائماً الحكمة في كل شيء .. لأن صفات الله تبارك وتعالى لا ينقض بعضها بعضاً .. وإنما كلها كالـمطلق .. يؤدي إلى حكمة مطلقة .

وآتيناهم ملكا عظيما

ولم يقف الأمر بآل إبراهيم .. أن جعل الله فيهم النبوة والكتاب .. بل تجاوزته إلى الدنيا .. فآتاهم الله تعالى ملكا عظيما .

وسلّسه في ذرياتهم .. فكان منهم الملوك ، والرؤساء ، والدول ، والخلافة ، وتاريخنا عظيما .. فجمع الله بذلك لهم بين الامامة وبين الدولة .. بين الآخرة وبين الدنيا .. وهذا أقصى ما تطمح اليه الأبصار !!

قال تعالى : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب ، والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا » [النساء ٥٤ و ٥٥]

« أم يحسدون الناس » انتقال من توبيخهم بالبخل ، إلى توبيخهم بالحسد الذي هو من أقبح الرذائل المهلكة ، من اتصف بها دنيا واخرى . والمراد من الناس سيدهم ، بل الخليفة على الإطلاق ، محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس : قال : « قال أهل الكتاب : زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع وله تسع نسوة ، وليس همه إلا النكاح فأى ملك أفضل من هذا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية » وقيل : المراد بهم جميع الناس الذين بعث اليهم النبي صلى الله عليه وسلم من الأسود والأحر أي : بل أيحسدونهم .

« على ما آتاهم الله من فضله » يعنى النبوة ، أو بعثة النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، ونزول القرآن بلسانهم . أو جمعهم كمالات تقصر عنها الأمانى .

« فقد آتينا » أيحسدوا الناس على ما أوتوا فقد أخطأوا ، إذ ليس الايتاء بيدع منا ، لأننا قد آتينا من قبل هذا .

« آل إبراهيم الكتاب » أى جنسه والمراد به التوراة . والإنجيل ، أوها والزبور . « والحكمة » أى النبوة ، أو اتقان العلم والعمل ، أو الاسرار المودعة في الكتاب .

أقوال . « وآتيناهم » مع ذلك .

« ملكا عظيما » لا يقادر قدره . والمعنى أنهم لا ينتفعون بهذا الحسد ، فإننا قد آتيناه هؤلاء ما آتيناه مع كثرة الحساد الجبابرة ، فلم ينتفع الحاسد ، ولم يتضرر المحسود .

والمراد من آل إبراهيم أنبياء ذريته . عن ابن عباس : الملك في آل إبراهيم ملك يوسف ، وداود ، وسليمان عليهم السلام . وعلى الثاني : فالمراد بهم ذريته كلها ، فان تشریف البعض بما ذكر تشریف للكل ، لاغتنامهم بآثار ذلك ، واقتباسهم من أنواره . أى أن إيتاء النبوة لا يمنع إيتاء الملك ، فلم يعيرون على هذا النبي ذلك ؟

« فمنهم » أى من جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم . « من آمن به » بما أوتى آل إبراهيم « ومنهم من صد » أى أعرض . « عنه » ولم يؤمن به . وقيل : فمن آل إبراهيم من آمن به ، ومنهم من كفر ، ولم يكن في ذلك توهين ، فكذلك لا يوهن كفر هؤلاء أمرك . « وكفى بجهنم سعيرا » أى ناراً مسعرة ، موقدة ايقادا شديدا . أى إن انصرف عنهم بعض العذاب في الدنيا ، فقد كفاهم ، ما أعد لهم من سعي جهنم في العقبى .

إذن فضل الله تعالى على آل إبراهيم لم يقف عند إيتائهم النبوة والكتاب .. بل تعداه إلى إيتائهم الملك العريض .. ومكن لهم في الأرض تمكينا .. يريد الله بذلك أن يمكن لكلمة « لا إله إلا الله » في الأرض .. فمكن لها .. أولا .. في قلب إبراهيم ثم جعلها « كلمة باقية في عقبه » تنقل من قلب نبي ، إلى قلب نبي آخر ، من ذريته .

ثم تتمدد اشعاعاتها .. من قلوب هؤلاء جميعا .. إلى قلوب الجماهير من ورأيهم الذين يؤمنون بها ، ولهم يتبعون .. وبذلك استقرت لا إله إلا الله في الباطن .

إلا أن استقرارها في الباطن لا يكفي ضمنا لتمدها .. فلا بد لتمكينها في الظاهر .. من استقرارها في الدنيا .. من تقرير وضعها في الدول والمجتمعات وحياة الناس .. ومن هنا يأتي دور « الملك » .. ودور « وآتيناهم ملكا عظيما » .

لا ليكونوا ملوكا جبارين .. ولا ليعلوا في الأرض بغير الحق .. كلا .. وإنما

« لتكون كلمة الله هي العليا » .. اعطاهم الملك .. اعلاء لدينه وتقريراً لكلمته في ارضه .

حكمة ؟ !! بالها من حكمة .. ولكن أكثر الناس لا يعقلون !!
ولننظر الآن .. لماذا يحسد هؤلاء الجاهلون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ لماذا يحسد الكفار محمداً صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من النبوة ؟ أنه الجهل .. يحجلون أن الأمر بيد الله .. وأنه هو وحده العليم بالقلوب الصالحة لحمل رسالته .
ثم لننظر إلى الآية كيف ردت عليهم أبلغ رد حين قالت « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً » .

أى لا يمنع إيتاء الكتاب والنبوة لشخص ، أن يؤتاه الله الملك إلى جوارها .. فيجمع له بين الإمامة وبين الملك .. ولقد حدث هذا لكثيرين من ذرية إبراهيم .. فليس محمد بدعاً من الرسل .

والآن .. نتفكر .. ما هذه الشجرة العجيبة .. شجرة إبراهيم ؟! جعل الله في ذريتها النبوة والكتاب .. وزادها فضلاً .. فجعل فيها .. ملوكاً .. ورؤساء .. ماهى في التاريخ ؟ . وما هى في توجيه البشرية كلها ؟

ويكفى أن تلقى بنظرة عاجلة إلى بنى إسرائيل .. فرع اسحاق .. وما خرج منه من ملوك عظام .. كيوسف .. وداود .. وسليمان .. وكثير غيرهم .

وإلى فرع اسماعيل .. وما كان منه من ظهور النجم الأعظم .. محمد صلى الله عليه وسلم وما انبثق منه من ملك سيطر على العالم كله بعد ثلاثين عاماً .

تلك الدولة الكبرى التى أسسها محمد صلى الله عليه وسلم .. وأتمها أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى .. ومن بعدهم .

فلنتفكر في هذا لنذكر أنى شجرة إبراهيم .. وأى نبوة ، وأى كتاب ، وأى ملك ، كان فيها ؟!

إنها اعجب شجرة .. كانت في هذا الجنس .. المسيح بالبشر !!!

الكواكب التي ثلاث من الشجرة ١٤

قال تعالى : « إنا أوحيينا إليك ، كما أوحيينا إلى نوح ، والنبين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتيناه داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً . »

[النساء ١٦٣ - ١٦٥]

« انا أوحيينا إليك كما أوحيينا إلى نوح والنبين من بعده » عن ابن عباس : « قال سكين ، وعدى بن زيد : يا محمد ، ما نعلم الله تعالى أنزل على بشر من شيء بعد موسى عليه السلام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية »

أى : أوحيينا إليك ايحائنا إلى نوح وبدأ سبحانه بنوح تهديدا لهم ، لأنه أول نبي عوقب قومه « وأوحينا إلى إبراهيم » كما أوحينا إلى إبراهيم .

« وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » فإن الأسباط في ولد إسحاق كما لقبائل في ولد إسماعيل وقد أرسل فيهم عدة رسل ، فيجوز أن يكون أراد سبحانه بالوحي اليهم الوحي إلى الأنبياء منهم .

« وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان » ذكروا تشریفاهم ، وإظهاراً لفضلهم ، على ما هو المعروف ، من ذكر الخاص بعد العام ، في مثل هذا المقام . بدأ بذكر إبراهيم بعد التكرير ، لمزيد شرفه ، ولأنه الأب الثالث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

« وآتيناه داود زبوراً » كتاباً اسمه الزبور ، وهو اسم الكتاب المنزل على داود عليه السلام . وكان أنزله عليه عليه السلام منجماً ، وبذلك يحصل الالتزام . قال القرطبي : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام ، وإنما هي حكم ومواعظ ، والتحميد والتعجيد ، والثناء على الله تعالى شأنه .

« ورسلا » أى أرسلنا رسلا « قد قصصناهم عليك » أى قصصنا أخبارهم وتعريف شأنهم وأمورهم « من قبل » أى من قبل هذه السورة أو اليوم . وقال بعضهم : قصصهم عليه عليه الصلاة والسلام بالوحى فى غير القرآن ، ثم قصصهم عليهم بعد فى القرآن .

« ورسلا لم نقصصهم عليك » أى من قبل ورد فى الخبر : أن الرسل ثلثمائة وثلاثة عشر . والأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . وعن كعب : أنهم ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة وعشرون ألفا .

« وكلم الله موسى تكليما » المعنى أن التكلم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى وأعلاها وقد خص به من بين الأنبياء الذين اعترقهم بنبوتهم موسى عليه السلام ، ولم يقترح ذلك فيهم أصلا ، فكيف يتوهم أن نزول التوراة عليه جملة قادم فى نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور حكمة ذلك .

« رسلا مبشرين » من آمن وأطاع بالجنة والثواب « ومنذرين » من كفر وعصى بالنار والعقاب .

« لئلا يكون للناس على الله حجة » أى معذرة يعتذرون بها قائلين (لولا أرسلت إلينا رسولا) فيبين لنا شرائعك ، ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوى البشرية عن ادراك جزئيات المصالح ، وعجز أكثر الناس عن ادراك كلياتها .

« بعد الرسل » أى بعد إرسالهم وتبليغ الشريعة على ألسنتهم « وكان الله عزيزا » لا يغالب فى أمر يريده « حكما » فى جميع أفعاله .

هذه مجموعة .. من تلك الكواكب التى تلالأت بانوار النبوة .. من تلك الشجرة الطيبة .. شجرة إبراهيم .. مجموعة يسردها الله تعالى .. على سبيل المثال .. لاعلى سبيل الحصر .. على سبيل الإشارة لاعلى سبيل التاريخ .. ولذلك جاءت غير مرتبة ترتيبا زمنيا .. حتى لا تمل الاسماع ترتيبها .. وإنما تقاچى القارىء بهم .. اسما .. اسما .. فتحدث عنده انتباها .. كاملا .. إبراهيم .. إسحاق .. يعقوب .. الأسباط .. عيسى .. أيوب .. يونس .. هارون .. سليمان .. داود .. موسى .

هكذا .. كما أنما يقول لك : انظر إلى فوق .. إلى هذه السماء .. وتأمل تلك
الكواكب المنتشرة فيها .. بصرف النظر عن مستواها .. أوتاريخ شروقها وانما انظر إليها
في مجموعها .. وزيناها للناظرين .. زينا سماء الحياة البشرية بزينة الكواكب .. بهؤلاء
الأنبياء .. يتلألأون في ليلها البهيم .. في ظلماتها الشديدة .

ولو أنك دقت النظر بعين بصيرتك إلى كل نجم من هؤلاء النجوم .. لوجدته نورا
عظيما .. يشع إشعاعا باهرا .. عاليا .

وسوف تدهش أشد الدهشة .. إذا علمت أن هؤلاء جميعا .. انبثقوا عن النجم
الأكبر .. ابراهيم ١٤

لو أشركوا .. لحبط عنهم .. ما كانوا يعملون ١٤

قال تعالى : « ووهبنا له إسحاق ، ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ،
ومن ذريته داوود ، وسليمان ، وإيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، وكذلك نجزي
الحسنين . وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، كل من الصالحين . وإسماعيل ، وإدريس ،
ويونس ، ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آباؤهم ، وذرياتهم ، وإخوانهم ،
واجتبيناهم ، وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله ، يهدي به من يشاء من
عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب
والحكم والنبوة ، فإن يكفروا بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك
الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذكرى
للعالمين . » [الأنعام ٨٤ - ٩٠]

« ووهبنا له » أى لابراهيم عليه السلام .

« اسحاق » وهو ولده من سارة ، عاش مائة وثمانين سنة . « ويعقوب » وهو
ابن اسحاق عاش مائة وسبعا وأربعين سنة . « كلا » أى كل واحد منهما . « هدينا »
لأحدهما دون الآخر . « ونوحا هدينا من قبل » أى من قبل ابراهيم — عليه السلام —

« ومن ذريته » الضمير لإبراهيم — عليه السلام — « داود » من سلالة يهوذا بن يعقوب جمع له بين النبوة والملك . قيل : إنه عاش مائة سنة ومدة ملكه منها أربعون ، وله اثنا عشر ابنا .

« وسليمان » قيل : كان أبيض ، جسيما ، وسيما ، وضئيئا ، جملا ، خاشعا . متواضعا . وكان أبوه يشاوره في كثير من أموره في صغر سنه لوفور عقله وعلمه . عن ابن عباس : أنه ملك الأرض .

« وإيوب » وهو ابن موص بن روم ، بن عيص . بن اسحاق .

« ويوسف » بن يعقوب ، بن اسحاق ، بن إبراهيم عاش مائة وعشرين سنة .

« وموسى » وهو ابن عمران بن يصر ، بن ماهيث ، بن لاوى ، بن يعقوب ، وعاش مائة وعشرين سنة .

« وهارون » أخوه شقيقه .

« وكذلك نجى المحسنين » أى نجىهم مثل ماجزينا إبراهيم — عليه السلام — برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم . والمراد مطلق المشابهة في مقابلة الاحسان بالاحسان ، والمكافآت بين الأعمال .

« وزكريا » بن ازن ، بن بركيا ، كان من ذرية سليمان — عليهما السلام — وقتل بعد قتل ولده ، وكان له يوم بشر به اثنتان وتسعون .

« ويحيى » بن زكريا .

« وعيسى » بن مريم .

« وإلياس » بن يس ، بن فنحاص ، بن العيزار ، بن هارون أخى موسى .

« كل » كل واحد من أوائك المذكورين « من الصالحين » الكاملين فى الصلاح الذى هو عبارة عن الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى .

« وإسماعيل » أكبر ولد إبراهيم « ويونس » بن متى « ولوطا » ابن أخى إبراهيم « وكلا » كل واحد من هؤلاء « فضلنا » بالنبوة « على العالمين » أى على عصرهم وفيها

دليل هلى أن الأنبياء أفضل من الملائكة «ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم» أى وهدينا من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم جماعات كثيرة . أو : فضلنا بعض آبائهم ١٠٠ الخ .
 « واجتبيناهم » أى اصطفيناهم « وهديناهم إلى صراط مستقيم » تمهيد لبيان ما هدوا إليه .
 « ذلك » أى الهدى إلى الطريق المستقيم « هدى الله » الاضافة للتشريف « يهدى به من يشاء » هدايته « من عباده » وهم المستعدون لذلك ويفيد أنه تعالى متفضل بالهداية .
 « ولو أشركوا » أولئك المذكورون « لحبط » لبطل وسقط « عنهم » مع فضلهم وعلو شأنهم . « ما كانوا يعملون » أى ثواب أعمالهم الصالحة ، فكيف بمن عداهم ، وهم هم ، وأعمالهم أعمالهم ؟!

« أولئك » إشارة الى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر . « الذين آتيناهم الكتاب » أى جنسه والمراد بآيتائه التفهيم التام لما فيه من الحقائق ، والتمكين من الإحاطة بالجلال والحقائق ، أعم من أن يكون ذلك بالانزال ابتداء ، وبالإيراث بقاء ، فان ممن ذكر لم ينزل عليه كتاب معين . « والحكم » أى فصل الأمر بين الناس بالحق . أو : الحكمة ، وهى معرفة حقائق الأشياء ، « والنبوة » فسرهابعضهم بالرسالة .

« فان يكفر بها » بهذه الثلاثة ، بالنبوة الجامعة للباقيين . « هؤلاء » أى أهل مكة ، أو الكفار الذين جحدوا بنبوته صلى الله عليه وسلم . « فقد وكلنا بها » أمرنا برعايتها ، ووقفنا للإيمان بها ، والقيام بحقوقها . « قوما » فخاما . « ليسوا بها بكافرين » فى وقت من الأوقات ، بل مستمرون على الإيمان بها . والمراد بهم : أهل المدينة من الأنصار . وقيل : أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مطلقا . وقيل : كل مؤمن من بنى آدم عليه السلام .

« أولئك » أى الأنبياء المذكورين . أو : الإشارة إلى المؤمنين الموكلين . « الذين هدى الله » أى هديناهم إلى الحق وصراط مستقيم . « فبهدهم اقتده » أى اجعل هداهم منفردا بالاعتداء ، واجعل الاقتداء مقصورا عليهم . والمراد بهدهم عند جمع طريقهم فى الإيمان بالله تعالى وتوحيده ، وأصول الدين ، دون الشرائع القابلة للنسخ . ومعنى أمره صلى الله عليه وسلم بالاعتداء بذلك الأخذ به ، لامن حيث انه طريقة أولئك الفخام . بل من حيث

أنه طريق العقل والشرع ، ففي ذلك تعظيم لهم ، وتأييد على أن طريقهم هو الحق الموافق
لدليل العقل والسمع .

« قل لأسألكم » أى لأطالب منكم . « عليه » أى على القرآن أو على التبليغ .
« أجرا » أى جعلا ، قل أو كثر كما لم يسأله من قبلى الأنبياء عليهم السلام أمهم . قيل : وهذا
من جملة ما أمرنا بالاعتداء به من هداهم — عليه السلام — . « إن هو » أى القرآن .
« إلا ذكرى » أى تذكير . « للعالمين » كافة ، فلا يختص به قوم دون آخرين . واستدل
بالآية على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم .

ما هذا ؟ هذه هى النجوم التى تسبح فى سماوات متعددة .. ولكل منها فلك معلوم ..
إلا أنها جميعا تدور حول قطب واحد .. هو لإله إلا الله .

ومن هنا يقرر الله تعالى ذلك الناموس الخالد « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا
يعملون » .. رغم جلالة قدرهم .. وعظمة درجاتهم .. ورغم ما هم عليه .. فإن الله يعلن على
الناس كافة .. أن أحدا منهم لو أشرك بنا أدنى إشراك لسقطت أعماله كلها .. ولأبعدناه
عنا بعدا بعيدا .

لماذا ؟ لأنه اختارهم لنفسه .. وعرفهم نفسه .. واختصهم برسالته .. فلا يتصور أن
يشركوا به شيئا .. وقد علموا من جلاله وجماله وصفاته وقهره وكبريائه ما لم يعلم الناس
جميعا .. فلا يقبل منهم إلا التوحيد .. فى أعلى مستويات التوحيد . لو أشركوا .. أدنى
شرك .. أو أقل شرك .. لحبط عنهم .. لسقط .. لبطل .. لضاع .. ما كانوا يعملون ..
فى دنياهم .. من الخيرات .. والحسنات .. والجهاد فى سبيلنا .

إن هؤلاء الرسل لهم عندنا مقامات كبرى .. وأعدنا لهم مالا خطر على قلوب البشر .
فهم بأعيننا .. ونحاسبهم حسابا لا نحاسبه أحدا من العالمين .. شئ رهيب جدا .. إن
هؤلاء الرسل محاسبون جميعا .. من أجل هذا كان خوفهم من الله شديدا .. شديدا ..
وعاشوا .. وماتوا .. لله .. وحده .. ظاهرهم .. وباطنهم .. له سبحانه .. لا سبيل للإشراك
إلى قلوبهم .. لأنها خالصة لله .. ربهم .. دون سواه .

والآية تهدد كل انسان .. كل من أراد أن يتجه إلى الله .. لن يقبل الله عملا فيه أدنى مقدار من شرك .. لا بد أن يكون العمل خالصا له سبحانه .. وإلا .. حبط .. بطل .. لا يقيم الله له وزنا .

اذن هؤلاء النجوم الالامعة في سماء التوحيد .. نجوم لا إله إلا الله .. هؤلاء الأنبياء .. جاءوا ليكونوا دعاة إلى لا إله إلا الله .. دعاة إلى الإخلاص .. دعاة إلى التوحيد .. دعاة إلى نفي الشرك نفيا تاما من قلوب البشر .

ومن هنا أمر محمد صلى الله عليه وسلم باتباعهم جميعا .. دون تفريق .. لأنهم جميعا يدعون إلى أمر واحد .. إلى لا إله إلا الله .. وأمرنا جميعا كذلك بالايمان بهم كلهم .. واتباعهم في سلوكهم نحو الله .. لأن الطريق واحدة .. والغاية واحدة .. هي رب العالمين .. وأمرنا جميعا أن نهتدى بهداهم .. الذي عماده التوحيد .. أن نكون مخلصين في الاتجاه إليه .. لا شريك له .. وبذلك أمرت .. انها الحنيفية التي جاء بها ابراهيم .. واتبعها جميع النبيين من بعده .. من ذريته .

انها الكلمة الباقية في عقبه .. انها لا إله إلا الله .. التي جاء بها جميع الأنبياء .. ابراهيم .. اسحاق .. يعقوب .. داوود .. سليمان .. أيوب .. يوسف .. موسى .. هارون .. زكريا .. يحيى .. عيسى .. إلياس .. اسماعيل .. اليسع .. يونس .. لوط .. وغيرهم .. وغيرهم .. من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم :

أمر الى محمد .. أن الله برىء من المشركين ..!

قال تعالى « وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يومَ الحجِّ الأكبرِ ، أنَّ اللهَ برىءٌ منَ المشركينَ ورسوله .. »
[التوبة ٣]

إن الله يأمر محمدًا صلى الله عليه وسلم .. يأمره بماذا ؟ يأمره أن يعلن نيابة عنه .. ونيابة عن جميع النبيين من قبله .. ونيابة عن ابراهيم .. والنبيين من ذريته .. أن يعلن إلى الناس كافة .. في أعظم يوم .. يوم عرفة .. حيث يجتمع أكبر حشد من الناس .. يوم

الحج الأكبر .. أن الله برىء من المشركين ورسوله . لماذا ؟ . لأن هذه الحياة .. وهؤلاء
الناس جميعا .. خلقوا ليعرفوا الله .. ليعبدوه .. ولا يشركوا به شيئا .. ولأن جميع الرسل
أرسلوا من أجل هذا .. وهذا وحده .. فوجب أن يعلن خاتم الرسل .. هذا البيان إلى جميع
الناس .. إلى يوم القيامة .. حتى لا يكون للناس حجة بعد ذلك على الله .
انه نفس التحذير .. ونفس التهديد .. كما حذر الرسل جميعا « لو أشركوا لحبط عنهم
ما كانوا يعملون » .. فهو هنا يحذر الناس جميعا « أن الله برىء من المشركين » .. ليعلم
من لم يعلم .. أن الله لا يقبل من أحد عملا إلا إذا كان خالصا لوجهه .

وليعلم الناس أن الله خلقهم من أجله .. له وحده .
وايعلموا أن هذه الشجرة .. هذه السلسلة المتتابعة من الأنوار .. من الأنبياء .. إنما
كانت كلها .. ليعلم الناس تلك الحقيقة الجامعة .. حقيقة الحقائق .. وهكذا .. تتلاقى
الرسالات كلها .. وتتوحد النبوات كلها .. وتتحد ثمار شجرة إبراهيم .. وتؤتي أكلها كل
حين باذن ربها .. لا إله إلا الله .

ويوسف يعلنها ... إلى المصريين ١٤...

قال تعالى : « وَاتَّبَعَتْ مَلَّةَ آبَائِى إِبرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ
نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ، وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ » [يوسف ٣٨]

ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ؟ هناك استحالة .. أن يشرك يوسف .. أو أى
نبي .. بالله .. استحالة أن يكون ذلك من أحدهم .. لأنهم اختيروا لله واصطفاهم لنفسه ..
ولأنهم يعلمون عنه سبحانه ما لا نعلم .

وابراهيم ... يعلنها ١٤

حين قال : « .. يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهَىَ لِلَّذِى فَطَرَ
السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ ، حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . [الأنعام ٧٨ — ٧٩]

هكذا .. كلهم يعلنون تلك الحقيقة .. كلهم يتبرءون من المشركين .. ويقررون استحالة أن يشركوا بالله .. ويذيعون انهم برآء مما يشرك الناس .. نجوم .. تتلأأ بنور الله .. وتعلن كلها أن : لا إله إلا الله .

عباده ... حقا ؟

ومن هنا .. تسكملت فيهم العبودية .. وتحققت فيهم .. بما لم تتحقق في غيرهم من خلقه .. تحققت فيهم .. فاستحال أن يكون للشيطان عليهم أدنى تسلط ..

قال تعالى : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . » [النحل ٩٩ - ١٠]

هناك استحالة أن يكون للشيطان سلطان عليهم .. لماذا ؟ لأنهم لا يشركون بالله شيئا ..

لاشيطان .. ولا غيره .. فأنى للشيطان أن يكون له تأثير ماعلى قلوبهم ؟

انهم كما قال الله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا . » [الاسراء ٦٥]

بل هم قمة هؤلاء العباد .. بل هم أئمة هؤلاء العباد .. فاستحال ان يكون للشيطان على قلوبهم من سبيل ..

ومن ذرية ابراهيم ؟

ثم يقول تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ، وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْرَائِيلَ ، وَمَنْ هَدَيْنَا ، وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا . » [مريم ٥٨]

فمن هم أولئك الذين أنعم الله عليهم من ذرية ابراهيم ؟ الذين هدام ، وابتاهم ، وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ؟ هم المذكورون في السورة من قبل .. الذين اثنى عليهم ثناء عظيما خلالها ،

إنه زكريا .. الذى قال فيه « ذكُرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَا » .. وإنه يحيى ..
الذى قال فيه « يازكريا إنا نبشركَ بغلام اسمه يُحْيِي لم نجعل له من قبلُ سميا » .
وإنه عيسى .. الذى قال فيه « قالَ إني عبدُ اللَّهِ آتانيَ الكتابَ وجعلني نبيا » .
وإنه إبراهيم .. باعتباره الأصل .. أصل الشجرة .. الذى قال فيه : « واذكر في
الكتابِ إبراهيمَ ، إنه كان صدِّيقًا نبيا » وإنه اسحاق .. ويعقوب .. اللذان قال فيهما
« فلما اعتزلهم وما يعبدونَ من دونِ اللَّهِ وهبناهُ إسماعيلَ ويعقوبَ ، وكلاً جعلنا نبيا » .
وإنه موسى .. الذى قال فيه « واذكر في الكتابِ موسى ، إنه كان مخلصاً وكان رسولا
نبيا » وإنه هارون .. الذى قال فيه « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارونَ نبيا » وإنه اسماعيل ..
الذى قال فيه « واذكُرْ في الكتابِ إسماعيلَ إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » ثم
يعقب على ذكرهم جميعا .. بقوله « أولئك الذين أنعم الله عليهم .. » انهم كوكبة .. من
ثمار إبراهيم .. إعلن أنه أنعم عليهم انعاما كبيرا .. وذكرهم بقوله « واذكر في الكتاب .. »
كأنه يريد أن يقول : واذكر في سجل الخالدين .. سجل العظماء .. سجل العالمين .. عند
رب العالمين .

لماذا جعل في ذريته النبوة والكتاب ؟

قد يسأل كثير من الناس هذا السؤال .. لماذا ، ولم في ذرية إبراهيم بالذات ، تكون
النبوة والكتاب ؟ لماذا يحتكر إبراهيم هذا الأمر دون الأنبياء ؟ والجواب ..
قال تعالى : « .. وقالَ : إني مُهاجر إلى ربِّي ، إنه هو العزيزُ الحكيم . ووهبنا له
إسحاقَ ، ويعقوبَ ، وجعلنا في ذريَّتِهِ النبوةَ ، والكتابَ ، وآتيناهُ أجرَهُ في الدنيا ،
وإنَّهُ في الآخرةِ لَمِنَ الصالحينَ » .
[العنكبوت ٢٦ — ٢٧]

« وقال : إني مهاجر إلى ربى » إلى حيث لا أمنع عبادة ربى وقيل : مهاجر من خالفنى
من قومي متقربا إلى ربى « إنه » عزوجل « هو العزيز » الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى
« الحكيم » الذى لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة ، فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى

روى أنه - عليه السلام - هاجر من سواد الكوفة ، مع لوط ، وسارة ، ابنة عمه إلى حرا ن
ثم منها ، إلى الشام « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ولدا ، وناقلة حين أيس ، من عبور عاقر
« وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » في سلالة الانبياء ، والكتب السماوية كلها « وآتيناه
أجره » على ما عمل لنا « في الدنيا » المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته إلينا ويعد اعطاء الولد
والذرية الطيبة ، واستمرار النبوة فيهم ، ونحو ذلك ، مما كان له - عليه السلام - بعد الهجرة
من الأجر .

والآن .. لماذا جعل الله في ذرية إبراهيم وحده النبوة والكتاب ؟ الجواب .. من
هنا .. ومن هنا وحده .. من قوله : « إني مهاجر إلى ربي » .. هذه هي التي رفعت كل هذه
الرفعة .. لماذا ؟ لأنها كانت عالية جدا .. جدا .. جدا .

كيف هذا ؟! لأنها صدرت عن إبراهيم وهو في حالة غربة .. تامة .. كاملة .. كان
إبراهيم ساعيا .. وحده لا أحد معه ، كان وحيدا في هذا العالم كله .. رجل وحده .. يؤمن
بالله .. وحده .. ويلقى إلى النار .. وحده .. وينجو منها .. وحده .. ويخالف كل معتقدات
عصره .. وأهل عصره .. وحده .. ويخرج على مفاهيم أبيه .. وقومه .. وأقرانه .. وحده ..
كان عاليا .. عاليا .. عاليا .. سلام عليك يا إبراهيم .. حين قلبها : إني مهاجر إلى ربي ..
والشقت عن قلبك .. فيها آلام الوحيد .. في عالم .. لا يعرفه .. ولا يرقى إلى مستواه ..
وخرجت من قلبك .. فيها احزان الرجل الذي سبق عصره .. سبقا عجيبا .. هو ينادى :
وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ، حنيئا ، وما أنا من المشركين .. وهم يتنادون
بالأصنام .. التي ينحتون ؟

إني مهاجر ؟! إني تارك وطني .. إلى أرض الله الواسعة .. إني تارك أبي .. إلى حيث
لا أهل لي .. إني تارك أفكاركم .. إلى حيث أعيش أفكر مع نفسي .. وحدي .. إني
تارك دنياكم .. بزيتها .. وأهلها .. إلى حيث أجد ربي .. إني مرتفع عن شهواتكم ..
إلى حيث أنزه ربي .. وأمجده .. وإثني عليه .. إني معرض عن كل ماسوى الله .. متجه
إليه وحده ..

إني مهاجر؟! انمخلع إبراهيم عن وجوده كله .. عن شخصه .. عن وضعه الاجتماعي ..
عن صلاته بقريبه .. عن مفاهيم عصره .. انمخلع عن ذلك كله .. واعلن افتقاره التام إلى
ربه .. هنالك .. اعطاه .. هنالك .. آتاه .. هنالك .. تفضل وجازاه .. هنالك .. استحق
إبراهيم من ربه كل شيء ..

يا إبراهيم! .. جئتنا .. وحدك .. تريدنا؟! إذن لنعطيك .. تركت وطنك من أجلنا
إذن لاعطيك بدلا منه .. الأرض التي باركنا فيها للعالمين .. الأرض التي اغتربت فيها
من أجلنا .. وأعطاه الله فلسطين أقام فيها .. ثم أعطاها لذريته من بعده .. ففتحوها
بإذن الله ، وسكنوها .. ملوكا .. وأنبياء .. ورسلا .. وكانو جميعا من ذريته ..
وليس ذاك وحده .. بل اعطاه .. أرضا أخرى .. أعطاه مكة .. حين اعطاها
لإسماعيل .. وكان منها ذلك الشعب العربي العظيم .. وذلك النبي الإلّوحد .. خاتم
النبيين .

واغتربت يا إبراهيم عن إيلك .. وانعزلت عنه من صغرك .. إذن لأعطيك عوضا
عنه إسماعيل .. وإسحاق .. يؤنسوا وحدتك .. ويكونوا لك أنسا ورحمة .. ولأجعلن
في ذريتهما نبوتى .. وكتبى .. عوضا عن ذلك .. وألقوك جميعا فى النار .. إذن
لألقينهم جميعا فى النار « فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » وقال : إني ذاهب إلى ربي
سهيدين » .. وواضح جدا .. وجه الربط بين المعنيين .. أى جعلناهم الأسفلين . لأنه
قال إني ذاهب إلى ربي سهيدين .

وذهب إبراهيم إلى ربه ليس كذهاب أحد إلى ربه .. ولكنه ذهاب يناسب جلال
مقامه ؟ وعظمة ارتفاعه . . ان ما يقطعه إبراهيم فى لحظة . . قد لا تقطعه الأجيال مجتمعة فى
سنين . .

لماذا؟ لأنه تركيب وحده .. لأنه قلب رفيع .. رفيع .. رفيع .. يعلم من الله ما لا يعلمه
أقل عصره جيا .. كمثل الصاروخ الذى يطلقونه هذه الأيام فى اتجاه القمر .. فيقطع

ملايين الأميال في ساعات .. بينما الإنسان العادى مازال يدب على الأرض لم يقطع في نفس هذه الساعات سوى أمتار !!

لماذا ؟ لأن هذا الصاروخ مصمم تصميميا خاصا .. يعطيه القدرة على الانطلاق الصاروخى بغير حدود .. بينما هذا الانسان العادى مازال أسير حيوانيته المحدودة .. كذلك ابراهيم .. تصميم ربانى .. أعده خصيصا ليصعد اليه مباشرة في أقرب وقت يتصور .. قلب صنعه الله لنفسه .. وجعل فيه من الأسرار والأنوار .. ما يؤهله للانصال به فوراً .. مع الغاء الزمان والمكان .. أما سائر الناس .. أما أولئك الذين مازالوا عاكفين على أصنامهم التى ينحتون .. وعلى عقائدهم الميتة .. فلا يستطيعون الابتعاد عن سطح الأرض .. أو الانفصال عن هذا التراب ..

وإذا كان الانسان استطاع بعقله أن يصنع الصواريخ التى تنطلق انطلاقاً باهراً .. فكيف بابراهيم وهو يخلق بقلبه .. والقلب لا يخضع لزمان أو مكان .. وهو أعلى وأعلى من العقل .. لأن العقل أداة مادية .. أما القلب فأداة روحية .. ونفخت فيه من روحى .. ولأن العقل مهما ارتفع لا يعدو أن يكون احدى ادوات القلب .. التى يسخرها لتحقيق اهدافه .. فمن أجل أن ابراهيم .. اغترب عن كل شىء .. وآوى الى الله وحده .. ومن أجل أنه انفصل عن كل شىء واتجه الى ربه وحده .. ومن أجل أنه عاش في غربته تامة .. وأنس بالله وحده .. ومن أجل أنه ارتفع عن سائر بنى زمانه .. واقرب من الله وحده .. ومن أجل أنه لم يشرك بربه أحداً .. لتشر في سائر الأجيال من بعده .. ومن أجل أنه صاحب مذهب الحنيفية وهى الاتجاه الى الله مباشرة .. مستقيماً .. مع اسقاط السوى اسقاطاً تاماً .. ومن أجل ما لا نعلم .. وما لا يعلمه الا الله ..

من أجل ذلك كله .. جعل الله في ذريته النبوة والكتاب .. حتى لا ينطفيء المصباح الطاهر ، الطيب ، أمام عواصف الشرك ، وفي ظلمات الشهوات .

ومن ذريتهما محسن .. وظالم ؟!

قال تعالى : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه ، وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبينٌ . » [الصافات ١١٢ - ١١٣]

« وبشرناه بإسحاق نبيا » حال من إسحاق . « من الصالحين » تعظيم شأن الصلاح ، وفي تأخيرهِ إيماء إلى أنه الغاية لها ، لئلا يتضمنها معنى الكمال والتكامل . أى بشرناه بوجود إسحاق نبيا ، أى مقضيا كونه نبيا ، مقضيا كونه من الصالحين . « وباركنا عليه » أى على إبراهيم — عليه السلام — « وعلى إسحاق » أى أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، بأن كثرتا نسلهما ، وجعلنا منهم أنبياء ورسلا . « ومن ذريتهما محسن » فى عمله ، أو على نفسه ، بالإيمان والطاعة . « وظالم لنفسه » بالكفر والمعاصي ، ويدخل فيها ظلم الغير . « مبين » ظاهر ظلمه . وفى ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال . وأن الظلم فى الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة وعيب .

فما معنى هذا ؟ معناه أن مجرد الإنتساب إلى إبراهيم لا وزن له فى الأمر .. ولذلك أعلنها الله تعالى « ومن ذريتهما محسن وظالم .. » أى أن هناك من تلك الذرية قوم محسنون .. وهناك قوم الغاية من الإجرام والضلال .. وهذا يشير إليه قوله « مبين » أى واضح الظلم .. شديد الإجرام .. ولم يمنع هؤلاء المجرمين انتسابهم إلى إبراهيم أن يكونوا مجرمين .

لماذا ؟ لأن العدالة الإلهية تقتضى ذلك .. ومثل إبراهيم فى ذلك مثل آدم .. كان نبيا .. وهما هى ذريته .. بنو آدم .. منهم المحسنون .. وأكثرهم المجرمون ، الكافرون .. كذلك إبراهيم .. جعل الله فى ذريته النبوة .. ولكن هذا لا يمنع أن يكون من ذريته الظالمون ، والمجرمون ، والكافرون . وقد نبه الله تعالى على ذلك حين قال له إبراهيم : « ومن ذريتى ؟ » فقال : « لا ينال عهدي الظالمين » .

عدالة مطلقة .. من كان أهلا للنبوة من ذرية إبراهيم صار نبيا .. ومن كان أهلا ..

للايمان صار مؤمنا .. ومن كان أهلا للاحسان صار محسنا .. ومن كان بطبيعته ظالما .. صار ظالما ، مجرما .. ومن كان مستعدا للكفر .. صار كافرا .. انها الألوهية .. عداله الألوهية التي تعطى كلا حسب استعداده الطبيعي .

وجعلها كلمة باقية في عقبه ؟

قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ، وَقَوْمِهِ ، إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ، فِي عَقِبِهِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . »

[الزخرف ٢٦ - ٢٨]

« إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ » إِنِّي بَرَاءٌ مِنْ آلِهَةٍ تَعْبُدُونَهَا . « إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي » غير الذي فَطَرَنِي . « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » يثبتني على الهداية ، سيهدين إلى وراء ما هداني إليه . « وَجَعَلَهَا » الضمير لإبراهيم أو الله والضمير المنصوب لكلمة لا إله إلا الله . أَيْ وَجَعَلَ اللَّهُ « لا إله إلا الله » ، « كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ » فِي ذُرِّيَّتِهِ — عَلَيْهِ السَّلَام — فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مِنْ يُوْحِدُ اللَّهَ تَعَالَى وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِهِ عَزَّ وَجَلَّ . « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » جَعَلَهَا بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ، كَيْ يَرْجِعَ مِنْ أَشْرَكٍ فِيهِمْ ، بِدْعَاءٍ مِنْ وَحْدٍ . أَوْ بِسَبَبِ بَقَائِهَا فِيهِمْ .

ما هذا ؟ انه ناموس يعلنه الله تعالى .. أنه سبحانه جعل « لا إله إلا الله » كلمة خالدة في ذرية إبراهيم إلى يوم القيامة .. جعل فيهم أنبياء يدعون إلى تلك الكلمة .. وبوجود أولئك الأنبياء يتحقق بقاء تلك الكلمة .. بخروج أتباعهم المؤمنين بها .. تباعا .. خلال القرون ، يدعون اليها الناس .. إنها نفس قوله « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » ان النبوة التي تنشق من ذريته .. والكتب التي تنزل على هؤلاء النبيين .. هو الأسلوب العملي ، التطبيقي . لجعل « لا إله إلا الله » باقية في عقبه .. وهكذا .. هذا القرآن .. كتاب الله .. يفسر بعضه بعضا !!!

وكثير منهم ... فاسقون ١٢

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً ، وإبراهيمَ . وجعلنا في ذريتهما النبوةَ ،
والكتابَ ، فمنهم مهتدٍ ، وكثيرٌ منهم فاسقون . » [الحديد ٢٦]
« فمنهم » من الذرية وقيل . من المرسل اليهم . المدلول عليهم بذكر الإرسال
والمرسلين . « مهتد وكثير منهم فاسقون » خارجون عن الطريق المستقيم .
وهذا بيان أوسع .. وأوسع .. ان ذرية نوح .. التي منها إبراهيم .. وذرية ابراهيم ..
التي جعل الله فيها .. النبوة والكتاب .. قليل منهم مهتدون .. وكثير .. الأغلبية ..
فاسقون !! قانون طبيعي .. ناموس عام .. وهذا هو الحاصل .. لم ينفعهم أنهم أولاد
أنبياء .. ولم ينتفعوا بتلك الرسالات ، ولا بتلك النسبة .. وإنما هم مجرمون .. بطبيعتهم
فاسقون .. متمردون .

فكرة عامة .. عن شجرة الانبياء؟

والآن .. تقدم إلى الناس كافة فكرة .. مبسطة عن تلك الشجرة .. شجرة ابراهيم ..
وكيف تفرعت ؟ . والأنبياء الذين انبثقوا عنها .. والكتب التي أنزلت عليهم ..
أخذناها من مصادرها العليا .. الكتب المنزلة .. والأحاديث الصحيحة .. ليدرك العالم
كله إلى أي مدى أثرت هذه الشجرة في توجيه البشرية كلها ، إلى ربها .. وإلى أي مدى
أثرت وستظل تؤثر تلك الشجرة في كشف حقائق الوجود للناس .. وإلى أي مدى بلغ
تعداد الذين اتبعوها من الناس .

الفرعان العظيمان

ابراهيم

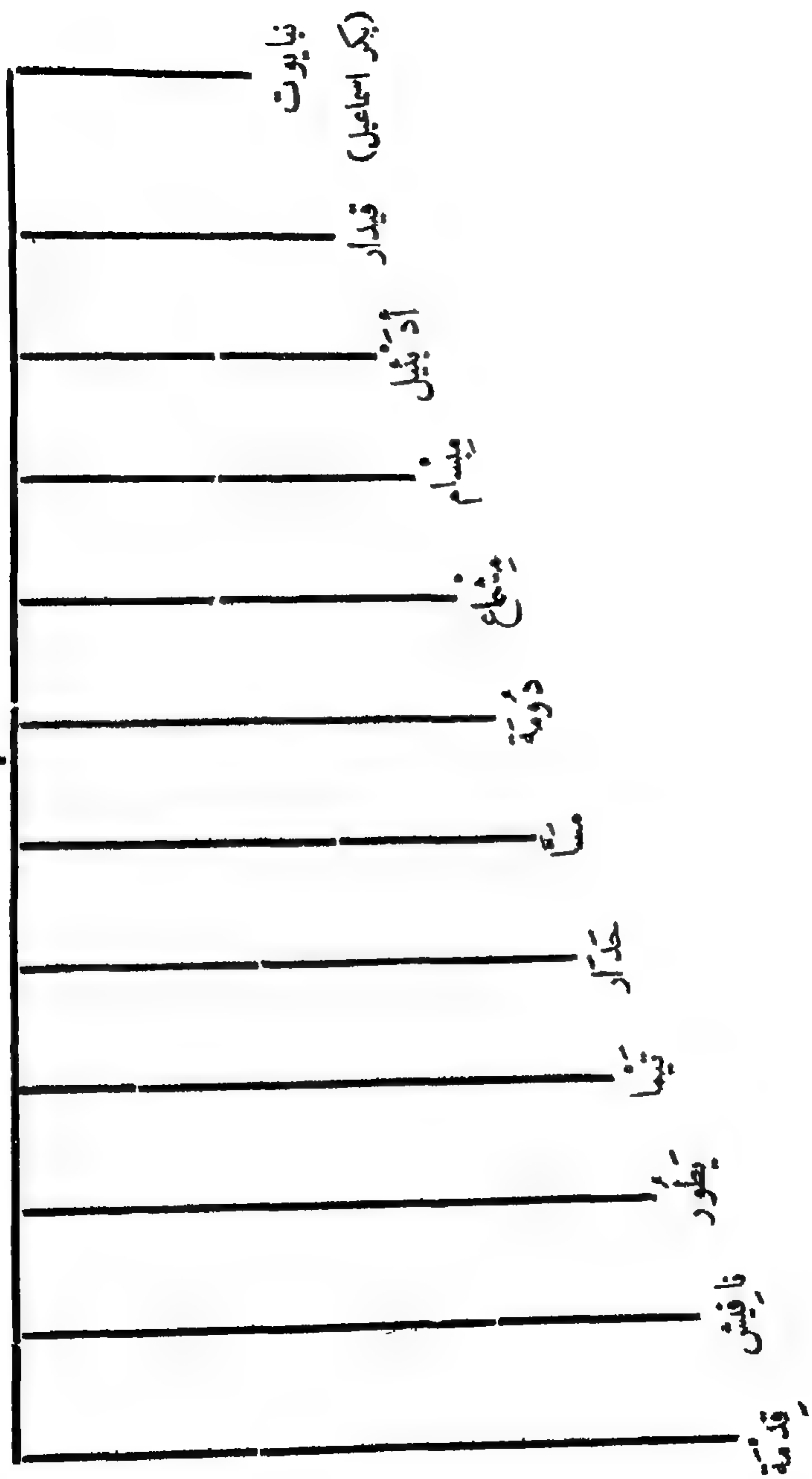
ولد سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد تقريبا ،
أى منذ ٤٠٠٠ سنة ، عاش ٢٠٠ سنة



فروع اسماعيل

اسماعيل

عاش ١٣٧ سنة



فروع اسحاق

اسحاق

عاش ١٨٠ سنة

تزوج اين ٤٠ سنة

من رقة بنت بتوئيل

وكان ابن ستين سنة لما ولدتهما توأمان

يعقوب (اسرائيل)

يسو

مات في مصر - ولكنه نقل
فيما بعد ، حيث دفن في جبرون
أو عفرون (الخليل الآن) ،
حيث دفن من قبل ابراهيم وسارة
امراته ، واسحاق ورققة امراته .

يعقوب وأولاده .. الاثني عشر ..

- ١ - من زوجته لِيثَة :
- شَّمعون . لاوى . يَهُوذَا . بَسَّا كَر . زَبُولُون . دِينَة (أُنثى) .
- ٢ - من بِلْهَة (جارية راحيل) .
- دَانَا . نَفْتَالِي .
- ٣ - من زَلْفَة (جارية لِيثَة) .
- جَاد . أَشِير .
- ٤ - من زوجته راحيل .
- يوسف (عاش ١١٠ سنة ودفن بمصر) .
- بَنِيامين (ماتت راحيل في ولادته) .
- (ولدا في النهاية .. بعد مولد جميع اخوتهم) .

ومن هؤلاء الاثني عشر كان بنو اسرائيل .. حيث انبثق عنهم خلال القرون الأنبياء والمرسلون .. حتى اختتم ذلك الفرع بالمسيح - عليه السلام - . نلاحظ أن النبوة انتقلت من ابراهيم .. إلى اسحاق .. إلى يعقوب .. إلى يوسف .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف ، نبي الله ، ابن يعقوب نبي الله ، ابن اسحاق نبي الله ، ابن ابراهيم خليل الله » . هذه هي السلسلة المباركة المتوالية .. وسكن يوسف مصر .. وعاش يوسف مائة وعشر سنين .. ودفن في مصر .. ثم بعد ذلك يحدث فراغ .. من النبوة في الشجرة .. ويتكاثر بنو اسرائيل جدا بمصر .. حتى يبلغوا نحواً من ثلاثة أرباع المليون .. ويستعبدهم فرعون مصر .. وأخيراً .. بعد نحو ٤٣٠ سنة من قدومهم إلى مصر .. ينبثق عن الشجرة نبي عظيم يعتبر أعظم نبي كان من هذه الشجرة بعد ابراهيم .. نبيا .. خرج من سبط لاوى .. اسمه .. وأرسل معه أخاه .. نبيا كذلك .. وكان اسمهما .. موسى .. وهارون .

عمران
(تزوج يوكا بد)



موسى وهارون ١٤

هذان هما النجمان اللامعان ، اللذان انبثقا عن تلك الشجرة ، وأرسلهما الله إلى فرعون ،
وحدث على يديهما تلك المعجزات الباهرات التي اشتهرت عنهما ..
ولما مات موسى .. أرسل الله في بني إسرائيل .. يَشُوع بن نون نبياً ..
وخلف موسى في قومه ..
وهو المشار إليه في القرآن بقوله « وإذ قال موسى لفتهاه » ..
لأنه كان في خدمة موسى ، وملازماً له ..
ولذلك حكمة إلهية جليلة ..
أن يتلقى يشوع .. عن الكليم آداب النبوة .. وأنوار القلوب ..
حتى إذا ما صار نبياً .. كان مؤهلاً لمقامه ..
ثم مات يشوع بن نون وهو ابن ١١٠ سنة ..
ثم مازالت النبوات تتسلسل في بني إسرائيل .. كما مات نبي قام نبي .. حتى انبثق
من الشجرة ذلك النجم العظيم .. المسمى .. داوود ..
وكان داوود ملكاً نبياً ملك بني إسرائيل أربعين سنة .. ثم مات .. وهو الذي أوتي
الزبور أو المزامير .. ثم انبثق من الشجرة نجم آخر هو سليمان .. ابن داوود .. وكان كذلك
ملكاً نبياً .. على بني إسرائيل .. وهو الذي وهبه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ..
وورث سليمان داوود .. ملكاً .. ونبياً وكان ملكه عظيماً .. وهو الذي بنى بيت
الرب بعد ٤٨٠ سنة من خروج بني إسرائيل من مصر .. « فتعظم الملك سليمان على كل
ملوك الأرض في الغنى والحكمة » ..
ثم قام فيهم أليشع نبياً .. ولعله المذكور في القرآن بقوله « وأليسع » ..
وأيوب .. قام فيهم نبياً .. كذلك ..
وقام فيهم إشعياء بن أموص ..

- وقام فيهم إرميا •
- وقام فيهم حزقيال •
- ثم قام فيهم دانيال •
- ثم قام هوشع •
- ثم قام يوثيل •
- ثم قام عاموس •
- ثم قام عوبديا •
- ثم بعث فيهم يونس بن متى •
- ثم بعث فيهم يونا بن أرمثاي • وبعثه إلى نينوى • وهو يونس بن متى •
- ثم قام فيهم ميخا •
- ثم قام فيهم ناحوم •
- ثم قام فيهم حبقوق •
- ثم قام فيهم صفيان •
- ثم قام فيهم حجي •
- ثم قام فيهم زكريا بن برخيا •
- ثم قام فيهم ملاخي •
- ثم قام فيهم يحيى بن زكريا •
- ثم قام فيهم عيسى بن مريم • وهو المسيح عليه السلام •
- وبذلك • اختتمت النبوة في ذلك الفرع • فرع اسحاق •
- هؤلاء بعض النجوم • أو مشاهير النجوم التي انبثقت عن فرع واحد من فرع شجرة إبراهيم • فرع اسحاق • وقد رأينا كيف أن النبوة لم تنقطع خلالها • على فترات متفاوتة إلا أن الكلمة الباقية • مستمرة فيهم • يدعون إليها • والكتاب مستمر فيهم • تارة يستقلون بكتاب • وتارة يتمون رسالات سابقينهم • إلا أن الكتاب مستمر فيهم •
- والآن نعود إلى ذلك الفرع الثاني • فرع اسماعيل • لننظر ماذا كان منه •

ماذا كان من اسماعيل ؟

تناسل طبيعي .. حتى كان محمد صلى الله عليه وسلم .. فخم الله به النبوة في ذلك القرع ..
وفي غيره .. وفي النبيين جميعا .. لتلتقى البداية بالنهاية .. فبداية الشجرة إبراهيم .. ونهايتها
محمد .. وبذلك تمت الدائرة .. دائرة النبوة واكتمل الاشعاع .. اشعاع الهدى .. في ظلمات
البشر وكان الأنبياء جميعا بينهما .. بين إبراهيم ومحمد .. كواكب .. تضيء في زمانها ..
حتى أشرقت الشمس .. في سماء الحياة البشرية .. فتسخت أضواء تلك الكواكب كلها.

وحق قوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ، وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وداعيًا إلى
الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا »
[الأحزاب ٤٥ - ٤٦]

فمحمد صلى الله عليه وسلم هو السراج المنير .. شمس النبوات كلها .. وهم جميعا كواكب
تدور في الفلك . ووصف الشمس بقوله « وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا » [الأنبا ١٣] .. ووصف محمد
صلى الله عليه وسلم بقوله « وَسِرَاجًا مُنِيرًا » إشارة إلى أنه في الأنبياء شمس .. تؤدي نفس
الدور الذي تؤديه الشمس في الكواكب .. إلا أنه سراج منير يعطي نورا .. لا وهج فيه ..
لا احتراق فيه .. لا كما تنوهج الشمس نارا حارقة .

اِجَابَةُ جَمِيعِ دَعَوَاتِ اِبْرَاهِيْمَ ؟

ندخل .. الآن .. إلى فصل .. من أعجب فصول حياة إبراهيم .. فصل نلاحظ فيه ظاهرة عجيبة ! أن إبراهيم لم يدع ربه بدعوة لاستجابه ربه لدعائه .. وحققها له .. وسوف نمر .. سريعا .. على جميع دعوات إبراهيم في هذا الباب .. لننظر أصدقت تلك الظاهرة ؟

ومن ذريتي ؟!

هذا هو المطلب الأول لإبراهيم .. أو الدعاء الأول للخليل .
قال تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربهُ بكلماتٍ فآثَمُنَّ » ، قال : إني جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذُرِّيَّتِي ، قالَ : لا ينالُ عهدِي الظالمينَ » . [البقرة ١٢٤]

ولا نغني بالأول . الترتيب الزماني .. كلا .. وإنما نغني بالأول في النماذج التي نعرضها من دعواته المستجابات .. ومن ذريتي ؟ .. أي : اجعل الامامة في ذريتي ، كما جعلتها في جعل النبوة في ذريتي كما جعلتها في إبراهيم .. إبراهيم يطلب .. إبراهيم يدعو ربه أن يجعل الامامة .. النبوة .. في ذريته فماذا كان الجواب .. هل استجيب لدعائه ؟ نعم .. نعم .. مع تعليمه ماخفي عليه من النواميس الالهية .. لا ينال عهدى الظالمين ؟ .. سأجعل من ذريتك يا إبراهيم أئمة يهدون بأمرنا .. كما جعلتك للناس إماما .. ولكن سوف أحصر تلك الامامة وتلك النبوة .. فيمن كان أهلها من ذريتك .. أما الظالمين من ذريتك .. فلن يكونوا أئمة ، ولن يكونوا انبياء .. لأنني قررت ناموسا عاما .. لا ينال عهدى الظالمين .. لا تصيب النبوة .. من كان ظالما .. قل ظلمه أو كثر .. ظلم نفسه أو غيره . استجابة للدعاء .. وكشف للناموس .. وهكذا علم الله تعالى .. لا يغيب عنه شيء .. أما إبراهيم .. مهما كان علمه .. فآين هو من علم الله ؟ فلزم التعاليم .. والارشاد .. فنعم العلم علم ربه ونعم الارشاد ارشاده ، ولقد استجيب تلك الدعوة وجعل الله النبوة والكتاب في ذريته - عليه السلام - فما من نبي ولا كتاب من بعده الا في ذريته !!!

اجعل هذا بلدا آمنا؟

قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ، وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ ، فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . [البقرة ١٢٦]

وهذه دفعة ، من مطالب إبراهيم .. أودعوات إبراهيم وإذ قال إبراهيم ؟ ماذا قال .. ماذا دعا .. ماذا طلب ؟ اجعل هذا بلدا آمنا .. فهل استحيت هذه الدعوة ؟ نعم .. حرم الله مكة .. حين طلب إبراهيم تحريمها .. وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكد ذلك التحريم .. فهي حرام إلى يوم القيامة .. لا يحل فيها قتال .. ولا يقطع شجرها .. ولا يجوز صيدها .. إلى غير ذلك مما يضمن الأمن في تلك البلدة !! ثم ماذا؟ ثم دعا إبراهيم دعاء آخر .. وأرزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. فهل استحيت ذلك الدعاء ؟ نعم .. مع التصحيح لابراهيم .. تصحيح ماصادم الناموس .. طلب ابراهيم أن يزرق أهل مكة من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ! فصحيح الله له المطلب .. قال : ومن كفر .. أي سأرزق يا ابراهيم أهل مكة من الثمرات ، من آمن منهم .. ومن كفر لماذا؟ فأمتعه قليلا ؟ .. أي أتوك الكفار يتمتعون في هذه الحياة برزقي .. كالبهائم .. ثم أضطره إلى عذاب النار .. ثم ألجئه إلى الموت .. الذي يلجئه إلى دخول النار .. جزاء كفره وبئس المصير .. وهو اسوأ مصير يصير إليه إنسان .. هناك إذا استجابة للدعاء .. مع التصحيح .. إبراهيم يريد أن يحصر الله تعالى الرزق في المؤمنين .. والله يقول له : كلا .. ان الرزق للجميع يا ابراهيم .. سأرزق من آمن .. ومن كفر .. ثم كشف له السر .. فأمتعه قليلا ، ثم أضطره .. مسائل رفيعة جدا .. حوار يدور بين خليل الرحمن .. قمة البشر .. أعلم أهل زمانه .. وبين الله .. رب الأرباب .. الذي وسع كل شيء علما .. وحوار كهذا يعتبر في تقديرى أمتع .. وأحلى .. وألذ .. وأجمل .. وأغنى .. ما يتصور بشر !! لماذا .. لأنه أعلى مستوى من التفكير .. يمكن أن يصل اليه علم انسان .. وإذا كان هدف البشرية كلها في

مجهوداتها العلمية المتواصلة هو أن تحقق ادراكاً كبيراً لحقائق هذه الحياة .. فان هذا الحوار الذى دار بين ابراهيم .. ذروة العلم البشرى .. والله .. الذى أحاط بكل شىء علماً .. يعتبر حصيلة هائلة .. رائعة .. من المعارف التى لا يمكن أن يرقى اليها بشر .. ابراهيم .. رغم جلالته قدره فى العلوم الدنية .. والمعارف الالهية .. يتواضع فى طلبه .. ويحدد المطلوب رزقهم بالثمرات بالمؤمنين .. والله .. الذى يعلم ما لا يعلم ابراهيم .. والذى يعتبر علم ابراهيم واختلاطه أجمعين إلى علمه سبحانه .. كمنقرة عصفور فى محيط .. يرفع من معلومات ابراهيم .. ويزيده علماً .. ويعلمه .. فيقول: ومن كفر .. ما أحلاها .. وما أعلاها .. وما أسماها !! إنه الله .. يتكلم .. بالناموس الذى قرر .. ومن كفر؟! إنها نظرية عموم الرزق .. أو ناموس الرزق للجميع .. وهذا هو المشاهد دائماً .. هذه هى البشرية الأغلبية منها تكفر ربها .. ومع هذا أرزاق الله تعالى نازلة اليها .. من السماء .. والأرض .. لا تتوقف !! ما هذا؟! إنه ناموس « ومن كفر » .. ما أوسع رحمتك ربى .. وما أظن حكمتك !! وسمعها ابراهيم .. وعلم منها ما لا نستطيع نحن جميعاً .. سكان هذه الأرض أن نعلم .. فكانت فى قلبه .. بحارا من الأنوار الالهية .. التى تكشف له كثيراً .. كثيراً .. من أسرار النواميس .. إنه الله !! الله .. يتكلم مع من اتخذ خليلاً ؟!

تقبل منا ؟!

قال تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . » [البقرة ١٢٧]

وهذا دعاء آخر .. لابراهيم .. وقد انضم اليه فيه .. ابنه البكر .. الذبيح .. اسماعيل — عليه السلام — .. فتموج الدعاء إلى ربهما يحمل اخلاص الخليل .. واسلام الذبيح .. فكيف كان؟! تقبل منا؟! فيها أنوار عجيبة .. فيها التمسك بالله .. وهو أغلى ما يكون من المشاعر فى قلوب العباد .. وفيها الافتقار اليه .. وهو مقام رفيع لا يكون إلا من صفوة العباد .. وفيها عدم رؤية الأغيار .. ورؤية الله وحده .. وهو مقام لا يرتفع اليه إلا من أهله الله لذلك .. وفيها الالتجاء اليه .. واستصغار الأعمال بالنسبة اليه .. وعدم رؤية العمل مهما

كان عظيمًا .. وفيها الخوف والرجاء .. والأمل .. والحب .. وفيها أنوار بعيدة جدا ..
لا نستطيع الوصول إليها .. بطاقتنا البشرية المادية .. فهل استجيب لهما ؟ وأي استجابة ؟ !
تقبل منهما ذلك البيت الذي يرفعان قواعده أحسن قبول .. فجعله قبلة لكل من أراد
التوجه إليه تعالى بصلاة في هذه الأرض ! وجعله أكرم مكان في الأرض عليه ! وجعل
حججه فريضة على كل إنسان إلى يوم القيامة .. و .. و .. فأى قبول بعد هذا القبول ؟ !

اجعلنا مسلمين لك ؟

ثم يقول تعالى : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا
مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . » [البقرة ١٢٨]

هذه جملة مطالب لإبراهيم وإسماعيل .

المطلب الأول .. اجعلنا مسلمين لك .

المطلب الثاني .. ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .

المطلب الثالث .. أرنا مناسكنا .

المطلب الرابع .. تب علينا .

أما عن الأول .. فقد استجيب على أعلى وأرفع ما يكون الإسلام لله .. انهما يسألان
ربهما أن يزيدهما من فضله .. أن يثبتهما على الإسلام له .. وأن يزيدهما تثبيتا وإسلاما ..
ما كان إبراهيم ولا إسماعيل غير مسلمين لله .. وإنما يريدان أن يزدادا إسلاما له .. ولا سبيل
إلى ذلك إلا بالالتجاء له سبحانه .. فيزيدهم نورا على نورهم .. ويرفعهم درجات على
درجاتهم .. فيزدادوا له تسليما .. ولقد استجاب الله لهما أحسن الاستجابة .

ومن ذريتنا .. أمة .. مسلمة لك ؟

هذا هو المطلب الثاني .. فهل استجيب ؟ وأي استجابة ؟ . هذه الأمة الرائعة .. أمة
محمد صلى الله عليه وسلم .. التي بدأت به صلى الله عليه وسلم .. وما زالت تتمدد في المشارق
والمغارب .. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. هذه هي الأمة .. قد حققها الله تعالى

لها .. من ذريتهما .. فاسماعيل أبو العرب .. ومحمد .. هو ابن اسماعيل بن ابراهيم .. وهو من ذريتهما .. وهو رأس هذه الأمة .. وأول المسلمين .
وهذه الأمة الاسلامية .. من ورائه .. لا أول لها ولا آخر .. فأى استجابة .. وأى قبول ؟ وأى دعاء كان هذا الدعاء ؟

ويعلنها الله تبارك وتعالى فيقول : « وجاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ ، هو اجتباكم ، وما جعلَ عليكم في الدين من حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هو سَمَّاكُمْ المسلمينَ مِن قَبْلُ .. » [الحج ٧٨]

إبراهيم اذن هو الذى سمانا المسلمين من قبل .. وقت أن دعا واسماعيل ذلك الدعاء :
ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .. فكان تحقيق ذلك .. تلك الأمة الإسلامية العظيمة .. التى جاءت تصحيحا للعقائد كلها .. تحمل لواء الاسلام لله .. وحده لا شريك له .
هذا هو أوسع مدى لتحقيق ذلك الدعاء .. ولا يمنع ذلك من تحقيقه نسبيا .. فى تلك الأمة التى كانت من نسل إسماعيل على دين ابراهيم .. قبل أن يبدل العرب دين أبيهم ويعبدوا الأصنام .. وقبل أن يبعث الله فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم .. إلا أن التحقق الأعظم كان هذه الأمة الإسلامية .

أرنا مناسكتنا؟

هذا هو المطالب الثالث .. فهل استجيب ، وهل تحقق ؟ نعم .. نعم .. لقد علمهما الله مناسكتهم .. معالم عبادتهما .. وتعلمت الأمة من ورائهما تلك المعالم .
فكل ما شرع الله لابراهيم .. واسماعيل .. هو من هذه المناسك .. إلا أن هناك لطيفة فى قولهم « أرنا » لم يقلوا « علمنا » وإنما « أرنا » .. لماذا ؟ لعلمهما يريدان أن يريهما الله تعالى تلك المناسك .. أن يكشف لهما أسرار العبادات التى تعبدنهم ويتعبدن بها .. يريدان أن يكشف لقلوبهن ما فيها من أنوار .. وأسرار .. أى أنهنما يطلبان ما يناسب مقامهما .. يريدان أن يريا بعيون قلوبهما تلك المناسك كلها .. فلا تكون عبادتهما مجرد حركات وسكنات بالأجسام .. ولكن عبادات بالقلب .. فيها أنوار القلب .. وأسرار الروح .

وذلك لا يكون إلا بمنحة من الله .. بفضل منه .. يهبه لمن شاء من عباده .. فهل
تفضل الله عليهما بذلك ؟ نعم .. نعم .. لقد كان قلب ابراهيم هو القلب السليم .. وكان
قلب اسماعيل .. هو القلب السليم .. في الذروة .. من الكشف .. والعلم بالله .. أرنا ؟!!
اجعل في قلوبنا نورا من نورك نراك به .. ونذكر من أسرارك .. مطلب !! .. ياله من
مطلب ! لا يكون إلا من ابراهيم .. واسماعيل !!

تب علينا ؟

هل كان ابراهيم واسماعيل مذنبين حتى يتوب الله عليهما ؟ حاشاهما .. ما كانا
مذنبين .. وما أُلِّمَّا بذنب .. وإنما هما يطلبان الترقى في المقامات .. والرفعة في الدرجات ..
فهل استجاب الله لهما ؟ نعم .. نعم .. بنص قوله « نرفعُ درجاتٍ من نشاء » ..
ولقد رفعهما مارفعهما .. أما في الدنيا .. فهما الذكر العاطر .. والصيت الذائع .. إلى يوم
يبعثون .. وأما في الآخرة .. فهو وحده سبحانه الذي يعلم المقام الذي رفعهما اليه .. وهكذا
استجيب تلك الدعوات الأربع .. كما استجيب غيرها !!!

ابعث فيهم رسولا منهم ؟

قال تعالى : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب
والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » [البقرة ١٢٩]
فهل استجيب ! نعم .. نعم .. فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو دعوة أبيه ابراهيم ،
واسماعيل .. سأل أن يبعث فيهم رسولا .. فبعث محمدا صلى الله عليه وسلم .. وسأل أن
يكون منهم .. فكان منهم .. عربيا .. من سلالة ابراهيم واسماعيل .. وسأل أن يتلو عليهم
آياته .. فجاء بالقرآن معجزته الخالدة .. وسأل أن يعلمهم الكتاب .. فبين محمد صلى الله عليه وسلم
الكتاب خير بيان .. ووضح للناس منازل النيهم .. وسأل أن يعلمهم الحكمة .. فكانت
سننه الشريفة أعلى أنواع الحكمة .. وأحسن أنواع التطبيق .. وسأل أن يزكيهم .. فكان

محمد صلى الله عليه وسلم .. خير من زكى أمته .. وأرشدنا طريق الخير والتطهر والسمو ..
وهكذا .. كما سألنا .. استجيب لهما .. وزيادة .. !!

ولقد امتن الله على هذه الأمة تلك المنة في كتابه الكريم فقال : « كما أرسلنا فيكم
رسولا منكم ، يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب ، والحكمة ،
ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ، ولا تكفرون . »
[البقرة ١٥١ - ١٥٢]

تأمل .. انها هي .. هي .. نفس ما طلبه ابراهيم !! هناك .. ربنا وابعث فيهم رسولا
منها .. وهنا .. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم .. هذه .. هي تلك !! وهناك .. يتلو عليهم
آياتك .. وهنا .. يتلو عليكم آياتنا .. هذه .. هي تلك !! وهناك يعلمهم الكتاب
والحكمة ويزكيهم .. وهنا .. ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة .. هذه .. هي تلك !!
ثم زاد الله تعالى هذه الأمة خيرا ، فوق ما طلب ابراهيم .. تكريما لابراهيم .. ولحمد صلى
الله عليه وسلم .. فقال « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .. مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي .
أى أعطيتكم ما سبق أن طلبه ابراهيم .. وزدتكم تلك الأفضال العظمى .. من الوحي
العظيم .. الذي بثه فيكم محمد صلى الله عليه وسلم !! « فاذكروني » بالطاعة قلبا وقالباً ، فيعم
الذكر باللسان والقلب والجوارح وقال أهل الحقيقة : « حقيقة ذكر الله تعالى أن ينسى كل شيء »
سواه . « أذكركم » أى أجازكم بالثواب . « واشكروا لي » ما أنعمت به عليكم إنما قدم
الذكر على الشكر لأن الذكر اشتغالا بذاته تعالى . وفي الشكر اشتغالا بنعمته والاشتغال
بذاته تعالى أولى من الاشتغال بنعمته . « ولا تكفرون » يجمد نعمتي وعصيان أمري .

أرني كيف تحيى ١٤

وهذا دعاء آخر .. أو مطلب عظيم من مطالب إبراهيم من ربه .
قال تعالى : « وإذا قال إبراهيم : رب أرني كيف تحيى الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ،
ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل
منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا . واعلم أن الله عزيز حكيم » . [البقرة ٢٦٠]

ابراهيم يسأل : أرني كيف نحي الموت ؟ وعلى الفور .. كانت الاستجابة .. « فخذ أربعة من الطير .. يأتينك سعيا » !!! ويمكن أن يقال هنا أن الاستجابة هنا كانت استجابة فورية .. أو ذرية بلغة العصر الحديث .. أرني .. خذ أربعة من الطير .. يريد أن يرى .. فأراه .. تجريبيا .. وبأسرع ما يمكن .. ثم علمه في النهاية .. نهاية التجربة واعلم أن الله عزيز حكيم .. لا يعجزه شيء .. ولا يصنع إلا ما فيه حكمة .. وقد أشرنا إلى هذه التجربة هنا كنموذج لاجابة دعوات ابراهيم أما تفصيلها فقدمر في ثنايا ذلك الكتاب .. ولاداعى إلى اعادته .

يا ابراهيم .. أعرض عن هذا ؟!

وهذا النموذج آخر لدعاء صدر عن ابراهيم .. وهو في الواقع رجاء .. وليس بدعاء .. قال تعالى : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع ، وجاءته البشرى ، يجادلنا في قوم لوط .. إن إبراهيم لحليم ، أولاه ، منيب .. يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود . [هود ٧٤ - ٧٦]

هذا في الواقع رجاء .. أو شفاعة .. وليس دعاء .. ابراهيم علم أن الملائكة جاءوا لاهلاك قوم لوط .. فجعل ابراهيم يجادل عنهم : « إن فيها لوطا » .. قالوا : نحن أعلم بمن فيها .. لننجينه ، وأهله أجمعين .. يريد ابراهيم أن يشفع فيهم .. لعله يؤخر عذابهم .. ولكي لا يمس ذلك العذاب لوطا والذين آمنوا معه .. فهل قبل منه ذلك الرجاء .. أو تلك الشفاعة ؟! كلا .. بل كان الرفض صريحا .. يا إبراهيم أعرض عن هذا .. أعرض عن مجادلتيك في القوم .. لا تحاول رجاءنا فيهم .. إنه قد جاء أمر ربك .. إنه قد تقرر التنفيذ .. وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .. لا يمكن دفعه عنهم .. لماذا رفضت هذه الشفاعة .. وهذا الرجاء ؟! لأن ابراهيم دفعته الرأفة والشفقة أن يطلب تأخير العذاب عنهم .. وهذا مصادم للناموس العام .. الذي قرر اهلاك الظالمين .. ولأن في اهلاكهم رحمة للعالمين .. وعبرة للمخالفين .. إن في ذلك لآيات للمتوسمين .. أي عبرة للمتفكرين ..

فلما أن صادم رجاء إبراهيم .. الناموس العام .. رفض .. وكان الرفض صريحا ..

« يا إبراهيم .. أعرض عن هذا » .. لا تحاول هذا الذى تحاوله .. لأنه يصادم الناموس العام .. وكان هذا تعلما لابراهيم .. وإرشادا له .. أن الحلم لا يصلح فى كل حال .. وأن الشدة لازمة أحيانا .. وأن الله أعلم بما يصلح للعباد .. وكانت هذه احدى المرات التى رفض فيها دعاء ، أوجاء لابراهيم .

أما المرة الثانية .. التى رفض فيها دعاء لابراهيم .. فقد كانت .

رفض استغفار ابراهيم لأبيه ١٤

وهذا أعجب .. وأعجب .

قال تعالى « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربنى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم » .
[التوبة ١١٣ و ١١٤]

سأستغفر لك ١٤

قال تعالى : « قال : سلامٌ عليك ، سأستغفرُ لك ربى ، إنه كان بى حفيا . وأعتز لکم وما تدعون من دون الله ، وأدعوا ربى ، عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » .

[مريم ٤٧ — ٤٨]

« سأستغفر لك ربى » أى استدعيه سبحانه أن يغفر لك . « إنه كان بى حفيا » بليغا فى البروالاكرام « وأدعوا ربى » اعبدوه سبحانه وحده « شقيا » خائبا ، ضائع السعى .

واغفر لأبى ١٤

هذا هو مادعا ابراهيم به .. وفاء بوعدده لأبيه .. سأستغفر لك ..

قال تعالى : « واغفر لأبى ، إنه كان من الضالين . ولا تحزننى يوم يبعثون » .

[الشعراء ٨٦ — ٨٧]

« ولا تخزني يوم يبعثون » بتعذيب أبي يوم القيامة .. فهل استجيب ؟ .. كلا .. بل على العكس .. سوف يمسح أبوه ضبا يوم القيامة !!! وأبوه هذا .. هو من ؟ هو بالتبعية أبو الأنبياء جميعا .

فهو آزر .. أبو إبراهيم .. وإبراهيم أبو الأنبياء .. ومع هذا كله .. سوف يعذب .. وسوف يمسح ضبا .. لماذا ؟ .. لأن هذا هو العدل الالهي .. وهذا هو الناموس العام .. فليفهم ذلك أولئك الضائعين .. الذين يتمنون على الله الأمانى .

إلا قول إبراهيم لأبيه !؟

إلا هذه .. وهذه فقط .. لا يعتبر إبراهيم فيها أسوة حسنة .. لا ينبغي الاقتداء به في ذلك القول .. ولا ينبغي الاستغفار للمشرك . ولو كان ذا قربي .. ولو كان أبا .. أو أما .. أو ابنا .. أو أخا .. لأن ذلك يصادم الناموس العام .. ان الله لا يغفر أن يشرك به .. قال تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ ، وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ، حَتَّى تَوُفِّيَنَا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَتَيْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » . [المتحنة ٤]

« إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » استثناء من قوله (أسوة حسنة) أى أن إبراهيم أسوة . إلا في استغفاره لأبيه . فانه لا ينبغي الاقتداء به قيل : إن إبراهيم عليه السلام لما أجاب قول أبيه (لأرجمنك واهجرني مليا) بقوله (سأستغفر لك ربى) رحمة ورأفة به ولم يكن عارفا باصراره على الكفر ، وفي بوعده . وقال (واغفر لأبى) فلما تبين اصراره ترك الدعاء وتبرأ منه .

- وقيل : لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلا في استغفاره لأبيه المشرك والمعنى : إن لكم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معه في البراءة من الكفرة ، لكن استغفاره

للكافر ليس لكم الاقتداء به فيه ، ومآله يجب عليكم البراءة ، ويحرم عليكم الاستغفار ، وابداء الرأفة « وما أملك لك من الله شيء » لأستغفرن لك ، وما في طاقى إلا هذا ، وفيه أنه لو ملك أكثر من ذلك لفعل ، وعلى هذا فهو حقيق بالاستثناء

رفض دعاء ثالث ؟

قال تعالى : « وإذا قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمناً ، واجنبني وبنى أبى نعبد الأصنام » . [إبراهيم ٣٥]

هذا دعاء ذو شطرين .. شطر استجيب باكله وهو « اجعل هذا البلد آمناً » .. وقدمر تفصيله .

وشطر استجيب فى بعض دون بعض .. وهو قوله « واجنبني وبنى أبى نعبد الأصنام » لقد استجاب الله له فى بعض ذريته .. فلم يعبدوا الأصنام .. ولم يشركوا بالله .. أما باقى ذريته .. فلم يستجب له فيهم .. وكان منهم عباد الأصنام .. والمشركون بالله .. كهؤلاء العرب من ولد اسماعيل الذين كانوا يعبدون الأصنام .. وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم غرقى إلى آذانهم فى عبادتها وجهالتها .

لماذا ؟ لأن هذا المطلب يصادم الناموس العام .. لماذا .. لأن الناموس العام قرر أن يكون هناك من الناس المؤمن والكافر .. فلا يعقل أن يكون كل بنى إبراهيم وذريته مؤمنين .. وإنما المعقول أن يكون بعضهم مؤمنين .. وهذا ما كان !!!

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم

قال تعالى : « .. فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلمهم يشكرون » . [إبراهيم ٣٧]

وهذا دعاء لإبراهيم مستجاب .. لماذا .. لأنه ماض مع الناموس العام .. اجعل أفئدة من الناس .. لم يقل .. اجعل أفئدة الناس .. وإنما من الناس .. بعض الناس .. لا كلهم .. وهذا شيء طبيعى معقول .. وقد كان .. استجاب الله له .. فهذه الأفئدة التى تهوى .. إلى

البيت شوقا .. كل عام .. هي استجابة دعائه عليه السلام .. وهذه القلوب تنبج في شوق إلى القبلة : إلى السكينة .. في كل صلاة .. هي من استجابة هذا الدعاء .. » وارزقهم من الثمرات « .. دعاء مستجاب كذلك .. وقدمر تفصيله قريبا .

اغفر لي ولوالدي ؟

ويقول تعالى : « رب اجعلني مقيم الصلاة ، ومن ذريتي . ربنا وتقبل دعاء » ربنا اغفر لي ولوالدي . وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . [ابراهيم ٤٠ - ٤١]
وتلك دعوات مستجابات .. اجعلني مقيم الصلاة .. استجيب .. فمن ذا الذي يقيم الصلاة كاملة إن لم يكن إبراهيم ؟ ومن ذريتي .. استجيب .. فاولئك الأنبياء من ذريته .. وتلك الأمم من اتباعهم .. يقيمون الصلاة حتى الآن . . وإلى يوم القيامة .. فأى استجابة بعد هذا ؟ « تقبل دعاء » .. استجيب فما من دعوة يدعها إبراهيم الا استجاب الله له فيها .. إلا هذه الدعوات المحدودة التي جاءت مصادمة للناموس الالهي .. كاستغفاره لأبيه .. واستشفاعه لقوم لوط .

اغفر لي .. استجيب .. فقد غفر الله تعالى له ذنوبه كلها .. وإلا لما رفعه إلى مقام الخليل .. « ولوالدي » أى لأبى وأبى .. قيل أن أمه كانت مؤمنة .. فلا اشكال .. وأما استغفاره لأبيه فقد قيل في الاعتزاز عنه أنه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه ، والله تعالى قد حكى ما قاله عليه السلام في أحايين مختلفة .. اذن هذا الشطر من دعائه لم يستجب .. لم يغفر لأبيه .. لأن الله لا يغفر أن يشرك به .. والمؤمنين .. استجيب لأنه يدعو للمؤمنين كافة من ذريته وغيرهم . والله تعالى يغفر للمؤمنين يوم يقوم الحساب .

لا تخزني ؟

قال تعالى : « رب هب لي حكما ، وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى ، إنه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يبعثون » . [الشعراء ٨٣ - ٨٧]

وهذه دعوات استجيبت كلها .. على أوسع ما يكون من الاستجابة .. الا قوله « واغفر لأبي » .. لأنها صادمت الناموس الإلهي .. إن الله لا يغفر أن يشرك به .. هبيلي حكما .. اعطني الحكمة التي هي كمال القوة العلمية بأن يكون عالما بالخير لأجل العمل به .. اعطني كمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شئونك سبحانه .. واقدر أعطاه .. وعلمه من الله ما لم يكن يعلم .. وكشف له العجائب والأسرار .. حتى كان لله خليلا .. اجعل لي لسان صدق في الآخرين .. استجيب .. أي اجعل ذكرى الجليل في الدنيا .. وقد كان .. فإمن أهل دين إلا ويثنون على إبراهيم !! اجعلني من ورثة جنة النعيم .. استجيب .. فهو صاحب المقام الأعلى فيها .. ولا يفضل عليه فيها .. إلا محمدا صلى الله عليه وسلم .. اغفر لأبي أنه كان من الضالين .. لم تستجب .. لأنها خلاف الناموس الإلهي .. كما قدمنا .. ولا تخزني يوم يبعثون .. بتعذيب أبي يوم القيامة .. إن كان هذا هو المراد .. فلا خزي يلحق إبراهيم في ذلك .. لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .. أو بمعاتبتي على ما فرطت ، أو بنقص رتبتي عن بعض الوراث .. فإن كان هذا هو المقصود .. فقد استجيب له في ذلك .. فانه من كبار المكرمين يوم يبعثون .. إن له مقاما وحده .. إنه الخليل .

اني مهاجر الى ربي ؟

استجيب ذلك الدعاء .. أو ذلك الرجاء .. أو ذلك التوجه .. أو ذلك الحال .. فليس حتما أن يكون الدعاء لفظا باللسان .. وإنما قد يكون خلا باثقل .. أو نية بالقواد .. أو إضمارا في النفس .. كل أولئك يمكن أن يكون دعاء .. فكيف إذا صدر عن الأنبياء .. وكيف إذا كان إبراهيم ؟؟

قال تعالى : « فآمن له لوط ، وقال : إني مهاجرٌ إلى ربي ، إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين . » [العنكبوت ٢٦ - ٢٧]

إبراهيم .. يقول : إني مهاجر إلى ربي .. أنها عزيمة .. ارادة .. نية .. توجه ..

إن قلبه يريد أن يتجه إلى الله .. إن قواده يريد الله وحده .. هذا التوجه الباطن .. الصادق الخالص .. استجاب الله تعالى له على الفور .. فقر به إليه .. ورفعه درجات .. وآتاه .. وهذاه .. واجتبه .. وانظر إلى سلسلة الاستجابات .. والتحقيقات .. ووهبنا له إسحاق ويعقوب .. على أثر توجيهه هذا .. وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب .. على أثر توجيهه إلينا .. انه يريدنا فلا بد أن نكرمه بما لا يخطر على باله .. كتب .. نبوات .. رسل .. أئمة .. سلاسل متدافعة من النور .. في ذريته .. فإذا ؟ لأنه أرادنا .. لأنه هاجر إلينا .. وآتيناه أجره في الدنيا .. استجابة أخرى .. ليس فقط أعطينا ذرية .. وجعلنا في تلك الذرية النبوة والكتاب .. وانما كذلك سنزقه في الدنيا .. ونؤتي أولاده في الدنيا .. وآتيناه آل إبراهيم ملكا عظيما .. وإنه في الآخرة لمن الصالحين .. استجابة أخرى .. له وجهه .. لدعائه .. إنه عندنا في الآخرة من كبار كبار الكاملين في الصلاح .. لا ينقص ما أعطينا في الدنيا شيئا من حظه في الآخرة .. استجابات .. استجابات .. عطايا .. متابعات .. لماذا ؟ لأنه أرادنا .

هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ؟

قال تعالى : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فبشرناه بغلامٍ حلِيمٍ . »

[الصافات ١٠٠ — ١٠١]

دعاء آخر .. فهل استجيب ؟ نعم .. نعم .. بنص القرآن .. هَبْ لِي .. فبشرناه بغلام .. هو يطلب ولدا صالحا .. فتأتيه البشري مباشرة .. فبشرناه بغلام حلِيم .. أبرز صفات هذا الغلام أنه حلِيم .. ويرث عن أبيه تلك الصفة الكريمة .. فكان اسماعيل عليه السلام .. فهل وقعت الاستجابة عند هذا الحد ؟ كلا .. بل زاده الله من فضله .. فبشره بعد ذلك بسنين .. حيث لم يكن يتوقع أن يعطيه شيئا بعد اسماعيل .. بشره بإسحاق .. بغلام آخر .

قال تعالى : « وبشرناه بإسحاق ، نبيا ، من الصالحين . وباركنا عليه ، وعلى

[الصافات ١١٢ — ١١٣]

إسحاق .. »

وهذه استجابة فوق ما طلب .. لانه طلب غلاما واحدا .. فأعطاه .. ثم زاده آخر ..
فوهبه اسحاق .. ثم زاده من فضله .. فجعله نبيا كذلك من الصالحين .. ثم زاده قيارك على
ابراهيم نفسه .. ثم زاده .. قبارك على اسحاق .. وكذلك الله سبحانه .. إذا أعطى .. أعطى
بغير حساب !!

إلا الذى فطرني ؟

وهذا أعجب دعاء .. ولكنه ليس بدعاء .. وإنما هو اتجاه .. فى قلب ابراهيم .. وفى
روحه .. وسر قواده .. فكان عند الله دعاء .. وأقوى الدعاء ما كان سرا .. يتموج
من القواد إلى رب العالمين .. ماهو هذا السر ؟

قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِى
فَطَرَنى ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ، فِى عَقْبِهِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . »

[الزخرف ٢٦ - ٢٨]

هذا هو السر .. الذى تموج من روح ابراهيم .. من أعماق قواده .. من صميم كيانه ..
إلى الذى فطره ..

إنه برىء مما يعبد الناس جميعا ..

إنه برىء من كل شىء ..

إنه لا يعرف إلا الذى فطره .. إلا الذى أوجده من عدم ..

إنه لا يتجه إلا اليه .. ولا يعبد إلا إياه ..

وإنه يرجو لذلك أن يهديه .. بل هو يوقن أن هناك حتمية أن يهديه الله مادام هو
يتجه اليه وحده .. « فانه سيهدين » .. تأكيد .. بانه سوف يهديه .. مادام هو متجها
اليه .. وحاله هكذا .. أنه برىء مما يعبد كل الناس .. إلا الذى فطره .. لا يعرف إلا إياه ..
فإذا كانت الاستجابة ؟ ..

عجبا .. ولا عجب من أمر الله ..

وجعلها كلمة باقية في عقبه .. كانت هذه هي الإستجابة !!
إن الله علم ماذا بقلب ابراهيم ؟ .
ماذا يريد ابراهيم ؟ .
إلى من يتجه ابراهيم ؟ .
فلما أتم ابراهيم كل ذلك .. واتجه بأسرار قواده .. وصمم كيانه إليه ..
جعل الله تعالى ذلك الإحساس .. ذلك التوجه الخالص إليه .. ذلك التوحيد
الصافي المجرد .. الذي ترجمته اللفظية .. لا إله إلا الله .. جعل ذلك كله كلمة باقية ..
خالدة .. في نسله .. وتلاذلت أجيالنا في صورة أنبياء .. أو رسل .. أو كتب .. أو أئمة ..
أو هداة .. أو أتباع مؤمنين .. أو أمم مسلمة !!

واتخذ الله إبراهيم خليلاً ؟

هذا في ظني .. أخطر باب من ابواب تلك الشخصية العجيبة .. إبراهيم .. وهو باب مغلق لأحسب ان أحداً يستطيع فتحه .. إلا أن يأذن الله له في ذلك .. بأن ذلك شيء أعطاه الله إبراهيم .. وخصه به .. ولم يعطه أحداً سواه .. فهو مقامه وحده .. فكيف يتأتى لأمثالنا .. ونحن في الحضيض .. أن نذوق .. أو ندرك ذلك المستوى؟! وأتد قالوا أقوالهم في شأن الآية .. ونثروا ما عندهم في تفسير قوله تعالى « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .. فجاءت كلها .. لا تؤدي إلى شيء يأنس إليه القواد !! قالوا : خليلاً .. أي أحب الله إبراهيم حبا شديداً .. وأحب إبراهيم ربه حبا شديداً .. فهل هذا شيء يقال ؟ وماذا يريدون بقولهم أن الله أحب إبراهيم ، فأحب إبراهيم الله ؟ .. إن ذلك يتحقق لكثير من الناس . فبأي شيء امتاز إبراهيم عن سائر الناس ؟ قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » .. إذا هذا شيء يتحقق للكثير .. وليس ميزة لإبراهيم !! وقالوا : خليلاً .. أي تخلل حب الله كل قلبه .. وماذا ؟ فإن النملة .. يتخلل حب الله شغاف قلبها .. فبأي شيء امتاز إبراهيم ؟ وقيل .. وقيل .. وكلها متاهات .. تنيه فيها العقول .. ولا تبصر شيئاً !! لماذا لأن الذين يتحدثون .. ويفسرون .. كلهم .. دون استثناء .. دون مقام إبراهيم .. دون مقام الخلقة .. فكيف يتحدثون عن شيء لم يذوقوه ؟

ولندخل الآن إلى الآية المحكمة .. التي سجل الله تعالى فيها ذلك الأمر لإبراهيم .. لعلنا ندرك من خلالها شيئاً .. يهدينا سواء السبيل ..

قال عز من قائل : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » [النساء ١٢٥]

هذه الآية .. هي رأس المال في أشق بحث نخوضه .. في تلك الشخصية العجيبة !!! يسجل الله تعالى أنه لا يوجد دين أحسن من ذلك الدين .. فما هو ذلك الدين الذي هو أحسن دين ؟ هو « من أسلم وجهه لله » .. اذن الذي أسلم وجهه لله .. هو أحسن الناس ديناً .. « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » أي أخلص نفسه له تعالى ، لا يعرف لها ربا سواه وقيل :

أخلص توجهه له سبحانه وقيل: بذل وجهه له عز وجل في السجود والمقصود مدح من فعل ذلك على أتم وجه وفيه تنبيه على أن صرف العبد نفسه بكليتها لله تعالى أعلى المراتب التي تبلغها القوة البشرية .

حتى هنا .. وتقف .. إذا إبراهيم كان متحققا فيه تلك الصفة .. أسلم وجهه لله؟! وذلك بنص الكتاب «إذ قال له ربه: أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين» وهذه الصفة التي جعلها الله أحسن دين، وأحسن مافي أي دين هي ذروة الارتفاع البشري .. وأقصى ما يمكن أن يرتفع اليه مجهود بشري لماذا! لأن الله ركب هذا الانسان أعجب تركيب وضع فيه الحيوان بكل مافيه من شهوات ونزوات .. ووضع فيه الملاك بكل مافيه من طاعات وتقربات .. ثم اعطاه ارادة حرة .. ان شاء اتبع شهواته .. أى غرائزه .. وان شاء اتبع الأخرى .. واعطاه شيئا اسمه العقل .. أداة من أدوات التنفيذ .. يستطيع بها أن يحقق ارادته .. في عالم المادة .. فان اراد الشهوات سخر عقله في الحصول على تلك الشهوات .. وان اراد السمو .. والارتفاع إلى أعلى .. سخر عقله في تحقيق ذلك السمو .. وذلك الارتفاع .. ثم يأتي دور الرسالات الالهية .. إلى الانسان .. تحاول أن ترتفع به عن بهيميته .. عن الخضوع لغرائزه .. فتأمره بأوامر .. لا تخرج كلها .. عن كونها محاولات للارتفاع به إلى أعلى .. فان أطاع .. ارتفع .. واقترب من الله .. واصبح صالحا لأن يتلقى منه تعالى نفحات القرب .. وان عصى .. واتبع شهواته .. انحط .. وابتعد عن ربه .. واستحال أن يتلقى عنه سبحانه شيئا .. فمعنى «إذ قال له ربه: أسلم» .. أى اذ أمره بأوامر .. وأمره أن يطيعها .. ومعنى «قال: أسلمت» أى أطاع تلك الأوامر .. على أحسن ما يتصور من الأداء .. انها عين قوله تعالى «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن» .. اختبره بأوامر .. فأطاعها كلها ، وأتمها خير الأتمام .. ونجح في الإمتحان ١٠٠٪ وزيادة .. «إبراهيم الذي وفى» ..

ولننظر هل أطاع إبراهيم ربه طاعة مطلقة وزيادة! نعم .. وهما هي حياته كلها .. سلسلة من أعلى ما يمكن أن يرقى اليه بشر من طاعة لله .. وماذا بعد ذبح الابن بيده .. وبذل النفس لتحرق في سبيل الله! وهذه هي العبودية .. في أعلى تحققها .. ولقد كانت ممثلة في إبراهيم أعلى

تمثيل . . هذا في الظاهر . . إيمانى الباطن فلقوله « أسلم » قال : « أسلمت » رموز أخرى . .
 أى استسلم لنا . . فى سرى . . قال : « أسلمت » . أى استسلمت لك وحدك . . قلبه ليس فيه
 مجال لغير ربه . . وليس به الشغال بغير ربه وليس به التفات إلى ما سواه . . وليس به
 انفعالات إلا بالله ، والله ، ومن الله . هذا هو اسلام القلب لله . . أو اسلام الوجه لله . . أو ارادة
 الله وحده فى أمره كله . . أسلم وجهه لله ؟ اتجه إلى الله . . فى كل شىء . . ثم ماذا ! ثم قوله
 « وهو بحسن » . . أى آت للحسنات ، تارك للسيئات . . أى انه انسان عملى . . من الطراز
 الأول . . ليس رنجل عقيدة حاملة لا تؤدى إلى شىء تطبيقى . . تجريبى . . انه يدخل التجربة
 تجربة الحياة بكل ما فى طاقاته من قوة . . لماذا ! لتحقيق فيه فكرة الحياة التى يريد الله أن
 تتحقق . . فليس يكفى أن يكون الانسان سليم القلب . . ثم لاشىء وراء ذلك . . وإنما ينبغى
 أن تكون سلامة القلب دافعا عظيما . . يدفعه إلى خوض غمرات الحياة . . اعلاء للحق ،
 وانتصارا لله . . وهذا هو ابراهيم . . خير نموذج لهذا الاتجاه العملى وقف وحده يجاهد أباه . .
 وقومه . . ووطنه . . ويعلن إليهم أنهم مغفلون . . اذ يعبدون حجارة ينحتونها بأيديهم . .
 وما زحزح . . وما وهن . . وما ضعف . . وما هادنهم . . حتى ضاقوا به وألقوه فى الجحيم . .
 هذا هو النموذج . . رجل قلبه سليم . . وجهه أسلمه لله ثم بعد هذا هو عملى . . من الطراز
 الأول عملا وجهادا .

ثم ماذا ! ثم تأتى المرحلة الأخطر . . والأخطر . . « واتبع ملة إبراهيم » واتبع اسلوب
 ابراهيم . . أو طريقته . . « حنيفا » أى متجها مباشرة إلى الله . . مائلا عما سواه . . هذه هى
 الحنيفية . . فى كلمات معدودات . . الاتجاه المباشر إلى الله . . والاعراض التام عما سواه . .
 هذه هى ملة ابراهيم . . التى اعتبر الله تعالى من اتبعها فقد اتبع أحسن دين ، وأحسن ملة . .
 وفى النهاية . . يعلن الله تعالى إلى الناس كافة . . أنه اتخذ ابراهيم خليلا . . « واتخذ الله إبراهيم
 خليلا » . . وهنا ينكشف السر . . ويسطع النور . . ويتمدد الاشعاع . . فنستطيع أن نقول :
 لعل الله تعالى اتخذ خليلا من أجل هذا !

من أجل أمور ثلاثة . . اسلام الوجه لله . . احسان الأعمال لله . . الاتجاه المباشر

إلى الله .. التي ذكرت في صدر الآية .. واعتبرت أحسن الأديان .. من أجل ذلك ،
اتخذ الله خليلا .. وبصورة أشد تركيزا .. وأقوى إشعاعا .

نقول : من أجل أن دينه أحسن الأديان .. اتخذ الله خليلا .

وعندي أن هذا الرأي .. قديكون أقوى الآراء التي يعتد بها في هذا السياق : ..
ذلك أننا لم نأت بالبرهان من خارج منطوق الآية الكريمة .. وإنما جئنا به من الآية
نفسها ، وفي حدود كلماتها .. حيث يقول نصها : « ومن أحسن دينا ، ممن أسلم وجهه
لله ، وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

كأنها تريد أن تقول : إن دين إبراهيم أحسن دين .. من أجل هذا اتخذ الله خليلا ..
فلما وجه الربط ، أو الالتحام ، بين السبب والنتيجة ؟ الوجه أنه لو فرض أن الله سبحانه أراد
أن يختار لنفسه عبدا من البشر ، فانه سوف يختاره أحسن هؤلاء البشر على الإطلاق ..
لسبب بسيط .. أن الله يصطفى ، أو يجهي إليه .. خير الجنس كله .. جنس آدميين ..
لأن أكرم الناس هو أصلح الناس للتلقى عن الله .. والافعال بأمر الله .. وهذا ما كان ..
فقد نظر الله تعالى إلى أهل الأرض جميعا .. فوجد خيرهم إبراهيم .. فاختاره لنفسه .
واصطفاه .. وهداه إلى صراط مستقيم .. وما زال به يرفعه درجات ، فوق درجات ..
حتى وصل به إلى أعلى مقام تسمح طاقته أن يرتفع إليه .. مقام الخلة .. واتخذ الله
إبراهيم خليلا .

كأن الذي حدث أن إبراهيم لم يتخذ خليلا من أول لحظة في سلوكه إلى الله .. كلا ..
وإنما مر به على أشق وأدق الاختبارات .. فلما نجح فيها كلها .. أعطاه مؤهلا إليها
اسمه « إني جاعلك للناس إماما » .. وذلك المؤهل لم يمنح لإبراهيم عفوا .. أو محض فضل
إلهي .. وإنما نتيجة اختبارات شاقة ، لا يطيقها بشر .. وقوله تعالى « وإذ ابتلى إبراهيم
ربه بكلمات فاتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماما » .. يشير إلى ذلك أوضح إشارة .
اختبره بشتى الطرق .. وامتنحنه بأقصى ما يستطيع بشر أن يحتمل .. فأدباها كلها بنجاح
تام .. ففاز بالمؤهل الإلهي الأعظم « إني جاعلك للناس إماما » ..

إني جاعلك لجميع الناس إلى يوم القيامة يا إبراهيم .. قدوة .. يقتدون بك في أى زمان وأى مكان .. لأنى وجدتك خير الناس .. وأحسنهم ديناً .. وأسلوبك أحسن الأساليب المؤدية إلينا .

ثم ماذا ؟ ثم التدرج التالى .. صار إبراهيم اماماً .. صار قدوة .. وبدأ السير إلى الله .. ومن يومها وهو يسير إلى الله .. وهذا يؤيده قوله تعالى « إني مهاجر إلى ربي » .. وما زال إبراهيم سائراً إلى الله .. لأن الأنبياء .. لا تنتهى حياتهم .. ولا يقف ترقيتهم بموتهم .. بل يزدادون رقياً .. ويزدادون سيرة إلى الله بعد مماتهم .. وهذا ناموس عام .. ماض فى كل البشر .. كل حسب مقامه .. قال تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . إذن إبراهيم .. أو غير إبراهيم .. كل الناس .. كل البشر .. أحياء بعد موتهم .. يواصلون حياتهم .. وترقيتهم اما إلى أعلى .. واما إلى أسفل . إما إلى التقرب من الله .. واما إلى الابتعاد عن الله .. قال تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » إذن أهل فرعون .. أهل العذاب كذلك أحياء .. ولكن حياة تعذيب .. حياة إلى أسفل !!

ما هذا ؟! هذا نأ خطير جداً . ينبغى أن يلتفت إليه الناس جميعاً .. إبراهيم إذن مارال يواصل سيره إلى الله .. إذا إبراهيم يرقى .. ويرقى .. ويرقى .. إلى أعلى .. مقامات .. بعدها مقامات .

ثم ماذا ؟ ثم تأتى المرحلة الثالثة .. التى هى نتيجة طبيعية لما سبقها .. وثمره حتمية لما قبلها .. واتخذ الله إبراهيم خليلاً .. مادام إبراهيم قد وصل فى سيره إلى الله .. إلى مستوى يسمح له أن يعلم ، ويرى ، ويدرك ، عن الله أكثر من أى بشر سواه .. إذا فقد أصبح أهلاً لأن يسكون خليلاً لله .. لأن يحبه الله تعالى أكثر من حبه لجميع البشر .. هنالك ..

ينعم الله على ابراهيم بمالم ينعم به على غير ابراهيم .. ولكل مقام انعامات .. ولكل مستوى هبات .

هذه هي القضية .. ولقد تفضل الله تعالى .. ففتح علينا فيها فتحا .. نظنه ان شاء الله أقرب الظنون إلى الحق ، وأبعدها عن التيه .

ومن هنا أعلن الله تعالى على جميع الناس « ومن أحسن ديننا » .. اعلّموا أيها الناس جميعا أن دين ابراهيم عندي أحسن الأديان .. وأعلن أنه يعتمد على قواعد ثلاثة « من أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا » .. اعلّموا جميعا أنه يعتمد على .. الاتجاه إلى الله .. إرادة الله وحده .. ثم احسان الأعمال لله .. بأن تكون خالصة لنا .. ثم اتباع ملة ابراهيم .. بأن تتجهوا إلينا مباشرة .. غير ملتفتين إلى سوانا ..

من عبدنا على هذا النحو .. من أرادنا على ملة ابراهيم .. فهو سائر إلينا .. فهو سالك طريقنا .. فهو وراء ابراهيم .. فهو فائز بانعاماتنا كما فاز ابراهيم .. على قدر طاقته .. على قدر قدرته على السير إلينا .. على قدر المستوى الذي يستطيع الوصول إليه .

المقام الذي كان فيه .. ابراهيم ... ليلة المعراج ؟

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد ابراهيم عليه السلام في السماء السابعة ، مسندا ظهره بالبيت المعمور ، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، فامعنى هذا ؟ . معناه أن ابراهيم عليه السلام يواصل حياته البرزخية .. يواصل ترقيه من مقام إلى مقام .. ولقد وجدته محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء والمعراج ، في السماء السابعة .. وهو أعلى مقام وجد فيه نبيا من الأنبياء .. فلماذا ! لأن ابراهيم هو أشرف الرسل بعد محمد صلى الله عليه وسلم .. ولأن طاقته استطاعت أن تخلق إلى هذا المستوى الرفيع .. حيث يباشر عليه السلام نعيم مقام الخلة .. وانعامات تلك الدرجة !!

لماذا فاق محمد .. الرسل جميعا ؟

وهنا سؤال من أخطر الأسئلة .. لماذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم بعد ابراهيم .. ومع هذا سبق ابراهيم في السير إلى الله ! ولماذا جاء محمد آخر الأنبياء وسبق جميع الأنبياء في

السير إلى الله ! أو بمعنى أقرب : كيف يتأتى لمحمد أن يسبقهم جميعا إلى ربه . رغم أنه بدأ السير بعدهم بمئات السنين بل ألوفها ، وكان المفروض أن يسبقوه هو إلى ربهم أو الجواب بسيط جدا .. ليس المعول عليه هو بدء السير زمنيا ولكن المهم هو مقدار سرعة السير إلى الهدف .. مثال ذلك .. رجلان .. يريدان السفر من الاسكندرية إلى نيويورك .. ركب الأول السفينة من الاسكندرية إلى نيويورك في أول يناير ، وركب الثاني الطائرة النفاثة من الاسكندرية إلى نيويورك في ١٥ يناير . فإذا علم أن المسافة بين المدينتين ٥٠٠٠ كيلو مترا .. وأن السفينة تقطع في اليوم ٢٠٠ كيلومترا وأن الطائرة تقطع في الساعة ٥٠٠ كيلومترا .. فمتى يصل كل منهما إلى نيويورك ! .. الجواب : الأول = ٥٠٠٠ ÷ ٢٠٠ = ٢٥ يوما أى يصل الأول في ٢٥ يناير . الثاني = ٥٠٠٠ ÷ ٥٠٠ = ١٠ ساعات . أى يصل الثاني في نفس اليوم !! أى أن الثاني الذي ركب بعد الأول بخمسة عشر يوما .. وصل قبله بأربعة وعشرين يوما .. فما معنى هذا ! معناه أن المعول عليه هو مقدار السرعة لا بداية السير الزمنية .. وهذا ما حدث بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم .. وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. بدءوا جميعا السير إلى الله قبله .. وسار هو إلى الله .. بعدهم جميعا .. ومع هذا فاقهم جميعا .. وسجل هدفا .. قريبا جدا من ربه .. لم يسجلوه جميعا ..

لماذا ! لأنه سار إلى الله بسرعة أكبر من سرعتهم جميعا .. لأن استعدادة أعلى من استعدادهم كلهم ..

لأن طاقته على التحليق أكبر منهم جميعا .. فقطع إلى الله في وقت قصير .. ما لم يقطعوه في وقت طويل .. ووصل إلى مقام « قاب قوسين أو أدنى » وهم مازالوا دون ذلك بكثير ..

وهذا واضح جدا في أحاديث الإسراء والمعراج .. حيث مر محمد صلى الله عليه وسلم على الأنبياء .. في السموات السبع .. حتى انتهى إلى إبراهيم في السابعة .. وهو أعلام مقاما ..

ثم خلفه .. وارتفع .. وارتفع .. حتى وصل إلى مقام تخلف فيه عنه جبريل عليه السلام ..

ثم واصل .. وواصل السير .. حتى انتهى إلى مقام .. له وحده .. لم يرتفع إليه أحد من البشر قبله ولا بعده .. هنالك فرضت الصلاة .. وكان ما كان .. ومن هنا ندرك لماذا أعلن محمد صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً .. فالعنى انه صلى الله عليه وسلم قد جاز تلك المرتبة !

اثناء سيره إلى الله الا أنه مؤهل لما هو أعلى منها .. مؤهل لمقام « الحبيب » .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !!

محمد .. يعلن بنفسه ... أن الله اتخذ خليلاً ؟!

ثبت في الصحيحين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيها الناس ، إن الله اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً » .

هكذا أعلنها محمد بنفسه على الناس .. أن الله اتخذ خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً .. فما معنى هذا !

معناه أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد بلغ في سيره إلى الله ما بلغه إبراهيم .. رغم أن بينهما نحواً من ٢٥٠٠ سنة !! أى أن السرعة التي يسير بها محمد في ترقيه إلى الله ، أسرع بكثير جداً من سرعة إبراهيم .. فرغم أن إبراهيم سبق الناس جميعاً إلى ربه .. إلا أن محمداً أدركه سريعاً ولم يقف عنده هذا بل جازه .. وبقه إلى مقام أعلى .. وأعلى .

محمد .. لا يتخذ من الناس خليلاً ؟!

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر خطبة خطبها : « أيها الناس ، لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً ، لاتخذت أبابكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله »

إن محمدا .. خليل الله .. وحده .. إن أحدا من البشر لا يصلح أن يكون خليلا لمحمد ..
حتى الصديق .. خير صحابته .. لا يصلح لهذا المقام .. لماذا ! لأن محمدا صلى الله عليه
وسلم مؤهل لما هو أعلى وأعلى .. مؤهل لأن يكون خليلا لله .. لا لأبي بكر .. إن
مقامه فوق الناس جميعا .

انى حبيب الله ؟!

هذا هو مقامه ..

ولأنه هو المقام الأوحد ..

أعلنه .. بنفسه .. وهو يردد ويكرر .. ولا فخر .. ولا فخر .. إنه يذيع
حقائق .. نواميس مقررة .. لأعلى سبيل الفخر .. وحاشاه .. وإنا تبليغا للرسالة ..
واعلانا لحقائقها .. وإذاعة للنواميس ..

روى البخارى فى صحيحه .. قال : « إن معاذا لما قدم الين صلى بهم الصبح فقرأوا تأخذ
الله ابراهيم خليلا . فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم ابراهيم » .
وعن ابن عباس : قال : « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
ينتظرونه

» فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون

» فسمع حديثهم ، وإذا بعضهم يقول : عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلا فابراهيم
خليله

» وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما

» وقال آخر : فعيسى روح الله وكلته

» وقال آخر : آدم اصطفاه الله

« فخرج عليهم ، فسلم ، وقال : قد سمعت كلامكم ، وعجبكم ، أن ابراهيم خليل الله وهو كذلك

« وموسى كليمه ، وهو كذلك

« وعيسى روحه وكلمته ، وهو كذلك

» « وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك !

« أولا وإنى حبيب الله ولا فخر !

« ألا وإنى أول شافع وأول مشفع ولا فخر .

« وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين !

« وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر »

صحف ابراہیم و شریعت؟

هل كان لإبراهيم شريعة مستقلة ، متكاملة ؟ هل كانت له كتاب سماوى معروف ، كال�وراة ، أو الزبور ، أو الانجيل ، أو القرآن ؟
قال تعالى : « قولوا آمنا بالله . وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب .. »
[البقرة ١٣٦]

اذن هناك شىء أنزل إلى إبراهيم !
وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .
[البقرة ١٨٣]

« كما كتب على الذين من قبلكم » أى الأنبياء والأئم من لدن آدم إلى يومنا هذا والمراد بالمائة المائة فى أصل الوجوب ، وإما فى الوقت والمقدار . إذن هناك صيام فرض على إبراهيم . واتباع إبراهيم .. كما فرض على غيره من الأنبياء والأئم .

* * *

١ وقال تعالى . « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق . ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .. » [البقرة ٢١٣]
إذن هناك كتاب أنزل على النبيين .. وإبراهيم من أفضل أولى العزم الخمسة .. والمظنون
٢ أن الله خصه بكتاب من هذه الكتب .. خاصة وهو فى الأنبياء قمة .. ومركزه فيهم مركز
الامامة والأبوة .

* * *

وقال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح . والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب .. »
[النساء ١٦٣]

اذن هناك وحى إلى إبراهيم .. كغيره من الرسل الذين أوحى إليهم .
وقال تعالى : « وجعلناهم أمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة . وكانوا لنا عابدين » .
[الأنبياء ٧٣]

والضمير يرجع إلى ابراهيم واسحاق ويعقوب إذن هناك وحى إلى ابراهيم .. وحى أن يفعل الخير ، وقيم الخير ، وقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة .
وقل تعالى : « وأذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ، يَأْتُوكَ رِجَالًا ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ، يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » .
[الحج ٢٧]

وهذه الآية .. على قول من قال ان الخطاب فيها لابراهيم .. تعتبر نصافي أن الله فرض عليه الحج . وأمره أن يدعو الناس اليه ، ووعد أنه يستجيبوا له ، ويأتوا إلى أدائه من كل فج عميق .

إذن فرض الحج على ابراهيم . واتباع ابراهيم .. وقد ورد أنه عليه السلام حج وأدى المناسك . وأرى اسماعيل ومن معه كيف يحج وكيف يؤدي المناسك .. وقال تعالى : « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ » ..
[العنكبوت ٢٧]

اذن .. من باب اولي أن يكون لابراهيم كتاب .. فهو أصل هذه الذرية كلها .. التي جعل الله فيها الكتاب كله .

وقال تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْ نُوحٍ ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » .
[الأحزاب ٧]
اذن هؤلاء هم الخمسة اولو العزم من الرسل .. نص الله تعالى على أنه أخذ من كل منهم ميثاقا غليظا ..

اذن من باب اولي أن يكون لابراهيم كتاب .. يرشده الى تفصيل ذلك الميثاق .

* * *

وقال تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ » ..
[الحديد ٢٦]

اذن .. من باب اولي أن يجعل في ابراهيم نفسه كتابا .. مادام قد جعل في ذريته كل كتاب .. هذه كلها نصوص .. تشير من بعيد .. أو قريب .. أن ابراهيم أوحى اليه .. وأنه أنزل اليه .. وأنه صاحب كتاب .. وصاحب شريعة مستقلة .

وقد رأينا كيف نصّب القرآن على أن الصيام كتب عليه .. ضمن الدين من قبلنا . ،
وكيف نص كذلك على أنه أمر بالحج ، وأمر أن يأمر أتباعه به .
فاذا ضممنا كل ذلك إلى إحياء الله اليه أن يفعل الخير ، ويقوم الصلاة ، ويؤتي الزكاة .
شع علينا اشعاع عظيم .. باهر : يكشف عن شيء خطيرا جدا . . أن ابراهيم صاحب
شريعة .. تامة . كاملة . متكاملة .

وأن شريعته تطابق الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم تطابقا كاملا . . واليك
الدليل مما سردناه فى هذا الباب من نصوص .

فالمعلوم أن هذا الاسلام بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله . وان محمدا رسول الله . .
 وإقام الصلاة . . وإيتاء الزكاة . . وصوم رمضان . . وحج البيت من استطاع اليه سبيلا . .
هذه هى الفروض الخمسة التى بنى عليها الاسلام .
فلننظر الآن هل فرض الله على ابراهيم صلى الله عليه وسلم نفس ما فرضه على محمد صلى
الله عليه وسلم .

نعم .. نعم . . واليك الأدلة القاطعة أما شهادة أن لا إله إلا الله . . فمقطوع بالتواتر والمشهور
نصا أنها فرضت على ابراهيم كما فرضت على محمد . . ويكفى هنا . . ما رده القرآن عن ابراهيم
من دعوته للناس أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا .

وأما شهادة أن محمدا رسول الله . . فطبيعى أن يستبدل بها وأن ابراهيم رسول الله لأن
محمدا لم يكن قد بعث بعد !! انتهينا الآن من الفرض الأول . . شهادة أن لا إله إلا الله . . وانها
عند ابراهيم . . كما هى عند محمد . . بل إن محمدا أمر باتباع ابراهيم فى ذلك « أن اتبع ملة
ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . .

ثم ماذا ؟ ثم نتقل إلى الفرض الثانى . . الصلاة . . فنجد أن ابراهيم أمر بالصلاة . . كما
أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالصلاة . . واليك الدليل . . « .. وأوحينا اليهم فعل الخيرات ،
 وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . . » اذن الصلاة مفروضة فى شريعة ابراهيم . . كما هى مفروضة فى

شريعة محمد .. ثم ننتقل إلى الفريضة الثالثة .. الزكاة .. فنجد أنها مفروضة عند ابراهيم ، كما هي مفروضة عند محمد .. والدليل .. هو نفس النص .. « وإيتاء الزكاة .. »

ثم ماذا ؟ .. ثم الفريضة الرابعة .. الصوم .. فنجد أن شريعة ابراهيم تشمل على الصيام ، كما تشمل شريعة محمد عليه .. والدليل .. قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم .. » و ابراهيم من الذين قبلنا ..

ثم ماذا ؟ ثم الفريضة الخامسة .. والأخيرة .. الحج .. فنجد أن ابراهيم في شريعته الحج كما في شريعة محمد .. بل أكثر من هذا .. إن ابراهيم هو مؤسس فريضة الحج .. ومحمد صلى عليه وسلم متبع فيها .. فابراهيم هو الذي بنى البيت ، وبنى المسجد الحرام ، وحدد مناسك الحج كلها .. ثم حج هو ومعه اسماعيل ، واتباعه .. وأذن في الناس بالحج كما أمره الله .. ومرت الأيام .. وجاء محمد .. فشرع للناس الحج .. طبق الأصل كما فعل أبوه ابراهيم .. في نفس الأماكن .. وبفسح المناسك !!

تطابق .. تطابق تام .. بنى الإسلام على خمس ..

وبنى دين ابراهيم على خمس .. نفس الخمس .. ومن هنا يمكن أن يقال أن الإسلام الذي دعا اليه محمد .. هو هو الاسلام الذي دعا اليه ابراهيم .. وهذا واضح جدا جدا .. في توجيهات الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في اتباع ملة ابراهيم حنيفا .. وأن الله هداه إلى صراط مستقيم .. ديننا قيا .. ملة ابراهيم .. أفبعد هذا من دليل .. أن ابراهيم صاحب شريعة مستقلة ، كاملة ، متكاملة .. وأنها تطابق شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمام المطابقة ؟

الدليل القاطع ؟

قال تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ، مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا . وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . »

[الشورى ١٣]

أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده ، من أرباب الشرائع ، وأولى العزم ، من مشاهير الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وأمرهم به أمرا مؤكدا . وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير اليه من علو شأنهم ، وعظم شهرتهم . ولاستئالة قلوب الكفرة إلى الاتباع ، لاتفاق كل على نبوة بعضهم . وايدان بأن مآشرع دينا قديما أجمع عليه الرسل .

« أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » أى دين الاسلام الذى هو توسيد الله تعالى . وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء ، وسائر ما يكون العبد به مؤمنا . والمراد باقامته تعديل أركانه : وحفظه من أن يقع فيه زيغ ، والمواظبة عليه . « ولا تتفرقوا فيه » شامل للنبي واتباعه ، والأنبياء ، والأمم ، قبلهم ، وضمير (فيه) للدين . أى : ولا تتفرقوا فى الدين الذى هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتى به بعض ولا يأتى بعض . أو يأتى بعض ببعض منه ، دون بعض ، أى لا تختلفوا فيه .

فمضى الآية : شرعنا لكم مآشرعنا للأنبياء ، دينا واحدا ، فى الأصول ، وهى التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والتقرب بصالح الأعمال ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة . وصلة الرحم ، وتحريم الكبر والزنا ، وإيذاء الخلق ، والاعتداء على الحيوان ، واقتحام الدنات ، وما يعود بخرم المروءات ، فهذا كله مشروع دينا واحدا ، وملة متحدة ، لم يختلف على السنة الأنبياء ، وإن اختلفت اعدادهم . « كبر » عظم وشق .

« على المشركين ماتدعوهم اليه » من التوحيد ، ورفض عبادة الأصنام ، وهو أصل الأصول ، وأعظم مآشق عليهم . « الله يفتي اليه من يشاء » أى يصطفى اليه سبحانه من يشاء اصطفاؤه ، ويخصمه سبحانه بفيض إلهى ، يتحصل له منه أنواع النعم . « ويهذى اليه من ينيب » ويهذى اليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يقبل اليه تعالى شأنه للدلالة على أن أهل الاجتباء ، غير أهل الاهتداء .

هذا هو الدليل . . القاطع . . الساطع . . المانع . . الذى لا وجه لتلمس الأدلة بعده .

وما وصينا به إبراهيم ؟ .. شرع لنا .. نفس ما وصى به إبراهيم .. فرض علينا نفس
مافرض على إبراهيم .. تطابق تام .. واتحاد عام !!
هذا من ناحية الشريعة .. فهل كان لإبراهيم كتاب سماوى مستقل ؟ ..

ماذا فى صحف إبراهيم ؟

قال تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى . أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَسَبَقَى . وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ
الْأَوْفَى . وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا .
وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تُمْنَى . وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخِرَى .
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . وَأَنَّهُ هَوَّ رَبُّ الْأَشْجَى . وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَنُوحًا
فَمَا أَتَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَى . وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا
مَا غَشَّى . فَبَآىَ آلَاءُ رَبِّكَ تَمَارَى . هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى . أَزَلَّتِ الْآزَقَةُ .
أَيْسَرَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ . أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَتَكُونُونَ .
وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا . » [النجم ٣٦ - ٦٢]

هذا بما كان فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى .

انها كلها حقائق كلية .. ونواميس إلهية .. عامة .. لا تبدل فيها .. ولا تغير ..
أوحيت إلى موسى .. كما أوحيت من قبل إلى إبراهيم .. وجاءت فى صحف موسى ..
كما جاءت من قبل فى صحف إبراهيم .. وهما تأتى من بعدهم .. لتوحى إلى محمد .. آخر نبي ..
وتنزل فى كتابه آخر كتاب .. تأكيذاً أن الحقائق التى انزلت إلى جميع الأنبياء واحدة ..
لا تبدل لكلمات الله ..

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ » بل ألم ينبر « بما فى صحف موسى » وهى التوراة . « وإبراهيم » بما فى
صحف إبراهيم التى أنزلت إليه . « الذى وفى » وفر . وأتم ما أمر به : أو : بالغ فى الوفاء بما عاهد
عليه الله تعالى .

وعن ابن عباس : وفى بسهام الاسلام كلها ، ولم يوفها أحد غيره . وقيل : فى تبليغ هذه العشرة : أن لا تزر إلى آخره .. والأولى العموم .. مأمرة الله تعالى بشيء إلا وفى به . وتخصيصه — عليه السلام — بهذا الوصف لاحتماله مالا يحتمله غيره ، وفى قصة الذبح مافيه الكفاية .

« ألا تزر وازرة وزر أخرى » أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى . كأنه قيل : مافى صحفهما ؟ . فقيل : (أن لا تزر) الخ . والمعنى أنه لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، ايتخلص الثانى من عقابه . وهذا ناموس عام .. تقرر فى صحف موسى .. وإبراهيم .. ومحمد ... لا تبديل له .. ولا تغيير .. إلى يوم القيامة ..

ثم ماذا ؟ « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » بيان لعدم اثابة الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره . أى ليس له إلا سعيه . وقيل : اللام بمعنى على ، أى : ليس على الإنسان غير سعيه .

ثم ماذا ؟ . ثم الناموس الثالث .. الخالد .. « وأن سعيه سوف يرى » أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته يراه حاضر ويوم القيامة . ويطلعون عليه ، تشريفاً للمحسن ، وتوبيخاً للمسيء .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس الرابع .. الخالد .. « ثم يجزاه » أى يجزى الإنسان سعيه . « الجزاء الأوفى » مصدر مبين للنوع .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس الخامس .. الذى لا تبديل له .. « وأن إلى ربك المنتهى » أى أن انتهاء الخلق ، ورجوعهم إليه تعالى ، لا إلى غيره سبحانه . استقلالاً ولا اشتراكاً والمراد بذلك رجوعهم إليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون .

وقيل : لأنه عز وجل منتهى الأفكار فلا تزال الأفكار تسير فى بيداء حقائق الأشياء ، وماهياتها ، والاحاطة بما فيها ، حتى إذا وجهت إلى حرم ذات الله عز وجل بحقائق صفاته سبحانه ، وقفت وحرنت وانتهى سيرها .

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الآية : « لا فكرة فى الرب » . وروى

عنه عليه الصلاة والسلام « إذا ذكر الرب فأنتهوا » وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال : « مر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال : تفكروا في الخلق ، ولا تفكروا في الخالق ، فانكم لن تقدروه . »

وأخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتهلكوا . » واستدل بذلك من قال باستحالة معرفته عز وجل بالكنه .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس السادس .. الخالد .. « وأنه هو أضحك وأبكى » خلق فعلى الضحك والبكاء . وقيل : المراد خلق السرور والحزن ، أو ما يسر ويحزن ، من الأعمال الصالحة والطالحة .

ثم الناموس السابع .. « وأنه هو أمات وأحيا » تناسب الاماتة والاحياء لاسيما والموت يعقبه البكاء غالبا ، والاحياء عند الولادة الضحك . وقيل : أضحك أهل الجنة ، وأبكى أهل النار . لا يقدر على الاماتة والإحياء غيره عز وجل .

ثم ماذا ؟ .. ثم الناموس الثامن .. الخالد .. الخطير .. « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » من نوع الإنسان وغيره من أنواع الحيوانات . « من نطفة إذا تمنى » أى تدفق في الرحم .

ثم الناموس التاسع .. « وأن عليه النشأة الأخرى » أى الاحياء بعد الاماتة ، وفاء بوعدہ جل شأنه .

ثم ماذا ؟ ثم الناموس العاشر .. « وأنه هو أغنى وأقنى » أعطى القنية وهو ما يبقى ويدوم من الأموال ببقاء نفسه أو أصله كالرياض والحيوان والبناء . وقيل : أغنى : أغنى نفسه سبحانه ، وأفقر الخلائق اليه عز وجل .. إنه ناموس عجيب .. فيه من الأسرار ما فيه ! ثم ماذا ؟ ثم الناموس الحادى عشر .. « وأنه هو رب الشعرى » نجم مشهور .. ومن العرب من كان يعظمها ، ويعتقد تأثيرها في العالم ، ويزعمون أنها تقطع السماء عرضا وسائر النجوم تقطعها طولا .. إشارة إلى نفي تأثيرها .. « وأنه أهلك عادا الأولى » أى القدماء

لأنهم أولى الأثم هلاكا بعد قوم نوح.. « وثمود فما أبقى » فما أبقى عليهم : أى أخذهم بذنوبهم .

« وقوم نوح من قبل » من قبل اهلاك عاد وثمود ، « إنهم كانوا هم أضلم وأظنى » أى من الفريقين كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكاد يتحرك وكان الرجل منهم يأخذ ابنه يتمشى به اليه يحذره منه ويقول : يا بنى إن أبى مشى بى إلى هذا ، وأنا مثلك يومئذ ، فأياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه !! ولم يتأثروا من دعائه ، .وقددعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

« والمؤتفة » قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها اثتفكت بأهلها أى انقلبت بهم « أهوى » أى أسقطها إلى الأرض بعد رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء وقيل : جعلها تهوى « فغشاها ما غشى » تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه . هذا شيء مما كان فى صحف موسى وإبراهيم .

واقعد اختلاف المفسرون هل كان الكلام من (ألا تزر وازرة وزر أخرى) حتى آخر السورة .. كله فى صحف إبراهيم .. أم بعضه .

وعندى .. أن الأولى العموم .. وأن الآيات حتى آخر السورة كانت فى صحف موسى وإبراهيم .. خاصة وأنها كلها عبارة عن نواميس الهية عامة .. ليس فيها تشريع .. أو تقنين .. يتغير بتغير الانبياء .. والأزمنة .. وإنما هى سنن الهية لا تتغير .. ولا تبدل .. إلى يوم القيامة .. ومثل هذه النواميس الخالده تجدها فى جميع الكتب السماوية التى أنزلت على الانبياء والمرسلين .. لا تبدل لكلمات الله .. فقلوه تعالى « وأنه هو أمات وأحيا » .. ناموس عام .. لن يتغير إلى يوم القيامة .. ولا يمكن أن يتغير .. هو وحده المختص بالاماتة والاحياء ولا شيء يستطيع ذلك على الإطلاق .. وهكذا تلك النواميس العلى .. التى ذكرت بتلك الآيات .

حلاصة ما في صحف ابراهيم ١٢

ثم يفصل الله تبارك وتعالى في القضية .. قضية : ماذا كان في صحف ابراهيم ؟ .. فيقول عز من قائل : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .. إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ اِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى . » [الأعلى ١٤ - ١٩]

« إن هذا » إشارة إلى قوله تعالى (والآخرة خير وأبقى) وقيل : إشارة إلى ما ذكر من قوله سبحانه (قد أفلح من تزكى) .. الخ وهذا ما أميل إليه وقيل : إشارة إلى القرآن « لفي الصحف الأولى » أى ثابت فيها معناه « صحف ابراهيم وموسى » فى ابهامها ، ووصفها بالقدم تفخيم شأنها ما لا يخفى وكانت صحف ابراهيم عشرة وكذا صحف موسى عليه السلام ، والمراد بها ماعدا التوراة .

عن أبى ذر : قال : قلت : يا رسول الله ، كم أنزل الله تعالى من كتاب ؟

« قال : مائة كتاب وأربعة كتب .

« أنزل على شيث خمسين صحيفة .

« وعلى ادريس ثلاثين صحيفة .

« وعلى ابراهيم عشر صحائف .

« وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف .

« وأنزل التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان .

« قالت : يا رسول الله ، فما كانت صحف ابراهيم ؟

« قال : أمثال كلها .

« أيها الملك المتسلط ، المبتلى ، المغرور ، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض .

« ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم . فأنى لأردّها ولو كانت من كافر .

« وعلى العاقل ، ما لم يكن مغلوبا على عقله ، أن يكون له ثلاث ساعات ..

« ساعة يناجى فيها ربه .

« وساعة يحاسب فيها نفسه .

« ويتذكر فيها صنع .

« وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال .

« فان في هذه الساعة عوننا لتلك الساعات ، واجتماعا للقلوب ، وتفرغا لها .

« وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه . مقبلا على شانه . حافظا لسانه .

« فان من حسب كلامه من عمله . أقل الكلام الا فيما يعنيه .

« وعلى العاقل أن يكون طالبا لثلاث .

« مرمة لمعاش .

« أو نزود لمعاد .

« أو تلذذ في غير محرم .

« قلت : يا رسول الله . فما كانت صفات موسى ؟

« قال : كانت عبرا كلها .

« عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح !

« ولمن أيقن بالنار ثم يضحك !

« ولمن يرى الدنيا ، وتقلبها باهلها ثم يطمئن إليها !

« ولمن أيقن بالقدر ثم يغضب !

« ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل ؟

« قلت : يا رسول الله ، هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى ؟

« قال : يا أباذر ، نعم ، قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة

الدنيا . والآخرة خير وأبقى . »

وأخيرا .. ما معنى هذا ؟

معناه أن الله تبارك وتعالى تفضل فبين لنا ماذا كان في صحف إبراهيم .. أو أنزل إلينا خلاصة مركزة مما كان فيها .

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لنا ذلك حين سأله أبوذر : هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : نعم .. (قد أفلح من تزكى) الآية ..
اذن تولى الله ورسوله بيان ما كان في تلك الصحف .. بإذاعة تلك الخلاصة المركزة لما فيها .

وبالتأمل في هذه الخلاصة .. نجد أنها كلمات معدودة .. إلا أنها تحوى كل ما يحتاج إليه الإنسان .. في حياته كلها .

وهذا من دلائل الإعجاز في الكتاب .
ومن جوامع الكلم التي أوتيها محمد صلى الله عليه وسلم -
انظر .. ها هي .

« قد أفلح من تزكى » .. تأكيد بأن من طهر نفسه باطنا وظاهرا .. طهر باطنه من الشرك والكفر والظلم وسائر الظلمات النفسانية .. وطهر ظاهره من المعاصي إياها كانت .. والانحرافات مهما كانت .. تأكيد بأن من فعل هذا فقد أفلح .. أو تحتم أن يفلح .. وأن يفوز في حياته كلها .

ثم ماذا ؟

ثم كيف هذا يكون ؟

هاهو الاسلوب .

« وذكّر اسم ربه » .. عاش دائما ذاكر اسم ربه .. بقلبه .. عاش سليم القلب ..
عاشرا بالايمان بالله .. وذكّر الله ..

« فصلى » .. وعاش دائم الصلاة لله .. محافظا عليها ..

ثم ماذا ؟

ثم بيان هام .. بأن الناس يصدون دائما عن طريق الفلاح .. وينحرفون عنه .. لسبب واحد .. ليس الا .. هذا السبب هو .

« بل تؤثر الحياة الدنيا » .. تمنحون العاجلة .. تمنحون هذا الحياة القريبة التي أنتم فيها .. هذه الحياة الدنيا التي انتم منغمسون فيها ليلا ونهارا .. تفضلون الظهور فيها .. والاستمتاع بها .. على كل شيء .

وهذا هو ما يجذبكم أيها الناس عن الحقيقة .. ويصرفكم عن سلوك طريق الفلاح .. طريق التزكى ، وذكر اسم الله ، وإدامة الصلاة لله ..

انكم تريدون هذه الدنيا وكفى أماما وراءها فلا شأن لىكم بها ..

ولكن هل هذا التفكير صحيح ؟

كلا .. بل هو خطأ محض .. والىكم الصواب من الأمر ..

« والآخرة خير وأبقى » .. الواجب عليكم أن تعلموا ، وتتيقنوا أن الحياة الآخرة ..

الحياة القادمة تتميز عن هذه الحياة بصفتين .. على العاقل .. أن يتفكر فيهما ...

الآخرة خير ...

الآخرة أبقى ...

اذن هى خير من هذه .

وخير هذه تشمل كل ما يمكن أن يتصور من الخير .. فهى أرقى ، واكمل ، واجمل ، وآمن ، وأسلم ، وأحلى ، وألذ وأروع .. وكل ما يتصور .. أو ما هو فوق تصور البشر .

« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

ثم ماذا ؟

وأبقى !! .

وأدوم .. وأخلد .. أنها لا تقنى .. أبدية .. لا تنهاى .. خالدين فيها أبدا .. بينما هذه تقنى .. بل مريعة القناء .. سرعان ما يموت الانسان الحريص عليها أشد الحرص .. ويضطر إلى نركها رغم انقه !! فأين هذه من تلك ! اين التى هى شر متدافع ، وفناء متتابع .. من تلك التى هى خير دائم ، وخلود لا يزول !

هذا ما كان فى الصحف الأولى .. صحف ابراهيم وموسى .. بل يمكن أن يقال .. وهذا ما تجده فى كل وحى سماوى .. أنزله الله إلى الانسان .. يدور كله .. فى الدعوة إلى الايمان بالله .. والصلاة لله وتزكية النفس وتطهيرها .. لتفوز فى الحياة الآخرة .. وتنبه الإنسان إلى عدم الركون إلى هذه الدنيا .. والاستعداد لحياته القادمة .

ولايتأتى أن تخرج الكتب السماوية كلها .. مهما تباينت فى المناهج ، واختلفت فى أساليب الأداء ، عن تلك النواميس الكبرى ..

ابرهميم وعالم اليوم؟

فرغنا من ابراهيم .. وما فرغنا .. فابراهيم اكبر من أن نحيط به خبرا .. وإنما يمكن أن يقال أنه قد تمت الإشارة إلى ابراهيم .. ومن اراد الزيادة .. فعليه أن يتبع خطاه .. ويتابع ملته .. لعله يظفر من ذلك بشيء جديد من الهدى .. يهديه إلى أنوار جديدة من الرجل العظيم ..

والآن نسأل ؟ ماذا يفيد عالم اليوم من دراسة شخصية ابراهيم ؟ أو : ماذا يستطيع ابراهيم أن يقدم إلى عالم اليوم ؟ أهمل عند ابراهيم شيء ينفع الإنسان الحديث ، الذي يعيش الآن تجربة الحياة فوق هذه الأرض ؟

والجواب .. إن عند ابراهيم ما إن اتبعه انسان اليوم لارتقى .. وارتقى .. وبلغ من التقدمية أبعادا .. لا تخطر على قلب بشر !!!

قد يقول قائل : ما هذا الذي تذهب اليه ، وماذا عند ابراهيم هذا يؤهله لما تقول ؟ ومن كل أجهزة الاعلام في العالم .. من محطات الإذاعة في شتى دول العالم ، ومن محطات التلفزيون في كل مكان .. ومن فوق صفحات الصحف والمجلات في كل مدينة من العالم .. ومن فوق شاشات السينما .. ومن فوق مسارح المدن .. وعن طريق أى وسيلة من وسائل النشر في العالم اليوم .. مسموعة .. أو مرئية .. أو مقروءة .. أو ما وراء ذلك .. من هؤلاء جميعا .. أذيع .. وأنشر .. وأعلن .. إلى العالم كله .. في شتى مستوياته .. في علمائه ، وجهاله .. في قراءه ، وأميئه .. في رؤسائه ، ومرءوسيه .. في أهل الأديان منه ، وفي اللادينيين .. في الرأسماليين ، وفي الشيوعيين .. والمسلمين .. في سكان الغابات الذين على الفطرة يعيشون ، وفي سكان أرقى المدن على شواطئ أمريكا وأوروبا .. أو ما يمكن أن يكون .. في كل مكان .. وفي كل زمان .. وفي الآن .. وفي كل آن .. أعلن .. وأبلغ .. وأذيع .. أخطر .. وأخطر .. وأخطر .. بيان يمكن أن يذاع على العالم كله في هذه الأيام ..

نداء الفطرة ١٩

أيها الإنسان المعاصر .. ارجع إلى فطرتك .. ارجع إلى نفسك حين ولدتك أمك .
ماذا كنت .. ذكرا أو أنثى ؟ سوف تجد أنك ولدت على الفطرة .. سوى الخلقة .
بريء النظرة .. صفحة بيضاء .. لا تعلم شيئا .. هذه هي الفطرة .. أو هذا هو أول
خلقك .. أو هذه هي المرحلة الأولى التي يمر عليها كل إنسان .. ذكرا كان أو أنثى ..
يولد الطفل عجينة .. صالحة للتشكيل في أى اتجاه ..

صوت الفطرة ١٩

والآن .. استمع أيها الإنسان .. إلى أعماقك .. استمع وأنت طفل بريء ..
إلى نداء قوادك .. سوف تسمع نداء خفيا .. يتموج من قلبك في هدوء .. نداء يقول:
لا إله إلا الله .. هذا هو نداء الفطرة .. الكامن في قواد كل مولود .

ومن كان في شك من هذا .. فليسال أى طفل يشاء : من خلق السماوات والأرض ؟
سوف يقول على الفور : الله .

من خلقك أيها الطفل ؟ سوف يقول بلا تفكير أو تردد : الله . هذا هو نداء الفطرة
أيها الإنسان .. ماذا يحدث بعد هذا ؟

تذكر أيها الإنسان المعاصر .. ماذا حدث لك بعد ذلك ؟ تذكر جيدا .. لقد حدث
شيء مخيف .. إن أمك .. أو أباك .. أو من كان يقوم على تربيته .. صب في أذنك
كلأما !! أتذكر ما هو هذا الكلام ؟ خرافات .. وخزعبلات .. يقصها عليك أبواك ..
أومريك .. ان كان من الشعوب المتخلفة .. التي تعبد أوهاما .. أولا تعبد شيئا .

أتذكر أيها الإنسان المعاصر ؟ أتذكر إذ كنت طفلا صغيرا .. وهم يصبون في
أذنك تلك الخزعبلات ، ويسوقون اليك تلك الظلمات ! أتذكر !.. أنت وحظك ..
فإنك لم تكن حرا في اختيار أبويك ، ولم تكن حرا آنذاك في اختيار البيئة التي تربي فيها !
وهذا من أسوأ الأمور التي يرغب عايتها كل مولود .. أو كل إنسان !! يولد على الفطرة ..

يولد وفي شغاف فؤاده أن الله هو وحده الذى خلقه ، وأنه لا إله إلا هو .. ثم يفرض عليه ضلال والديه أو الذين يربونه أو يوجهونه .. وما يزالون به يوجهونه نحو معتقداتهم .. حتى تصبح حقيقة فى عقله الصغير .. ثم يشب عليها !! وهؤلاء حين صارت لهم عقول .. هل فكروا فى صحة هذه العقائد التى سمعوها من قبل أم ظلوا لا يفكرون ! لم يحدث .. انهم ظلوا كما هم .. كما كانوا أطفالا .. لا يعقلون .. عشت تلك الخرافات فى رءوسهم .. فما استطاعوا لها نزعا .. وما استطاعوا لها تطهير !!

أوهؤلاء .. أوهؤلاء .. الذين حجبوا نداء الفطرة من أعماقهم .. ولم يسمعوها صرحت الحق التموج من أفئدتهم .. أن لا إله إلا الله .

هؤلاء جميعا .. ضاعوا .. نهضوا .. التوجيه السيء الذى وجههم آباؤهم .. أو أمهاتهم .. أو مربوهم .. أو معلموهم فى الصغر .. !!

كيف الخلاص ؟

الخلاص أن تعود البشرية كلها إلى ابراهيم .. كيف ! أن ينظر كل إنسان ماذا فعل ابراهيم ، حتى وصل فى النهاية إلى الحقيقة .

وهنا يجلبل فى الآفاق قول الحق تبارك وتعالى : « إني جاعلك للناس إماما » .. إن الله يؤكد هنا تأكيداً عظيماً أنه جعل ابراهيم إماماً للناس جميعاً .. ليتخذوه قدوة .. ليسلكوا مسالك .. حتى يستطيعوا أن يصلوا فى النهاية إلى الحقيقة .. أن يصلوا إلى الطريق المستقيم .

ماذا فعل ابراهيم ! وهنا نلاحظ أخطر ظاهرة .. إن الطفل ابراهيم ولد لأب جاهل ، كافر ، أب يصنع الآلهة ، ويبيعها .. رجل صناعته نحت الأصنام .. أعنى أنه على الغاية من الجهل .. وعلى الغاية من الضلال .. إنه فقط لم يقف عند حد انكار الألوهية .. بل صنع هو إلهاً من هواه .. من حجارة أو خشب .. وذهب يعبده !! هذه هى البيئة التى نشأ فيها الطفل ابراهيم .

فلو مضت الأمور كطبيعتها لصب آزر هذا في أذنى الطفل أقاصيص عقيدته الفاسدة ، وزوقها له .. ولقصت عليه أمه تهاويل الأصنام ، وأوهام أياديها البيضاء على الناس .. ولو استمع ابراهيم إلى تلك القصص .. وكان يمكن أن يستمع لها كغيره من ملايين الأطفال الذين يستمعون إلى تلك الأباطيل .. ويضيعون بسببها طول حياتهم .. لو استمع الطفل ابراهيم إلى مايقول أبواه لشأ وثنيا .. يعبد الأصنام كأبيه .. بل ويتعصب لها .. بل ويخلف أباه آزر في زعامة قومه على أساسها !!

إذن لضاع الطفل ابراهيم .. كمضاعت قرون .. وقرون .. من هذا السبيل !! ولكن ماذا حدث ؟ وكيف نجا ابراهيم بأعجوبة ؟

ابراهيم يفكر :

الذى حدث أن الطفل ابراهيم .. رفضت فطرته هذا العبث .. وأبغضت أشد البغض هذا الانحراف .. واستطاع أن يسمع إلى نداء الفطرة الذى يلح من أعماقه .. لا إله إلا الله .. فخرج يلتمس ربه فى الكون الواسع .. نظر إلى السماوات .. فرأى كوكبا .. فقال : هذا ربى .. إنه عقل طفل يحاول أن يصل إلى الحقيقة .. ولكن الكوكب غاب فى الأفق .. وغاب عن عينيه !!! فلما أفل ، قال : لأحب الآفلين .. ثم فوجئ بالقمر .. بازغا .. فصاح صيحة الطفل البريء : هذا ربى ، هذا أكبر .. إلا أنه لاحظ أن القمر يغيب كذلك فى الأفق .. ثم انتقل إلى ماهو أكبر .. إلى الشمس .. ولكنها هى الأخرى غربت .. وذهبت .. هنالك أدرك الطفل ابراهيم .. أن شيئا من هذا كله لا يصلح أن يكون له الها .. لأنها كلها تغيب .. والألوهية لا تغيب .. هنالك .. صاح الطفل ابراهيم فى قومه : أنى برىء مما تشركون ، أنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . هنالك .. كان الطفل ابراهيم .. يتلاقى مع صوت الفطرة فى أعماقه .. وكان يعلن .. لا إله إلا الله .. وهكذا وصل ابراهيم إلى الحقيقة .. رفضت طفولته البريئة . رفضت فطرته السليمة أن تستمع إلى أباطيل أبويه .. وذهب يبحث عن الحقيقة بنفسه ويتدرج فى الوصول إليها .. حتى اهتدى آخر الأمر إليها .

هذا هو الطفل ابراهيم .. أو هذا هو النموذج الحسن .. والتقدوة الطيبة التي ينبغي أن يعرف كل إنسان ربه على أساس من أسلوبه ، وسلوكه .. ونجا ابراهيم بأعجوبة .. ولولا أنه استعمل عقله .. لضاع كما ضاعت قرون .

حتمية التفكير ١٩

ومن هنا كان حتما على كل إنسان في هذا العالم .. أن ينظر في هذا الذي يوسوس به أبواه في أذنه : هل هو حق أم باطل ! فإن استحال ذلك في مرحلة الطفولة ، تحتم في مرحلة الشباب ، أو الرجولة .. إذ ماذا يكون الحال حين يفاجأ الإنسان أن ما هو عليه من عقائد كان باطلا .. وأنه من أجل ذلك يساق في الآخرة إلى جهنم !

اذن .. يتحتم أن يعيد كل إنسان التفكير فيما هو عليه من عقائد هل هو حق أم باطل ! وما هو الأساس الذي تستند عليه تلك العقائد ، هل هو أساس صحيح ، أم مجرد أوهام وأمانى !

ومن هنا أوجب الله تعالى على كل إنسان أن يعلم علم الإجتهد والبحث لا علم التقليد ، أن لا إله إلا الله .. فقال تعالى : « فاعلم انه لا إله إلا الله » أى اعلم بعقلك ، وبمخلك ، وبمجهودك .. وهكذا .. حفظ ابراهيم فطرته من الضياع .. وتطابق ظاهره .. مع باطنه .. وتلاقيا على نداء لا إله إلا الله .

ولو قد راجع اليهود أنفسهم .. لوجدوا أن كثيرا مما هم عليه باطلا .
ولو قد راجع المسيحيون أنفسهم لوجدوا أن لآلوهية هناك للمسيح وإنما هو عبد الله ورسوله .

ولو قد راجع المسلمون أنفسهم لعلموا أن أوهام الأضرحة .. وخرافات الأفاضل .. محض خرافات .. لا تقدم ولا تؤخر .. ولو قد فكر الشيوعيون حين يصيرون رجالا فيهم عليه ، لرجعوا عما هم عليه .. أن قد عاشوا سنين يعتقدون ان لا إله هناك .. بينما الحقيقة ان الله موجود .. وان اعماقهم تنادى بذلك .. ولكن التوجيه الذي يصب في آذانهم

أطفالا هو الذى حجب ذلك النداء .. فقط .. عليهم أن يستعملوا عقولهم .. وأن يسمعوا إلى نداء فطرتهم إذن هلدوا صراطا سويا .
ثم ماذا ؟ ماذا بعد إدراك أن لا إله إلا الله .. كما أدركها إبراهيم ! يبقى أخطر شيء .

كيف الاتجاه إلى الله ؟

وهنا يقدم إبراهيم إلى كل انسان معاصر في هذا العالم .. أعلى ما يمكن أن يقدمه انسان إلى انسان .. يقدم اليه أسلوبه .. الذى أعلن رب العالمين أنه أحسن أسلوب .. وأنه لا أسلوب يؤدي اليه تعالى إلا هو .

فما هو هذا الأسلوب ! هو هذا .. « فاتبعوا ملة إبراهيم ، حنيفا ، وما كان من المشركين » . ماهى خلاصة هذا الأسلوب إذن ! هى الاتجاه المباشر إلى الله .. هى النظرية الهندسية المشهورة فى العالم : الخط المستقيم أقصر المسافات بين نقطتين !! ومن هنا قال تعالى :
« إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . »

وقال : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا ، فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .. »
« الأنعام ١٥٣ »

على طريق .. على خط .. مستقيم .. لماذا ! لأن هذا هو أقرب طريق .. لأنك تصل إلى الله .. بهذا الأسلوب .. أسرع من أى أسلوب آخر .

كيف هذا !!! . ان هذا لشيء عجاب !! ان إبراهيم يدعوك الى الحنيفية .. الى الاتجاه المباشر الى الله .. يدعوك اذا أردت أن تتجه الى الله ، أو تصلى لله ، أو تدعو الله ، أو تعبد الله ، أو تتصل بالله .. اذا أردت شيئا من هذا كله .. ما عليك الا أن تتجه اليه سبحانه مباشرة .
رأسا .. بلا التواء .. وبلا التفات الى ماسواه ..

وليسمع كل انسان إلى الله الذى خلقه وهو يعلن اليه تلك الحقيقة فيقول : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله . وهو محسن » ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .
[النساء ١٢٥]

هذا ما يقدمه إبراهيم إلى كل انسان معاصر .. يقول له : إذا استمعت إلا نداء فطرتك ..
لا إله إلا الله .. إذا استعملت عقلك فاهتديت عن طريق أن لا إله إلا الله .
فتلاق عقلك مع فطرتك .. إذا تحققت .. وعلمت .. باطنا ، وظاهرا أن لا إله إلا الله ..
كان عليك أن تتجه إليه رأسا .. إذا كنت تريد الاتصال به .. وكان عليك أن لا تلتفت
إلى ما سواه .. ان كنت تريد أن يسمع اليك .
وبذلك يهدي اليك ، أيها الانسان المعاصر ، إبراهيم ، خير ما يمكن أن يهديه انسان
إلا انسان ! ! وماذا من الخير بعد هذا الذي قدمه اليك إبراهيم ؟ استمع إلى نداء فطرتك
وهو يردد : لا إله إلا الله .

واستمع إلى نداء عقلك وهو يبرهن أن لا إله إلا الله .. واتجه إلى ربك مباشرة ، غير
ماتمفت إلى ما سواه .. هل يتصور أسلوب أعلى من هذا الأسلوب ؟ ..

إبراهيم يحرر الانسان المعاصر ؟ !

وهكذا .. حرر إبراهيم الانسان المعاصر من ثالث الاستعباد المدمر .. حرر قلبه ..
حين دعاه إلى الاستماع إلى ندائه الخفي .. لا إله إلا الله .. وحرر عقله حين دعاه إلى حرية
التفكير التي تهديه إلى لا إله إلا الله ..
ثم حرر سلوكه حين دعاه إلى الاتجاه المباشر إلى الله وعدم الالتفات إلى ما سواه ..
ففك من أعنقه تلك الأغلال التي تقيده ، وتشل تقدمه في الحياة .

القلب السليم

أما تحرير القلب .. فإبراهيم يدعوك أن تجعل قلبك كما كان قلبه .. لقد كان قلب إبراهيم
سائما .. سائما من جميع الأمراض القلبية . فلا شرك .. ولا كفر .. ولا ظلم .. ولا حسد ..
ولا غش .. ولا خداع .. ولا كذب .. ولا غل .. ولا طمع .. ولا مكر .. ولا خديعة .. ولا شيء
من هذه النقائص .. قلب سليم .. مائة في المائة .. فاذا بلغ قلبك ذلك المبلغ .. استطعت أن
تسلك سبيل الله وأن تقترب منه .. وأن تنعم بانعامات الواصلين إليه .

قال تعالى : « وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم » .

[الصافات ٨٣-٨٤]

إن إبراهيم استطاع بقلبه السليم ، أن يذهب إلى الله .. أن يكون من الله بمكان لم يستطع أحد أن يصل إليه .. حتى اتخذه الله خليلا !

حرية الفكر ؟

وإبراهيم يدعو الانسان المعاصر أن يحرر فكره من ظلمات التقليد الأعمى ، وأغلال الجلود .. ولقد صاح إبراهيم في قومه جميعا وهو فتى : ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ! وصاح فيهم : انى برىء مما تشركون ؟ وصاح فى ابيه : إني أراك وقومك فى ضلال مبين !! حرية .. إلى أبعد مدى من الحرية الفكرية .. وهذا مايريد إبراهيم من الانسان المعاصر .. أن يستعمل عقله .. أن يفكر فيما هو عليه هل هو باطل أم حق ! ويومئذ يمكن أن يزعم الانسان المعاصر أنه ينعم بالحرية الفكرية .

اسقاط الكهنوتية ؟

وإبراهيم حين يدعو الناس جميعا إلى الحنيفية .. إلى الاتجاه المباشر إلى الله .. إلى اسقاط ماسواه .. وعدم الركون الى شيء سواه .. إنما يحرر الانسان المعاصر التحرير الأعظم .. أن لا يكون الانسان عبدا لإله .. وأن يكون كل شيء دون الانسان .. لأن الله خلق كل شيء للانسان .. مسخرا للانسان .. وخلق الانسان لله .. عبدا لله . فينبغى أن يستقيم الانسان إلى الله على ذلك المفهوم الصحيح .. أن لا شيء فوق الانسان إلا الله .. أن لا إله للانسان إلا الله .. أماما سواه فهو دون الانسان ، مسخر للانسان ، فلا ينبغى لمن كان له عقل ان يتجه اليه ، لأنه لا يملك له شيئا .. بل على العكس الانسان هو الذى يملك تسخير .

فأى مقام يرفع إبراهيم الانسان المعاصر اذن ! انه يجعله سيدا لكل شيء ، ولا يجعل له سيدا الا ربه الذى خلقه . ومن هنا كان إبراهيم ينادى .. وجهت وجهى للذى فطر

السموات والأرض ، حنيفا ، وما أنا من المشركين » حنيفا .. ماثلا عما سواه .. وما أنا من المشركين ! .. ولا يصح أن أشرك بعبادته أحدا .

ان ابراهيم يقدم إلى الانسان المعاصر .. ما يحرره أعظم التحرير .. ان ابراهيم يرتفع بالانسان اعظم ارتفاع ! .. حين يدعو الى الاستماع إلى نداء فطرته .. يحفظها عليه أن تفسخ أو تبدل .. فيضيع .. وحين يدعو .. الى استعمال عقله .. يمنعه بذلك أن يعيش ذليلا .. أسيرا لمعتقدات خاطئة .. وعفونات فكرية ضائعة .. وحين يدعو إلى الاتجاه المباشر إلى الله .. إنما يحرره من رجال الدين .. ومن كهنوتية اللاهوتيين .. ويطلقه حرا .. كما أراد أن يتجه إلى ربه .. اتجه إليه في بساطة .. دون طقوس .. أو طلاس .. أو كهنوت .. كما تتجه العصافير إلى ربها مباشرة .. بلا اجراءات .. أو تعقيدات .

حرية .. يقدمها ابراهيم إلى الانسان المعاصر .. هدية .. مجانا .. لا يسأله عليها أجرا .. ان أجره الا على رب العالمين !!!

قلب ابراهيم؟

أعجب قلب .. بل أعلى قلب .. بل أرفع صورة ممكنة لما ينبغي ان يكون عليه قلب
بشر ! لماذا ؟ .. وكيف ؟ .. وأتني لا إبراهيم هذا كله ؟ .. اليك التفاصيل .

ماذا قال الله في قلبه ؟

قال تعالى : « وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه :
ماذا تعبدون ؟ . أإنفكا ، آلهة ، دون الله تريدون ؟ . فما ظنكم برب العالمين ؟ . فنظر
نظرة في النجوم . » [الصافات ٨٣ — ٨٨]

ماذا نجد هنا ؟ . نجد ثناء من الله على إبراهيم .. وأن هذا الثناء ينصب على شيء هام
في إبراهيم .. على قلبه .. لماذا ؟ لأن القلب هو المسيطر على إبراهيم كله .. فإذا صلح القلب
صلح إبراهيم .. كما ورد : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد
فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب . ثم ماذا ؟ ثم يعلن الله تبارك وتعالى أن إبراهيم قد جاءه
بقاب سليم .. ثم يصور لنا كيف تناهى إبراهيم إلى هذا الوضع .. فيخبرنا أنه نقر نفورا
شديدا عما عليه قومه ، وأبوه .. وأنه أعلن اليهم نفوره هذا بقوله : ماذا تعبدون ؟ ! ما هذا
الجنون الذى أنتم عليه ، وما هذا الذى تعبدون .. وأنه فى نفوره الشديد هذا من ضلال قومه
أعلن اتجاده كله حين قال : إني ذاهب إلى ربي .. سيهدين .. إني متجه .. إني سائر إلى
ربي .. وسوف يهدينى حتما .. مادمت أريده صدقا .

وهنا نلمح أمرين : إبراهيم يقول : إني ذاهب إلى ربي .. والله تعالى يقول : إذ جاء
ربه .. إذن إبراهيم سار إلى الله .. أو سافر إلى الله فعلا ، كما قال .. وأن الله أكد ذلك
بقوله : إذ جاء ربه .. أى قد تم السفر .. وجاءنا فعلا .

ثم ماذا ؟ . ثم إبراهيم يؤكد : سيهدين .. أى يثق ثقة تامة أن الله سوف يهديه ..

وبيلغه ما يريد من معرفته .. والله كذلك يؤكد أنه كان عند ظن ابراهيم ، وأنه هداه فعلا ، حين أراده هو ، ولم يشرك به شيئا .. وذلك بقوله تعالى : بقلب سليم .. أى من أجل أنه جاءنا بقلب سليم .. من أجل أنه سافر إلينا .. بهذا القلب السليم .. هديناه .. إلينا .. وعرفناه طريقنا .

القلب الذى سافر به ابراهيم ؟

« إذ جاء به بقلب سليم » ؟ ما معنى هذا ؟ لقد تأكد أنه سافر فعلا إلى الله .. والآن نريد أن نعرف كيف كان قلبه وهو يطير إلى الله ؟ هل كان مجرد قلب كهذه القلوب الفارغة المظلمة ؟ كلا .. إن الله يشهد .. « بقلب سليم » ..

واللغز الآن هو فى هذه الكلمة « سليم » .. ماهى هذه السلامة التى رفعت ابراهيم ذلك الارتفاع العظيم ؟ سليم ؟! هل هو سليم من الأمراض ! نعم .. فهو سليم من الآفات كلها ، التى تعرض للنفس فتحطها إلى مهاوى الضياع ! فيمكن أن يقال أنه سليم من أمراض القلب .. سليم من الكفر .. لأنه متأكد من وجود الله .. سليم من الشرك .. لأنه يوقن الشأن لشيء مع الله .. سليم من النفاق .. لأن باطنه إيمان بالله .. وظاهره إيمان بالله .. سليم من الحسد .. لأن مثل ابراهيم يعلم أن الله أقام العباد فيما أراد .. فلا معنى عنده أن يحسد أحد أحدا .. لأن ما هم فيه هو إرادة الله .. سليم من الغل .. لأن ابراهيم لا يغفل على أحد ، لأنه ارتفع عن الدنيا وما فيها .. سبى فى مستوى يجعله بعيدا عن هذه الأحاسيس الهابطة .. سليم من الحزن .. ولم يحزن وكل شيء بقدر ! سليم من الفخر .. ولم يفخر وهو ابن آدم ، وآدم من تراب ! سليم من العجز .. ولم يعجز وعنده قوة الله التى لا تقناهى ! .. سليم من الكذب ولم يكذب ، وهو لا يحرص على شيء من الدنيا ! سليم من الخداع .. ولم الخداع وهذه هى الحياة واضحة أمامه .. وأنها شيء لا يستحق الخداعة ! .. سليم من الغش .. ولماذا الغش .. وما الدافع إليه .. و ابراهيم لا يريد أن يجمع الدنيا ! .

وبالجملة .. سليم من الأمراض النفسية كلها .. ليس بقلبه مرض .. ليس به ظلمة ..

فهو نور صافٍ .. يستطيع أن يتفاعل مع الأنوار الالهية .. ويتلقى عنها .. بهذا القلب ذهب ابراهيم الى ربه ..

وهذا القلب هو الذى أعلن الله عنه « اذ جاء ربه بقلب سليم » .. وهذا النوع من القلوب هو وحده الصالح للتلقى عن الله .. وهو وحده الذى يكون محل أنوار الله .. وهو وحده الذى يرتفع بصاحبه الى المقامات العلى .. حيث يتلقى منه سبحانه مباشرة ..

كيف ذهب ابراهيم الى ربه ؟

وسافر ابراهيم الى ربه .. فكيف كانت أحواله ، وهو يقطع المسافة بينه وبين الله ! كان .. حنيفا .. مامعنى هذا ؟ أى اتجه الى ربه مباشرة .. هنالك طوى له الزمان ، وطوى له المكان .. فمامعنى هذا ؟ معناه عميق جدا جدا .. وبسيط جدا جدا .. أن ابراهيم عندما ذهب الى ربه مباشرة .. وجد ربه مباشرة .. فوراً .. فلم يكن هناك زمان .. يقضيه فى السفر اليه .. ولم يكن هناك مكان يقطعه فى الذهاب اليه !! هذا شىء غير مفهوم ! كيف يقطع ابراهيم المسافة بينه وبين الله .. وهى بلايين البلايين من الأميال .. بدون أن يحتاج الى زمن !! ثم كيف يقطع ابراهيم تلك المساحات كلها .. من الأماكن .. دون أن يحتاج الى مكان ؟ أيتصور هذا ! نعم .. نعم .. واليك المسألة فى بساطة .. جهاز التليفزيون .. اذا كان سليماً من العيوب .. اذا أدركت مفتاحه .. وجدت الصورة المذاعة أمامك فوراً .. أوجهاز الراديو الترانزستور .. أدركت مفتاحه تجد الصوت فوراً .. كذلك ابراهيم أدار مفتاحه .. وجه قلبه الى الله مباشرة .. فوجد الله فوراً .. أى ليس الأمر كما يتصور الجاهلون أن معنى « اذهب الى ربي » .. أن ابراهيم سافر سفراً طويلاً ، وقضى أزماناً طويلة ، حتى وصل الى ربه .. أو أنه مر على مساحات ، ومسافات ، وسماوات ، وما فوق السماوات .. حتى وصل فى النهاية الى ربه .. كلا .. وإنما ابراهيم .. كان حنيفاً .. أى اتجه الى الله .. أى أنه وجه قلبه الى الله ..

فماذا حدث ، حدث أن قلبه التقط فوراً الاذاعات الالهية (ان صح ذلك التعبير للتقريب) فانتقشت الصور فيه فوراً .. واذاع الكلام الالهى مباشرة ..

لماذا ؟ لأن الله تعالى له صفات .. صفات تصدر موجاتها (ان صح ذلك التعبير للتقريب) ليلا ونهارا .. بلا توقف فمن صفاته الرحمة .. وهي تصدر آثارها بلا توقف .. ومن صفاته النور .. وهي تصدر آثارها بلا توقف .. ومن صفاته الغنى .. وهي تصدر آثارها بلا توقف .. وهكذا .. صفات فعالة ، تصدر آثارها دائما أبدا .. هذا من جهة الله تبارك وتعالى .. أما من جهة الخلق .. من جهة الناس .. فان الله جعل قلوبهم هي الأجهزة التي يستطيعون بها التقاط تلك الموجات .. (ان صح ذلك التعبير للتقريب) .. واشترط أن تكون تلك الأجهزة سليمة .. خالية من العيوب .. لتستطيع أن تلتقط .. وتنقل .. ثم تذيب ما التقطت من إذاعات .. فاذا كان الجهاز سليما .. أصبح صالحا للتقاط .. ولكن بشرط ادارة المفتاح .. ليعمل الجهاز .. وهذا هو ما يقرب الينا معنى « إني ذاهب إلى ربي » .. أى إني متجه اليه .. إني سأدير المفتاح .. ليتلقى الاذاعات العليا .. والارسالات الكبرى .. هنالك يتم التلقى ، ويتم الارسال ، وتم الاذاعة .. فورا .. وعلى قدر سلامة الجهاز تكون قوة الارسال .. وعلى قدر فساد الجهاز يكون ضعف الارسال .. واذا اشتد فساد الجهاز ، توقف عن العمل نهائيا ..

وهذا ما يحدث بالنسبة للقلوب الميتة .. أى الفاسدة .. فانها تتوقف تماما عن العمل .. ولا تتلقى شيئا مطلقا ..

• معنى هذا ؟ أريد أن أقول فى صورته أبسط وأبسط قال تعالى : « ورحمتى وسعت كل شيء » .. إذا رحمة الله .. وهذه صفة من صفاته تسع كل شيء .. مهما كان هذا الشيء .. فلماذا إذا تظهر آثار هذه الرحمة على بعض عباده دون البعض ؟ .. لماذا تباغ فى بعضهم مستوى عاليا جدا ، حتى يكونوا هم أنفسهم رحمة مطلقة .. « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .. ولماذا تختفى من بعضهم حتى يكونوا اعنة مطاقاة « وإن عليك اعنتى إلى يوم الدين ؟ »

الأمر سهل .. أن بعضهم له قلوب صالحة للتلقى والانفعال والاذاعة .. قلوب سليمة .. وأن الآخرين لهم قلوب مظلمة ، فاسدة ، ميتة .. لا تصلح للتلقى والانفعال والاذاعة ..

أما رحمة الله فهي منشورة دائماً .. فمن كان مستعداً لها تلقاها .. ومن كان غير مستعد لم يستفد منها .. كالشمس تشرق دائماً فمن تعرض لها أصابه من اشعاعها .. ومن سار في الظلام لم يصبه شيء من شعاعها .. أما هي فمشرقة دائماً .. وترسل اشعاعها دائماً .. كذلك الله .. أوشمس الذات .. مشرقة .. دائماً .. وأبداً .. فمن كان قلبه ساياً .. تلقى من رحمتها .. وفضلها .. وانفعل وأرسل .. واذاع .. ومن كان قلبه ميتاً .. لم يستفد شيئاً .. قليلاً أو كثيراً .

كذلك إبراهيم .. كان جهازه على الغاية من السلامة والاستعداد .. كان قلبه سليماً .. في ذروة السلامة والطهارة فلما أدار المفتاح .. فلما وجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض .. فلما اتجه بقلبه إلى الله .. فلما ذهب إلى الله .. فلما اتجه إليه مباشرة .. فلما ذهب إليه حنيفاً .. وجد الله مباشرة .. كما تتلقى أجهزة التليفزيون والاذاعة .. إذاعات المحطات مباشرة .. مادامت سليمة .. لا عطب فيها .. وانفعل إبراهيم .. واذاع .. وتلقى ما تلقى .. فكان كما أكد « سيهدين » .. وكما قال ربه « اجتبه » .. وهداه .. إلى صراط مستقيم » .

كيف يطوى الزمان والمكان ؟

من هنا .. من الاتجاه على ملة إبراهيم .. من الحنيفية .. التي هي الاتجاه المباشر .. وهذا ما حدث .. فان إبراهيم كان سليم القلب .. بل في قمة ذلك المقام .. ثم اتجه إلى ربه مباشرة .. فوجد ربه على الفور .. فلم يكن هناك زمان يقضية .. ولم يكن هناك مكان يقطعه .. وبذلك طوى الزمان والمكان لإبراهيم .. أي ألغى الزمان والمكان .. حين ذهب إلى ربه .. حنيفاً .. مباشراً .. فهل استبان الآن كيف طوى الزمان والمكان لإبراهيم ؟

كيف يطوى لك أنت الزمان والمكان ؟

إذا نقذت ما أمرك الله به .. حين أمرك باتباع إبراهيم « فاتبع ملة إبراهيم حنيفاً .. » إذا اتبعت إبراهيم في طريقته .. إذا اتجهت إلى الله حنيفاً .. أي مباشرة ولكن بشرط

واحد .. هو أن يكون جهازك سليماً .. أن تكون سليم القلب كما كان إبراهيم سليم القلب ..
فاذا تحقق لك هذان الشرطان .. طوى لك الزمان .. وامسك .. يا انسان .. أى انسان !!
هل هذا صحيح ؟ نعم .. نعم .. ولا تعجب ! هل يعقل أن يطوى لأى انسان الزمان
والمكان .. وأن يظفر بتلك المسكنة الرفيعة فى مثل هذه السهولة والبساطة ؟ نعم .. نعم ..
فقط عليك أن تحقق الشرطين .. قلب سليم .. حنيفاً .. جهاز سليم .. وفتح الجهاز على محطة
« الله » .. هنالك تجد الله .. فوراً .. وهذا هو طى الزمان والمكان لكل انسان ..

هل من دليل ؟ أدلة .. لا دليل .. ألم يقل تعالى « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب
أجيب دعوة الداع إذا دعان .. » ؟ وهل القرب هنا الا هذا ؟ أنه تعالى قريب من كل
إنسان بشرط أن يكون قلب هذا الانسان مستعداً .. سائماً .. وقريب من كل انسان ..
بشرط أن يتجه اليه مباشرة .. حنيفاً .. هل هناك من دليل أقوى من هذا كله ؟ ها هو
دليل .. يدحض كل شبهة .. ويزيل كل شك .. من كل رأس .. دليل عام .. هام ..
للجميع .

قال تعالى : « واقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من
من حبل الوريد » تصور .. الله خلق الانسان .. أى انسان .. الله .. يعلن كل ما يدور
فى نفسك .. الله .. أقرب إلى أى انسان من حبل الوريد .. من هذا الشريان الكبير الذى
يخرج من القلب ليوزع الدماء على الجسم كله .. وفى هذا التعبير اشارة عجيبة .. إلى شدة قرب
الله إلى الانسان .. أى أن الله أقرب إلى قلب الإنسان ، من هذا العرق النابع من نفس هذا
القلب .. فلو كان يتصور قرباً من القلب أقرب من شئ ينبع منه .. لصورة الانسان ..
ولكن لا يوجد هذا الشئ .. ولكى يشعر الانسان بهذا القرب عليه أن يجعل قلبه صالحاً
للتلقى .. ان يجعله سليماً .. وأن يتجه إلى الله مباشرة .. ويسقط كل ما فى الوجود من
اتجاهه .. وهذا هو طى الزمان والمكان لكل انسان .. والناس فى ذلك مقامات ..
فالأنبياء فى الذروة .. ومن ورائهم السالكون الى الله على تفاوت بينهم ..

لماذا كان ابراهيم أشد الناس بلاء ؟

من هنا .. من اتجاهه المباشر إلى الله . بقلبه السليم .. من اسقاطه ماسوى الله اسقاطا
كلياً .. من ارادته لله وحده .. لا شريك له .. من هنا كان بلاؤه أشد بلاء .
روى الترمذى : « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أى الناس أشد بلاء ؟
» قال : الأنبياء .

« ثم الأمثل ، فالأمثل »

اذن الأنبياء أشد الناس بلاء .. أشدهم اختباراً .. كلما كان النبي أفضل من أخيه النبي
كلما كان أشد منه بلاء ، . وإذا علم أن ابراهيم كان أفضل الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه
وسلم .. أدركنا أنه كان أشدهم بلاء .. ونظرة واحدة إلى ابتلائه بذبح وحيدته اسماعيل ..
تعطينا فكرة أنه بلغ الذروة في الابتلاء بين جميع الأنبياء .. عدا خاتمهم صلى الله عليه وسلم .
ولقد سجل الله تعالى في ذلك قوله « إن هذا هو البلاء المبين » .. أى لا يتصور بلاء
ظاهري أشد من ذلك البلاء ولقد ابتلى به ابراهيم .. فنجح فيه خير نجاح !!!

إلا ان البلاء الظاهري ليس هو اساس التفاضل بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم
اجمعين .. انما البلاء الباطني اشد واشد .. فقد يسارع الانسان إلى الاستشهاد وبذل نفسه ..
فيقتل في سبيل الله .. إلا انه لا يكون خالصاً باطنياً خلوصاً تاماً لربه .. فلا يكون مقامه في درجة
من جمع بين الشهادة وشدة الاخلاص .. ولقد كان ابراهيم في الذروة من البلاء الظاهري ،
والبلاء الباطني .. ابتلاه ربه ظاهراً بلاء شديداً .. فبذل نفسه في النار .. وبذل ابنه في
الذبح .. إلى غير ذلك .. وابتلاه باطنياً بما هو اشق واشد حين فرض عليه الغربة .. عن ابيه ..
وطنه .. وقومه .. طيلة حياته .. وحين فرض عليه ان يأخذ وحيدته وامه .. ويتركهما
وحدهما في البرية .. وحين فرض عليه الغربة الفكرية التي كان يعانها لسبقه اعصره سبقاً
شديداً .. وحين فرض عليه .. وهذا هو اشد بلاء .. ان لا يركن .. ولا يلتفت .. ولا ينظر
إلى شيء سواه .. وقد يظن الجاهلون ان مسألة انخلاع الانسان من علاقاته بالاشياء .. والتجرد
للوحده ، شيء سهل .. ولكننه اشق شيء يبتلى به الانسان .. ولقد عانى ابراهيم تلك التجربة ..

ونجح فيها .. حتى بلغ مقام الحنيفية وهو المقام الذى يتجرد فيه لله تجرداتاما .. ويتجه اليه مباشرة .. ولا يلتفت إلى سوى أى الثقات .. وهذا شيء شاق جدا جدا .. لأن الانسان انسان قبل كل شيء .. فكون انسان ما ينخلع من نفسه انخلا عاتاما .. ليسلمها إلى الله اسلاما مطلقا .. إن حدوث ذلك من انسان .. شيء لا يستطيع الا لإبراهيم .. ولئن كان العلماء الطبيعيون ، والمخترعون ، يعانون آلام الغربة ، لسبقهم عصورهم . أو لتوصلهم إلى نظريات جديدة مجهولة لأهل زمانهم .. فكيف بالأنبياء .. وهم يحلقون في مقاماتهم العلى .. والناس ملتصقون في أسفل سافلين ؟ ثم كيف بإبراهيم .. ذروة هؤلاء الأنبياء .. وهو يحلق في مقامه .. مقام الخلعة .. والناس في حضيتهم غافلون ؟ ! إنه يعانى آلاما ، وآلاما ، وآلاما .. وذلك هو البلاء الحق .. أشد البلاء .. البلاء الباطن .. وهو لا يظهر للناس .. وإنما يكون بين المبتلى به وربّه .. كلما اشتد به كربّه .. كلما اشتد هو التجاء إلى الله . وكلما ثقل عليه حملة ، كلما ازداد تسليما لله .. وهكذا .. وهكذا .. حتى يتم تسليمه لربه .. « إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين » ومن هنا كان قلب إبراهيم موزعا لهذا البلاء كله .. فأى قلب كان ذلك القلب ؟

أحاسيس إبراهيم ؟

لقد كان قلب إبراهيم فوارا .. دوارا .. تفور فيه أحاسيس الجمال .. وتدور فيه تجليات الجلال .. هذه تدفع ، وهذه تدفع .. وإبراهيم هو موضع التجربة الكبرى لقد وصف الله إبراهيم بأنه كان .. أواها ! حلينا ! منيبا ! أمة ! قائتا ! حنيفا ! شاكرا ! لأنعمه ! اجتباها ! وهداه ! مسلما وجهه لله ! ينخر ساجدا وباكيا ! وغير ذلك .. فما معنى ذلك !

معناه أن هذه كلها أحاسيس صادقة تتبع من قلب إبراهيم .. أحاسيس مستمرة .. لا تهدأ .. ولا تذهب .. فكيف كان قلب إبراهيم موضع تلك الموجات المتدافعة المتلاطمة ؟ كان قلبا حيا .. على أعلى ما يمكن أن تكون الحياة !! فكما كان الإنسان أقرب إلى ربه كلما كان قلبه أشد حياة بما سواه .. قلب جياش بالأحاسيس العليا .. والإنطلاقات الرفيعة .

فهو يتأوه .. ويحلم .. وينيب .. ويؤم .. ويقنت .. ويتجه حنيفا .. ويشكر لأنعمه .. ويهتدى ..
ويسلم وجهه لله .. ويخر ساجدا وبا كيا .. وغير ذلك .. كل ذلك يتدافع .. ويتلاطم فيه
دائما وأبدا .. فلم يحدث مثلاً أنه لم يكن أمة .. لم يكن قدوة في وقت من الأوقات .. بل هو
دائما يتصرف تصرف الإمام في كل ما يصدر عنه .. ولم يحدث أنه لم يكن قائما .. مطيعا ..
لربه .. في وقت من الأوقات .. بل في طاعة .. ودائما في استقامة .. ولم يحدث أنه لم يكن حنيفا
في وقت من الأوقات .. أى تلوى .. أو ركن إلى شيء من الأشياء .. بل هو دائما حنيفا ..
متجها إليه .. غير راكن إلى شيء سواه .. ولم يحدث أنه لم يكن شاكرا لأنعم الله في وقت
من الأوقات .. ولكنه دائما شاكرا لأنعمه .. دائما شاعرا بعظيم فضل الله عليه .. وهكذا
قلب جمع بين الأحاسيس العليا .. تدافعت .. وتداخلت .. وانصهرت .. وكان منها في
النهاية .. ابراهيم !!

الأملة واحدة ؟

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كَيَّاُ تَيْنَ عَلَى أُمَّتِي مَا تَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ،
حَذُّوْا النِّعْلَ بِالنِّعْلِ . »

« حتى إن كان منهم من أتى أمه علانيةً لكان في امتي من يصنع ذلك . »

« وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتيْنِ وسبعينَ مِلةً ، »

« وتفرقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ مِلةً . »

« كُلُّهُمْ فِي النَّارِ ، إِلَّا مِلةً واحدةً . »

« قالوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ »

« قالَ : ما أنا عليهِ وأصحابي . »

[الترمذى]

* * *

مامعنى هذا ؟ وما علاقته بقلب ابراهيم ؟ معناه كبير .. خطير .. جدا .. معناه أن
هناك ملة واحدة على الحق .. أسلوب واحد على الحق .. وأن هذه الملة .. أو هذا الأسلوب

هو ماءايه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأصحابه .. فإذا علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باتباع ملة ابراهيم في أكثر من موضع من كتاب الله .. انتهينا إلى أمر غاية في الخطورة .. أن ملة ابراهيم .. هي الملة الحق .. المؤدية إلى الجنة .. إلى الله .. وإذا علم أن ملة ابراهيم .. هي الحنيفية .. هي التوجه المباشر إلى الله .. بقلب سليم .. انتهينا إلى نتيجة أخطر وأخطر .. أن أسلوب ابراهيم في السلوك إلى الله هو وحده الحق .. وإذا علمنا أن القلب السليم هو الجهاز الوحيد الصالح للسلوك إلى الله .. وأن قلب ابراهيم هو القلب السليم أدركنا في النهاية أن قلب ابراهيم هو النموذج الصالح لما ينبغي أن يكون عليه كل قلب يريد أن يعرف الله .. أو يتقرب إلى الله .. أو يتجه إلى الله .. فهل من دليل ؟

الا من أتى الله بقلب سليم ؟

هذا هو الدليل .. قوله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » .
[الشعراء ٨٨ — ٨٩]

إذن كل شيء يبطل .. ويسقط يوم القيامة .. ولا ينفع إلا شيئاً واحداً .. إلا من أتى الله بقلب سليم .. إلا من جاء ربه بقلب سليم .. إلا من جاء ربه .. إلا من مات وقلبه سليم .. من أتى الله بقلب سليم .. أى من لقي الله بقلب كقلب ابراهيم .. مع حفظ النسبة بين خليل الله .. وسائر عباد الله .. من كان هكذا .. فهو وحده الذى سوف ينتفع بحاله .. أما ما سواه .. فقد خابوا وخسروا .. أى من لقي الله على ملة ابراهيم .. أى على ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .. فهو وحده الناجى يوم القيامة .. كما حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلهم في النار ، إلا ملة واحدة » !! وهذا هو وجه الخطورة من هذا الأمر ..

سنة محمد .. هي ملة ابراهيم ؟

هى .. كما كان يدعو ابراهيم إلى القلب السليم .. كان يدعو كذلك إلى القلب السليم .. وها هو توجيه واحد .. من توجيهاته الشريفة .. يبرهن لنا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يوجه أصحابه إلى نفس التوجيه .

قال أنس بن مالك : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بُنَيَّ ، إنَّ قَدَرْتَ
أنَّ تُصْبِحَ وتَمْسِيَ ، لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غَشٌّ لِأَحَدٍ ، فافْعَلْ .
» ثم قال لي : يا بُنَيَّ ، وذلك من سُنَّتِي .
» ومن أحيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي .

[الترمذی] « ومن أَحَبَّنِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ .. »

هل رأيت ؟ ان محمدا صلى الله عليه وسلم .. يوجه أصحابه نفس التوجيه .. يوجههم
نحو سلامة القلب .. ويبين لهم أن ذلك من سنته .. نفس الاتجاه .. كما أمره ربه « واتبع
ملة ابراهيم » .. وهكذا يتلاقى محمد و ابراهيم !!

أبي .. و خليلي .. و خليل ربي ؟!

ولقد سجلها محمد صلى الله عليه وسلم تسجيلا عظيما ..
» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ .
» وَإِنَّ وَلِيَّيَّ أَبِي ، وَخَلِيلِي ، وَخَلِيلُ رَبِّي .
» ثُمَّ قَرَأَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ » . [الترمذی]

المعنى هاهنا أن أقرب الناس إلى ابراهيم بالحبة والنصرة والمواقفة في التوحيد ، والمعاضدة
على الدين الذين تبعوه وهم المؤمنون أمة محمد وهذا النبي محمد .

قالوا : هذه الأمة هم الذين اتبعوه . وقيل . المراد بقوله للذين اتبعوه يعنى من الأنبياء .
وهذا النبي مخصوص مصطفى منهم يريد محمدا والذين آمنوا يريد الأمة .. إن محمدا صلى الله عليه
عليه وسلم يعلن .. ان وليّ أبي ، و خليلي ، و خليل ربي .. لماذا ؟ لأن الملة واحدة ، لأن السنة
واحدة ، لأن الأسلوب واحد ، لأن الطريقة واحدة .. ابراهيم داعية قلب سليم .. ومحمد
داعية قلب سليم .. ابراهيم داعية حنيفية .. ومحمد داعية حنيفية .. ولذلك يعلن محمد أن وليه
أبوه .. و خليله ، .. و خليل ربه .. لماذا ؟ لأن ابراهيم هو الفرد الذى يأتي في الترتيب مباشرة

بعد محمد .. محمد الأول .. وإبراهيم الثانى .. فأبراهيم أعلم الناس بربه .. بعد محمد .. فهناك تقارب .. وتماثل .. وإذا كانت الصداقة لا تقوم إلا بين ندين متقاربين .. فانه لا يوجد تقارب حقيقى إلا ما كان بين الأول والثانى .. أو بين الخليل والحبيب .. فيمكن والحالة هذه أن يتخذة وليا .. ويمكن أن يتخذة خليلا .. وهذا مالم يستطع أن يصل اليه أبو بكر رضى الله عنه .. رغم أنه قمة الصحابة .. وهناك بون بعيد بين إبراهيم وأبى بكر .. إذن قلب إبراهيم .. أقرب القلوب إلى قلب محمد صلى الله عليه وسلم .. أو أشبه القلوب بقلب محمد صلى الله عليه وسلم .. وقد كان هذا واضحاً جداً .. حتى فى الشكل .. فقد ثبت أن إبراهيم يشبه محمداً صلى الله عليه وسلم فى الصورة .. وهاهو يشبهه فى القلب .. وهاهو يتطابق معه فى الملة أو الأسلوب .. فهما رجلان .. يتطابقان .. صورة .. وقلبا .. وملة .. وهذا أعجب أنواع التطابق بين الشخصيات ..

ولعل هذا هو سر ابتداء شجرة النبوة بإبراهيم .. وانتهائها بمحمد .. فى البداية إبراهيم .. بذرة التوحيد .. وفى النهاية محمد تمام هذه البذرة واكتمالها .

من هنا .. نذهب ؟

والآن كيف نذهب إلى الله .. كما ذهب إبراهيم ! أو ماذا نفيد من قلب إبراهيم ! الأمر سهل جداً .. علينا أن نأتى إلى الله بقلب سليم .. وأن نتجه اليه حنفاء .. وهذه هى خلاصة التجربة كلها .. ان إبراهيم سافر إلى الله بقلبه ، واتجه اليه حنيفاً .. فينبغى على كل من أراد أن يتقرب إلى الله ان يسلك نفس الطريق ، ويركب نفس المركب .

والآن ندخل إلى تفصيل الرحلة .. لابد من مركب .. ولابد من طريق .. أما المركب فهو القلب .. وأما الطريق فهو الحنيقية .. أو الخط المستقيم .. أو الاتجاه المباشر .. فمن استوفى هذين الشرطين فقد اقترب من الله .. ومن لم يستوفهما .. هيهات أن يقترب منه تعالى .. أما الطريقة العملية لتحقيق هذين الشرطين .. فهوذاها .. يتحقق القلب السليم ..

بتطبيق « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » أى اتركوا المعاصى .. مظهر منها وما بطن .. المعاصى إذا نوعان .. ونحن مأمورون بترك النوعين ..

معاصى ظاهرة .. وهى معاصى البدن، أو الجوارح .. كالقتل، والسرقه، والزنا، والغيبه، والنميمة .. إلى آخر هذه السلسلة الطويلة، من الانحرافات المشهورة .. ومعاصى باطنة .. أى لا تظهر للناس .. وهى معاصى القلب .. وهى أخطر .. وأخطر من المعاصى الظاهرة .. بل هى فى الواقع الدافع الحقيقى للمعاصى الظاهرة .. فالرجل الذى يسرق — مثلاً — لم يدفعه إلى السرقه الا احساس باطن معين بقلبه زين له الجريمة فاندفع ينفذها .. وعلى ذلك يمكن أن يقال أن الانسان إذا ترك باطن الاثم، ترك بالتبعيه ظاهر الاثم .. ولذلك كان تركيز الاديان كلها على القلب .. ومحاولات تطهيره ..

والمعاصى الباطنة .. لا حصر لها .. وهى تتنوع، وتشعب، وتفاوت .. حسب مقامات الأشخاص، وتفاوتهم علواً، أو نزولاً ..

فالكفر .. معصية باطنة .. والشرك .. معصية باطنة .. والظلم .. معصية باطنة .. والنفاق .. معصية باطنة .. والحقد .. معصية باطنة .. والحسد .. معصية باطنة .. والضغينه .. معصية باطنة .. والكبر .. معصية باطنة .. وحب الدنيا .. معصية باطنة .. وحب الشهوات .. معصية باطنة .. والتعالى .. معصية باطنة .. و .. و .. إلى آخر هذه الأمراض التى لا حصر لها .. والتى تتنوع وتفاوت من شخص لآخر ..

هناك إذا نوعان من الاثم .. ظاهر وباطن .. معاصى ظاهرة وباطنة .. والانسان لا يعتبر سليم القلب إلا إذا ترك المعاصى بنوعيه .. أو الشخصيه لا تعتبر سليمة إلا إذا تركت المعاصى بنوعيه .. فإذا تم هذا التكامل .. أى تم للانسان ترك المعاصى الظاهرة والباطنة .. فهو قلب سليم .. فهو انسان يصلح لأن يبدأ السفر إلى الله .. يصلح لأن يبدأ الرحلة يصلح لأن يذهب إلى الله .. لأن يبدأ الترقى .. والصعود .. إلى الله .. إذا لا بد من مركب هذا المركب هو القلب فان كان المركب غير صالح .. أى كان القلب مريضاً .. تحتم

البدء باصلاحه أولا وذلك بترك المعاصي ظاهرها وباطنها .. فاذا تم ذلك ، كان معناه أن المركب أصبح الآن مستعدا للسفر .. صالحا للطيران .. ومن هنا .. نذهب .. وبدون ذلك يستحيل الذهاب .. هؤلاء الذين يستمرون على معصية الله ظاهرا ، أوباطنا .. ثم يزعمون أنهم يسرون إلى الله .. وفي طريقهم إلى الله ..

هؤلاء قوم حالمون .. يتمنون على الله الأمانى .. والأمانى لا وزن لها .. فكما لا يستطيع الطيار أن يصعد إلى الفضاء بدون طائرة صالحة للطيران .. وكما يتحتم على المطار أن يقوم بفحص الطائرة قبل أى رحلة تقوم بها إلى السماء .. وأن يسارع إلى اصلاح أى خلل يظهر بها عند الفحص حتى يمكن للطيار بعد ذلك أن يصعد بها إلى طبقات السماء .. كذلك الرحلة إلى الله .. أو السفر إلى الله .. يتحتم على الانسان ليستطيع الصعود إلى الله أن يصلح مركبه .. يصلح قلبه .. يصلح كل مرض يحده به .. وذلك بترك المعاصي باطنها وظاهرها .. فاذا تم له ذلك .. أصبح القلب مستعدا للطيران .. وهذه هى المرحلة الأولى .. من لوازم الرحلة .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية .. وهى أخطر وأخطر ..

خط سير الطائرة ؟

والآن يركب الطيار طائرته ، بعد أن تم فحصها واصلاحها .. وينطلق إلى الفضاء .. وهنا .. نسأل : إلى أين الاتجاه ؟ وأى الطرق يسلك هذا الطيار ؟ هل يطير حسبما اتفق في السماء ؟ أم يكون له خط سير معين يلتزمه ، ليصل إلى هدفه ؟ ثم يختار أقصر الطرق ليصل إلى ذلك الهدف .. وفي عالم القلوب . الهدف هو الله . أو الوجهة .. أو الغاية هو الله .. وذلك واضح في «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » بقى هنا أن نحدد أقصر الطرق للوصول إلى الهدف .. وهنا نجد طريقة ابراهيم .. هى أقصر الطرق إلى الله وذلك واضح في قوله « واتبع ملة ابراهيم حنيفا » أى واتبع طريق ابراهيم .. وكان سائلا : وما هو طريق ابراهيم هذا ؟ فكانت الاجابة : حنيفا ۱۱ أى اتجه خطا مستقيما .. اتجه اليه مباشرة ..

وهو نفس الناموس . « إن ربي على صراطٍ مستقيم » هذا هو الهدف .. هذا هو الطريق الذى يتحتم على القلب أن يسلكه وهو يطير إلى الله .. وبذلك يكون قد تحقق الشرطان الحتميان .. شرط القلب السليم .. الطائفة السليمة .. وشرط .. الطريق المستقيم المباشر .

ثم ماذا . ثم يستطيع الانسان الآن ان ينطلق إلى الله . . يستطيع الآن ان يرقى في المقامات .. صعودا اليه سبحانه .. وكما طوى مقاما .. دخل إلى غيره وهكذا . . حسب استعداده .. وقوة انطلاقه إلى ربه .. وكما طوى مقاما .. كان اقرب إلى ربه بقدر ما قطع .. حتى يصل إلى آخر مدى يمكن ان يحققه في رحلته الى الله ..

هبوط الطائفة اثناء الرحلة ؟

ولكن هل هذه الرحلة .. بعد ان يستكمل الانسان شرطها .. وهو القلب السليم .. وسلوك الطريق المستقيم .. تصبح سهلة .. لاعتبات فيها تعوق الطيران ؟ كلا فما أن يرتفع الطيار بطائرته .. إلى طبقات الجو .. حتى يتعرض لعوامل جوية مفاجئة ، من عواصف ، ورعود ، وتيارات .. وغير ذلك قد تضطره إلى الهبوط المفاجئ .. ثم يعاود الطيران .. أو إلى تغيير اتجاهه ليتفادى السقوط .. أو قد تشتد هذه المؤثرات المفاجئة حتى تتحطم الطائفة ان لم تكن شديدة البنيان .. وتهوى محترقة !! ما هذا ؟ هذا ما يحدث تماما للذين يسافرون إلى الله .. ما ان يرتفعون قليلا عن الأرض .. ويطوون مسافات إلى أعلى .. حتى تقابلهم فتن لا حصر لها .. وتهب عليهم اعاصير جهنمية عاتية .. وعلى قدر مهارة الطيار ، وسلامة الطائفة ، وقوة بنيانها تكون قوة المقاومة .. حتى إذا اجتاز الطيار تلك المراحل .. مراحل الفتن .. دخل بطائرته إلى منطقة الأمن .. وما زال يطير في تلك المنطقة مرتفعا .. إلى أعلى .. مقتربا من ربه .. حتى يدخل منطقة التسليم .. وما زال يطير .. ويطير .. ليجتاز تلك المنطقة .. حتى يدخل منطقة السلام .. ومتى دخلها .. أصبح في سلام تام .. لا يتعرض لما كان يتعرض له من هزات وهو بالمنطقة الأولى .. ومتى دخل هذه المنطقة .. أصبح أهلا لما هو أعلى .. أصبح يستحق الارتفاع إلى مقام الخلة .. ان يتخذ الله خليلا .. ومتى وصل

هذه .. اصبح اهلا لأن يرتفع إلى مقام الحبيب .. وذلك آخر المقامات .. وهو مقام محمد صلى الله عليه وسلم .

من أين لنا هذا كله ؟ من النصوص الكريمة .. اما المنطقة الأولى .. منطقة الفتن .. فمعلوم أن الشيطان مسلط على الإنسان دائما .. فما ان يراه قد أصلح قلبه .. وسلك الطريق المستقيم إلى ربه .. حتى يبدأ أقصى ما يستطيع من محاولات ليصده عن ذلك السبيل .. ويحاول أن يهوى به إلى الأرض كما كان .. فيشن عليه حرب التزيين .. تزيين الشهوات .. وتزيين الدنيا .. وتزيين اللذات .. ويشن عليه حرب الفتن .. فتنة المال ، وفتنة الولد ، وفتنة الزوج ، وفتنة النفس .. ويشن عليه حرب الشكوك .. الشك في امكانية الوصول .. والشك في امكانية الصعود وهكذا .. ليصده .. فاذا كان الانسان صادقا في ارادة الله .. انثنى الشيطان أمام ارادته .. ولم يستطع أن يثنيه عن رحلته وان كان به ضعف تغلب الشيطان على قلبه .. واستطاع ان يهوى به إلى الأرض قال تعالى . « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوى به الريح في مكان سحيق » .. اما عن المرحلة التالية .. فان الانسان اذا ما اجتاز هذه الفتن كلها .. وعجز الشيطان عن صده عن الارتفاع .. فقد دخل إلى منطقة الأمن .. واليك دليلها من كتاب الله ، ومن حوار ابراهيم نفسه مع قومه .. « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » وفي هذا المقام .. مقام الأمن يشعر الانسان بتمام الأمن .. فهو فوق الفتن .. ودون التسليم .. لا يستطيع الشيطان ان يصل اليه في تلك المنطقة .. قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » اى تسلط .. لماذا ؟ لأن الشيطان لا يستطيع ان يرتفع إلى تلك المنطقة لىياشر اضلاله للانسان .. ولا يدخل هذه المنطقة .. الا الذين تحقق منهم كامل العبودية .. وهم الموصوفون « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » .. لم يخلطوا ايمانهم بشرك ، أو كفر ، أو أى نوع من الظلم .. خلص ايمانهم بالله .. ولم يلتفتوا إلى ماسواه .. فاستطاعوا بذلك أن يرتفعوا إلى منطقة الأمن .. الأمن من الفتن .. ومن الشيطان .

ثم ماذا ؟ ثم يأتي دور مقام التسليم .. وهو يكون بعد اجتياز مقام الأمن .. ودليله :
« إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت » .

في هذا المقام يستوى عند الإنسان الخير والشر .. ويعلم أنها مجرد أداتي اختبار ..
« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فلا الخير مقصود لذاته ، ولا الشر مقصود لذاته ، وإنما هما
أداتا اختبار ليس إلا .. كالليل والنهار .. لا بد منهما ليتم حدوث الأيام .. « وتلك الأيام
نداولها بين الناس » فالأحداث تجري .. والمقادير تسرى .. لمجرد .. الفتنة .. الامتحان ..
ليس إلا .. والإنسان الذي ارتفع إلى ذلك المقام يستوى عنده وقوع الخير والشر به .. إن
أصابه خير شكر .. وإن أصابه شر صبر .. وهو هنا وهناك مأجور .. والإنسان في هذا المقام
يتحقق منه قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ..

ثم ماذا ؟ ثم مقام السلام .. ودليله قوله تعالى عموماً « وسلام على المرسلين » . وقوله
في إبراهيم خاصة « سلام على إبراهيم » . وهذا يدل على أن ذلك المقام لا يرتفع إليه إلا الأنبياء ..
لأنه فوق مقام التسليم .. ويدل كذلك على أن أقصى غايات البشر من غير الأنبياء أن يصلوا
إلى مقام التسليم .. أمام مقام السلام فذلك للأنبياء ..

ثم ماذا ؟ ثم مقام الخلقة .. ودليله قوله تعالى « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » وطبيعي أن
إبراهيم وصل إلى ذلك المقام بعد أن اجتاز كل المقامات التي قبله .. وهذا المقام وصله محمد صلى الله
عليه وسلم وهو في طريقه إلى مقامه .. ثم ماذا ؟ ثم مقام الحبيب .. وهو أعلى المقامات ..
وقد خص الله تعالى به محمداً صلى الله عليه وسلم .. قال تعالى . « قل إن كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله » فكل من أراد أن يظفر بحب الله ، فعليه أن يتبع محمداً صلى
الله عليه وسلم لأنه هو الحبيب !!

(تم)

فهرس

صفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٩	ذاك ابراهيم ؟
١٠	لماذا ابراهيم ؟
١٢	حياة ابراهيم ؟
١٢	ولد في العاصفة
١٣	آزر
١٣	أب يصنع الآلهة ، وابن يسخر من الآلهة ؟!
١٥	البحث في الملكوت
١٦	طفل يبحث عن ربه
١٧	هذا ربي
١٨	فلما رأى القمر
١٩	هذا ربي ... هذا أكبر
٢١	وكنابه عالين
٢٢	الفتى ... ابراهيم ... يبدأ المعركة
٢٢	اني وجهت وجهي
٢٤	الفتى ابراهيم ... يبدأ بأبيه
٢٥	يا أبت
٢٦	ابراهيم يعلن نبوته الى أبيه
٢٨	يا أبت .. لا تعبد الشيطان
٢٩	أخاف أن يمسك عذاب

الموضوع	صفحة
لأرجنك	٣٠
طرد ابراهيم	٣١
ابراهيم يفارق أباه	٣٢
فلما اعتز لهم .. وهبنا له ..	٣٣
ما هذه التماثيل	٣٥
فانهم عدو لي	٣٩
إلا رب العالمين	٤٤
الذي خلقتني	٤٥
فهو يهدين	٤٧
والذي هو يطعمني	٤٨
فهو يشفين	٥١
والذي يمتني	٥١
والذي أطمع أن يغفر لي	٥٢
هب لي حكماً	٥٣
والحقني بالصلحين	٥٤
واجعل لي آيات صدق	٥٤
واجعلني من ورثة جنة النعيم	٥٦
واغفر لأبي	٥٧
ولا تخزني	٥٧
يوم لا ينفع مال ولا بنون	٥٧
إلا من أتى الله بقلب سليم	٥٧
ولا أخاف ما تشركون به	٥٩
أولئك لهم الأمن	٦٢
نرفع درجات من نشاء	٦٣

الموضوع	صفحة
استمرار على الدعوة	٦٤
نفس الناموس	٦٦
وجعلها كلمة باقية	٦٧
لا كيدت أصنامكم	٦٨
ألا تأكلون	٧١
القبض على ابراهيم	٧٤
محاكمة علنية	٧٥
الطاغية .. يدعى الألوهية	٧٧
أأنت فعلت هذا	٨١
بل فعله كبيرم هذا	٨١
أتعبدون ما تمنعون	٨٤
الحكم .. بالاعدام حرقاً	٨٤
تنفيذ الحكم	٨٧
فألقوه في الجحيم	٨٨
أما اليك .. فلا	٩٠
ابراهيم .. ابراهيم	٩٠
آخر لحظة	٩١
يانار .. كوني	٩٢
أطيب أيامه	٩٣
نمروذ يشهد المعجزة بنفسه	٩٤
شهرة	٩٤
إيمان	٩٥
هل حققت المعجزة الكبرى هدفها	٩٥
الذين معه	٩٦

صفحة	الموضوع
١٠٣	لماذا .. مرتين
١٠٤	تكذيب عام
١٠٩	فأمن له لوط
١١١	سارة
١١٢	إني مهاجر إلى ربي
١١٦	أرني كيف تحيي الموتى
١١٩	ابراهيم .. في مصر
١١٩	بلاء .. الجبال
١٢٣	هذا .. الفرعون
١٢٣	وابتلى ابراهيم في صميم كيانه
١٢٦	عودة ابراهيم الى فلسطين
١٢٦	بطبل
١٢٦	على الكبر
١٢٧	اسماعيل
١٢٨	غلام حليم
١٢٩	من الاشجار
١٣٠	بداية النبوة والكتاب في ذرية ابراهيم
١٣٠	لماذا طلب ابراهيم الولد
١٣١	كيف كانت القصة
١٣٦	أعماق التجربة
١٣٧	الله .. الذي أمرك بهذا
١٣٩	اني اسكنت من ذريتي
١٤٤	عطشت .. وعطش ابنها
١٤٩	خلود ما فعلته أم اسماعيل

الـمـوـضـوع	الـصـفـحـة
كـيـف ظـهـر المـاء	١٥١
أنت الله لا بضيع أهله	١٥٥
أتأذنين لنا أن ننزل عندك	١٥٦
إني أرى اني أذبحك	١٥٩
ما هذا	١٦١
افعل ما تؤمر	١٦٣
فلما اسلمنا	١٦٦
وتلمه للجبين	١٦٧
وناديناه .. أنت .. يا ابراهيم	١٦٩
وقدیناه .. بذبح عظیم	١٧٠
وتركنا عليه في الآخريـن	١٧١
سلام على ابراهيم	١٧٢
لماذا كان هذا هو البلاء المبين	١٧٣
وبشرناه باسحاق	١٧٦
ووهبنا .. له ..	١٧٧
كيف كانت المفاجأة	١٨٠
يا ويلتي .. أألد وأنا عجوز	١٨٤
وهذا بعلي شيخاً ان هذا لشيء عجيب	١٨٧
فصكت وجهها	١٨٩
انت فيها لوطاً	١٩١
ماذا في سادوم	١٩١
انهم أناس يتطهرون	١٩٣
والا جاءت رسلنا لوطاً	١٩٤
وجاء أهل المدينة يستبشرون	١٩٧

صفحة	الموضوع
٢٠٠	ولوطاً .. آتيناه حكاماً وعلماء
٢٠١	أتأتون الذكران من العالمين
٢٠٢	لوط يصارع المجتمع الخبيث
٢٠٣	فكلاً أخذنا بذنبه
٢٠٤	إلا .. عجوزاً
٢٠٤	فحق عقاب
٢٠٤	فحق وعيد
٢٠٥	بيت واحد .. من المساكين
٢٠٥	والمؤتفكة أهوى
٢٠٥	فطمسنا أعينهم
٢٠٥	امرأة لوط
٢٠٦	كيف كانوا .. وكيف ذهبوا
٢٠٩	تحققت المعجزة .. وولدت سارة
٢١١	انا اخلصناهم
٢١٢	زواج اسماعيل
٢١٢	موح أم اسماعيل
٢١٣	لماذا طلق اسماعيل زوجته
٢١٦	في ظلال الزوجة الشاكرة
٢٢٠	شيخ .. احسن الناس وجهاً
٢٢١	فانها فلاح المنزل
٢٢٢	إن الله أمرني بأمر
٢٢٣	أول بيت .. وضع للناس
٢٢٦	اختيار مكان البيت
٢٢٨	واذن في الناس بالحج

الـمـوـضـوع	الـصـفـحـة
حنفاء لله	٢٣١
طهرا بيتي	٢٣٢
اجعل هذا بلدا آمنا	٢٣٤
ربنا .. تقبل منا	٢٣٥
واجعلنا .. مسلمين .. لك	٢٣٧
وابعث فيهم رسولا	٢٣٨
ابراهيم .. يطلب تحريم مكة	٢٤٠
عبد بيتك المحرم	٢٤١
ابراهيم .. يحدد حدود الحرم	٢٤٤
من الذي حرمها	٢٤٥
أو لم تمكن لهم حرماً آمناً	٢٤٥
رسول الله يعلن .. أن هذا البلد حرمه الله	٢٤٦
لماذا جعل الله الكعبة .. قياما للناس	٢٤٧
حيث ما كنتم .. فولوا وجوهكم شطره	٢٤٨
لماذا التجول إلى قبلة ابراهيم	٢٤٩
جميع مناسك الحج تخليدا لذكرى مواقف ابراهيم	٢٥٠
شخصية ابراهيم ؟	٢٥٥
فآتمن	٢٥٧
اني جاعلك للناس اماما	٢٦٠
لا ينال عهدي الظالمين	٢٦٣
ولقد اصطفيناه .. في الدنيا	٢٦٣
اسلم .. اسلمت	٢٦٥
ووصى بها ابراهيم بنيه	٢٦٧

الموضوع	صفحة
المشهد الرائع .. يعقوب يوصي بها أبناءه	٢٦٩
درجة ابراهيم	٢٧١
ابراهيم في عين اليقين	٢٧٢
نحن أحق بالشك من ابراهيم	٢٧٣
ولكن ليطمئن قلبي	٢٧٤
أثر التجربة في شخصيته	٢٧٦
ان الله .. اصطفى	٢٧٧
ما كان ابراهيم يهوديا . ولا نصرانيا	٢٨٢
حنيفا	٢٨٣
ومن اولى الناس بابراهيم	٢٨٣
لماذا يتنازعون ابراهيم	٢٨٤
الله .. يحكم في القضية	٢٨٥
امر لابراهيم .. ان يؤمن بمحمد	٢٨٧
امر الى محمد .. ان يؤمن بابراهيم	٢٨٩
ان ابراهيم لأواه	٢٩٢
حليم	٢٩٤
منيب	٢٩٤
اتم عليه نعمته	٢٩٤
رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت	٢٩٥
هل هو الشجرة الطيبة	٢٩٧
ان ابراهيم كان امة	٢٩٩
اجتبا .. وهداه .. وآتيناه	٣٠٠
أولئك .. الذين انعم الله عليهم	٣٠١
سجدا .. وبكيا	٣٠٢

الصفحة	الموضوع
٣٠٣	وكننا به عالمين
٣٠٤	وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا
٣٠٤	وأوصينا اليهم .. فعل الخيرات
٣٠٥	واقام الصلاة وايتاء الزكاة
٣٠٥	وكانوا لنا عابدين
٣٠٥	لا تشرك بي شيئا
٣٠٦	وطهر بيقي
٣٠٦	واذن في الناس بالحج
٣٠٧	أعداء ابراهيم
٣٠٧	ابراهيم يحدد أعداءه
٣٠٩	من أولي العزم
٣١٠	صادق
٣١٠	ويخشونه
٣١٣	مخلص
٣١٤	كذلك فنجزي المحسنين
٣١٤	أنه من عبادنا المؤمنين
٣١٥	ماذا يعلم عن الله
٣١٦	سبحان ربك .. عما يصفون
٣١٦	أولى الأيدي والأبصار
٣١٧	انا أخلصناهم
٣١٨	أشهر رجل
٣١٩	انهم عندنا
٣١٩	اولو العزم
٣٢٠	ابراهيم الذي وفي

صفحة	الموضوع
٣٢١	ملة ابراهيم أو الحنيفية ؟
٣٢٣	الله .. يعتبر الراغب عنها .. سفيها
٣٢٤	بل ملة ابراهيم
٣٢٦	دعوة عامة
٣٢٨	آخر بيات .. إلى البشر
٣٢٩	فسيكفيكم الله
٣٣٠	صبغة الله
٣٣٠	ونحن له مخلصون
٣٣١	أنهم أعلم أم الله
٣٣٢	كان حنيفا
٣٣٣	فاتبعوا ملة ابراهيم
٣٣٣	من أحسن الناس ديننا
٣٣٤	هذه هي ملة ابراهيم
٣٣٦	حياتي .. ومماتي .. لله
٣٣٨	يوسف .. يعلن .. اتباعه ملة ابراهيم
٣٣٩	ذلك الدين القيم
٣٣٩	اتبع ملة ابراهيم
٣٤٠	لماذا حنفاء لله
٣٤١	ملة أبيكم ابراهيم
٣٤٢	الحنيفية .. هي الفطرة
٣٤٦	ما هي ملة ابراهيم
٣٤٩	وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب
٣٥١	لا ينال عهدي الظالمين

صفحة	الموضوع
٣٥٤	لماذا اشعاع النبوات
٣٥٧	هل الرسل سواء
٣٥٨	هل نفرق بين أحد من رسله
٣٥٩	لماذا الاصطفاء
٣٦٠	وآتيناهم ملكا عظيما
٣٦٣	الكواكب التي تلالأت من الشجرة
٣٦٥	لو أشركوا .. لحبط عنهم .. ما كانوا يعملون
٣٦٩	أمر الى محمد .. أنت الله بريء من المشركين
٣٧٠	ويوسف يعلنها .. إلى المصريين
٣٧٠	وابراهيم .. يعلنها
٣٧١	عبادة .. حقاً
٣٧١	ومن ذرية ابراهيم
٣٧٢	لماذا جعل في ذريته النبوة والكتاب
٣٧٦	ومن ذريتها محسن .. وظالم
٣٧٧	وجعلها كلمة باقية في عقبه
٣٧٨	وكثير منهم .. فاسقون
٣٧٨	فكرة عامة .. عن شجرة الأنبياء
٣٧٩	الفرعات العظام
٣٨٠	فروع اسماعيل
٣٨١	فروع اسحاق
٣٨٢	يعقوب وأولاده .. الاثنى عشر
٣٨٣	عمران
٣٨٤	موسى وهارون
٣٨٦	ماذا كان من اسماعيل

الرقم	الموضوع	الصفحة
٣٨٧	اجابة جميع دعوات ابراهيم	
٣٩٠	اجعل هذا بلداً آمناً	
٣٩١	تقبل منا	
٣٩٢	اجعلنا مسلمين لك	
٣٩٢	ومن ذريتنا .. أمة .. مسلمة لك	
٣٩٣	أرنا منا سكننا	
٣٩٤	تب علينا	
٣٩٤	أبعث فيهم رسولا منهم	
٣٩٥	أرني كيف تحيي	
٣٩٦	يا ابراهيم .. اعرض عن هذا	
٣٩٧	رفض استغفار ابراهيم لأبيه	
٣٩٧	سأستغفر لك	
٣٩٧	واغفر لأبي	
٣٩٨	إلا قول ابراهيم لأبيه	
٣٩٩	رفض دعاء ثالث	
٣٩٩	فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم	
٤٠٠	اغفر لي ولوالدي	
٤٠٠	لا تخزني	
٤٠١	اني مهاجر الى ربي	
٤٠٢	هب لي من الصالحين	
٤٠٣	الا الذي فطرني	
٤٠٥	واتخذ الله ابراهيم خليلا	
٤١٢	المقام الذي كانت فيه .. ابراهيم .. ليلة المعراج	

صفحة	الموضوع
٤١٢	لماذا فاق محمد .. الرسل جميعاً
٤١٤	محمد ... يعلن بنفسه ... ان الله اتخذته خليلاً
٤١٥	اني حبيب الله
٤١٧	صحف ابراهيم وتشريعته ؟
٤٢٢	الدليل القاطع
٤٢٤	ماذا في صحف ابراهيم
٤٢٨	خلاصة ما في صحف ابراهيم
٤٣٣	ابراهيم وعالم اليوم ؟
٤٣٦	نداء الفطرة
٤٣٦	صوت الفطرة
٤٣٧	كيف الخلاص
٤٣٨	ابراهيم يفكر
٤٣٩	حتمية التفكير
٤٤٠	كيف الاتجاه الى الله
٤٤١	ابراهيم يحرر الانسان المعاصر
٤٤١	القلب السليم
٤٤٢	حدية الفكر
٤٤٢	اسقاط الكهنوتية
٤٤٥	قلب ابراهيم
٤٤٧	ماذا قال الله في قلبه
٤٤٨	القلب الذي سافر به ابراهيم
٤٤٩	كيف ذهب ابراهيم الى ربه

الـمـوـضـوع	صـفـحـة
كـيـف يـطـوي الزـمـان والمكان	٤٥١
كـيـف يـطـوي لك أنت الزمان والمكان	٤٥١
لماذا كان ابراهيم أشد الناس بلاء	٤٥٣
أحاسيس ابراهيم	٤٥٤
إلا ملة واحدة	٤٥٥
إلا من أتى الله بقلب سليم	٤٥٦
سنة محمد .. هي ملة ابراهيم	٤٥٦
أبي .. وخليلي .. وخلييل ربي	٤٥٧
من هنا .. نذهب	٤٥٨
خط سير الطائرة	٤٦٠
هبوط الطائرة أثناء الرحلة	٤٦١
فهرس	٤٦٥

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه عجائب .. وغرائب : « وجعلنا في ذريته النبوه
والكتاب » ...

فيه اشعاعات .. انوار .. مقامه .. مقام : « اذ قال له
ربه أسلم .. قال : أسلمت لرب العالمين » ..

فيه انطلاقات النور .. من مقامه .. مقام : « أني
اذبحك .. قال : يا أبت افعل ما تؤمر .. » !!

فيه .. تفصيل .. وتحليل ..

وفيه .. وفيه .. ولن تعلم ما فيه .. حتى تقرأ ما فيه ..